

رواية

خايبير بالينثويلا طنجريتنا

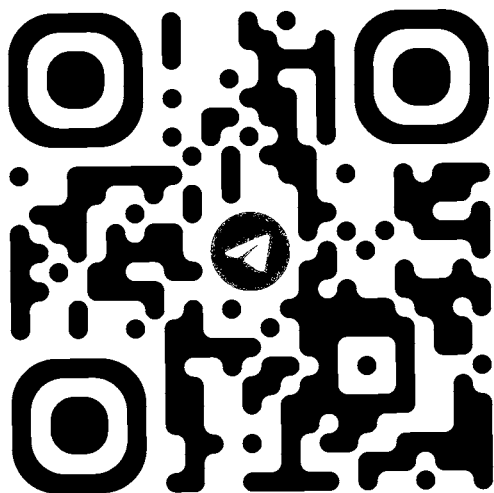
ترجمها عن الإسبانية: محمّد العربي غجو

مكتبة

المتوسط



طنجريتنا



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

2024 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © خابيير بالينثويلا 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

Tangerina by "Javier Valenzuela"

Copyright © 2015 by Javier Valenzuela

Arabic Translation Copyright © 2024 by Almutawassit Books

المؤلف: خابيير بالينثويلا / ترجمة: محمد العربي غجو

عنوان الكتاب: طنجرينا / الطبعة الأولى: 2024

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-052-7



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

خايبير بالينثويلا طنجرينا

ترجمها عن الإسبانية: محمّد العربي غجو

مكتبة

t.me/soramnqraa



المتوسط

سأل بول جين عن غيابها. - أين كنتِ؟ أجابته: - آه، كنتُ
في ذلك المكان، الذي كنتُ دائماً أخشى الذهاب إليه.
محمّد شكري: "بول بولز وعُزلة طُنْجَة"

بدأت النوارس تخترق المدينة بجرأة متزايدة، وها هي ذي قد وصلت فعلاً إلى شارع إنكلترا. تُحلّق فوق السطوح الآهلة باللاقطات الهوائية، وحبال الغسيل المليئة بالملابس الموضوعة للتجفيف. يبدو لي نعيها نذير شؤم، شأنها في ذلك شأن طيور هتشوك.

بعض الجيران لاحظوا ذلك أيضاً. يقولون إن هذه الوقاحة ناجمة عن يأس: النوارس لم تعد تجد السمك الذي تحتاجه في المياه المستنزفة للبوغاز، فتحوّلت إلى طيور حضرية تنّة. وبدأت، على بُعد كيلومترات من البحر، تتنافس مع الفئران والقطط على الفضلات الآدمية. هل كتب نوستراداموس Nostradamus تاريخ بداية هذا القرن الواحد والعشرين؟

طيور معدنية يقودها متعصبون، تُدمر أبراجاً أكثر ارتفاعاً من أبراج بابل. فيالق جنود ميكانيكيين يغزون دولاً رملية تنفيذاً لأوامر حمقى خارقين. لم يكن سهلاً التمييز بين الحكّام والمافيوين، بين المصرفيين وقطّاع الطُّرُق، بين القساوسة والمحققين. بكلّ الوقاحة المتجدّدة، فإن القانون دائماً هو قانون الغاب، وقانون الأقوى في الغاب، لكن، من المحتمل، ألا تكون هذه هي نهاية العالم، لعلّ الأمر يتعلّق فقط بنهاية عالمٍ مُعيّن. فالإنسانية نجت ممّا هو أسوأ، ونوستراداموس لم يكن سوى دجال. تركتُ الشُرْفة التي كنتُ أتأمّل عبرها غزوة النوارس مفتوحة،

ونزلتُ إلى الشارع. ما زال هناك جمالٌ يستحقُّ أن يُعاش، جمالُ هذه المدينة الواقعة بين بحرَيْن وقارَّتَيْن، ثمَّ جمالُ عِشق ليلي. يا لغرابة الحُبِّ! تظنُّ أنك انتهيتَ منه إلى الأبد، فيعود متجسِّداً في شخص آخر. الشارع - أعلم أيضاً - مَكْمَنُ خداع وخيانة وجريمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

طُنْجَة، ربيع 2002

- معذرة، هل يمكن أن تعيد اسمك على مسامعي؟

- الجديد، مُفَوِّض الشرطة؛ عبد اللطيف الجديد، من مطار ابن بطوطة.

بدأ جهاز الإنذار يشتغل، في الوقت الذي اقتحمت فيه أليسيا Alicia الفصل الذي كنتُ أقدم فيه حصّتي الصباحية، لتُخبرني أن هناك بمكتبها اتّصالاً هاتفياً يخصّني. الاتّصال من الشرطة، أضافت رئيستي. ونحن في طريقنا إلى مكتبها (مخدعها المقدّس).

- أوف! - قلتُ - لن يتعلّق الأمر سوى بأخبار سيّئة!

رفعت الإشارة إلى مُوظّف المطار صوتَ جهاز الإنذار عدّة ديسيبيلات (*). حاولتُ تخفيضها بسؤال روتيني آخر:

- السيّد المُفَوِّض، هل من خدمة؟

- هل تعرف ألبيروتو ماركينا Alberto Marquina؟

كان الجديد يتحدّث بإسبانية جيّدة، ونبرة حادّة قليلاً.

- نعم، بالطبع، ألبيروتو صديق جيّد. كان يقضى معي نهاية الأسبوع في طُنْجَة. أضحى جهاز الإنذار مُدوياً كسيّارة إطفاءٍ في طريقها إلى الحريق.

(* وحدة لقياس ارتفاع الصوت (المتروم).

- في هذا الوقت، يُفترض أن يكون مُستقلاً الطائفة للعودة إلى مَدْرِيْد. هل حدث له شيء؟

- كلاً، لم يحدث له شيء، لكن، أخاف، يا سيّد سيولبيدا Sepúlveda، أن يكون صديقك قد أوقع نفسه في مشكلة حقيقية.

بدأ ذلك الاثنَيْنُ الربيعيُّ على نحو متفائل. كانت الشمس تبسُط أشعّتها في سماء شَمال أفريقيا. كان الضوء واضحاً وقوياً ومُبهِجاً كساقية جبلية. ريحٌ غربية خفيفة كانت تُوَرِّج رؤوس أشجار النخيل. وكانت المدينة متّشحة بألوان زهور الجاكرندا البنفسجية، والميموزا الصفراء والكرّكديه الأحمر. كان يوماً من تلك الأيام التي تستحقُّ أن تُعاش. أضف إلى هذا أنني قُمتُ للتوّ بدحض فكرة ترومان كابوتي Truman Capote الذي كتب أن الزمن في طَنْجَة يمرُّ "كما لو كان في دَيْر، كتوماً ومُنْتَعِلاً نعلٍ صندلٍ". كان الأمر صحيحاً جداً، فانبطاعي الشخصي هو أن الأيام تعطي هنا أحسن ما لديها، لكن كابوتي نبّه أيضاً إلى أنه قبل المجيء إلى طَنْجَة، من الأنسب لك أن تودّع أصدقاءك "فالله وحده يعلمُ إن كنتَ ستمكّن من رؤيتهم مجدداً".

لم يكن هذا صحيحاً في حالتي أنا؛ لقد عدتُ للتوّ من رؤية أفضل وأقدم صديق لي. زيارة ألبيرتو ماركينا - التي كانت أوّل زيارة له إلى طَنْجَة - مرّت بشكل رائع. ضَحِكُنَا المشتركُ ضمّدَ لديّ جراحاتٍ كانت مفتوحة في الآونة الأخيرة التي قضيتها في مَدْرِيْد. عدم اتّفاقنا حول المسار الذي كان يمضي فيه العالم، أعاد إلينا، ربّما، ما أمكن اعتباره مفتاح علاقتنا؛ كان عزمه وطموحه المتعارض مع واقعيتي وارتياحي، شبيها بتعارض النور مع الظلمة.

حدّثتُ ألبيرتو عن ليلي. وقد انتصر بحرارة لقصة الحبّ التي كنتُ بصدد نسجها مع طالبتي المغربية. لكن مكالمة الجديدي ألقت بظلالها على ذلك

كله. كان المفوض الشرطة أكثر شباباً ممّا تصوّرت؛ لا بدّ أن سنّه تقلّ عن الأربعين. كان شعّره قصيراً جدّاً، مُجعدّاً وأسود على شاكلة مواطني بلده. كان وجهه نحيفاً وبرونزياً وحليقاً، وجسمه مشدوداً وصغيراً ورياضياً، بعكس صورة الملك محمّد السادس الرسمية التي كانت وراء ظهّره، والتي كانت تعكس استدارة في الوجه ونعومة. كان الجديد يحمّل في عروة ثنيّة بذلته الشارة الحمراء والبيضاء لفريق أتلتيك تطوان لكرة القدم.

نهض من المقعد الذي كان يشغله خلف طاولة مكتبه المعدني المغطّى بالمجلّدات والملفات المصفوفة بطريقة محكمة. حيّاني بحركة من رأسه، وهمهم - بالدارجة - مُودّعاً الشرطيّ ذا الزيّ الرسمي الذي رافقني حتّى مخدّعه بالمطار.

دلّني الجديد بحركة من يده اليسرى على كرسيّ بلاستيكيّ، وعاد للجلوس، فيما أغلق الشرطي الباب عند الخروج. شرطيّو العالم جميعهم لا يمكنهم كبتُ اندفاعهم - عند الشروع في محادثة رسمية - بأن يطالبوك بوثيقة هويّتك، ويقوموا بتفحّصها، كما لو كانوا سيجدون بها أدلّة غير قابلة للدحض على مشاركتك في هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

لم يُعفنيّ الجديد من هذا الإجراء، فبعد أن تفحّص بعناية جواز سفري، نطق بما بدا لي مشحوناً بنغمة عدائية:

- أنتَ إذن من مواليد طُنجة، يا سيّد سيبولبيدا.

- أجل - أجبتُ - أبواي عاشا هنا في نهاية العهد الدولي، بعد ذلك أخذاني إلى مدرّيد. ما الغرابة في هذا؟

لم يُجب، فحمدتُ الله أنه لم يُعد على مسامعي لازمة أنه هو مَنْ يطرح الأسئلة ولستُ أنا، وتابع بملاحظة أخرى وكأنه هذه المرّة يريد التشديد على أمر ذي دلالة:

- صديقك السيد ماركينا، هل وُلد هو الآخر بطَنْجَة؟

- بنحو سَتَيْنِ قَبْلِي. أبواه كذلك عاشا هنا أواسط القرن المنصرم.
كانا صديقَيْن لأبَوَيَّ، ومن هنا نشأت علاقتنا، فقد بدأت منذ كُنَّا صغاراً،
واستمرَّت في مَدْرِيد.

عند هذا الحدُّ اخترتُ التوقُّفَ عن الكلام.

- هل تأتي إلى هذه المدينة بصفة منتظمة؟

- لم أعد إليها ولو مرَّةً واحدة منذ كنتُ طفلاً، وذلك إلى غاية سبتمبر
الماضي، حيث التحقْتُ أستاذاً بمعهد ثيربانتيس. وهو المكان الذي
هاثَفْتَنِي فيه.

- وصديقك؟

- صديقي ماذا؟

- هل يأتي كثيراً هنا؟

- قبل نهاية هذا الأسبوع، قد يكون أتى سائحاً، مرَّةً أو مرَّتين بحسب
علمي. طيِّب - أضفتُ دون أن أخفي انزعاجي - قل لي ماذا حدث له؟
هل ستخبرني بسرعة؟

دَقَّ الجديدي بأصابع يده اليسرى فوق المِلَفِّ، حدَّق في عينيَّ:

- صديقك، يا سيِّد سيبولبيدا، متَّهم باعتداء جنسيٍّ على عاملة غرفة
femme de chambre بفندق المِنْزَة. الفتاة دخلت إلى غرفته لكي تأخذ
صينية الإفطار. حدث ذلك في الساعات الأولى من هذا الصباح، قبل أن
يندفع مُسرِعاً نحو هذا المطار.

- ماذا؟

دهشتي كانت عظيمة.

- كما سمعت، الفتاة حكّت لرئيستها عن الاعتداء. رئيسُها أخبرت إدارة الفندق، وإدارة الفندق أعلمتنا. لقد فاجأنا صديقك وهو يستعدُّ للصعود إلى الطائرة.

ثمّ أنهى كلامه برزانة، بعد أن ارتاح قليلاً:

- نحن كذلك - خلاف ما تظنّون، أنتم الأوروبيون - نتعاطى بجدّيّة تامّة مع مثل هذه الأمور!

تأخّرتُ في الجواب، إذ جفّ فمي كملاءة سريرٍ مُدّت تحت أشعة شمس أغسطس. بحثتُ بعينيّ عن كأسٍ أو قنينة ماء على مكتب المفوّض، فلم أجدهما. بحثتُ عن منقّضة سجائر، فلم أجدها أيضاً.

- هل أضايقك إن دَخَنْتُ؟ سألتُ أخيراً، ساحباً من جيب سترتي علبة مارلبورو.

- في الحقيقة، نعم. أجاب الجديد، وقد بدا لي وكأنّ ابتسامته ارتسمت على وجهه.

- في المغرب يمكنك التدخين في أيّ مكان، لكنني أحاول أن أبقي نفسي في حالة جيّدة.

أعدتُ العلبة إلى جيبِي، وقلتُ بنبرة حادّة:

- أرجوك، سيّدي المفوّض، لا تُدرجني ضمن خانة مَنْ لديهم رؤية استعمارية لهذا البلد. لكنّ ما تقوله عن ألبيرتو شيء خطير، سواء كان هنا، أو في أيّ مكان آخر. ولا شكّ عندي أن هناك أشخاصاً قادرين على فعل ذلك، عدا ألبيرتو. هذه التهمة سخافة كبرى. ألبيرتو لا يحتاج لكي يُشبع رغباته الجنسية أن يقفز على نادلة فندق.

- قد تستغرب، سيّد سيبولبيدا، لدى اكتشافك الرغبات السريّة لأشخاص تعتقد أنك تعرفهم جيّداً. لا يمكنك تصوّر ما نعثر عليه بالحقائب في هذا المطار.

- أنتَ مخطئ، يمكنني تصوّر الأسوأ، فلديّ أربعة عقود كمُدّة إقامة على هذا الكوكب، وقد أذهب معك إلى حدود القبول بأن لأليبرتو استيهاماته السريّة، كما هو الحال بالنسبة إلينا جميعاً، لكن، لا يمكنني القبول بما تتّهمونه به.

- أنا لا أتهمه بشيء، فقط أقف عند حدود إتمام إجراءات الشكاية، بينما أراك - في المقابل - واثقاً من معرفة صديقك معرفة جيّدة.

- لا أحد واثق من أيّ شيء، عدا هؤلاء الحمقى الذين - على ما يبدو - يريدون العودة بنا إلى زمن الجهاد والحروب الصليبية.

أحدّ ما طرق الباب برؤوس أصابعه.

أجاب الجديد بصوت جهير: "تفضّل".

فدخل الغرفة شرطيّ مختلف عن ذاك الذي رافقني. اقترب من المفوّض، وهمس له بشيء في أذنه. هزّ الجديد رأسه موافقاً، ووشوش للرجل بكلمات، فانسحب الشرطي تاركاً خلفه رائحة عطر قوية من زيت أركان.

- يجب أن ننتهي الآن - قال الجديد - فالقنصل الإسباني الذي قمنا بإخباره كما تقتضي الأصول، قد وصل للتوّ، ولا ينبغي أن تأخّر في مقابلته. أمّا عن استدعائي لك أنتَ أيضاً، فسببه أن السيّد ماركينا، ذكرك بالاسم ساعة إلقاء القبض عليه. وبناء عليه، عليك أن تقول لي لماذا أتى صديقك إلى المغرب؟

حاولتُ تعديل جلستي على الكرسي البلاستيكي. كانت المهمة

مستحيلة، رحتُ أعبثُ بالإسورة الجُلدية التي أهدتنيها ليلي في أوّل جولة لنا بالمدينة. كنتُ أضعها في يدي تميمةً لولادةِ شخصيّةٍ جديدةٍ. تنحنحتُ، كأن فمي وحنجرتيّ كانا مكسوّين بورق زجاج. بهذه الطريقة ربحثُ بضع ثوانٍ لأفكّر في الجواب حتّى لا يُستعملَ ما أتلفظُ به ضدّ ألبيرتو. كان المفوّض ينظر إليّ بعينيّن شبيهتيّن بعينيّ بومة.

- أمضى ألبيرتو الأيام الأولى من الأسبوع الماضي بالدار البيضاء يُنجز معاملاته التجارية. لا بدّ أنك تعلم أنه من كبار المديرين التنفيذيّين لشركة الهاتف الإسبانية. وقد انتهز فرصة سفره، لكي نرى بعضنا في طنجة لأول مرة منذ طفولتنا. نزل بالمنزلة، لأنه سيكون مرتاحاً أكثر ممّا لو نزل في بيتي الصغير الغارق في الفوضى.

مكتبة - هكذا إذن! هزّ الجديدي رأسه مُوافقاً.

t.me/soramnqraa

- وماذا فعلتُم في نهاية الأسبوع؟

- لا شيء مميّز، حاولنا البحث عن المنازل التي كان كلّ واحد منّا يسكنها حين كنّا أطفالاً، وتجوّلنا بأحياء المدينة و"القُصبة"، وتناولنا بعض أسماك "سلطان إبراهيم" salmonete بمطعم "الدورادو" El Dorado وتكلّمنا في كلّ شيء، سواء كان إلهياً أو بشرياً.

- وهل وجدتموها؟

- ماذا وجدنا؟ سألتُ مذهولاً.

- منازل الطفولة، لقد قلتُ للتوّ بأنكما كنتما تبحثان عنها.

- آه، لا، لم نجدها، فقد قاموا هنا بتعريب أسماء أحياء العهد الدولي كلّها تقريباً. لكن، في الحقيقة لم نبذل في الموضوع كثيراً من الجهد، فكلانا لا يحبُّ النوستالجيا.

- شريئما؟ تعاطيئما مُخدِّرات؟

بدل أن أستجيب لصرخات جسدي الذي كان يستحثني لأسحب سيجارة وأشعلها، ابتسمتُ مُتهكِّماً.

- طبعاً شربنا، شربنا الماء والكثير من الشاي المنعَّع، وبعض زجاجات نبيذ سببسيال كوكياج Gris Spécial Coquillages و غريس بولوان Gris de Boulaouan خلال الليل. كان من نصيب صديقي أيضاً، قِئِنَّة جن تونيك gin-tonic، وكان من نصيبي أنا شراب روم. هكذا نحن الأوروبيون كما تعلم. لكني أظنُّ أنه كان بإمكاننا في أيِّ لحظة اجتياز اختبار كحول غير صارم.

- ذلك واضح، هل تعاطيئم مُخدِّرات؟

- إذا كنتَ تُسمِّي "غليون كيف" عند غروب الشمس بمقهى "الحافَّة" مُخدِّرات، فأني نعم، تعاطينا مُخدِّرات مساء البارحة.

- آه، مقهى الحافَّة! قالها الجديدي بنبرة حالمة أدهشَّتني.

- أتمم الأوروبيون يُعجبكم تأملُ قارَّتكم انطلاقاً من قارَّتنا، وليس هناك أفضل من ذلك المكان الرائع للقيام بذلك.

- هنا، أنتَ مُحقُّ، سيَّدي المُفَوِّض! كذلك يُعجبنا النظر إلى أنفسنا من الداخل في هذه الجهة من البوغاز. لذلك يأتي إلى هنا كثير من الكُتَّاب الأوروبيين، وعادة ما أتحدَّث عن هذا في حصصي الدراسية بشيرباتيس.

- أن تنظر إلى داخلِك، أمر أكثر صعوبة من النظر إلى الآخرين. لكن، للأسف سيتعيَّن علينا تأجيل هذا الموضوع المثير لمرَّة أخرى. بضعُ أسئلة أخرى وسأتركك تعود لدروسك! قال، وهو ينقر بأصابعه من جديد:

- هل تعلم إن كان حدث للسيد ماركينا سابقاً أمرٌ من هذا القبيل؟
شكايةٌ ما من أجل تحرُّش جنسي؟

- بحسب علمي لا. شخصياً، يراودني شكٌ كبير في هذا كلّهُ. رجلٌ جذابٌ وناجحٌ في علاقاته مع النساء، لا يحتاج إلى مُهاجمتهنَّ بعنف، بكلِّ تأكيد.

- هذا ما تقوله أنتَ، في الأحوال كلّها، سوف نرى. كيف تركته ليلة أمس؟

- في حالة جيّدة. بعد احتساء بضع كؤوس في حانة المنزّه، تعانقنا عناق الوداع برْدَهة الفندق. كان عليه هذا الصباح أن يستقلَّ طائرة العودة إلى مَدرِند، وكان عليّ أن أستأنف حصصي الدراسية.

- واخا، Uaja (نعم) سيّد سيبوليدا، يمكنك الانسحاب. سأعيد الاتصال بك إذا ما احتجتُ ذلك. نهض الجديد مُتَّجهاً نحو الباب، داعياً إيّاي أن أتبعه.

- إذا كان لديك هاتفٌ نقّالٌ، دَعْ رَقْمه لدى الشرطي الذي سيرافقك إلى الخارج. توقّفتُ مُتخسّباً عند عضادة الباب.

- أريد رؤية البيرتو.

- لن يكون هذا ممكناً اليوم. السيّد ماركيئا مُحْتَجَزٌ بزنازين المطار، على ذمّة التحقيق. الزيارة الوحيدة المُرخّص له بها الآن، هي زيارة القنصل. لكنني سأقول له بأنك كنتَ هنا.

- قُمْ بهذا المعروف، رجاءً.

- سأفعل (قالها بصوتٍ لا تعبير فيه).

- طاب يومك (بسلامة Bislama).

في قاعة الجلوس المحاذية لمخدع المُفَوّض الجديد، جلس هناك خمسيني مرتدياً بذلةً تَبْغِيّة اللون، مُنتظراً دَوْره. كان وجهه مُلَوّناً ببقع

الشمس وأثار السنين. كان شَعْرُه الذهبي الخفيف المُجَعَّد يتجاوز قَفَاه. أَمَّا حِذَاؤُه الجُلْدِيُّ البُنِّيُّ، فكان يلمع كحَرَّة بندقية في عرض عسكري للقَوَّات المُسلَّحة. وتنبعث منه رائحة كولونيا، أو رائحة مُرطَّب ما بعد الحِلَاقَة أو كلاهما معاً. لم نكن نعرف بعضنا بعضاً، فاكتفينا بتبادل التحية بحركاتِ رأسٍ مُتحَفِّظة.

دفعني الشرطيُّ الذي كان يرافقه باتِّجاه الباب، فيما سارع الجديد بمَدِّ يده نحو ممثِّل الدولة الإسبانية. سمعتُ المُفَوَّض يُحيِّيه بحرارة:

- صباح الخير، سيِّدي القنصل (*Bonjour, monsieur le consul*).

تساءلتُ لماذا ينطقها بالفرنسية؟

في الساحة الخارجية للمطار، لفحتُ عينيَّ سِياطِ ضوء شَمَال أفريقيا. تذكَّرتُ دولاكروا Delacroix، الذي كان مُقيماً بطنْجَة، وتذكَّرتُ خوفه، لاعتقاده بأن لمعان الجدران المصبوغة بالبياض ربَّما يصيبه بالعمى. فقمْتُ بوضع النظَّارة الشمسية على عينيَّ.

كان عليَّ أن أُهاتف أليسيا لأُقَدِّم لها تفسيراً، وكان عليَّ أن أُهاتف ليلي لأُحكي لها عمَّا حدث، كما كان عليَّ أن أفعل شيئاً من أجل ألبيرتو، أيَّ شيء. ومع ذلك استسلمتُ لنوع من القائد الأوتوماتيكي الداخلي.

دخلتُ سيَّارة أُجرة كبيرة *Un grand taxi* من نوع "مرسيدس" Mercedes، قديمة بلون قهوةٍ مع الحليب، أشعلتُ سيجارةً دون أن أطلب الإذن، بينما لم يبدُ على السائق أنه قد انزعج. قلتُ:

- هيَّا بنا إلى المدينة، إلى فندق ريتز Ritz.

في مثل هذه الساعة لا بدُّ أن شكري يتناول وجبة غَدائه.

لم يكن فندق "ريتز" يشبه الفندق الذي يحمل الاسم نفسه في مَدْرِيْد أو باريس. لم يكن ضخماً ولا فاخراً ولا فاتناً. ميرتُه الأساسية تكمن في كونه يقع في قلب المدينة الأوروبية، في شارع متعامد مع بولفار باستور. كان قريباً من مسكن محمّد شكري بشارع تولستوي، ومتناسباً مع دُخله.

كان شكري الزبون الوحيد الموجود في غرفة الطعام لحظة دخولي هناك. اتّخذ لنفسه مائدة في الزاوية الأكثر ظلاً، تعودّ أن يُسمّيها مكتبه، ويضرب فيها مواعيده مع الناس. رفع عينه عن طبق سلطّة الموز الذي كان مُنكبّاً عليه بتركيز شديد، كما لو كان تلميذاً مُجدداً أمام واجبه المدرسي. استطاع التعرفُ عليّ رغم الإضاءة الخلفية.

- يا رجل! - صاح مندهشاً - ها قد أتى ابن المرأة التي ما عرفتُ طُنْجَة مثيلاً لجمالها!

وكانت هذه هي التحية التي يحتفظ بها لي منذ تعرّفنا قبل أشهر قليلة، بُعيد التحاقني بمعهد ثيرباتيس.

كان شكري، خلال لقائنا الأوّل، قد حكى لي أنه التقى بأبويّ في طُنْجَة، في النصف الثاني من الخمسينيات. في المرّة الأولى باع لأبي سجائر أمام بَوَابَة مسرح ثيرباتيس: كان مرفوقاً بسمراء شديدة الجمال وأنيقة. سيعرف شكري، فيما بعد، أنهما الصحافي كارلوس سيبوليدا Carlos Sepúlveda وزوجته أوليبدو Olvido، حين التقى بهما في حانة نيغريسكو Negresco.

في ذلك الوقت - الذي كان فيه شكري يفتش في القمامة بحثاً عن عظام دجاج - تعلّم القراءة والكتابة، وتحت رعاية بول بولز Paul Bowles بدأ يحلم بأن يصبح روائياً. كانت هذه هي الطريقة التي اختارها لكيلا يعبر من الحياة مثلما يعبر ظلّ نحلة. جلستُ إلى جانبه، ولاحظتُ أنني بدل أن أُجيب على تحيته بابتسامتي المتواطئة المعهودة، فعلتُ ذلك بتكشيرة امتعاض.

- ماذا يحدث، يا رجل؟ ألم يعد يُعجبكَ أن أغازل أولبيدو التي لا تُنسى!

- لستُ في مزاج جيّد، يا أخي!

هرّ كَتَفِيهِ لامبالياً، كما لو كان يعتذر، وفسح المجال لي، لكي أوضح له الأمر، فعلتُ ذلك دون أدنى تأخير.

- ألبيرتو صديق طفولتي الذي حدّثكَ عنه، والذي جاء لزيارتي في نهاية الأسبوع، هو الآن قيد الحجز في المطار. يتّهمونه بمحاولة هتك عرض نادلة بالمنزّه.

- اللعنة، الموضوع في غاية السوء! صاح مندهشاً وهو يتراجع بكرسيّه إلى الورا. الريفّي الأمّي الذي كان يبيع السجائر لأبي أمام بوّابة مسرح ثيربانتيس، انتهى مؤلفاً لكتاب "الخبز الحافي" تحفة الأدب المغربي التي لاحقّتها اللعنة.

في ذلك الوقت كان في السّتينيات من عُمره، وما يزال شَعْرهُ مُجَعّداً وغزيراً وأَسَدِيّاً، رغم أن سواده القديم بدا مُتَبَلّاً بِحَفَنَات ملح. كان وجهه حادّاً وكيوخوتياً بِنْدَبَةٍ تخترق جبهة عريضة، وشارباً بأطراف مُتدلّية، تُلاعِب أنفاً صَقْرِيّاً. رمقني بعينيّه الصغيرتين الحيتّين المتألّمتين.

- سوف نشرب شيئاً ماً، بينما تحكي لي عن كلّ شيء. قال شكري، وعبرَ - بشكل فجائي - من الإسبانية إلى الدارجة، ليخاطب النادل الذي

ظهر داخل المطعم في هيئة مَنْ يستعدُّ للخدمة، هيئة لا تتَّفَق والبقع التي تُلَطِّخ سترته، والمنديل المتَّسخ الذي يحمله مَطْوِيًّا فوق مِعْصَمِهِ الأيمن.

طلب شكري من النادل - بالإسبانية هذه المرَّة - زجاجة نبيذ من أجود ما لديه. فهمه النادل على نحو تامٍّ، ولم يتأخَّر في القدوم حاملاً بين يديه زجاجة ميدايون Médaillon وزجاجة كابرنيه cabernet من منطقة أولاد طالب.

وفيما كنَّا ننتهي من النبيذ الأحمر المغربي، حكيتُ لشكري عن طوافي الصباحي: عن اتِّصال المفوَّض الجديد بمكتب أليسيا، بمعهد ثيرباتيس. عن مقابلي له بالمطار، والانطباع الذي تركه عندي باعتباره شخصاً ذكياً ومخلصاً في عمله، والتهمة المخيفة التي تُثَقِّل كاهل ألبرتو، ودخول قنصل إسبانيا اللامع مسرح الأحداث.

- وبعد ذلك أتيتُ إلى هنا. قلتُ مُنهيأً كلامي، ومُلْتَقِطاً بشوكتي قِطْعاً من صحن سَلْطَة موز شكري الغارقة في شراب البايليز Baileys الكحولي.

قطع شكري الصمت بسؤال غير مُتَوَقَّع:

- هل حكيتَ هذا لصديقتك؟

- دسستُ يدي في جيبِي الداخلي، وسحبتُ هاتف نوكيا Nokia لأجد خمس اتِّصالات هاتفية ضائعة، ثلاثة لأليسيا واثنان ليلي. لم تكن التغطية الهاتفية مُنْتَظَمة في الفترات الأولى للهاتف الجوّال المغربي.

- أستطيع أن أقسم إن الاتِّصالات الخمس بجهازي الهاتفي القديم لم يكن لها أيُّ رنين.

قلتُ وقد اجتاحتني موجةٌ من عدم الارتياح.

- أنا الآن في وضع سيِّئ! لا بدَّ أن أليسيا وليلى قلقتان، فيُفْتَرَضُ بالهاتف الجوّال أن يُسَرَّ الاتِّصال بالشخص في أيِّ ساعة من الليل أو النهار، وإذا لم يُجِبْ، فإن الآخرين يشعرون بالقلق.

- كَلَّمُهُمَا، يَا رَجُل، كَلَّمُهُمَا!

لمعت عيناه الصغيرتان كجمرتين استيقظتا في نار ميتة داخل مدفأة.

- انتبه، يا هذا! أخس ما يمكن لرجل أن يقوم به، هو تعذيب امرأة. كان شكري مُحَقَّقًا، لكن ذلك المكان بـ فندق ريتز، كان أسوأ مكان من حيث التغطية الهاتفية. لذلك خرجتُ إلى الشارع واتَّصلتُ بالهاتف الخلوي لأليسيا. وبصوت كان مزيجاً من الارتياح والمزاح، سمعتها تقول:

- حسناً فعلتَ بالاتصال الآن، لقد بدأتُ أظنُّ أنهم اعتقلوك.

- لم يعتقلوني أنا، بل اعتقلوا صديقي ألبيرتو، إن المسألة على درجة كبيرة من القذارة. بعد حين أكون في ثيرباتيس، وأحكي لكِ عن كلِّ شيء.

- واخا، سيولبيدا، لكن، قل لي: ماذا سنفعل بخصوص حصَّتكِ الدراسية لهذا المساء؟ هل ستُقدِّمها أم لا؟

- بالطبع، سأقدِّمها، نصف ساعة وأكون هناك. كنتُ بالفعل خسيساً، لم أتَّصل بليلي، لقد ثقلَ عليَّ الأمر، فهي، بخلاف أليسيا، لن تكتفي بعنوان رئيس مُختصر. كانت أصغر بعشرين سنة من مديرة ثيرباتيس، وأصغر بعشرين سنة من حيث قلَّة صبرها. كان مُفاجئاً بالنسبة إليَّ أن تُجامل ليلي أربعينياً مثلي، مُطلقاً ولديه بنت. أستاذُ اللُّغة والأدب الإسبانيِّين، له بعضُ من حرفة، لكنه دون فائدة تُذكر.

لا، ليلي لن تقنع بأقلَّ من شرح طويل. سوف أراها في حصَّتي المسائية، وستتفق على الحديث لاحقاً.

- هل قمتَ بالمهمَّة؟ سألني شكري وأنا أعود إلى داخل فندق ريتز. كان يقرأ بعض الأوراق، فدرس النظارة الطَّبَّية داخل كيس، أعاده إلى الجيب الخارجي لسترته القطنية.

قلتُ كاذباً نصف كذبة، وأنا أعود للجلوس من جديد إلى طاولته:

- نعم، قمتُ بها.

نادل السترة والمنديل المُتسخين وضع أمام شكري، وبطريقة احتفالية، كأساً بلا لون مملوءاً بسائل أبيض.

- ما هذا الذي بالكأس؟ سألتُ.

- ما عساها تكون، يا رجل؟ إنها الفودكا. هل تريد واحدة؟

- مستحيل!

لم تكن الفودكا تُعجبني، ومع النبيذ الأحمر لأولاد طالب كنتُ قد استهلكْتُ ما يكفي من الكحول.

لاحظتُ أنني لم أكل شيئاً منذ تناولي هَلَالِيَّةَ croissant وجبة الفطور، باستثناء حلوى شكري، إلى ما بعد وجبة الغداء التي كانت شرائح موز مغموسة في شراب البايليز.

لم تكن المرة الأولى التي أتخطى فيها وجبة الغداء.

- أراك تسترخي، يا سيولبيد!

- قد يكون ذلك صحيحاً - قلتُ مُوافقاً - لكن، كيف تبدو لك الورطة التي يوجد فيها ألبيرتو؟

- العالم أصبح مجنوناً - أجاب شكري مُتجهماً - تعلم بأن الجهاديين قد هددوني بالقتل. نعم، بالتأكيد، أنا داعر وسكّير ومُجدّف، وعارٌ على المغرب وعلى الإسلام، بل أفضع من سلمان رشدي. لكن، إذا قصدني أحد هؤلاء الحمقى سأُنحّيه بسكّيني. قال ذلك، وهو يلمس الحرمة التي ارتسم شكلها بالجزء الأيسر لسترته القطنية. وهي الحركة التي رأيتُه يقوم بها سابقاً عدّة مرّات. كانت المرة الأولى التي أضحكُ فيها خلال الساعات الأخيرة.

- بدأت الألفية الثالثة على نحو سيئ. هذا ممّا لا جدال فيه - قلتُ
- ابن لادن أفسد حياتنا بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وها هو بوش يُفسدها بما يحدث في أفغانستان، ويقولون إنه يحاول إشعالها في العراق.
- سيفعلها بالتأكيد، فهو بليد. بينما نحن في الوسط، نتلقّى الضربات
من هذه الجهة وتلك، لكنني لن أغادر هذا العالم، دون أن أنحّي من
الوجود الجهاديّ الذي سوف يستهدفني. أنا عنيد ومن برج الحَمَل، ونحن
- أصحاب هذا البرج - نعلم أن الذئب سيأكلنا في نهاية الحكاية، لكننا
قبل ذلك سنُوجّه له بضع نطحات.

سحبتُ من جيبي علبة "مارلبورو"، تناولتُ سيجارة، وقَدِّمتُ أخرى
لشكري. كان من عادته أن يُدخّن تبغاً مغريباً أسود، ماركة أولمبيك
Olympic، لكنه قَبْلَ السيجارة الشقراء الأمريكية، وقام بإشعالها. دَخْنَا
في صمت لبضع دقائق، وَعَنَّ لي أن أسأله عن نوع السجائر التي كان
يبيعها لأبي منذ عقود بباب المسرح.

- كنتُ أبيع آنذاك، دانهيل Dunhill، أفضل أنواع السجائر الإنكليزية
- أجاب بدون تردّد - كما كنتُ أنظّف الأحذية وأحصل على الكيف، وإذا
كان ضرورياً كنتُ أوظّف عضوي، أمّا مؤخّرتي فلا، أبداً..!

- أعرف، أعرف، فقط كنتُ أودُّ معرفة نوع السجائر التي كان يُدخّنُها
أبي هنا!

- أفضلُها، كبقية الأوروبيين والأمريكيين. أفضل أنواع السجائر، وأفضل
أنواع الكيف وأفضل أنواع الحشيش، وأفضل أنواع السجائر الكويتية،
وأفضل الفتيات وأفضل الفتيان. هكذا كانت الحياة الكولونيالية التي
كانوا يعيشونها. ونحن المغاربة كنّا دائماً في خدمتهم.

- أتخيّل ذلك، يا أخي، فحين يكون من نصيبك الجزء الأطيب من الخبز

المُحَمَّص، فلن تقبل بأن ينقلب إلى الجهة الأخرى. لكنني كنتُ صغيراً جداً ولا أتذكر كل شيء.

- إذا كان من شيء مفيد أتى به الاستعمار، فهو إتيانه بأُمِّكَ. قَبِلْتُ مُزحته هذه المرَّة:

- مقبولة منك أنت، إن كنت أنتَ قائلها!

لم يدخل أحد مطعم ريتز في الوقت الذي كنتُ موجوداً به، حتَّى ضوضاء المدينة منعتهأ أنغام نجمة الغناء المصري أُمِّ كلثوم، التي جعل الفندق منها خلفيَّته الموسيقية.

لكن نظرة شكري انزلت نحو باب المطبخ. تبعْتُ النظرة، فبرز بمَقْصِل الباب قطُّ لامع مُتَنَمِّر. توقَّف لِلْحِظَّة، ورمقنا بنظرة لامبالية، ثمَّ استأنف سيره الصامت، وانتهى صاعداً إلى أريكة، ليلحسَ سيقانه.

- لا تُعْجِبني القِطط، ولكنني أُحِبُّ - من بعيد - خِيَلَاءها.

عاد شكري يقول مُتفلسِفاً.

سألته مجدداً، بعد أن سحبتُ نَفْساً طويلاً من سيجارتي:

- هل لديك فكرة عن نوع المآزق الذي وقع فيه صديقي ألبيرتو؟

- إنها خدعة، يا رجل! ومدَّ إلى الأعلى راحتي يديه كقِسِّيس إزاء مذبح البيَّنة.

- ليس هناك من احتمال آخر، إذا كان صديقك، حسبما تقول، ليس من النوع الذي يرمي بنفسه على أوَّل نادلة تدخل غرفة نومه!

- لم ينجح ألبيرتو، ولو مرَّة، بجعلي أهتمُّ بمشاريعه، ولكن، لن أَسْتَغْرِب إن كان يباشر هذه المشاريع كما لو كان قِرْشاً مُفْتَرساً. أعرف أنه قام في السنوات الأخيرة، بصفقات جيِّدة بأمريكا اللاتينية لفائدة شركته الهاتفية.

ألبيرتو يُعجبه المال، ويُعجبه العيش المُترَف متى تيسَّر له ذلك، كما يُحبُّ معايشة الأقوياء وإغواء النساء الجميلات، خاصَّة إذا كنَّ مُتزوَّجات ولا يُطالبنَّه بأيِّ التزام.

لكني سأكذب عليك، إن قلتُ لك بأنِّي يمكن أن أتخيَّله يخرج عارياً من الحمام، ويُلقِي بنفسه فوق نادلة كجهادي مُدجَّج بمُتفجِّرات أمام سفارة للولايات المُتَّحدة الأمريكية.

لا أرى في ألبيرتو شخصاً فظاً وجامحاً، بل على العكس هو يحسب كلَّ شيء بدقَّة، ويحاول التكهُّن بالنتائج الممكنة لتصرُّفاته. الأقرب إلى التصديق هو افتراض أنه كان ضحية خدعة. ولكن، ممَّن؟ ولماذا؟

- ليس لديَّ أدني فكرة - قال شكري وهو ينظر بأسى لفنجان الفودكا الفارغ.

لكنني - أجبْتُ مُدمِماً - قرأتُ بجريدة أخبار الشَّمال *Les Nouvelles du Nord* أن هناك حرباً حتَّى الموت، من أجل الحصول على الرخصة الثانية للهاتف المحمول بالمغرب بين شركة فرنسية وأخرى إسبانية، هي التي يشتغل صديقك لحسابها.

قال لي شكري ذات مرّة: النساء المغربيات مُتقلّبات كمناخ نهايات
سبتمبر، هنّ، في الغالب، دافئات ومُشمّسات، وباردات بشكل مُفاجئ،
ومن حين لآخر عاصفات.

النظرة التي وجّهتها لي ليلي، حين التقت عينانا بالفصل، كانت نظرة
عاصفة، غاضبة، لأنّي لم أُجب على مكالمتيّن لها، ولم أُنِدِ طوال اليوم
علامة حياة. البريقُ الغاضب لعينيّها السوداءوين والتقطيبة التي كانت
تُقوّس حاجبيّها، كانا يزيدانها جمالاً.

هنالك سمراوات وسمراوات؛ هناك السمرء القصيرة ذات الشّعغ
القصير، الممتلئة التي تبتسم بعذوبة، ككعكة شوكولاته، وهناك السمرء
الطويلة والنحيفة، ذات التسريحة الناعمة والأكّداء الصغيرة التي تدخل
الكافيتيريا، وتخلع نظّارتها الشمسية، وتعلن بصمت ثقتها في نفسها.
وهناك أيضاً السمرء الإسبانية، التي رسمها خوليو روميرو دي توريس^(*)
Julio Romero de Torres، المشبوكُ شَعْرُها في كعكة، وصاحبة
الجلد الرّيتُونيّ، والصدر المكتمل، والجسم الشبيه بآلة غيتار.

هناك أنواع كثيرة من السمراوات: الطويلات، مُتوسّطات الطول،
والصغيرات، النحيلات والأقلُّ نُحولاً، والصارمات، والمُبتسمات، والمُبهمات.
هنّ يختلفن من حيث المزاج أيضاً؛ فهناك التي عادة ما تكون مُحقّة، حينما

(*) رسّام إسباني مُتميّح للمدرسة الرمزية، من مواليد قرطبة سنة 1874 (المترجم).

تقول لك، لا تفعل كذا وكذا. وهناك العطوفة التي ترعى عجز الطابق الثالث، وهناك المكافحة التي تعرض عليك توقيع رسالة احتجاج على طرد حارس العمارة. لكن، كلهنّ، تقريباً، قويات ورائعات.

كانت طنجة مليئة بالسمراوات، وليلى كانت من النوع السنوريّ: صغيرة وليفية ورشيقة. كانت - بالنظر للمعدل المغربيّ - بيضاء الجلد، لكن، ببصمات أفريقية واضحة: شعر طويل مجعد وفحميّ اللون، شفتان ممتلئتان، وأنف قصير منبسط. لم تكن طفلة، فالجيوب غير الحادة تحت عينيها، وقوائم الديك البدائية في أشداقها، كانت تنم عن مراكمة للتجارب، الصالح منها والطالح. لم تكن طيعة كذلك، فوجنتاها العاليتان، وعيناها اللوزيتان كانتا تُشعّان كبرياء. أُجبتُ على نظراتها رافعاً حاجبيّ وضاعطاً فمي، فيما يشبه إعلان براءة. بعدها راجعتُ بأستاذية الأوراق التي كانت على الطاولة. رفعتُ رأسي وجلتُ بنظرة في القسم: مجموع ما كان يُرّين جدران الفصل، خريطة للعالم، وسبورة فليّنية مُثبت فوقها بعض الأعمال المدرسية، وصورة للكاتب الأرجنتيني بورخيس Borges.. كان هناك خمسة عشر طالباً، يجلسون على كراسٍ زُودت بلوحات خشبية، يُدوّنوا عليها ملاحظاتهم. كنّ إناثاً في الغالب، وكانت الكثيرات منهنّ يغطين شعورهنّ بمنديل، باستثناء ليلي.

ودعتُ شكري في ريتز من نصف ساعة بمصافحة يد طويلة. لم تكن الأشعة ملتهبة وشرسة كما كانت لدى خروجي من المطار عند مقابلة المفوض الجديد، بل صارت مُروّضة ومُحلّة، وبدأت الشمس رحلتها عبر الأطلسي باتجاه أمريكا، تاركة أفريقيا في الخلف.

بقيت ساعة ونصف ساعة على رفع مآذن المساجد لأذان الصلاة الرابعة في اليوم؛ صلاة المغرب.

ذهبتُ باتجاه معهد ثيرباتيس، مسيرَ ربع ساعة، شاغلاً ذاتي بمشاهدة ما حولي. أحسستُ بالوهن وكأني قضيتُ ليلتي في حفلة سُكر.

في الشارع الذي كان يُسمَّى شارع غويا Goya في العهد الدولي، والذي أُعيد تسميته بشارع الأمير مولاي عبد الله، تركتُ على يميني مقهى بورت Porte التي كانت تُقدِّم نفسها كدار للجودة، أُسِّست سنة 1954 .. "Maison de qualité fondée en 1954"

كانت بورت في الفترة الأخيرة من العهد الدولي من أفضل مَحَلَّات بيع الكعك في المدينة، وواحدة من أفضل الكافيتريات المعروفة بمزيج فاكهتها.

لم أتأخَّر في الوصول إلى بولفار باستور boulevard Pasteur حيث جنح أسطول من السيَّارات الصغيرة *petits taxis* الملوَّنة بالأزرق الفيرُّوزي، والتي كانت في طريقها للنزول نحو الشاطئ. كان السائقون يضغطون بغضب على أبواق سيَّاراتهم، وينظرون إلى الشرطي ذي الشارب الكبير، الذي لا يبدو أنه كان يسمعهم.

كان الشرطيُّ يشبه دمية عرائس ببذلة رمادية تميل نحو الأزرق، وكان يلبسُ طربوشاً على هيئة صحن، وشرائط وحافطة مُسدَّس بيضاوَيْن. كان يحمل بيده اليمنى جهاز اتصال لا سلكي *talkie-walkie* وباليسرَى صَفَّارة. سمعتهُ يُصَفِّرُ بجموح وأنا أبتعد عن المكان.

كان رصيف البولفار مزدحماً بالمارة، وكان طفل في الخامسة من عُمره هو مَنْ تسبَّب في هذا الزحام كُلِّه، حين ظلَّ مستغرقاً ينفخ بوقاً بلاستيكياً. كان المشهد تعبيراً حياً عن السعادة. تجنَّبْتُ الطفل، ومضيتُ صاعداً نحو ثيرباتيس. طُنَجَ كُلُّها منحدرات، ففي أثناء صعودي هذا المسار، مررتُ بمحاذاة مَحَلَّات الصيارفة وشُرُفات المقاهي.

كانت الشُّرفات مزدحمة بالذكور من الأعمار كلّها، كانوا يحتسون القهوة بنَهَم، ويرتشفون كؤوس الشاي. بعضهم كان يُدخِّن منفرداً ويقرأ صحفاً مكتوبة بالفرنسية أو العربية. بعضهم كانوا مُتجمّعين يناقشون بحماسة كرة القدم. ولا امرأة واحدة كانت تجلس بينهم.

بينما النساء، بالمقابل، كُنَّ يُشكِّلنَ غالبية الراجلين؛ الشابات منهنَّ، كُنَّ يلبسنَ سراويل جينز وسترات ضيّقة وأحذية رياضية جديدة، بعضهنَّ كُنَّ يلبسنَ مناديل رأس سوداء أو ملوّنة.

كانت هناك وفرة في الشباشب والجلاليب لدى الشابات منهنَّ. ولم يخلُ المشهد أيضاً من مُحجّبات من أخص أصنامهنَّ إلى قمّة رؤوسهنَّ، بما في ذلك الفم. جميعهنَّ كُنَّ يحملنَ أكياساً، ويبدونَ منشغلات.

مضيتُ أفكّر فيما يمكن أن أصنعه من أجل البيروتو. فما خطر بيالي شيءٌ، عدا القيام بزيارته. لم تكن لديّ إمكانيات المُحقّقين ولا هوايتهم. ولم أُرِدْ أن أكون صحفياً كما كان أبي.

كانت الحرب التي أشار إليها شكري بين الشركتَيْن الفرنسية والإسبانية غريبة بالنسبة إليّ، بل هي في مثل غرابة الحرب التي اشتعلت في الكوكب في أوّل يوم جئتُ فيه للتدريس بطَنْجَة.

يوم الحادي عشر من سبتمبر ذاك، حيث كنتُ حديثُ عهد بالوصول إلى ثيرانتيس، فاستدعني أليسيا إلى مكتبها، لكي أشاركها وبمعا وبمعا وبمعا أساتذة آخرين - على الهواء مباشرة - سقوط البرحّين التوأَمين.

وصلتُ إلى غاية محلّ بيع العطور "المديني" وعلى يميني، حيث الجهة الأخرى من الطريق، كانت تنفتح شُرْفَة على مضيق جبل طارق. ومن هناك كانت أربع مدافع قديمة من البرونز، تُصوّب على نحو غير مُؤدِّ، فوّهاتها إلى ساحل طَرِيقَة Tarifa الإسباني، الذي كان مرتسماً عبر الضباب البحري.

كانت العديد من السفن تتجول بمياه المضيق التي راحت تصطبغ بلون معدني. كانت سفناً مُبحرة بين أفريقيا وأوروبا، وبين المتوسط والأطلسي.

من تلك الشُرفة المُطلّة على البحار والقارّات، تلك التي يُسمّيها الطنجيُّون "سور المعكازين" ارتفع صوت ماسح الأحذية، الذي وإن كان صخب الأغاني العربية المنبعثة من المتاجر، وباعة الرصيف منعوني من سماعه، إلّا أنني أفهمته بإشارة نفي من رأسي، بأنني لست في حاجة لخدماته. رسم الشاب الذي كانت تُطوّق عنقه كوفية فلسطينية بيضاء وسوداء ابتسامة على وجهه.

وصلتُ ساحة فرنسا. على اليمين توجد قنصلية فرنسا وبداية شارع الحرّة، حيث ينتصب فندق المنزّه. توقّفتُ واتّجهتُ بنظري نحو شارع المنزّه، مُحاولاً تخيل أيّ شيطان خطرت له فكرة توجيه هذه التهمة السخيفة لأليبرتو؟ لكنني لم أجد جواباً، فاستأنفتُ سيرتي. كان الطريق يعلو باتجاه شارع بلجيكا، لهتتُ مُوجّهاً اللعنات للسجائر، في سري.

في عمق حركة السير الكثيفة والصاخبة، ضربتني أشعة شمس الغروب مباشرة في عينيّ. فتشتُ عن نظّارتي الشمسية، وثبتتها فوق وجهي.

في قمة ذلك المرتفع كان ينتصب المسجد الكبير، المُمَوَّل بالدينار الكويتي، مسجد محمّد الخامس. كان عالياً وصلباً ومُتراوحاً بين اللون البنيّ والرمادي.

بُنيت صومعة المسجد بعد استقلال المغرب على هيئة برج يعلن أفضلية الإسلام في عاصمة البوغاز.

وانطلاقاً من ذلك المكان، نصلُ إلى المنبسط الأرضي المتّسع، الذي استقرّت فيه المنشآت الإسبانية منذ العصر الذهبي للمدينة؛ الكاتيدرائية الكاثوليكية، القنصلية، مدرسة رامون إي كاخال Ramón y Cajal،

معهد سبيرو أووشوا Severo Ochoa، معهد ثيربانتيس Cervantes والمستشفى الإسباني.

ورغم أن التسمية الرسمية لهذا الشارع أصبحت شارع الكويت، غير أن الطَّنَجِيِّن، لا يزالون يُسمُّون قلب هذه الضاحية بـ ساحة إيبيريا Iberia.

حين وصلتُ ثيربانتيس، مضيتُ مباشرةً إلى مكتب اليسيا؛ رئيستي التي وُلِدَتْ هي الأخرى بطُنْجَة منذ نصف قرن ونيف، وظلَّت مرتبطة بهذه المدينة، لدرجة أنها كانت تَرُطِن بالدارجة.

كانت امرأة قوية لا تستسلم أبداً للإحباط، وتجد بسرعة قَمَّة الصخرة التي تتمسَّك بها. حكيتُ لها ما دار بيني وبين المفوَّض الجديد. دأبت - وهي تفكَّر - خُصْلة كَسْتَنَائِيَّة، استحال لونها لوناً فضياً وقالت:

- أمر شديد الغرابة! لكنَّ كلَّ شيء في طُنْجَة في النهاية تتمُّ تسويته. هنا دائماً تَحْدُث أشياء جِدُّ غريبة، أشياء رائعة وأشياء مُرْعبَة، لكن، سترى، كلَّ شيء سيكون قابلاً للإصلاح.

- أتمنَّى لو يكون ذلك حقيقياً! لكن، إلى أن يَحْدُث هذا، ها هو ألبيرتو الآن، يقبع خلف القضبان، مع ما ستُلقِّقه هذه القِصَّة من إساءة بسمِّعته حين يصل إلى إسبانيا. لا يمكنك أن تتصوَّري كيف هي زوجته. يمكنها أن تتسامح معه في كلِّ شيء، إلَّا في هذا الجانب الفضائحي!

- هيَّا، يا سيبولبيدا! ما تزال تنفَّسُ من جرح طلاقك - قالت بصوت أجشّ - ولا ترى في النساء غير مجموعة ساحرات.

- باستثنائك أنتِ، أيتها الرئيسة، لكن، عليَّ الاعتراف، بأن رأيي في الزوجات ليس على ما يرام في هذه الأيام.

- افترض أنك لا ترى في طالتك المُفْضَلة ساحرة كذلك؟

لم تكن أليسيا ساذجة، لقد اكتشفتُ أن ما كان يجمعني بليلى، يتجاوز ما يُفترض أن يكون اهتماماً مشتركاً بالنمائ المتداولة حول كُتّاب ورسمي طُنْجَة الكوسمبوليتية.

- لا، رغم أن ليلي تجذبها الأشياء المرتبطة بالسّحر، وأطوار القمر، وترسّبات فنجان القهوة، والتمايم ضدّ العين الشريرة، فهي ليست مُتديّة، ولكنها تحمل في أحد ذراعَيْها وشم يد فاطمة، هي تؤمن بهذه الترهّات!
- هي في ذلك كسائر المغريّات، يا سيبوليدا! هل تعلم الشائعات التي كانت تروج حول جين بولز Jane Bowles باعتبارها كانت مسحورة من طرف شريفة؟

- نعم، أنا على علم بذلك. شريفة الخادمة والعاشقة ومالكة جين بولز. كان العجوز بول يقول للجميع إنها كان تُسمّم زوجته.

- هكذا إذن، فأنت تحفظ بسرعة فائقة حكايات طُنْجَة الدولية!

- أتعلّمها الآن فقط، لقد حكيتُ لك كيف أن والدَيّ لم يُحدّثاني قط عن إقامتهما بطُنْجَة.

- غريب! فالإسبان الذين عادوا لشبه الجزيرة، لم يتوقّفوا أبداً عن الشعور بالحنين إلى هذه المدينة، قالت أليسيا وهي تعود لمداعبة خُصلتها.

- على أيّة حال، هل ستقدّم حصّتك الدراسية أم لا؟ طالبتك المُفضّلة في انتظارك.

- على الفور، قلتُ وأنا أستعدُّ لمغادرة مكتبها.

- لحظة! إذا أردتَ الحديث مع القنصل في موضوع صديقك، فيمكنني أن أحجز لك موعداً. هو رسميٌّ كثيراً، ولكنّ علاقتي به جيّدة.

- سأكون مُمتناً لك!

- سأرتّب الأمر هذا المساء. آه شيء آخر! لديّ شيءٌ يخصُّكَ، قد وصلكَ من مَدرَيد، قالت مشيرة إلى علبة كبيرة موضوعة على الأرض بجانب المكتب. نظرتُ إلى الحُرْمَة بقلق. نسيْتُ أن زوجتي السابقة كلارا Clara قد بعثتُ لي ببريد إلكتروني، تقول لي فيه، بأنها بصدد إصلاح سُقَّة حَيِّ شامبري Chamberí وإنها تريد التخلّص من أشياءي التي تُزعجها. هناك، حيث عشنا أنا وكلارا مع ابنتنا خوليا Julia، الفصول الأخيرة من الزواج.

خلال معركة الطلاق، احتفظتُ هي بالسُّقَّة وبأشياء أخرى. لم يُرَفّني أن تظلّ مع كلارا بقايا جديدة من ماضيِّ الشخصيّ. فطلبتُ من أليسيا أن تحتفظ لي معها بالعلبة لمدّة أيّام.

لم يكن لدينا نحن الأساتذة مكاتب فردية، كنّا نتقاسم قاعة مشتركة، لم يكن من اللائق تكديسها بأمّعة شخصية.

كنتُ أنتظر ليلَى بِشُرْفَةِ المقهى المركزي بالسوق الداخل. هكذا اتَّفَقنا - نصف مُتَسَتِّرَيْن - عند نهاية الحصّة.

لم تأتِ بعدُ تلك الفترة الساخنة من السنة، حيث يكون عليك أن تُلَوِّح بِكَفِّكَ لِإبعاد النحل المُتَحَلِّق حول الشاي الحلو المُنْعَع.

هكذا وأنا أسترخ فوق كرسيٍّ من القَصَب بِإزاء طاولة لوح مُستديرة، حيث وُضِع إبريق شاي ساخن، صار بإمكانني التفرُّغ دونما تشويش، لتأمل المشهد البشري للسوق الداخل.

كان تينيسي وليام Tennessee Williams، في الوقت الذي قضاه بطَنْجَة، يُعجبه أن يُكرِّس وقته للأمر نفسه. من شُرْفَتِهِ بِفندق فوينتيس Fuentes أو مقهى طينجيس Tingis، كان يَمَزج - بمزاجه الرائق - الإكسِير(*) بِفرنيت - برانكا Fernet Branca(**) مع كوكاكولا.

مُؤَلَّف كتاب "عربة اسمها الرغبة" كان يُسمِّي المكان مقصورتَه الخاصّة التي تقع فوق خشبة مسرح حضري. كان الجميع فيه يُشَخِّص دَوْرًا مسرحيًا. راحت الظلال تمتدُّ وتذوب على إيقاع الظلّمة المتنامية. وعلى يمين المقهى المركزي، حيث الحَيُّ الذي كان يُسمَّى سابقاً بِحَيِّ النصارى، كان يوجد مقهى طنجيس. لوحاته الإعلانِيّة القديمة كانت تفيد، بالإسبانية، بأن

(*) سائل بمذاق قويٍّ، مُكوّن عموماً من موادّ عطرية مُذابّة في الكحول.

(**) شراب إيطالي مُصمَّم من طرف بيرناردينو برانكا في ميلانو سنة 1845

وجبات إفطار كانت تُقدَّم هنا. على اليسار قليلاً، انتصب فندق فوينتيس بطوابقه الثلاث، وشرفاته ذوات الحديد المسبوك والواجهة الأنيقة.

تم تأسيس هذا الفندق سنة 1914 من طرف ثلاث إخوة أندلسيين من أسرة فوينتيس، الذين انتدبهم المَحْفَل الماسوني لجبل طارق لتسهيل الإنزال البحري بطُنْجَة للحركة الماسونية البريطانية.

يقول الطَّنْجِيُّونَ، إن مدينتهم كانت المكان الأوَّل الذي رست فيه سفينة نوح بعد الطوفان. أمر ممكن، لِمَ لا؟ فطنْجَة كانت دائماً ملجأً بالنسبة إلى الجميع، بالنسبة إلى الجيران الإسبان: هنا عثر اليهود والمسلمون المطرودون من أرضهم - بفعل تعصُّب محاكم التفتيش التابعة للملوك الكاثوليكِيِّين وخلفائهم - على ملجأ.

الأمر نفسه حدث في القرون التالية، مع أبناء البلد أنفسهم من ذوي الأفكار والأنماط الحياتية غير التقليدية.

ظَلَّت طُنْجَة لقرون، بَوَّابة عبور بالنسبة إلى الأوروبيِّين إلى مملكة المغرب الغامضة والمنيعَة، والمكان الذي استقرَّ به القناصل والتجَّار.

ومع بداية القرن العشرين، وما إن اقتُسم البلد الشَّمَال - إفريقي، بين فرنسا وإسبانيا، حتَّى تحوَّلت طُنْجَة بشكل غير مسبوق إلى حقل تجارب. أُعلنت مدينةً دوليةً. وما بين 1923 و1956 حُكمت من قِبل سبع قوى عظمى حامية: إنكلترا، فرنسا، إسبانيا، بلجيكا، البرتغال، هولندا، إيطاليا. وأضيفت إليها الولايات المتَّحدة الأمريكية عند نهاية الحرب العالمية الثانية.

تناوبت الجوامع والكنائس والبيع، مع الكباريهات والبنوك ودُور الدعارة ومتاجر المجوهرات. وتَسَاكَنَ العرب والأمازيغ واليهود، باعتبارهم سكَّاناً أصليِّين، مع مهاجرين أندلسيين وأرستقراطيين إنكليز وكتاب طليعيين أمريكيِّين، وجمهوريين إسبان وأثرياء تفرَّغوا للحياة العذبة *dolce vita* وأنواع الجواسيس والمُحتالين، ومُهرَّبي السجائر ومُزوَّري الجوازات وتجَّار

الذهب المشكوك في مصدره. بعضهم أتى للبحث عن عمل أو إبرام صفقة تجارية، البعض الآخر أتى سعيًا في إثر حُلُم أو شبح أو بحثًا عن نفسه. طنبجة كانت تنتمي للجميع ولا تنتمي لأحد.

كانت تلك هي الحِقبة الذهبية لفندق فوينتيس، حين كان مركزاً لاجتماع المقيمين الإسبان المُتَنَوِّرين. لكنَّ ما كنتُ أراه اللحظة، كان يستنجد -على غرار المدينة كُلِّها- مُطالباً بلطخة جِصٍّ وصباغة؛ فالربع الأخير من القرن العشرين كان وبالأعلى عاصمة البوغاز المتروكة للريح والملح الصخري.

سكبتُ لنفسي كأساً من الشاي. أمسكتُ الكأس من حافته بإبهامي وسبَّابتي، ورشفتُ من المشروب الساخن رشفة قوية.

أحسستُ بالحلاوة تندفق في حُنْجرتي، وبرئتي تصفو. تأخَّرتُ ليلى في الوصول. لا بدَّ أنها انشغلت مع إحدى زميلاتها في الفصل. انتهزتُ فرصة تأخرها لأشعل سيجارة. ليلى لا يُعجبها أن أُدخِّن. كانت تُزعجها رائحة التبغ، وتزعج من الضرر الذي قد يُلحقه التدخين بصحَّتي.

استمررتُ في التأمل. اشتعلتُ للتو مصابيح الكهرباء الشاحبة التي أضاءت الجمهور، لكن، حتَّى في مناطق الظلِّ لم تُفْلح ساحة السوق الداخل Zoco Chico في إخفاء قذارتها.

على يمين فندق فوينتيس، وعلى كرسيٍّ بلا مَسْنَدٍ جلس رجلٌ صغير الجسم بشارب ثلجي يبيع سجائر بالتقسيط. بين الحين والآخر، كان يقف أحد المارة ليشتري منه.

بعيداً شيئاً مَّا، وفي واجهة المتجر المُسمَّى وِليلي، كانت تلمع قمصان وجلالِب وقفاطين بألوان زاهية.

مرَّت فرقة من الشباب السود، كانت مشيتهم ماكرة، لا بدَّ أنهم ينتمون

لمجموعة كبيرة من المرشحين للهجرة السريّة إلى إسبانيا، كانوا يعيشون في فنادق الجهة السفلى، تلك الفنادق المجاورة للميناء، والتي شكّلت في أيامها جزءاً من حيّ دُور الدعارة.

كان الشباب يتمتّعون بمظهر قوي، كيف لا وقد كان عليهم اجتياز الصحاري والحدود والحواجز وقوى الشرطة التي تفصل بلدانهم عن القارة الأوروبية؟

في الاتجاه المعاكس مرّ شيخ متدين، كان يلبس جلباباً بُنيّاً، ويعلّق بعناية كيساً على عصا كان يحملها على كتفه. تقاطع في طريقه مع فتاة منحشرة داخل كنزة صوفية وسروال جينز مشدود، تسمع موسيقى داخل سماعات الأذن.

دخل الصورة شابّان، كانا يستعرضان أفكارهما الإسلامية، بواسطة قبّعات بيضاء مطرّزة ولحي طويلة مستطيلة. كنتُ ما أزال أتأملهما، حين اقتحمت الفضاء مركبةٌ بثلاث عجلات وهي تقذف سحابة دخان قاتمة، كثيفة وكريهة الرائحة، أخرست ضجّتها طنين الصرخات، والنقاشات، ومفاوضات البيع والشراء.

أحسستُ بيدٍ تُوضَع بثباتٍ فوق كتفي اليمنى، وبوجنة تحتكُ بوداعة بوجنتي اليمنى.

- فيمَ كنتَ تُفكّر؟ سألت ليلي التي لم أحسّ بوصولها المفاجئ.

- كنتُ أمثّل دُور تينيسي وليام، وأستمتع بالفُرجة. أتمم المغاربة مسرحيون بامتياز. تمضون في الحياة وكأنكم تلعبون دوراً ما في مسرحية مُدهشة.

ضحكت ليلي وهي تُلقني إلى الخلف بصفيرتها المُجعّدة. لن تفوز ليلي في مسابقة للجمال، لأنها لم تكن طويلة القامة، ولا نحيفة، ولن تُفكّر بحماقة في دخول هذا المضمار أصلاً، لكنها كانت جميلة جداً بسروالها

ومِعْطَفاً الجينز اللّذين اشترتهما من بعض المراكز التجارية الإسبانية، وعادة ما تلبّسهما في أثناء عملها كمُستخدَمة هاتف بمركز رعاية الزبائن بطَنْجَة، أو عند ذهابها لثيرياتتيس، حيث تتابع الدرس المسائي الذي كنتُ ألقيه، تحضيراً لامتحان الدبلوم الرسمي لِلُّغة الإسبانية المُخصَّص للأجانب.

كانت تُتقن بدقّة اللغة الإسبانية، لكنها كانت تطمح للحصول على المستوى الأعلى لهذه الشهادة، لتُضيفه إلى بيان سيرتها الذاتية.

- هل يمكن أن أعرف ماذا يحدث لك، يا سيولبيدا؟ أنتَ غريب جداً! قالت وهي تجلس.

لاحظتُ اختفاء علامات الغضب التي نظرتُ بها إليّ منذ لحظات، عند بداية الحصّة الدراسية. حاولتُ لفتُ نظر النادل لأطلب منه مشروباً. كلّفني ذلك بعض الوقت، لكنني حقّقتُ في الأخير رغبتِي. وفي الوقت الذي طلبتُ فيه ليلي ماء معدّنياً، اعتذرتُ لها لعدم الردّ عن مكالماتها، حكيّتُ لها عن مشكلة ألبيرتو. أضغتُ إليّ بانتباه وهي ترسم بأصابعها برح كنيسة.

- شكري يظنُّ أن الأمر مرتبط بمناصفة بين شركة ألبيرتو وشركة إسبانية.

قطّبتُ حاجبيها، قائلة:

- هل أنتُ متأكّدة بأن صديقك لا يمكن أن يقترف ما اتّهموه به؟ استفهمتُ ليلي بنبرة محايدة. ليلي لم تكن تعرف ألبيرتو. في عطلة نهاية الأسبوع التي قضّاها معي في طَنْجَة، فضّلتُ الابتعاد، معتبرة أننا بدونها سنكون مُرتاحين أكثر. وأنها يمكن أن تراه في مناسبة قادمة، إن شاء الله Inshalá.

- مُتأكّدة جداً، هذه التهمة تبدو لي مستحيلة التصديق، مثل استحالة إعلانك مثلاً عن رغبتك في العودة لزوجك السابق.

فَهَهِتُها أضاءت السوق الداخل، كما لو كانت قلعة نيران اصطناعية للاحتفال بنهاية رمضان.

- دُقْ الخشب Touchée! لن أعود إليه، ولو أُعْطِيتُ ذهبَ العالم.

انفصلت ليلي من بضع سنين - خمس سنوات من الزواج تحديداً -
عن تطوانيَّ تعرَّفتُ عليه حين كانا يدرسان الصيدلة في غرناطة. حياتها
الزوجية في تطوان كانت جحيماً، زوجٌ مُتملِّكٌ، وحمأة مُستبَدَّة، ولا وقت
إلا للشراء والطبخ والغسيل؛ وجبة النساء اليومية منذ قرون. من حسن
حظّها أنها لم تكن تريد أطفالاً. الآن وهي تُكمل الاثنين والثلاثين عاماً من
عُمُرها، تبدأ حياتها من جديد في مدينتها الأم. مثلي أنا الذي أوْشِكُ على
إتمام الخامسة والأربعين من عُمري.

- هل تعلم؟

ثمَّ بعد استراحة تأملية واصلت:

- أنا مرتاحة هكذا، لا شك أن أقبائي وجيراني، ينظرون إليَّ نظرة سيئة،
ولكن، كما تقولون أتمم الإسبان: الأمر لا يهمُّني على الإطلاق "me importa
un comino".

وفي حركة سريعة، بالكاد تكاد تكون مسروقة، قمتُ بتقبيلها في
شفتيها. عَقِبَ ذلك حوَلْتُ رأسي بشكل غريزي، يَمَنَّةً وَيَسْرَةً للتأكد من
أن لا أحد رآني.

كان التحقُّظ واجباً في علاقتنا اتِّجاه المغاربة واتِّجاه الإسبان. فإذا كان
بإمكان الفريق الأوَّل أن ينظر إليها كامرأة بها خفَّة زائدة، فإن الفريق الثاني
يمكنه أن يصمِّني باعتباري مُفترساً.

على يسارنا جلس شخص منفرد بجلباب كَسْتَنائيٍّ، وَقَدَمَيْنِ مَحْشُوَّتَيْنِ
في جاريَيْنِ لونهما بنفسجي داخل شبشب أصفر. كان مستنداً بشكل جيّد
إلى مَسْنَد الكرسيِّ، ورأسه مُغطَّى بغطاء رأس جلبابه. لم يكن هناك من
وسيلة لمعرفة الوجهة التي كان ينظر إليها.

في الطاولة التي على جهة اليمين، كان إسبان في الثلاثينيات من أعمارهم، يدفعون ثمن عصائر الفواكه الطبيعية؛ فتى وثلاث فتيات، كانوا محاطين بأكياس بلاستيكية. يبدو أنهم سيأخذوا جلسوا ليرتاحوا بعد شرائهم منتجات للصناعة التقليدية. لم يكن الأمر يخلو من غرابة، فقد كان بالمغرب عدد قليل من السياح بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر. كان الفتى مُسيطرًا على الحديث، وبدأ أن الفتيات مَلَلْنَ من اللّزمة التي كان يمتدح بها مغامراته في عالم المقاولات. لم يكن فمه ينبجس سوى عن كلمات مثل زبائن، أهداف، أرباح، يورو... كانت إسبانيا ممسوسة بحُمى الصفقات السريعة التي تسيل اللُّعب. وانخرط كوكب الأرض مع بداية القرن الواحد العشرين في عبادة المال السريع.

- لديّ صديقة جيّدة في إدارة المنزلة، قالت ليلى وهي تجذب اهتمامي كلّها بإشارتها للفندق.

- يمكنني أن أطلب منها عنوان النادلة التي بلّغت عن ألبيرتو، ومن ثمّ نحاول الحديث معها.

لم أُحب فوراً، رشفتُ رشفة من كأس الشاي الذي غدا فاتراً.

لم يكن ليروقني أن تتورّط ليلى في الشَّرْك الذي سقط فيه ألبيرتو، لكنها كانت الإمكانية الأولى التي بدت لي مرتسمة ذلك اليوم، للعمل لفائدة صديقي.

ختمتُ كلامي معها قائلاً لها، بأن تحاول فعل ذلك، لكن، بحذر، وتصرف عنه النظر عند أدنى صعوبة.

- واخا! قالت بفرح وطبعث على فمي قُبلة، لا بدّ أن تينيسي وليام كان سيقدّرُها حقّ قدرها. مضت ليلى على الفور باتّجاه بيت أبويها الذي كان قريباً عند الحدود الفاصلة ما بين المدينة ومنطقة الامتداد العمراني

الأوروبي، قبل أن يتحوّل شارع إيطاليا إلى مرتفع حادّ، يفضي إلى القُصبة،
القُبعة المسوّرة للمدينة العربية القديمة.

لم يسبق أن وطأت قدماي منزل ليلي، لكنها ذات مرّة، ومن قلب
الساحة الصغرى، حيث لا زالت تنتصب سينما ألكاثار Alcázar المهملّة،
دلّثني على بيتها، الذي يوجد بالطابق الثاني من مبنى ذي طابع أندلسي
يعود لثلاثينيات القرن.

كانت الواجهة جذّابة بقضبان حديدية مسبوكة، وشجرتي برتقال على
جانبي بوّابة المبنى. هناك كانت تعيش ليلي منذ مغادرتها بيت الزوجية
بتطوّان. رأيّتها مبتعدة وسائرة بتصميم.

كان عليّ أن أنتظر لحظة، حتّى أتمكّن من دَفْع الحساب وأُشرع في
المشي باتّجاه سُقّتي بالمنطقة الأوروبية بشارع إنكلترا، في نقطة تقاطع
مع شارع المكسيك. ولجّتُ حيّ الصيّاعين، ممّرّ الدخول إلى المدينة
والخروج منها، كان مرتفعاً حادّاً. تفاديتُ قطعاً توقّف بباب دكّان حِلّاقة،
يراقب بذهول، كيف كان يُنهي صاحب المحلّ الأسيب حِلّاقة أحد الزبائن.
شممتُ روائح دجاج مَشوي، وحلزون مَغليّ، وفُشار وبهارات شرقية،
وكيك عسل، وحلوى نوعة محلّيّة.

تحمّلتُ أنايب عوادم الدراجّات النارية والمركّبات ذوات العجلات
الثلاث.

استمررتُ في الصعود، ومررتُ أمام مَحَلّات الهاتف المحمول التي
بدأت تنبت بجانب الدكاكين التقليدية لبيع الثياب والعطور والذهب
والخرف والملابس الجلّدية والمصنوعات الخشبية.

تركتُ على يساري كنيسة لابوريسيمّا la Purísima بقُبّتها المعدّنية
المذهّبة التي تضفي عليها مسحة بيزنطية. ضحكْتُ حينما رأيْتُ أطفالاً

يلعبون على الرصيف المبلط للشارع بالكؤيرات الزجاجية، وفعلتُ الشيء نفسه وأنا أرى رجالاً كباراً يتدافعون مُقهقهين بإزاء متجر القهوة الذي ما يزال يحمل اسم لاس كامباناس Las Campanas. وصلتُ السوق الكبير، وهناك كادت تدهسني سيارة أودي Audi برّاقة. تصاممتُ عن الشتائم التي كِئلت لي من قِبل راكبيها؛ كانوا شبّاناً مغاربة مُتأنّقين جداً، ثمّ واصلتُ صعودي.

لم تكن مئذنة المسجد القديم لسيدي بوعبيد المشرفة على السوق الكبير مضاءة، لذلك لم يكن هناك من سبيل للاستمتاع بجمالها. كان ضوء الشمس ضرورياً لتمييز الرسوم الهندسية المِعْجَاجَة التي كان ينسجها الرِّلّيج والبناء الحجري فوق جدرانها التي كانت في لون عصير الفراولة. كان يروق لي التفكير بأن رونق المئذنة إنما يجسّد الاختلاف ما بين النمط التقليدي لممارسة المغاربة للإسلام ونمط الأصوليين السعوديين، أصحاب كلّ شيء أبيض أو أسود. وكان ابن لادن - أكثر الرجال المبحوث عنهم في مطلع الألفية الثالثة - من جملة هؤلاء.

في السوق الكبير رفضتُ عروض بائعين متجولين يبيعون مُقَبَّلَات: فول وحُمص مُغلى. مددتُ سيري، فوصلتُ لشارع الحرّية. هناك كان ينتصب عالياً فندق المَنْرَة. كان حارسه يرتدي طربوشاً فاسياً من المُخْمَل الأحمر مع سترة وسراويل فضفاضة في لون القشدة.

بعد بضعة أمتار إلى أعلى، غيّرتُ الرصيف لأشتري حلوى من متجر الحلويات patisserie لا إسبانيولا La Española.

كنتُ جائعاً. وصلتُ ساحة فرنسا وأنا ألتهم الحلوى. ومن داخل القنصلية الفرنسية، كان ينبعث العطر المُسكِر لعنبر الليل. نظرتُ للأعلى، كان القمر هلالاً غائماً، وفيما بعدُ، أصبحتُ السماء صافية والنجوم متلألئة كقطع جواهر.

طَنْجَة، خريف 1956

بَلَلْتُ "أولبيدو" الهَلَالِيَّةَ *croissant* في القهوة بالحليب، كانت رقيقة ومُحَمَّصَة على نحو مُتَقَن، لا تبرع فيه إلا كافتيريا مادام بورت *madame* Porte المكان الذي كانت الشابة المسلمة المُكَلَّفة في البيت بأعمال النظافة والطبخ والكيّ، تذهب إليه كلّ صباح لاقتناء وجبة الفطور الخاصّة بعائلة سيبولبيدا. بجانب صينية الإفطار الفضّيّة، كانت تستقرّ في طيّ مُحَكَمٍ جريدة إسبانيا *España* اليومية، التي جلبها كارلوس الليلة الماضية عند مغادرته قسم التحرير. أمسكتها أولبيدو في لطف، فتحتّها وألقت نظرة على الصفحة الأولى: القوَّات السوفياتية لم تُفلح بعدُ في سحق الانتفاضة الهنغارية، والدماء تجري بشوارع بودابيسست. ناصِر لم يتراجع عن تأميم قناة السويس رغم التهديد بتدخل عسكري مشترك بين إسرائيل وفرنسا والمملكة المتّحدة. الفرنسيون يعتقلون ابن بلّة زعيم الانتفاضة الجزائرية.

تلك العناوين الرئيسة بدت وكأنها تنبأً بالحرب العالمية الثالثة، في الوقت الذي لم يكد يمرُّ على الحرب التي سبقتها ولو عَقَد من الزمن.

أزاحت أولبيدو تلك العناوين بضربة كفّ ذهنية، وتوقّفت عند الخبر الذي أتى في الجزء العلوي الأيمن من واجهة الجريدة: لقد منحوا خوان رامون خيمينيث Juan Ramón Jiménez جائزة نوبل للآداب. تلقّى الشاعر الإسباني المنفّي في بويرتوريكو الخبر باكياً، لأن زوجته كانت في وضع صحّي حرج.

تركتُ أولبيدو الصحيفة فوق الطاولة، وأولت اهتمامها كله للهلالية التي كانت لذيذة وجديرة بأن تبدأ بها يومها. هي تفضلها من زمن بعيد على شوروس churros (*) مَالَقًا، مدينتها الأصلية. ذكرى الشوروس بعجينتها المشبعة بالزيت جعلتها ترسم على وجهها تكشيرة اشمئزاز.

أمسكت الصحيفة من جديد، وبحثت عن صفحات الثقافة والأنشطة الترفيهية التي كان كارلوس مسؤولاً عنها: "بدأ في مدرّيد وبرشْلُونَة تركيب أولى اللاقطات الهوائية للتلفزيون". "هانفري بوغار Humphrey Bogart يدخل في صراع من أجل الحياة، بعد إجراء عملية جراحية على سرطان الحَنَجَرَة. "المجتمع الراقي" Alta sociedad يُعرض في طُنْجَة. وهو فيلم من تمثيل غريس كيلي Grace Kelly و بين كروسبي Bing Crosby و فرانك سيناترا Frank Sinatra. وهو -تقرأ أولبيدو- حكاية فتاة من عائلة كريمة يتنازع حُبّها موسيقيّ جاز وصحفيّ. راق لها - على الفور - الذهابُ هذا المساء لمشاهدة عرض "المجتمع الراقي".

كانت غريس كيلي ممثّلتها الفضلى ونموذجها الأرقى في الأناقة. كانت تشاهد أفلامها كلّها، وتتابع تحرّكاتِها كلّها في الكثير من المَجَلَّات المصورة الفرنسية والإسبانية والإنكليزية التي كانت تصل المدينة.

من التقلّبات الأخيرة لغريس كيلي، التي كانت تستحقُّ أن تُروى، زواجها في الربيع السابق من أمير موناكو رايينيرو Rainiero. وانتظارها منه الآن ولَدها الأوّل. أيّامٌ قبل ذلك، نشرت صحيفة إسبانيا صورة لها تظهر فيها، وهي تُعدُّ سُلّة الوريث المستقبلي للعرش، وإلى جانبها كلبٌ ضخم مُجعّد الشَّعر وأسودّه.

(*) تشورو بالإسبانية: Churro هي وجبة خفيفة، شرائط عجينة مقلّية بالزيت، يُضاف عليها عادة السُّكَّر والقَرَفَة. تُعتبر وجبة فطور تقليدية في إسبانيا والبرتغال، ويتمُّ تقديمها، في كثير من الأحيان، مع الشوكولاته (المترجم).

كانت أولبيدو تحرص على أن تلبس وتُصَفِّف شَعْرَهَا على شاكلة الممثلة التي تحوَّلت إلى أميرة. قصَّت شَعْرَهَا مع بداية الصيف إلى مستوى الكَتِفَيْن، تماماً كما كانت تفعل غريس. قَصَّة الشَّعْر تَمَّت بِاتِّقَانٍ بالغ، في أرفع مَحَلَّات حِلَاقَةِ النساء التي كانت تَمْتَلِكُهَا جين Jean في زاوية شارعي غويا وموسى بن نُصَيْر.

انزعج كارلوس كثيراً. فهو كان يُفَضِّلُهَا بِشَعْرَهَا المُمْتَدِّ حَتَّى خصرها، وعَبَّرَ لَهَا عن ذلك بمشاجرة ضخمة. لكن أولبيدو بالمقابل كانت جدَّ مسرورة من الشكل الجديد والعصري لقَصَّة شَعْرَهَا. وفي النهاية فقد كان ناعماً وحريراً تماماً كَشَعْر غريس كيلي. ولا يَهْمُ إن كانت الأمريكية شقراء وهي سمراء.

تَهَدَّتْ وهي تُفَكِّرُ في كارلوس. هل بوسعها أن يبقى جذاباً كما كان، حين تعرِّفاً على بعضهما في مَدْرِيْد، حيث كانت تدرس السنة الأولى من الفلسفة والأدب، وهو الحاصل لتوّه على الإجازة، مُرَاهِناً على التخصُّص في مجال الصحافة.

قَصَّتْهُمَا كانت حُبّاً من أوَّل نظرة *un coup de foudre*. في أسابيع قليلة، أقنعها كارلوس بالزواج والذهاب للعيش في طُنْجَة الغرائبية. توماس بوغيلا Tomás Bugella، أحد الزملاء الجمهوريين المُحَنِّكين، الذي كانت له صِلَة قرابة بعائلة كارلوس، اقترح عليه منصب مُحرِّر بصحيفة إسبانيا.

بالنسبة إلى الأب أولبيدو - وهو مهندس طُرُقَات بِمَالَقَا، وأشدَّ محافظة من عذراء النصر la Virgen de la Victoria - بدا له ذلك كُلُّه حماقة: أن تغرم ابنته بصحفي، ثمَّ بسرعة ترفض متابعة دراستها من أجل الزواج، ويذهب الزوجان إلى المغرب، ويشغل كارلوس في جريدة، يُشَاعُ أَنَّهَا تَعْبُجُ بالجمهوريين.

كانت أولبيدو فخورة، لكونها - بهذه الطريقة - قد أثبتت ذاتها اتّجاه والدها. كان قد بدأ النصف الثاني من القرن العشرين، وكانت الأزمنة تتحوّل، وهي، بكلّ تأكيد، كانت امرأة عصرية، وما كان لها أبداً أن تقبل الزواج بذلك الجار المألقيّ الذي كان أبوها يعتزُّ به، والذي كان يُحضر اختباراتٍ، ليصبح مُوثّقاً. لكنّ ما كان يؤلمها، هو أن طبع زوجها بدأ يفسد. كان كلّ مرّة يصل المنزل مُتأخراً، أحياناً عند طلوع الشمس، تنبعث منه رائحة الكحول والتبغ. أولبيدو لم تكن تعتقد بأن زوجها زير نساء، لكنّ ما كان يقلقها هو شَغفه المتزايد بالعباب الورق.

في هذه اللحظة كان كارلوس لا يزال نائماً، وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة صباحاً. أضف إلى هذا، أنه بدأ يُؤثّبها بتلميحات جارحة بسبب أنها، بعد ما يقارب الأربع سنوات من الزواج، لم تمنحه طفلاً بعد.

أبعدت عن رأسها هذه الأفكار عائدة إلى الصفحات الثقافية للجريدة. هناك كان أيضاً خبر السهرة التي ستقام بمسرح ثيربانتييس الكبير، والتي كانت دعواتها بحوزة كارلوس. قرأت الخبر الذي يتحدّث عن تقديم أوبرا "ثنائية الأفريقية" *El dúo de la Africana* إحدى أكثر الأوبرات المُحتفَى بها للموسيقار كاباييرو Caballero.

يؤكد مُحرّر الخبر - المجهول الهوية، والذي قد يكون كارلوس نفسه - "الاهتمام الكبير الذي ناله هذا الحفل الغنائي لدى الجمهور الطنّجيّ" مُضيفاً أنه "كنهاية للحفل ستكون هناك حفلة للرقص الكلاسيكي برعاية الراقصة تمارا كمالاكار Tamara Kamalakar بمرافقة عازفة البيانو الأميرة

سونيا دراغادزي Sonia Dragadze

يا للملّل! الأوبرا تبعث فيها الضجر، تقريباً مثلما تبعثه فيها أحاديث ذاك المُتقدّم لامتحانات المؤثّق الذي اقترحه أبوها زوجاً لها.

أمر في غاية القِدَم، أن ينتهيَ الحفل بالرقصة الكلاسيكية، إلا أنه أمر يمكن تحمُّله. ثمَّ مَنْ تكون تامارا كامالكار والأميرة سونيا دراغادزي؟ لا شكَّ أنهما من أفراد تلك العائلات الروسية المُستقرّة هنا بعد ثورة 1917 والتي لا أحد يعرف إن كانت عائلات أرسقراطية حقيقية أم مخادعات عبقریات. فكَّرتُ أولبيدو أنها ستُحاول إقناع كارلوس بالأّ تذهب إلى مسرح ثيربانتيس، وأنها ستحضر في المقابل لعرض "المجتمع الراقي"؛ الفيلم الذي سيكون الأخير في المسيرة السينمائية لغريس كيلي.

عاودت ماريكيثا مولينا Mariquita Molina الظهور، وفي يدها علبة كرتون واسعة سعة أكلة "باهيا" paella صالحة لأربعة أشخاص. فتحتها وأزاحت عنها ورقاً حريراً، واستخرجت القُبَّعة الشمسية ذات اللون الأبيض، التي طلبتها أولبيدو.

كانت بائعة القُبَّعات تطبع حركاتها بأناقة قصوى، شبيهة بما يفعله القساوسة وهم يعاملون قرباناً منذوراً.

- كيف تبدو لك، مَلِكْتِي؟ - رائعة، أجابت أولبيدو.

- جَرَّيها، هناك، لديكِ المرأة. قالت ماريكيثا ذلك، مشيرة إلى مرآة جسد كامل، علَّتها بعضُ نقرات الزمن. وضعتُ أولبيدو القُبَّعة الشمسية فوق تسريحة شَعْرها القصيرة السمراء، وهي تنظر إلى نفسها في المرأة. حَرَكْتُ رأسها يَسْرَةً وَيَمْنَةً وهي تقول:

- هل تناسبني؟

- فاتنة جداً، مع هذه البذلة! أَقَرَّتْ ماريكيثا.

كانت أولبيدو تَلْبَسُ بدلة قميص بيضاء مرشوشة بنقط دائرية سوداء. كان الكُمُّ قصيراً وفتحة العنق محتشمة، أمَّا التَّنُورة، فكانت من النوع الواسع évasée بدءاً من الحزام العالي المضغوط، لتنزل بوضع سنتيمترات تحت الركبتَيْن، على شكل ناقوس.

- كُلُّ شَيْءٍ يَنَاسِبُكَ، غَالِيَتِي!

اِبْتَسَمْتُ أَوْلَبِيدُو، فَقَدْ تَعَوَّدْتُ أَنْ تَسْمَعَ الْإِطْرَاءَ مِنْذُ كَانَتْ طِفْلَةً.

- لَكِنِّي لَا أُرِيدُهَا مَعَ هَذِهِ الْبَدَلَةِ - قَالَتْ.

- أَوْدُ اسْتِعْرَاضَهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ مَعَ مَجْمُوعَةٍ أُخْرَى مِنَ الْأَلْبَسَةِ. لَدَيْنَا حِفْلٌ مُوسِيقِي بِمَسْرَحِ ثِيرِيَانْتِيسِ.

- آه، أَجَلْ، سَيُقَدِّمُونَ ثَنَائِيَةَ الْأَفْرِيقِيَّةِ، صَحِيحٌ؟ نَصَفَ زُونَاتِي سَوْفَ يَكُنُّ هُنَاكَ. وَأَنْتِ، مَلِكَتِي، مَاذَا سَتَلْبَسِينَ؟

- طَيِّبٌ، انْظُرِي. لَقَدْ فَكَّرْتُ فِي فَسْتَانٍ سَهْرَةٍ كُنْتُ قَدْ لَبَسْتُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً. هُوَ مِنْ تِلْكَ النُّوعِيَّةِ ذَاتِ الْأَكْتِافِ الْعَارِيَّةِ، الَّتِي تُسْتَعْمَلُ الْيَوْمَ بِكَثْرَةٍ. تَامَّ السَّوَادَ وَرَصِينَ جَدًّا وَعَصْرِي جَدًّا. صَمَّمَهُ لِي خِيَّاطُ كَارْلُوسِ الْمَالِطِيِّ بِنَاءً عَلَى فِكْرَةٍ أَخَذْتُهَا مِنْ فُوكِ *Vogue* (*).

- هَذَا اللَّبَاسُ مِثَالِيٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّهْرَةِ. مَعَ الشَّعْرِ الْمَشْدُودِ وَالْمَلْفُوفِ لِلْأَعْلَى، وَقِلَادَةِ اللُّوْلُوِّ الْمُتَنَاعِمَةِ مَعَ الْأَقْرَاطِ وَالْقَفَازَاتِ السَّوْدَاءِ سَتَكُونِينَ مُحْسُودَةً مِنَ الطَّنْجِيَّاتِ كُلِّهِنَّ وَالْإِسْبَانِيَّاتِ وَالْعِبْرِيَّاتِ وَالْإِنْغِلِيزِيَّاتِ. لَكِنْ، لَا تَلْبَسِي الْقَبْعَةَ، يَا حَبِيبَتِي. فَالْقَبْعَةُ جُعِلَتْ لِلنَّهَارِ لَا لِلَّيْلِ.

- أَوْف! - قَالَتْ أَوْلَبِيدُو مُتَذَمِّرَةً.

- أَعْرِفُ ذَلِكَ، لَكِنِّي جَدُّ مُتَحَمِّسَةٍ لِلظُّهْرِ بِالْقَبْعَةِ.

- إِذْنُ، سَيَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ ارْتِدَاؤُهَا مَرَّةً أُخْرَى، فِي عَرِّ ضَوْءِ الشَّمْسِ، أَكْثَرُ أَوْلَبِيدُو.

كَانَ مُتَجَرُّ مَارِيكِتَا مَوْلِينَا لَصْنَعِ الْقَبْعَاتِ مِنَ الْمَتَاجِرِ الْأَكْثَرِ أُنَاقَةً بِالْمَدِينَةِ. يَقَعُ بِحَيِّ الصِّيَّاعِينَ، عِنْدَ مَدْخَلِ الْمَدِينَةِ. وَإِلَى هُنَاكَ مَشَتْ

(*) مَجَلَّةٌ مُؤَصَّةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ ظَهَرَتْ سَنَةَ 1892.

أولبيدو بعد تناولها وجبة الإفطار لتسحب القُبَّعة التي طلبتها قبل أسابيع. كانت القُبَّعة موضوع حُبٍّ من نظرة أولى، بسبب صورة صيفية لغريس كيلى وهي تلبسها. كانت أولبيدو تُحِبُّ الظهور بها، لكن كلام ماريكتا في شؤون الأناقة كان حاسماً.

ماريكتا المَالَقِيَّة المُولِد، بدورها، كانت تعيش في طُنْجَة منذ طفولتها، وتعلَّمت صناعة القُبَّعات في الورشة المرموقة ل مدام بواسوني .madame Boissenet

- كيف هو الحال، يا مَلِكْتِي، بالنسبة إلى بقية الأمور؟ سألت ماريكتا أولبيدو المتأثرة الوجه، وهي تناولها صندوق الكعك ذي الورق المقوَّى.

- ما رأيُ زوجكِ بهذا كلِّه الذي يقال عن موضوع الاستقلال؟ هل علينا الرحيل؟

قبل شهور، وفي فصل الربيع أعادت فرنسا وإسبانيا للمغرب سيادته بعد عدَّة عقود من نظام الحماية. وبمقتضى ذلك، كان مُنتظراً أن تُفقد طُنْجَة وضعها الدولي، لتندمج من جديد في المملكة الشريفة.

- يعتقد كارلوس أن هذا لن يكون الآن، أضافت أولبيدو وهي تتناول كعكة وتقوم بقضمها. تُعَقِّدُ الآن ندوة دولية، وما يريده الأوروبيون هو أن يضمن الملك محمَّد الخامس بأن تستمرَّ المدينة على وضعها الخاص. وإذا ما حقَّقوا ذلك، فستبقى لنا على الأقلُّ بضْعُ سنوات.

- يا ليت ذلك يكون صحيحاً، لكن الناس بدأت في الحديث عن الرحيل. اليهود بدؤوا يحزمون حقائبهم للذهاب إلى إسرائيل، أو فرنسا، أو فنزويلا، أو كندا.

صانعة القُبَّعات كان لها العديد من الأصدقاء اليهود السَّفَارِذِيِّين، حتَّى إنها كانت تُدَرِّش بالحكيثيا^(*).

(*) لهجة يهود منطقة الشَّمال المغربي، والتي هي خليط من العبرية والإسبانية والدارجة المغربية.

- هذه المدينة - قالت أولبيدو مُتفلسِفةً - شبيهة بالحُلُم، كُلُّ شيء يمكن أن يَحْدُث، لكن، لا شيء دائم.

- هناك خوف نعم، قالت أولبيدو مُؤمّنة على كلامها. توماس بوغيلا، رئيس كارلوس سيعود إلى إسبانيا نهاية العام. يبدو أنهم عرضوا عليه الاشتغال كصحفيّ، في مَدْرِيْد؛ ذلك لأنه شيوعي قُحّ. اشتغل في صحيفة الشمس *El Sol*، وكان صديقاً لفدريكو غارسيا لوركا.

- حسناً، يا لحظّ الرجل الذي وجد المكان الذي يذهب إليه! - قالت ماريكيثا مُتنهّدة - أنا وابني، لا مكان لنا في إسبانيا، ولو حتّى للسقوط ميتين!

أكملت أولبيدو كعكتها وهي تُفكّر فيما حكى لها إيميليو سانت دي سوتو Emilio Sanz de Soto عن ماريكيثا مولينا. كان إمليو مديراً للنادي السينمائي روكسي Roxy، وصديقاً لأسرة سيبوليدا. وبقدر ما كان مُحبّاً للنميمة كان مُثَقِّفاً؛ فإذا كُنْتَ تودُّ معرفة شيء عن أحد الجيران، لم يكن عليك إلا أن تسأله.

أكّد إيميليو أن ماريكيثا وصلت طُنْجَة وهي طفلة - قبل الحرب العالمية الثانية بوقت طويل - صُخْبة أمّها التي أتت باحثة عن عمل. وهنا تعرّفت على زوجها أَلْبَارُو باثكيس Álvaro Vázquez الذي كان يشتغل نادلاً بالسوق الداخل. خلّف الزوجان طفلاً واحداً، سَمِيَاه أنطونيو Antonio. أتى أنطونيو العالم، في ليلة من ليالي يونيو سنة 1929، شهراً ونصف قبل موعد ولادته، وسط حفلة كانت تحضرها أمّه، ولتخدير ماريكيثا التي كانت توشك أن تلد - أضاف إيميليو مُتفكّهاً - قامت مضيضة الحفل بإسكارها بالشامبانيا، وحتّى يتمكّن الرضيع الخَدِيجُ من العيش، قامت بتسليمه لمرُضِعة سوداء من العرائش.

انتهى ألبارو، تاركاً أسرته للذهاب إلى وجهة مجهولة، أمّا ماريكيتا، فقد أحسّت - بحسب شهادة إيميليو - بالارتياح، لأن نادل السوق الداخل كان مدمن كحول عنيفاً.

فيما يتعلّق بأنطونيو باثكيس، فقد تحوّل إلى مراهق، شاهدته أولبيدو لأكثر من مرّة مُنخرطاً في حفلات سُكر طُنْجِيّة صاخبة. كان رجلاً صغير الحجم، خجولاً وأصلع، يرتدي نظّارتَيْن. كان يلبس دائماً، بذلة وربطة عُنق مسؤول رسمي. كان سَكيراً منفلتاً، وأغلب الظنّ مثليّاً. كان الكلّ يدعوه بأنطونييتو Antõito، وكان سكرتيراً ليهودي هنغاري استقرّ بطُنْجَة فارّاً من المذابح النازية.

كان أنطونيو ينشر من حين لآخر مقالاتٍ في صحيفة إسبانيا، ويُوَقِّعها باسم أنخيل باثكيس Ángel Vázquez. كان طموحه أن يصير كاتباً.

مسحت أولبيدو أصابع يدها اليمنى بمنديل صغير من الدانتيل، سحبتّه من حقيبتها اليدوية، وطلبت من ماريكيتا فاتورة القَبَّعة.

- كيف تريدونها، حبيبتي؟ بالفرنك، أو الليرة أو الدولار أو البَسِيْطَة؟

- بالبَسِيْطَة. بعد أن قامت أولبيدو بدفع ثمن القَبَّعة، وقبل أن تشرع في العودة إلى منزلها مُحَمَّلة بتلك العلبة الدائرية غير المريحة، سألت صانعة القَبَّعات عن ابنها أنطونييتو.

- إنه سعيد، يا مَلِكْتِي. لقد كتب قصّة بعث بها لجائزة أدبية في إسبانيا. وانظري، وانظري لقد فاز بالجائزة.

- لا تتصوّري مقدار فرحي. انقلي له تهنئتي، قالت أولبيدو، وهي تفتح باب متجر القَبَّعات على صخب المدينة. كان هناك مورو (مغربي) يمرّ بحمار مُحَمَّل بحقائب:

- انتبه للجلباب! Balak, chillaba قال، لينبّه المارة بأنه لا ينوي الانحراف أو التوقّف. صرخاته أسكتت للحظة نداءات مراكز صيارفة العملة. كلاً الصوتين طغى عليهما صوت مؤذّن إحدى المساجد القريبة، الذي بدأ نداءه لصلاة منتصف النهار بلحن فيه انتحاب، ثمّ التواء شبيه بغناء العَجَر الأندلسيين.

ذكَر هذا أولبيدو باقتراب ساعة وجبة الغداء، وأنه سوف يتعيّن عليها تناول أكلها بمفردها بالبيت، لأن كارلوس لديه غداء عمل.

- سأفعل - قالت ماريكيتا - وأنت انقلي سلامي لزوجك. أنت لا تعرفين كم أنت محظوظة لأن لديك رجلاً يركّك عند ما تمرضين، رجلاً مثل سبانسر ترايسي Spencer Tracy

لم يكن كارلوس سيبوليدا هو سبانسر ترايسي، فكَّرت أولبيدو، وهي تلبس جوارب النيلون، وتثبتها فوق المشابك المعدنية لرباط الحزام *porte-jarretelles*. أوجه الشبه بينهما كانت تقف عند كون سبانسر ترايسي قام بدور صحفي في فيلم قديم، مع كاترين هيبورن Katharine Hepburn. شاهدته في أثناء مراقبتها بملقًا، وتذكر أن عنوانه كان "امرأة السنة"، لكن هذا كان كل شيء، لم يكن كارلوس يهتمُّ بها حين تمرض. كان على العكس تماماً، يغضب كطفل مزاجيٍّ، مُنع عنه الآيس كريم، وذلك حين لا تستطيع مرافقته إلى حفلٍ ما، لأنها إما في دورتها الشهرية أو مُصابة بنزلة برد.

كارلوس كان يُعجبه أن تظهر معه زوجته أمام المجتمع الطنجي. كان هذا جلياً. ولعلَّ في ذلك دليل آخر - حدثت أولبيدو نفسها - على حُبِّه الكبير لها. كان لهذا التفكير أثر البلمس على حالتها النفسية.

انتهت من ارتداء الجوارب التي بدت لشدة ملأَمَتِها لساقَيْها كما لو كانت جلدًا ثانياً. كان مَلَمَس الجوارب لطيفاً، ناعماً وخشناً في آن. كانت الجوارب من موديل كأس الشمبانيا، وكانت ذات كعوب مُقوَّاة، كعوب مضاعفة، *Dupliquette Heel* يقول إشهار شركة دلامال & سون "Dalamal & Sons بالإنكليزية في صحيفة إسبانيا.

كانت هذه الإعلانات تسحر أولبيدو، وكانت تلك هي الأكثر جرأة

بالصحيفة. حيث رسومات فتيات مُبتسمات، يُبرزَن سيقانهنَّ حتَّى الأربطة التي تُطوَّق الفخذَيْن. كانت المَجَلَّات الأمريكية تُسمِّي هذا الصنف من الفتيات المُمعِنات في الصَّفَاقَة بـ فتيات الدبوس Pin-up.

كانت أولبيدو تشتري جواربها طبعاً من دلامال & سون، وهو بوتيك تابع لبعض الهنود القادمين من جبل طارق، والذي يقع في أحشاء المدينة القديمة، رَقَم ثلاثة، شارع كورو، الحادية عشرة، وهو ممرٌ مُتَشَعِّبٌ ومُتَفَرِّعٌ عن السوق الداخل، من زاوية فندق فوينتيس.

هذه الجوارب كانت آخر موديلات النيلون القادمة من الولايات المتَّحدة الأمريكية، وكانت إلى جانب سعرها الباهظ نادرة، ومن الصعب العثور عليها في إسبانيا الفرانكوية.

سمعتُ ضجيج باب المنزل وهو يُفَتَّح، وسمعت تحية كارلوس للخادمة التي كانت تذرع الصالون جيئةً وذهاباً. دفعها الحياء لترتدي لباسها الداخلي، قبل أن يدخل زوجها غرفة النوم.

كانت تَلْبَسُ ثُورَة حريرية في لون القشِّ مع دانيل في أسفلها. كان الفستان الذي كانت سترتيده الليلة لا يسمح بارتداء ثُورَة نسائية كاملة. كان بدون حمَّالات، ومن النوع الذي أطلقوا عليه "كلمة شرف" لأنَّ الخيَّاطين أعطوا كلمة الشرف لزبوناتهنَّ، مُؤكِّدينَ لهنَّ أنَّ الفساتين لن تخذلهنَّ، وتقع منهن بطريقة غير لائقة في منتصف السهرة.

فتح كارلوس باب غرفة النوم، وتوقَّف فجأة حين اكتشف أولبيدو بالجوارب والثُورَة الداخلية والسوتيان الأسود دون حمَّالات. ابتسم باهتمام، فردَّت عليه مبتسمة بحرارة:

- مساء الخير، حبيبي.

- مساء الخير، أجا ب وهو يقترب ليطلع قُبلة على خَدِّها.

- كيف مرَّ يومك؟

- جيّد جدّاً، لقد جلبتُ القَبَّعة، وهي تناسبني بشكل رائع. لكنني لن ألبسها هذه الليلة، لأن ماريكيتا تُلحُّ بأنها لا تُوضَع إلّا في أثناء النهار. هي بالمناسبة تُسلِّم عليك.

- هذا لطف منها، قال كارلوس.

كان كارلوس طويل القامة، مترٌ وثمانون سنتيمتراً، ذا شَعْر كَسْتَنائيّ، وكان نحيلاً وذا وجه بارز العظام، وبه ثقب من أثر الجُدريّ. جلس على السرير لينزع حذاءه مُضيفاً:

- اليوم بالضبط، توصّلتُ بمقال ابنها أنطونييتو. سأرى إن كنتُ أستطيع نشره الأسبوع القادم.

هذا الأسبوع مُكرّسُ بأكمله، لمنح جائزة نوبل لخوان رامون خيمينيث Juan Ramón Jiménez. - تقول ماريكيتا إن ابنها أيضاً فاز بجائزة أدبية بإسبانيا.

- لا، ليس تماماً. يتعلّق الأمر ببقائه ضمن اللائحة النهائية لجائزة سِمُسِم Sésamo. لكن، يجب الاعتراف بأن الأمر لا بأس به، بالنسبة إلى ابن بائعة قَبَّعات.

جلست أولبيدو أمام منضدة الزينة، لتضع المساحيق على وجهها. كانت اللحظة مناسبة لتقترح فيها على كارلوس تغييراً في البرنامج. سيكون الأمر مُتأخراً جدّاً لو انتظرتُ حتّى ترتدي فستان السهرة.

- كارلوس! - قالت أولبيدو بصوت عذب - لا يحلو لي كثيراً مشاهدة الأوبرا التي يُقدِّمونها في ثيربانتييس، سوف يُصيبني الملَل.

شجّعها صمتُ زوجها، فاستمرّت قائلة: لماذا لا نذهب لعرض

”المجتمع الراقي“؟ جريدتك تتحدّث عن هذا الفيلم بشكل جيّد. وهو الأخير الذي مثّلت فيه غريس كيلي.

- لا تقولي ترّهات - أجاب كارلوس بحِدّة - أصدقاؤنا جميعهم سيكونون ثيرياتيس. وستكون لديكِ الفرصة لمشاهدة هذا الفيلم صُحبة إحدى صديقاتكِ. أكيد أن زوجة لويس ماركينا سيُعجبها أيضاً مشاهدته.

- لكن؟

- أولبيدو! لا لكن، ولا كلام زائد. انتهى من تزيين نفسك مرّة واحدة، بينما أنا سأذهب لأستحمّ. علينا الخروج في حدود نصف ساعة. لم تُلحّ أولبيدو، واستمرّت في تزيين وجهها.

- لم تكن السيّارة ضرورية لرحلة الذهاب إلى العرض.

كانت عائلة سيبوليدا تعيش بالطابق الثاني لبناية، كان أحد أبناء البلد يدير بطاقتها الأرضي متجرّ ساعات تحت اسم "مَدْرِيْدُ بَارِيْس".

كان المنزل بشارع Viñas، قُبالة سينما موريثانيا وبجانب حانة لوباغاد Le Parade حيث كان الكُتّاب البوهيميون والجواسيس الأنجلوسكسونيون يأتون لإفراغ مخزون النبيذ ودَفْع حساب شرائح اللحم الضخمة والهامبرغر.

كانت ساحة فرنسا توجد على بُعد أربع خطوات، ومسرح ثيرياتيس على بُعد عشر دقائق أسفل التلّ، لكن، بكلّ صراحة، كان من الصعب العودة مشياً على الأقدام، وتسَلّق المرتفع خاصّة بملابس السهرة، لذلك ذهباً في شيفي بيل إير Chevy Bel Air ذات اللون الأزرق الفَيَرُوْزِيّ التي كان كارلوس شديد الاعتداد بها. كانت جديدة تقريباً، ومن موديل دار شيفروليت Chevrolet للعام 1945. اشتراها كارلوس من زميل له إنكليزي، تعب منها بسرعة بعد استقدامها من الولايات المتّحدة. وكان قد دفع فيها مالاً كثيراً، أي ما يعادل ثلث الراتب السنوي لكارلوس في

صحيفة إسبانيا. تركا سيّارة بيل إير بالمنحدر الشاطئي في رعاية حارس سيّارات، وكان عليهما الصعود بضعة أمتار مشياً على الأقدام عبر حَيِّ إسبرانثا أوريانا Esperanza Orellana حيث يوجد ثيربانتييس.

كان كارلوس يُوَائِم مشيته مع مشية كَعْبَي زوجته. كانا أُنَيَقَيْنُ جَدّاً. هو يرتدي بدلة رسمية بربطة عُق، وهي بفستانها الأسود ذي الكَتِفَيْنِ العارِيَتَيْنِ.

جعلتِ الرطوبة الصاعدة من البحر أوليبدو ترتعش، وفكّرتُ أن المِعْطَف، كان شيئاً لا مَحِيدَ عنه. راحت الأيام تقصر مع الخريف، وها هو الظلام على وشك الإطباق.

ازدحمت السيّارات والمارّة أمام البوّابة الخارجية للمسرح. في العمق كانت هناك لافتة خزفية عصرية مُضاءة بمِسْلاط، ومُحاطة بأكاليل نباتية، تعلن: "المسرح الكبير لثيربانتييس 1913" كان الاسم مكتوباً بأحرف داكنة فوق خلفية صفراء.

دخلت أسرة سيبوليدا الباحة الخارجية، وهي تُلقِي التحية ذات اليمين وذات الشِّمَال. ومن وسط الظُّلْمة خرج مُعْزِيٌّ (موريتو) بشَعْر مُجَعَّد وأنف صَقْرِيٍّ، رافعاً صوته:

- سجائر، يا سيّدي، سجائر؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

طَنْجَة، ربيع 2002

أشعلتُ سيجارة مارلبورو، شاتماً الأعيرة المتقاطعة لمؤدّني مساجد راس المصلّى، ومحمّد الخامس التي أيقظتني حين كان يفصلني وقت طويل عن طلوع شمس ذلك الخميس. فيما يزيد عن ستّة أشهر قضيتها بشارع إنكلترا، انتهيتُ مُتظاهراً بالصَّمَم، إزاء صلاة الفجر *Salat Al Fachr*، الصلاة الأولى في اليوم التي تَعْقُبُ الفجر. لكن نومي ذلك الأسبوع كان خفيفاً، خاصّة تلك الليلة التي أعقبتُ ما حكّته لي ليلي.

كانت ليلي شديدة السرعة. ففي أقلّ من ثمانية وأربعين ساعة، استطاعت تحديد موقع نادلة المنزّه التي شكّت ألبيرتو، وقامتُ بزيارتها في شُقَّتْها التي تقع بضواحي المدينة في بوخالف، وانتزعتُ منها اعترافاً، أفضتُ به الفتاة وسط نوبات من البكاء.

لم يكن لاعترافها حُجِّيّة الدليل، ما لم تُقرّ به أمام الشرطة أو القاضي. وهو ما أقسمتُ ليلي بأنها لا تستطيع فعله. ولكن، الأمر كان بالنسبة إليّ أكثر من كافٍ لتأكيد براءة صديقي.

ليلة الاثنين، وفيما تستعدُّ للذهاب للعمل بالفندق، تلقّت النادلة في شُقَّتْها زيارة من أحد رجال الشرطة بزيّ مدنيّ. ورغم أن الشرطي أشهر في وجهها صفيحة معدنية، إلّا أنها لم تتمكن من التعرف على اسمه، فهي لم تكن تعرف القراءة. كانت أُمِّيّة، ولدت وتربّت في إحدى قبائل جبّالة. ومع

ذلك، فشعار الصفيحة كان واضحاً: أسدان ذهبيان يحملان تاجاً، تحته نجمة خماسية خضراء وشمس مُتوهَّجة.

ذَكَرَ الشرطي الفتاة بأن زوجها ما زال بالسجن في انتظار محاكمته في قضية مُخدِّرات، وأنه من المحتمل أن يُحكَمَ بسنواتٍ كثيرة، ولكن عدالة المملكة يمكنها كذلك أن تكون رحيمة إذا هي أبدت روح التعاون في إطار قضية ذات بُعد وطني: في إحدى غرف المِنْرَةِ التي كانت تحت مسؤوليّتها ذلك الصباح، كان يرقد عدوُّ إسبانيٍّ خطير للملك والإسلام. الإسباني كان ينوي ذلك اليوم العودة إلى مَدْرِيد، لكن، كان بيدها أن تمنعه؛ كان يكفيها أن تشكوه، لأنه حاول الاعتداء عليها جنسياً.

لن يكون للنادلة مشكلات مع الفندق، وبالمقابل سيعرف الملك والله كيف يجازيها على صنيعها.

- أنتِ فليب مارلوو Philip Marlowe طُنْجَة! قلتُ لِلَّيْلِ فجأة، وهي تقصُّ عليَّ القِصَّة، ليلة الأربعاء. كنَّا نشرب - بعد حصَّتي المسائية - عصير برتقال في شُرْفَة مقهى باريس الكبير Gran Café de París. لقد كنتُ مُندهِشاً بالفعل من مهاراتها البوليسية.

- مَنْ يكون هذا؟ سألتُ.

كان يُعْجِبُها أن تقرأ، لكن جنس الروايات البوليسية لم يكن ضمن قائمتها المُفضَّلة.

- كيف تسألين عَمَّن يكون هذا؟ إنه المُحقِّق في روايات شاندلر Chandler، نظرتُها المُتشكِّكة جعلتني أستدرك قائلاً:

- طيِّب، مارلوو، هو هانفري بوغارت Humphrey Bogart. وهذا طبعاً تعرفينه.

- طبعاً أعرف بوغارت. لقد سبق وقلت لي للمرّة الألف، بأن قصّة فيلم "كازا بلانكا" حدثت في الواقع بطُنْجَة. وإن طُنْجَة كانت خلال الحرب العالمية الثانية المدينة التي يلجأ إليها الفارّون من النازيّين، وكانت بَوَابَة الهروب بالنسبة إلى اليهود والمقاومين الأوروبيّين.

- تماماً، ولحدود اللحظة، لا أعرف جيّداً لماذا انتهى مُنتجو هوليوود إلى تسمية هذا الفيلم بـ كازا بلانكا Casablanca. ربّما لأن طُنْجَة كانت مُحتلّة آنذاك من طرف قوَّات فرانكو، وبالنسبة إلى الولايات المتّحدة كان يلائمها أكثر أن تدور أحداث فيلم كهذا في منطقة بالشّمَال الأفريقي يسيطر عليها نظام بيتان Pétain.

ما هو فرنسي كان أكثر أهميّة وبريقاً، من الناحية السياسية، أو لعلّ السبب يكمن في كون مُنتجة أخرى كانت قد سجّلت اسم طُنْجَة Tangier لفائدة فيلم لها سيُخرُج لاحقاً. كان الأمر يتعلّق بـ قصّة مثيرة thriller قامت بتمثيلها "ماريا مونتيس" María Montez لكني لم يسبق لي أن شاهدتها.

لندع الأمر. لقد اتّفقتُ أنا وليلي بأن تضع حدّاً لتحقيقاتها، وأن أخبر المُفوّض الجديد وقنصل إسبانيا باعتراف النادلة. فهم - على أيّة حال - بإمكانهم حمل الفتاة على سحب شكواها، وبالتالي يتمُّ إطلاق سراح أليبرتو. كانت أليسيا مُتفهّمة جدّاً. فرغم أنني لم أحكِ لها عن اكتشاف ليلي، إلّا أنها تركت لي الحرّيّة صباح الخميس، لإتمام بعض الإجراءات الشخصية، أوّلاً مع القنصل الذي حصلتُ لي هي نفسها على موعد معه، ثمّ مع المُفوّض الجديد الذي رضي باستقبالي بمطار ابن بطوطة. كان القنصل ينتظرني بمكان إقامته، وهي بناية واسعة من طابقين وجدّان مصبوعة بلون القشدة وأسقف بُنيّة. كانت البناية تقع على بُعد عشرات الأمتار من البَوَابَة

المُطَلَّة على شارع الحبيب بورقيبة. مسافة غمرها العشب الاصطناعي
وأصصُ زهر المسك الأحمر وأشجار النخيل النحيلة.

كان كلُّ شيء يُشعُّ أناقةً واهتماماً وتوهُّجاً. كانت المرّة الأولى التي أضع
فيها قدَمي هناك. بقاعة الاستقبال، كانت هناك منضدة عليها تمثال
نصفي من البرونز لامرأة شابة ذات مظهر شعبي من أواخر القرن التاسع
عشر أو أوائل القرن العشرين.

حين ذهب النادل الذي كان في استقبالني لإخطار القنصل بوصولي،
حدّقتُ في إفريز التمثال الذي كان يحمل اسم كلاودينا Claudina. لم
يعن لي الاسم شيئاً.

لم يتأخّر ممثّل إسبانيا في عاصمة البوغاز، كثيراً في الظهور. كان يلبس
في هذا اليوم زياً رسمياً خفيفاً مع حذاء لامع، يشبه الحذاء البُنّي الذي
كان يلبسه بالمطار. رائحة العطر النفاذة - أو كريّم ما بعد الحلاقة أو مزيج
بينهما - ما تزال هي نفسها لم تتغيّر.

- أليس سيادتُك ابن الصحفي الشهير كارلوس سيبولبيدا؟

سألني بعد أن قادني نحو أحد الصالونات، حيث جلسنا على كرسيّين
منفصلين.

كان الصالون مُزّيناً بلوحات زيتية ورسوم مائية لعصور وأساليب فنيّة
متنوّعة.

- نعم، ذلك السيّد كان أبي.

- ذلك السيّد! ليست هذه هي الصيغة المعتادة في الحديث عن أب!

- أشار بلطف.

- نعم، هي ليست كذلك - قلتُ مُوافقاً - لم تكن علاقتنا جيّدة أبداً.
- للعلم، فأبوك كان من الرجال المفاتيح في الانتقال الديمقراطي.
- استخدم القنصل هذه النعمة التبجيلية التي تشير بها السلطات الإسبانية إلى السنوات التي تَلَتْ موت فرانكو. التزمتُ الصمت، فيما استمرَّ هو قائلاً:
- إن لم أكن مُخطئاً، فقبل أن يُحقِّق أبوك نجاحاً في مَدْرِيد، كان يشتغل هنا؟
- نعم، لم تكن مُخطئاً. لقد كان يشتغل هنا في صحيفة إسبانيا.
- مُهمُّ، مُهمُّ جداً. توقَّف ليتنبَّه للنادل الذي دخل الصالون. كلانا طلب قهوة مقطوعة مع الحليب البارد.
- وأنتَ، لماذا لم تُردُّ أن تكون صحفياً؟
- تابع، بينما بدأ النادل في الانسحاب.
- طُرح عليَّ هذا السؤال لحدِّ التخمة. كان الناس يُسلِّمون بأن العمل الصحفي ينطوي على امتيازٍ مَّا، وأنه ذو خصائص وراثية. وأفترض أنه لم يخطر لهم طرح السؤال نفسه، على ابن سائق الحافلات. كنتُ دائماً أُجيب بالطريقة نفسها. تبدو لي الصحافة حرفة مقيتة، الصحفيون هم مجموعة مُغفلين يأكلون من الفتات الذي يسقط من مائدة الأقوياء. تعلَّمتُ ذلك من مهنة أبي. صدرت عن القنصل إيماة انزعاج. فالدبلوماسيون لا يُعجبهم الكلام اللَّاذع.
- لا تكن قاسياً، فالصحفيون لهم دَوْرهم في المجتمعات الديمقراطية.
- أجل، مثل المُنظِّفين والشرطة وحفَّاري القبور، والفرق هو في كونهم

يحسبون أنفسهم ذوي درجة رفيعة. أصغى القنصل بتركيز واضح، لِمَا استقصته ليلي التي قدَّمتها باعتبارها صديقة مغربية، مُحركاً رأسه بين الفينة والأخرى تعبيراً عن موافقته، وبما يفيد بأن القصة لم تبدُ له غريبة. وحين أنهيتُ كلامي أشار إلى أن روايتي كانت تتَّفَق مع الشكوك التي ساورتُه.

كان من الأرجح - قال القنصل - أن الشرطي المغربي المُفترَض، الذي خطَّط للوشاية بألبيرتو ماركينا، كان يشتغل لفائدة الشركة الفرنسية التي كانت تنافس نظيرتها الإسبانية. وفي صراع من هذا القبيل حول عقود بالمليارات تكثر الحيل القذرة والضربات تحت الحزام *coups tordus*. ولعلَّ للأمر علاقة بمحاولة نزع المصداقية عن عرضنا للظَّفَر بالرخصة المغربية الثانية للهاتف النقال. عرضٌ مثاليٌّ مدعوم من طرف الرئيس أزنار Aznar شخصياً، ومن طرفي -دون شكٍ - قال مُضيفاً.

هذا كُلُّه في غاية السرِّيَّة، ولا ينبغي أن يَخْرُج من هنا - قال مُستخلصاً، وهو يُسوِّي الرِّزَّ الذهبيَّ للكمِّ الأيسر لقميصه - ولستُ أقول لك هذا، إلَّا لأنك صديقُّ ألبيرتو ماركينا، ولأن مديرة معهد ثيربانتيس قدَّمت لي إفادات جيِّدة عنك. ثمَّ إن خبر اعتقال ألبيرتو - كما ترى - لم يُنشر بعدُ، سواء في الصحف المغربية أو الإسبانية.

- لا أقرأ صحفاً، لكنني بدأت أستغرب بسبب كونهم لم يتَّصلوا بي من مَدرِئِد للحديث معي في الموضوع.

- لا تقلق، شركة ألبيرتو ماركينا وكذا أُسرته على علم بالوضعية، ويعرفون أننا نحاول انطلافاً من هذه القنصلية، والسفارة في الرِّباط والحكومة، حلَّ المشكل بأقصى سرعة وتكثُّم ممكنين.

أحسستُ بالضالَّة إزاء استدعاء هذا الكمِّ كُلِّه من السلطات. ولم يترك لي القنصل من منفذ آخر سوى سؤاله عن ألبيرتو.

- لقد نقلوه إلى السجن. ويحظى مع ذلك هناك بالرعاية اللازمة كلها.
وإذا كنتَ ترغب في ذلك، يُمكنني أن أسهر على ترتيب زيارتك له.

- سوف أكون مُمتناً لك غاية الامتنان. تعهّد بالأمر، ثمّ نهض إيداناً
بانتهاء المحادثة. نهضتُ بدوري، واقتربت من لوحة أثارت اهتمامي،
كانت خلف ظُهره. كانت رسماً مائياً يُمثل فتاة بشعر أسمر، انعكاساته
ضاربة للحمرة، بشرتها قَرفِيّة، وشفتاها مثل الفراولة. قد تكون من
عجريات ساكرومونت Sacromonte أو امرأة من تاهيتي للرسّام غوغان
Gauguin. كانت تلبس عقداً من مَرَجَان وزهرة داليا فوق إحدى أُذُنَيْها،
كانت تتوسّط شجرتي صَبَّار، وكان البحر في خلفية الصورة.

- إحدى رسوم أبيرلي Apperley؟

- نعم، هي بالفعل لأبيرلي. هل تعرف هذا الفنّان؟ طبعاً، كان بريطانياً،
لا أذكر الآن إن كان إنكليزياً أو ويلزياً أو إسكتلاندياً. أذكر أنه عاش في غِرْنَاطَة
وطُنْجَة، على الأرجح في الثلث الثاني من القرن الماضي. هو مدفون هنا،
بضريح كنيسة القديس أندرو Saint Andrew الأنغليكانية.

- أرى أنك على اطلاع بالموضوع.

- أنا أستاذ، وتهمّني مثل هذه الأمور.

- رافقني القنصل إلى باب إقامته. كانت تُطلُّ على فسحة، أوقَفَ فيها
سيّارة مرسديس سوداء. وفي نهاية الطريق المحفوف بأشجار النخيل وأزهار
المسك، كانت هناك البوّابة الحديدية والشارع.

- أين تركتَ سيّارتك؟ سألني.

- لا سيّارة لديّ، أتيتُ من ثيرباتيس مشياً على القَدَمَيْن، في النهاية،
هو هنا بالجوار.

- آه، رائع! المشي أفضل طريقة للحفاظ على الصحة - قال ذلك متأسفاً، وكأن شيئاً مآ أو أحداً مآ يمنع من فعل ذلك - وفي الأخير كرر قائلاً: كل الذي تحدثنا فيه سريّ تماماً.

خرجتُ وأنا أحسُّ أنني أحرزتُ تقدُّماً أشبه ما يكون بأن يقول لك العرب كلاماً شبيهاً بـ: بكرة، إن شاء الله! وغداً، إن شاء الله! ربّما كان ذلك إحساساً خاطئاً، فلعلّي في هذه الزيارة شرعتُ في هرّ شجرة كانت أغصانها مخفيّة عني، ولن تتأخّر ثمارها المتعفّنة في السقوط، أو لعلني أفعل ذلك في إحدى تحركاتي القادمة.

يومان مرّاً على موت الجهادي، من ليلة الجُمُعة إلى يوم السبت. لم أقتل ذلك الشخص ولم أكن حتّى راغباً في موته. لكنه كان، بلا مُنازع، مُفجّر الطعنة التي أرسلتهُ ليجتمعَ مع خالقه. أعترف أن ذلك لم يُسبّب لي وخز ضمير أبداً. تتابعت الأحداث دون أن أكون واعياً بتناسلها.

عند خروجي من إقامة القنصل، ركبْتُ سيارَةَ أُجرة كبيرة، وطلبتُ من السائق أن يحملني للمطار. راحت تنبت في خلاء الضواحي كتل المنازل السكّنيّة الجديدة. كانت تبدو فارغة وكثيرة، ولم يكن بمحيطها حتّى طُرق مُرصّفة أو أعمدة إنارة عمومية. كان الطنّجِيُون يتهامسون بأنها بُنيت من قِبَل تجّار المُخدّرات، وبهذا الأسلوب كانوا يُبيّضون أموالهم. معرّ وأغنام وأبقار وحمير كانت ترعى في البقع الخاوية التي ستُخصّص للبناء.

عقب الحادي عشر من سبتمبر، تمّ وضع قوس راصدٍ للكتل المعدّنية، لمراقبة الدخول من بَوَابَةِ المطار. وضعتُ هاتف نوّكيا والقطّع النقديّة المعدّنية، والولاعة وعلبة السجائر والمفاتيح والحزام وقلم الحبر، في صينية بلاستيكية، مجتازاً الامتحان بنجاح.

عند وصولي رَدّهة المطار، اتّجهتُ نحو أوّل شرطي وجدتهُ يلبس زِيّاً رسمياً، وسألتهُ عن المُفوّض الجديد. كان الشرطي نفسه من رافقني نحو مخدع المُفوّض. هناك، كان كلّ شيء تقريباً كما تركتهُ يوم الاثنين ساعة العَدَاء. كان الجديد يلبس البدلة الرمادية المُبتدلة نفسها، وكان

بالمظهر ذاته، مظهر المُوَظَّف الشديد الانتباه للتفاصيل. كان يجلس أمام المكتب المعدني المُكَدَّس بالملفات والأوراق المُحَكَّمة التنظيم نفسه. وكانت تبرز من فتحة قميصه الشارة نفسها، شارة أتلتيك تطوَّان. كانت صورة الملك البدين هي ذاتها.

- لم أتمكن من ترتيب لقاء لك مع صديقك، لأن الموضوع خرج للتو عن نطاق اختصاصي - قال ذلك بمجرد رؤيتي جالساً على الكرسي البلاستيكي غير المريح نفسه - لقد تكفَّل بالموضوع زملاء من وحدة خاصَّة، قدِّمُوا من الرِّبَاط.

- وماذا يعني ذلك؟ عبارة "وحدة خاصَّة" كان لها وَقْعها المرعب على حالتي النفسية.

- هذا أمر طبيعي، سيّد سيبولبيدا. سبق لي أن أشرتُ لك بأن مهمَّتي في هذه القضية تقف عند حدود إلقاء القبض على صديقك، قبل أن يستقلَّ الطائرة إلى مَدْرِيْد والقيام بالإجراءات الأوَّليَّة.

- نعم، أذكر ذلك، ولكن الطبيعي هو أن شرطة مدينة طَنْجَة، هي مَنْ كان يتعيَّن عليها تولِّي الأمر. أليس كذلك؟ أفترض أن لديهم وحدة خاصَّة بالجرائم الجنسية أو شيئاً من هذا القبيل؟

أرعى الجديدي ذراعَيْه، وحرك كرسِيَّه للأمام مُسْنِداً ذقنه لفتحة أصبَعِي سَبَّابة يده اليسرى وإبهامها.

- نعم، يوجد شيء من هذا القبيل كما قلتَ أنت. لكن مسالك الإدارة المغربية يمكن أن تكون غريبة بعض الشيء، قال ذلك وقد خيَّل لي أنني ألح في عَيْنَيْه بريق تواطؤ سريع.

- في الأحوال كُلِّها، وما دمتَ قد أتيتَ إلى هنا، فاحك لي عن ذلك الشيء المُهم الذي كنتَ تُحدِّثني فيه عبر الهاتف.

حكيتُ له ما اعترفتُ به نادلة المِنْرَة لليلي. قَدَّمْتُ من جديد ليلي باعتبارها "صديقة مغربية" مجهولة.

استمع الجديد إليَّ بدون أدنى مقاطعة، مُوجِّهاً إليَّ نظراتٍ قوية، ودون أن يُغيّر من وضعية الذقن المسنود على اليد اليسرى. بمجرد الانتهاء من قصّتي، تراجع للوراء. أفرغني صوت الهاتف الثابت. كان هناك فوق مكتب المُفَوّض، لونه عاجي وقاعدته كما جهاز استقباله أنيقان. اعتذر لي المُفَوّض، وأجاب على المكالمة بـ "ألو" استفسارية. أصغى بضع لحظات، وأنهى المحادثة قائلاً: واخا (مُتَّفَق)، كان يمسك الجهاز بيده اليسرى، فافترضتُ أن يكون أعسر.

- أفهم، يا سيّد سيبولبيدا، أنك لا تريد إعطائي اسم صديقتك المغربية التي تكلمتُ مع خادمة الغرفة، وفي وضع مثل هذا، فإن ما تحكيه سوف لن يكون ذا فائدة.

نفيتُ ما قاله بحركة من رأسي، وقلتُ:

- أتفهّم ذلك، سيّدي المُفَوّض، لكنني أفترض أيضاً أن زملاءك المُكلّفين بالقضية بإمكانهم العودة للتحقيق مع فتاة المِنْرَة.

- أظنُّ أنني سأمرّر معلومتك للوحدة الخاصّة. هذا كلّ ما يمكنني فعله. فالقضية -أكُرّر- خرجتُ من يدي.

كان هذا كلّ ما اتَّفَقنا عليه، ثمّ توادعنا. هذه المرّة استعمل المُفَوّض يده اليمنى لمصافحتي. من جهتي افترضتُ أن مستعملي اليد اليسرى - إن كان صاحبي بالفعل أعسر - يستعملون يُمناهم في المصافحة لتفادي الوضعيات المُحرّجة.

عدتُ إلى المدينة في سيّارة أجرة أخرى كبيرة وضعتني عند بولفار

باستور، قُبالة الباب الأحمر القُرْمِزِيَّ لمكتبة الأعمدة Les Colonne
خَصَّصْتُ عشر دقائق لإلقاء نظرة على جديد المكتبة، ثمَّ خرجتُ وانعطفتُ
يساراً، ماراً من أمام مقهى كلاريدج Claridge القديم. ثمَّ انعطفتُ مجدداً
جهة اليسار نزولاً نحو فندق ريتز الذي كان على بُعد ثلاث أو أربع دقائق،
مُفْتَرِضاً أن شكري سيكون موجوداً هناك. قد كان بالفعل هناك، مُحْتَلّاً
طاولته المعهودة، مُتَأَمِّلاً قَيْنَةً خمر. لم ينتبه لمجيئي حتَّى أمسكتُ
بالزجاجة أفحصها. كانت من نبيذ مَالْقِيَّ بِكْرٍ. وكانت لا تزال مغلقة.

- السلام عليكم، Salam aleikum حَيِّتُ شكري.

- وعليكم السلام Aleikum salam

- من أين أتيتَ بها؟ قلتُ مشيراً للقَيْنَّة ذات العلامة الحمراء والسائل
القائم التي كنتُ ما أزال ممسكاً بها بين يديَّ.

- من أين سأتي بها، يا رجل؟ طبعاً من إسبانيَّ. فمنذ لحظة كان هنا
صحافي جاء من مَدْرِيْد لإجراء لقاء معي لفائدة إحدى الملاحق الثقافية،
وأتى لي بها.

- وَتَفَكَّرَ في الإجهاز عليها الآن؟

- هذا ما كنتُ أَفَكَّرُ فيه، ولم أصل إلى قرار إلا عند رؤيتكَ للتَّو. هل
نطلب شيئاً نأكله؟ دجاجة مَسْوِيَّة بالبطاطس المَقْلِيَّة مثلاً، ثمَّ نحتسي
القَيْنَّة؟

- أَذْكُرُكَ، يا أخي، أنه نبيذ حلو، ممكن السماح به كمُقَبَّل أو كحلوى
لِمَا بعد الطعام، أَمَّا أن يكون مع الأكل؟!

- لا بُالِغ في التَّأثُّق، يا سيبولبيدا! يجب أن تشرب ما هو موجود في
كُلِّ لحظة. حين كان لديَّ المال، كنتُ أذهب لصالون مدام بورت، وكنتُ

أطلب زجاجة دراى مارتيني *dry martini* أو مانهاتان *manhattan* أو بلودي ماري *bloody mary*. الآن، إذا تفضّل أحدهم وأحضر لي زجاجة ويسكي جيّدة أو فودكا جيّدة، فإني أشربها بالطبع. أن تكون مغربياً لا يعني بالضرورة أن تكون ساذجاً. وما بحورتنا اليوم، يا صاحبي، هو هذا النبيل المألقيُّ البكر!

لم يكن بوسعي مجادلة شكري في هذا المضمار. لقد تكوّنت قائمة طعامنا من دجاج وبطاطس وشراب حلو. وضعتُ شكري في صورة مُستجّدات قضية ألبرتو قائلاً:

- كنتَ على حقٍّ بخصوص حرب الشركات الإسبانية والفرنسية، بشأن الهاتف المحمول. الرخصة الأولى مُنحتَ رسمياً ومدى الحياة للشركة العمومية المغربية التي أفترض أنها - وخفضتُ صوتي على نحو غريزي - في حوزة الملك أو أحد أصدقائه. لكنّ، يقال إن الرخصة الثانية هذه ستكون محور تفاوض كبير. فكلُّ من باريس ومَدْرِيْد يسعيان بقوة للفوز بتوقيع العقد.

- أستطيع تخيّل جَشَعِهِمْ، مثلهم في ذلك، مثلَ مقاولٍ بإزاء قطعة أرضية فارغة تقابل الشاطئ. قال ذلك وهو يمضغ قطعة بطاطس مَقْلِيَّة. أفرغنا كؤوسنا احتفاءً بهذه المُلْحَة.

- أعتقد أن أكثر ما اندهش له القنصل من خلال زيارتي، هو البرودة التي قال إنني أتحدّث بها عن أبي.

- كان عليه أن يستمع إليّ وأنا أتحدّث عن والدي!

لم تمض إلّا بضعة سنواتٍ على موت الحسن الثاني، وتولية ابنه محمّد السادس على العرش حين سمحت السلطات المغربية بنشر كتاب "الخبر

الحافي"، الرواية السير - ذاتية الأولى لشكري، والتي تحكي قصة أحد أطفال الشوارع، ذلك الريفي المُعْتَفُ والجائع الذي سيتحوّل صعلوكاً محتالاً في طُنْجَة الدولية. كتبها شكري بالعربية ثلاثة عقود قبل أن ينقلها بول بولز إلى الإنكليزية. كلاهما اشتغلا بالإسبانية كلغة مُتداوِلة. حكى شكري من جملة ما حكاه في هذه الرواية كيف أن أباه - الجندي في القوّات الريفية التي كانت في خدمة فرانكو - قام بخنق أخيه الصغير حتّى الموت.

- أبي في الحقيقة لم يمدّ يده إلى جسمي أبداً - قلتُ وأنا أسكب في كأسٍ ما تبقي من النبيذ - فقط كان يعاملني بمسافة وبرودة.

- لا أستطيع أن أقول الكلام نفسه عن والدي. والدي كان وحشاً، كان، لأبسط الأسباب، "يقلينا" بالركلات واللكمات، حتّى عندما كنّا نطلب منه طعاماً. ذات مرّة قال لي: إذا كنتَ جائعاً فكلّ قلب أمّك. ولعلمك، فقد كان جاداً في كلامه. توقّف شكري عن الكلام باحثاً، دون فائدة، عن قطرةٍ ما في قاع الزجاجاة. ثمّ تابع:

- لأجل هذا لم أرد أبداً أن يكون لي أطفال. لزمنا الصمت ونحن نُشعل بعض السجائر، لكن شكري أردف قائلاً:

- الأمّهات شيء آخر، يا سيبولبيدا. نحن الرجال جميعنا نحاول إعادة تركيب أجزاء لغزنا في وحدة الأمّ الأولى. ونبحث عن ذلك في النساء كلّهنّ. - هذا ما يقال. ولعلّه ما يُفسّر انفصالي عن كلارا؛ زوجتي السابقة التي كانت شقراء، بينما أمّي كانت سمراء.

- وأيّة سمراء! أجمل نساء طُنْجَة!

عند مغادرة الفندق مُتوجّهاً لدروسي بثيرانتييس، سحبتُ من جيبي هاتف نوكيا، فوجدتُ به مكالمة ضائعة، لم أسمع رنينها. عادت التغطية

الهاتفية السيئة لفندق ريتز لخداعي مجدداً. لم يتعرف جهازي القديم على الرقم، لكن المتحدث ترك رسالة صوتية، يقول فيها إنه المفوض الجديد، وأنه يطلب مني الاتصال به على الرقم نفسه، الذي هو رقمه الشخصي، في أسرع وقت ممكن، قال مدققاً. عند الرنة الثالثة، أجاب:

- سيد سيبوليدا، لديّ مستجدات لا يمكن لي أن أنقلها إليك على نحو رسمي. هل يمكن أن تكون غداً صباحاً بفيلاً بيرديكاريس Perdicas على الساعة الثامنة؟

- الثامنة صباحاً؟ سألتُ ببلاهة لأخفي جهلي بموقع فيلاً بيرديكاريس.
- نعم، ولا تقل، من فضلك، شيئاً لأحد.

توقعتُ أن ليلتي القادمة أيضاً ستكون ليلة بيضاء، ولو أضرب المؤذّنون عن العمل.

كان إيون هانفورد بيرديكاريس Ion Hanford Perdicaris مليونيراً، من أصل يوناني وجنسية أمريكية. استقرَّ في سبعينيات القرن التاسع عشر، بالضواحي الغربية لطَنْجَة، وتحديدًا في الطريق إلى منارة رأس سبارطيل، حيث بنى لنفسه فيلاً رائعة على رابية تُحَلِّق فوق مضيق جبل طارق. وقد أحاطها بغابة من أشجار ونباتات وحيوانات جلبها من عموم القارَّة الأفريقية. وهناك في إحدى ليالي ماي 1904، اختطف من طرف أتباع الـريسوني، وهو قاطع طريق من شَمَال المغرب، كان يتحدَّى سلطة السلطان. وكان يتزعم الولايات المتَّحدة آنذاك، رجل الحرب، ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt الذي دخل رُدُّه على هذا الاختطاف التاريخ، وهو يقول: "أريد بيرديكاريس حيًّا، أو الـريسوني ميتاً". أرسل روزفلت أسطولاً حريباً إلى خليج طَنْجَة، لكن الوضع لم يصل إلى مستوى التدهور. إذ تمَّ إطلاق سراح بيرديكاريس، لقاء فدية باهظة الثمن.

لقد شاهدتُ الفيلم الذي أعاد بناء أحداث القصة. وهو تحت عنوان: "الريح والأسد" شخَّص فيه سين كونري Sean Connery دور الـريسوني، فيما قامت كانديس بيرغن Candice Bergen بدور الرهينة. وعوض بيرديكاريس القليل الجاذبية، فضَّل كُتَّاب السيناريو عليه امرأة، لتُمثِّل دور الضحية، حيث تنتهي ساقطة في شَرَك حُبِّ سارقها الجميل.

وصلتُ في سيَّارة تاكسي إلى باب غابة بيرديكاريس في الثامنة إلّا ربع

صباحاً، دون أن يُغمض لي جفن طَوَالَ الليل. كان المكان جديداً بالنسبة إليّ، لكن السائق أقسم بأنّي إذا كنتُ أريد الوصول إلى الفيلاً، فما عليّ إلا أن أتبع الطريق المؤدّية إلى الغابة. طلبتُ منه أن ينتظرنّي، ومشيتُ بين أشجار الصَّنَوْبَر والأوكالِبْتُوس والقُطْلُب والصَّنَوْبَر البرازيلي. لم يكن هناك أثر لنَفْس آدمي. وكانت العصافير تحتفل بيومها الجديد، بهجة من فاز لتوّه بلعبة البينغو.

أحسستُ بقليل من البرد، فالشمس لم تُدْفِ بعدُ رطوبة البحر، أسِفْتُ لكون سترتي من القطن الخفيف. كان الممرُّ يُؤدّي إلى بَطْحَاء كانت تعلو وتلتفُّ فيها شجرة تين خضراء بمحاذاة بعض الأنقاض. كانت أوراق الشجرة ذاتَ لون أخضر مائل للرمادي، وزهورها مُعلّقة وسط عناقيد بيضاء.

لا شكَّ أن بيرديكاريس كان من أصل يوناني وجنسية أمريكية، لكن ما هو فرنسيٌّ وبريطانيٌّ كانت له السيادة في عصره. كانت أطلال منزله الريفي تبدو كما لو كانت قصراً إنكليزياً نورماندياً، بأبراج مُرَبَّعة وسط المبنى، بينها بيوت مسقوفة بسقف مُحدَّب وقِرمِيد أحمر وبرج دائري في المُقدِّمة. كانت الأبراج كلّها صخرية، وكان للحِصن الدائري شُرَفاته. انضافت إلى شجرة التين، فيما يشبه فرقة حراسة نباتية للقصر الذي بناه بيرديكاريس، كُتِل من نبات الصَّبَّار، وشجرة تين كانت تُتكلُّ بها رياح البوغاز. مجموع البناء يعطي انطباعاً أنه مُهمَل منذ عدّة عقود. طُفْتُ حول المنزل الريفي باتّجاه الشرق. في الجهة الخلفية كان هناك مَطْلٌ قِرمِيدِيٌّ في لون القهوة والحليب، وعوارض خشبية داكنة. كان المكان يستعرض منظراً تُحسُّ لمشاهدته بالدُّوَار، وأنت ترى عناقاً بين البحر الأبيض المُتوسِّط والمحيط الأطلسي، بينما يرسم الساحلُ الإسباني في العمق.. لم يكن هناك أحد في المكان، طُفْتُ بالمنزل من جديد، لكنّ، هذه المرّة من جهة الغرب. كان هناك فَنَاءٌ عُلِّقَتْ فيه أثواب غسيل تحت الشمس وطاولة خشبية وإبريق صفيح

وبضع كؤوس زجاجية. خَمَنْتُ أَنْ أُسْرَةَ مَّا، لَا بَدَّ أَنَّهَا تَعِيشُ هُنَا لِلْقِيَامِ
بِحِرَاسَةِ الْمَكَانِ. لَكِنِّي لَمْ أَشَاهِدْهَا وَلَمْ أَسْمَعْهَا وَلَمْ أَقُمْ بِالْمُنَادَاةِ عَلَيْهَا.

عَدْتُ إِلَى الْبَطْحَاءِ بِالْقُرْبِ مِنْ شَجَرَةِ التَّنِينِ، وَنَظَرْتُ إِلَى السَّاعَةِ، كَانَتْ
تَشِيرُ إِلَى الثَّامِنَةِ تَمَامًا. مِنْ دَاخِلِ الْمَمَرِ الَّذِي أَتَيْتُ مِنْهُ، لَمَحْتُ شَخْصًا
يَعْدُو مُقْتَرِبًا. تَفَاصِيلُ شَكْلِهِ بَاتَتْ أَكْثَرَ وَضُوحًا، رَجُلٌ يَرْتَدِي بَدْلَةً رِیَاضِيَةً
زُرْقَاءَ غَامِقَةٍ. اقْتَرَبَ مِنِّي الْمَفُوضُ الْجَدِيدِي، وَبَعْدَ أَنْ حَيَّانِي تَحِيَةَ الصَّبَاحِ
الْمُقْتَضَبَةَ، أَشَارَ بِيَدِهِ الْيَسْرَى إِلَى كُوخٍ حَجْرِيٍّ كَانَ فِي الْجِهَةِ الْمَقَابِلَةِ.
مَشِينَا هُنَاكَ. كَانَ الْكُوخُ ذَا ارْتِفَاعٍ وَاحِدٍ. وَكَانَ يَحْتَوِي عَلَى ثَلَاثِ نَوَافِذَ
دُونَ زَجَاجٍ، أَمَّا وَاجِهَتُهُ الْحَجَرِيَّةُ الْمُشَقَّقَةُ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى لَوْحَةٍ جَمِيلَةٍ
مِنَ التَّعْبِيرِ التَّجْرِيدِيِّ، فِي هَيْئَةِ نَقُوشٍ وَرَسُومَاتٍ خَطٌّ عَرَبِيٌّ مُلَوَّنٌ بِالْأَخْضَرِ،
فَوْقَ بَقْعٍ غَيْرِ مُتَجَانِسَةٍ لَطَلَاءِ أَرْقٍ وَبُنْيٍ قِرْمِزِيٍّ شَاحِبٍ.

دَفَعَنِي الْجَدِيدِي بِيَدِهِ الْيَسْرَى إِلَى دَاخِلِ الْكُوخِ الَّذِي لَهُ مَدْخَلٌ مِنَ
الْخَلْفِ. أَحْسَسْتُ بِالْعَمَى لِلظُّلْمَةِ الْمُفَاجِئَةِ، وَرَائِحَةِ الْبُولِ الَّتِي أَذْهَلَتْني.

- مَا الَّذِي يَحْدُثُ، سَيِّدِي الْمَفُوضُ؟

- الَّذِي يَحْدُثُ - أَجَابَ - هُوَ أَنَّنِي مِنْ تَطَوَّانٍ، وَأُرْتَاحُ لِلْإِسْبَانِ فِي الْعَادَةِ.
وَقَدْ ارْتَحْتُ لَكَ وَأَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ الْكَلَامَ الْمُوْحِي عَنْ كَوْنِ الْأُورُوبِيِّينَ يَأْتُونَ
إِلَى طَنْجَةِ لِلِقَاءِ ذَوَاتِهِمْ. هَذِهِ مِنْ نِقَاطٍ ضَعْفِي كَمَا تَرَى!

- وَ..؟

- وَيَحْدُثُ كَذَلِكَ، أَنْكَ إِذَا كُنْتَ رَاغِبًا فِي الْإِسْتِمْرَارِ فِي اللَّقَاءِ بِذَاتِكَ،
فَالْأَفْضَلُ لَكَ أَلَّا تَحْشُرَ أَنْفَكَ فِي أُمُورِ صَدِيقِكَ الْبِيرْتُو مَارْكِينَا. عُدْ
لِدُرُوسِكَ فِي الْأَدَبِ، وَاسْتِثْمِرْ صِدَاقَتَكَ مَعَ تِلْكَ الْمَغْرِبِيَّةِ الْغَامِضَةِ،
وَانْسَ الْبَاقِي.

تَعَوَّدْتُ عَيْنَايَ عَلَى ظِلَامِ الْكُوخِ، وَلَمَحْتُ وَجْهَ الْجَدِيدِيِّ مُبْلَلًا بِالْعَرَقِ

الناجم عن الجري. كنّا واقفينّ وجهاً لوجه على مسافة سنتيمترات.

- كيف يمكنني أن أنسى؟ صديقي يوجد في السجن، ضحية اتّهام زائف. وأقلّ ما يمكنني فعله هو الاهتمام بأمره، ألا تعتقد ذلك؟

تنفّس المَفْوَّض من أنفه، وزفر من فمه ببطء، وكأنه يشير إلى مقدار الصبر الذي عليه أن يتحلّى به وهو يواجهني.

- كما تقولون - أنتم الإسبان - صديقك ليس قمحاً خالصاً.

- حتّى ابن لادن، لا يد له في تدمير البرجين التوأَمين، ولا بوش في غزو أفغانستان، وحتّى إلفيس بريسلي Elvis Presley ليس في عداد الموتى أيضاً! هلّا دخلتْ صُلْبَ الموضوع، ما هو جديدك؟

تأخّر قليلاً في الجواب، ثمّ أردف:

- أمس هاتفْتُ زميلاً لي في الفرقة الخاصّة، تجمّعني به علاقة جيّدة، وحكيْتُ له ما قلتهُ لي عن نادلة المِنْرَة. قالها دون أن تبدو عليه المفاجأة.

- لا أستغرب لذلك، لعلّهم هم الذين اختلقوا الموضوع.

- لا أدري مَنْ اختلق الموضوع؟ هذا إذا كان بالطبع مُخْتَلَقاً. ما قاله لي الزميل، هو أن تهمة الاعتداء الجنسي لن يتمّ سحبها ما دام صديقك ينتظر تحقيقاً آخر.

- تحقيق آخر؟ حول ماذا؟ حول مقتل كينيدي؟!

- دعك من السخرية، سيّد سيبولبيدا. السخرية لن تنفع في شيء.

- سادع السخرية، حين تكونوا أنتم واضحين.

- أنتم؟! أنا لا دخل لي بالموضوع. أنا فقط أُسدي لك معروفاً، لأنّي أرتاح لك، كما قلتُ لك سابقاً. هذا كلّ ما في الأمر *Voilà, c'est tout*.

شخصياً سأودِّعكَ بعد دقائق، لأكملَ جريي الصباحي وأنسى الموضوع بالمرّة. وأنتَ عليك أن تفعل الأمر ذاته. داعبتُ الإِسورة الجِلدية التي أهدتنيها ليلي مُحاولاً جعلَ نَبْرتي متصالحة وأنا أُضيف:

- سأقبل بنصيحتك إذا كنتَ ستدلّني على علامة طريق، ما موضوع هذا التحقيق؟

- زميلي لم يُقدِّم لي الكثير من التفاصيل، ما زودني به لا أنوي تقاسمه معك. يكفي أن تعلم أن القضية الحقيقية التي اعتُقلَ صديقك من أجلها هي أخطر من موضوع امرأة غرفة الفندق. إنها قضية أمن وطني.

- أمن وطني؟

- كما سمعتَ، انس كلَّ شيء، ولا تَعُدْ ثانية للاتّصال بي من فضلك. لمحطته يغيب عبر الممرّ، راكضاً ببذلة الرياضية الزرقاء الداكنة. تبعته ماشياً حتّى مخرج غابة بيرديكارس، حيث كانت سيّارة الأجرة ما تزال هناك منعزلة كروبنسون كروزو Robinson Crusoe في انتظار ظهور "جُمُعة" (*).

(*) من شخصيات مُؤلَّف روينسون كروزوي

اتصلت بي سكرتارية القنصل هاتفياً في ساعة متأخرة من مساء الخميس، لتُخبرني بأن كلَّ شيء رُتّب لزيارتي لألبيرتو ماركينا. كان عليّ أن أكون بالباب الخارجي للسجن في تمام الساعة العاشرة صباحاً. الدقّة في الموعد كانت مطلوبة. وفعلاً اتّجهتُ إلى هناك بعد لقائي بالجديدي، وتناولتُ فطوري بمقهى باريس الكبير. الدخول إلى السجن، ولو على سبيل الزيارة، أمر مُحزن ومُتعب. يطلب منك الأوراقُ مُوظّفون وجوههم من جِصٍّ، ويقومون بتفتيشك بدقّة شديدة. بعد ذلك يجتازون بك بوابات وقضباناً معدنية، دون أن يتوجّهوا إليك بكلمة. وفي الأخير لا يُودعونك في مسارك إلا بعد تنبيهك بأن الزيارة لا ينبغي أن تتجاوز ربع ساعة. يقولونها وكأنهم ينطقون في حقك بحُكم قضائي.

كان سجن طُنجة في ناحية فال فلوري Val Fleuri، على بُعد كيلومترات من المدينة وفي طريق المطار القديمة. كانت أسواره عالية ومتينة، كأسوار قلعة من العصور الوسطى، كانت مصبوغة بجير شديد البياض. وكانت تُغطّي برج الحراسة الموجود عند مدخل السجن قضبانٌ حديدية تقليدية مغربية خضراء. كان السجن يضمُّ نحو ثلاثة آلاف معتقل. ثلاثة أضعاف طاقته الاستيعابية.

كان أحمد بونقوب المُلقَّب بالديب، أحد زعماء الاتّجار بالحشيش نزله الأكثر شهرة. اعتقاله فاجأ الطُنجيين الذين كانوا يعتبرونه مُحصّناً

وَمَحْمِيًّا جَدًّا مِنْ طَرَفِ الدَّوَائِرِ الْعَلِيَا. يُقَالُ إِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي إِدَارَةِ صَفَقَاتِهِ بِالْهَاتِفِ انْطِلَاقًا مِنَ السَّجْنِ. الْكَثِيرُ مِنَ السَّجْنَاءِ كَانُوا مُعْتَقِلِينَ أَيْضًا فِي قَضَايَا مُخَدَّرَاتٍ. مِنْ بَيْنِهِمْ خَمْسُونَ إِسْبَانِيَا. أَحَدُ الْإِسْبَانِ مِنْ فَالِينْسِيَا سَقَطَ رُقْفَةً ابْنَهُ فِي مِينَاءِ طُنْجَةِ، حِينَمَا كَانَا يَحَاوِلَانِ الْإِيْحَارَ نَحْوَ الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ عَلَى مَتْنِ شَاحِنَةٍ مُحْمَلَةٍ بِالْبَرْتِقَالِ، وَبَدَاخِلَهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ كِيلُو مِنْ "الشُّوْكُولَاتَةِ". كَانَ الْقَانُونُ فِي الْمَغْرِبِ أَقْلَّ تَسَامَحًا بِكَثِيرٍ مَعَ الْحَشِيشِ مِمَّا هُوَ الْحَالُ عَلَيْهِ فِي إِسْبَانِيَا. زَرَاعَتُهُ وَامْتِلَاكُهُ وَاسْتِهْلَاكُهُ أَوْ نَقْلُهُ كَانَ مَمْنُوعًا مَنَعًا صَارِمًا.

فِي الْوَاقِعِ، كُلُّ شَيْءٍ تَقْرِيْبًا كَانَ غَيْرَ قَانُونِيٍّ جَنُوبَ الْبُوعَاظِ، لَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ تَقْرِيْبًا بِمَا فِي ذَلِكَ الْمُخَدَّرَاتِ وَالِدَعَارَةِ كَانَ مُمْكِنًا إِذَا مُورِسَ سَرِّيًّا. فَقَطْ يَجِبُ مَرَاعَاةُ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَدَفْعُ الْمَالِ لِمَنْ يَتَعَيَّنُ أَنْ يُدْفَعَ لَهُ. مُسْتَهْلِكُو وَمُهْرَبُو الْحَشِيشِ الَّذِينَ يَقْعُونَ فِي يَدِ الشَّرْطَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ، كَانُوا دَائِمًا يَرْتَكِبُونَ أخطاءَ مُعَيَّنَةً؛ تَصْرُفٌ عَصْبِيٍّ، أَوْ مَظْهَرٌ خَارِجِيٌّ مَثِيرٌ لِلاتِّبَاهِ أَوْ وَشَايَةِ مِنَ الْبَاعَةِ أَنْفُسَهُمْ. تِلْكَ كَانَتْ فِي الْغَالِبِ الْأَسْبَابُ وَرَاءَ وَقُوعِ الْكَارِثَةِ. بَعْضُ الْبَاعَةِ يَشُونُ بَعْضَ الْجَمَالِ (*) الْإِسْبَانِيَّةِ، الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَهُمْ مَجْرَدَ هَوَاةٍ. وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ مَعَ السُّلْطَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ. هَذِهِ الْأَخِيرَةُ بِدَوْرِهَا، يُمْكِنُ لَهَا أَنْ تَسْتَعْرِضَ كِفَاءَتَهَا أَمَامَ الْعَالَمِ.

قَرَأْتُ هَذَا كُلَّهُ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ فِي بَيْتِي ضَمِنَ رُوبُورْتَاكِ لِجَرِيدَةِ "أَخْبَارِ الشَّمَالِ" سَلَّمْتَنِيهَا أَلِيْسِيَا حِينَمَا عَلِمْتُ بِزِيَارَتِي لِأَلْبِيرْتُو فِي السَّجْنِ. لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ مُطْمَئِنًّا تَمَامًا، كَانَ قَلْبِي يَقْفُزُ فِي صَدْرِي عِنْدَمَا دَخَلْتُ قَاعَةَ الزِّيَارَةِ *parloir*. كَانَتْ وَاسِعَةً، وَذَاتُ جِدْرَانِ رَمَادِيَّةٍ مُزَيَّنَةٍ بِمِلْصَقَاتِ

(*) لَقَبُ جَمَلٍ، فِي الْأَصْلِ، كَانَ يُطْلَقُ عَلَى مُهْرَبِي الْحَشِيشِ الَّذِينَ، خَوْفًا مِنْ أَعْيُنِ الشَّرْطَةِ أَوْ الدَّرَكِ، كَانُوا يَقُومُونَ بِإِخْفَاءِ الْبَضَاعَةِ الْمَمْنُوعَةِ فِي ظُهُورِهِمْ، فَيُظْهِرُونَ بِمَظْهَرِ الْجَمَلِ بِحَدَبَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ (الْمُتَرْجِم).

إشهارية لنقوش كهفية. كانت مُكدَّسة بطاولات بلاستيكية فوقها كؤوس بلاستيكية أيضاً، هناك نادل ذو سترة بيضاء مُجعدَّة يحمل صينية مُزوَّدة بزجاجتيْ تْرُمس، يُقدِّم منهما الشاي. نظرة خاطفة، تُظهر أن الفارق الوحيد بين هذا المكان وبين إحدى مقاهي البولفار كان هو وجود النساء هنا.

أخذني أحد الموظَّفين، مُمسِكاً إِيَّاي من مَرَفَقي ومُخترقاً غرفة الزيارة. سجين في منتصف العُمُر كان يلتهم قطعة بيتزا؛ لا شك أن مَنْ أتى بها هي تلك الشقراء المثيرة التي كانت تتجاذب معه أطراف الحديث، على ما يبدو بالهولندية أو السويدية أو لستُ أدري؟ بجانبه كانت امرأة مُسنَّة تتحدَّث إسبانية ذات نَبْرة إِسبِيلِيَّة، قدَّرتُ أن تكون أُمُّه. وبعيداً شيئاً مَّا، ثمة رباعيٌّ مغربي يلعبون الدومينو أمام الأنظار الشاردة للحرَّاس. وفي أبعد نقطة كان هناك ألبيرتو، جالساً وحده أمام طاولة فارغة. توقَّف الموظَّف مُحَرِّراً مَرَفَقي. نهض ألبيرتو، فانصهرنا في عناق طويل. كان رأسه حليقاً كصخرة، ولحيته لا يتجاوز عُمرها بضعة أيَّام. كانت هذه هيئته المعتادة في الآونة الأخيرة. كان يلبس سروال جينز وقميصاً أسود وشبشباً أبيض. كان لباسه غالياً وجديداً، ولم يبدُ أن السجن أثَّر فيه، عدا هلالين بنفسجيين استقرَّا تحت عينيَّه الخضراوين الرِّيْثُونِيَّتين.

- يا للفرحة! قالها بمجرد جلوسنا، بينما استمرَّ الموظَّف واقفاً على مسافة مترٍ منَّا.

- كنتُ مشتاقاً لرؤيتك، أمضيتُ الأسبوع كلَّه وأنا أطلبُ بذلك.

- أعرف، لقد أخبرني القنصل. وقال لي أيضاً إنك كنتَ تتحرَّك هنا وهناك. مَنْ كان يتصوَّر أن صديقي الكثير التأمل سيتحوَّل إلى جيمس بوند James Bond، بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى.

- ليس إلى هذه الدرجة، فقط سألتُ عنكَ مجموعة من الناس.

- وقد اكتشفت - ويا للصفعة -! أن النادلة تكذب.

- لم أكن أنا مَنْ قام بذلك - قلتُ مُدَقِّقاً - بل ليلي. لقد اقترحتُ نفسها لتبحث في الموضوع، وكان نصيبُها ضربة الحظِّ تلك. إنها رائعة.

- نعم بالفعل، إنها رائعة. حينما أخرج من هنا، تقدمها لي. هل توافق؟

- نعم سأفعل، فقط إذا وعدتني بأنك لن تحاول الإيقاع بها.

رَبَّتْ ألبيرتو بمرح على الطاولة. ما زال يضع في مِعْصَمِهِ الأيسر ساعة بانيراي Panerai الأنيقة. استغربتُ للأمر: كنتُ أعتقد أن هذه الأشياء تُنزع منك حال دخولك السجن.

- ما فعلتهُ أنا لا ينطوي على أيِّ مِيزة تُذكر.

- ببساطة لم أُصدِّقُ بأنك يمكن أن ترمي بنفسك فوق النادلة. ما دام الأمر مُتعلِّقاً بالنساء، يكفيك ويزيد عن حاجتك أن ترسل من عينيك الخضراوين ذلك الوميض، ويُشرق وجهك بابتسامة العاشق. أعرف فيك هذه الألاعيب منذ كنّا صغاراً.

أشعلتُ سيجارة؛ فكثير من الناس من حولنا كانوا يُدخِّنون، ولولا النوافذ المُسيِّجة التي كانت مفتوحة، لكنّا اختنقنا جميعاً بدخان التبغ. لم أُقدِّم السيجارة لألبيرتو، لأنه على غرار غيره من أبطال جيلنا، ترك عادة التدخين من زمان.

- هل اتَّصلتُ بكِ روسيُو Rocío؟ - سألني - لقد قالت لي إنها تُفكِّر في الحديث معك.

روسيو زوجة ألبيرتو، كانت دائماً تكرهني. منذ سنوات، وخلال عشاء مَدْرِنْدِي أُقيم على شرف الزوجين، وبعد بضع كوؤوس، نعتتني بأني كسول وجبان، وأني أسعى لإخفاء ذلك من خلال اللقاءات الأدبية، وتصنُّع نوع

من اللاأدرية. كلارا آنذاك التزمت الصمت، لكن، عند عودتنا إلى البيت، أفهمتني أنها تُشاطرها الرأي نفسه. لعلهما كانتا على صواب. وربما كان ذلك هو السبب - بعد فشل حياتي الزوجية - في أنني تقدّمتُ للتنافس على منصب أستاذ بمعهد ثيرباتيس بطُنْجَة. فُزْتُ بالمنصب، وتخلّيتُ عن دروسي بمعهد للباكالوريا بمَدْرِيْد، حيث كنتُ أتعامل مع شُرْذمة من المراهقين، لا همَّ لهم سوى حشو أجهزةَهم الإلكترونية بالموسيقى وشراء الملابس ذات العلامة التجارية، وتنظيم حفلات أعياد الميلاد المُفاجئة. بعد وقت وجيز، سينضمُّون إلى هذا الجيل الإسباني الشاب الذي يحلم، في اليقظة، بمنصب عمل ببطاقة ائتمان؛ شركة يمكنه من خلالها شحن وجبات في مطاعمٍ حاصلة على نجوم ميشلان Michelin. سيَّارة ألمانية ذات مُحَرَّكات قوية، ورهن عقاري لمُدَّة خمسين عاماً بمئات الآلاف من اليورو.

- نعم. أجبتُ.

- لقد هاتفتني روسيو البارحة. الرِّقْم الذي ظهر لي على شاشة الهاتف كان رَقْمًا مجهولاً. لكنني لم أعد أعمل في الأيام الأخيرة بقاعدة تجاهل مثل هذه المكالمات، يجوز أن يتَّصل أحدٌ ما، إمَّا من القنصلية أو من الشرطة. لذلك أجبتُها.

- وكيف وجدتُها؟

- لقد كانت لطيفة، وقالت لي إنها لم تُصدِّق حكاية النادلة، وشكرت لي اهتمامي بك. ومن جانبي فقد أخبرتها بأني سأراك اليوم.

- وهل حكّت ذلك لكلارا؟

- نعم، فعلتُ. لكنني رجوتُها ألا تقوم هي وكلارا بإخبار ابنتي خوليا. أريد أن أكون أنا مَنْ يشرح لها كلَّ شيء حين نصل إلى نهاية سعيدة.

- تبدو لي الأمور جيّدة، لن تتأخّر هذه النهاية السعيدة في الظهور.
اقترب نادل السترة المُجعّدة من طاولتنا. خيّرنا ما بين الشاي الأخضر أو
الأسود. رفضنا العرض. انتزع حوارنا مع النادل الحارس من استغراقه، فنظر
إلى ساعته اليدوية البلاستيكية السوداء.

- ما الذي يحدث، يا ألبيرتو؟ إذا كانت قضية النادلة قد سوّيت،
فلماذا يستمرّون في احتجازك هنا؟

- لا أعرف، أتصوّر أن الأمر له علاقة بأمور بيروقراطية محلّية، ليس لديّ
أدنى فكرة.

- لا، يا ألبيرتو، هناك ما هو أكبر.

- تفحصني بعينه الخضراوين الواثقين.

- قال لي الشرطي الذي تعرّفْتُ عليه هذه الأيام، إنهم يبحثون في
قضية أخرى تخصّك؛ قضية أمن وطني. ما الذي يحدث؟

- حماقات! منافسونا الفرنسيون لديهم أصدقاء كُثُر في الحكومة
المغربية. دائماً يخترعون أشياء من أجل وضع العراقيل في طريقنا. لكننا
أيضاً لنا مواردنا. فإسبانيا الآن لم تعد ذلك البلد الضعيف والمُعقّد نفسياً،
كما كانت في السابق.

ذكرني كلامه بأثنا، لكنني لم أتلقَ بشيء. لم أكن أريد إعطاءه فرصة
تغيير النقاش.

- أفترض أن هذه التهمة الجديدة، كيف ما كان نوعها، فهي تهمة مُدبّرة،
قلتُ في الأخير، وأنا أعود لأحدّق في عينيه.

- هي مُدبّرة مثل الأخرى، نعم، ولا أعرف عنها شيئاً. انظر، ما هو على
المحكّ الآن، هو اختراق الحدود الكبرى للقرن الواحد والعشرين، لا أقلّ
ولا أكثر.

حين أحسَّ بالدهشة تنعكس على وجهي، على إثر لهجته المتباهية،
راح يتبنَّى الثَّبْرَةَ الديالكتيكية التي اعتاد من خلالها أن يشرح لي تعقيدات
الرأسمالية العالمية.

- يُشكِّل الهاتف المحمول بالنسبة إلى زماننا، ما شكَّله المُحرِّك البخاري
بالنسبة إلى إنكلترا زمن الثورة الصناعية. في ظرف سنوات قليلة سيكون
بوسع شخص مثلك أن يَمْتَلِكْ هاتفاً محمولاً، يمكنه من خلاله في أيِّ
مكان، وفي أيَّة لحظة، ليس فقط الحديث وتبادل رسائل نصِّية قصيرة، وإنما
الاتِّصال بالإنترنت. سيكون أمراً رائعاً يمكن معه قراءة الجرائد، ومشاهدة
التلفزيون، والبحث عن عناوين، وإرسال وتلقِّي صور ووثائق، والعثور على
شريك عاطفي، وتنزيل وتحميل الموسيقى وأشرطة الفيديو وكلِّ ما تريد.

- بمعنى آخر، نحن نتحدَّث عن مال كثير.

- يا للشؤم! نحن نتحدَّث عن ثورة ثقافية.

قاطعنا الموظَّف أمراً:

- صافي (كفاية)، لم يتبقَّ في الزيارة ولو حَبَّة رمل واحدة في النصف
الأعلى من الساعة الرملية.

عاودتُ مجدداً معانقة ألبيرتو.

- اعتنِ بنفسك. همستُ له.

- سأفعل، وأنتَ دعك من لعب دُور جيمس بوند.

الْجُمُعَة يوم عيد بالنسبة إلى الأسبوع الإسلامي، وهو اليوم الذي يجب أن يجتمع فيه المؤمنون في المساجد للصلاة والاستماع للخطبة. ورغم ذلك فالمغرب لا يعرف إغلاقاً رسمياً في هذا اليوم. يكون الإغلاق يوم الأحد، وفي ذلك استمرار لعادات فترة الحماية التي تسمح للبلد بأن يكون في انسجام مع جيرانه الأوروبيين. لكن، لا شيء يمنع المؤمنين من الذهاب إلى المساجد. عليهم فقط إنزال ستائر متاجرهم أو إيقاف أعمالهم لوقت مُحدّد. هناك كثيرون يقومون بهذا قبل الغداء، وعند حلول المساء.

في الشوارع يكثر الرجال الذين وإن كانوا يلبسون على الطريقة المغربية بقية الأسبوع، فهم في ذلك اليوم، يلبسون الجلابيب والتّعال. الْجُمُعَة هو أيضاً اليوم الذي يُؤكّل فيه الكُسْكُس في البيوت المغربية. وهو يوم وليمة عائلية.

تلك الْجُمُعَة أعطيتُ درسي الصباحي في ثيربانتيس، بعد خروجي المبكر إلى فيلاً بيرديكاريس وسجن فال فلوري. أشعرثني أحاديثي مع الجديد وألبيرتو بفرح شبيه بقرقعة قطع ثلج في حان غانيات. شدّني من أحشائي شعور غامض من الأسى والرّيف، لم ينجح في تبديده إلا رؤية تلامذتي. فبخلاف مُراهقي معهد مدرّيد الذي قضيتُ به أعواماً، كان طلبة ثيربانتيس المغاربة يتابعونك بانتباه واهتمام.

قرّرتُ ذلك اليوم أن أحدثهم عن أنخيل باثكيس Ángel Vázquez.

وأنا عائد من السجن، حضرتني جملة من روايته خوانيتا ناربوني *Juanita Narboni* التي وصف فيها طنجة على هذا النحو: "هذه المدينة مثل قوقعة، تمضي وهي تلتقط أسوأ ضوضاء العالم". كان بالفعل تعريفاً عبقرياً.

جُلْتُ في القاعة بنظرة خاطفة، لم تكن هي القاعة نفسها التي أُعطي فيها دروسي المسائية الخاصة بإعداد الدبلوم الرسمي للغة الإسبانية، والتي كانت تحضرها ليلي. الملتصق الذي كان يضم صورة أحد الكُتّاب، كان يخص خوان رامون خيمينيث. أنخيل باثكيس كان اسمه في الحقيقة أنطونيو باثكيس، وكان المُقرَّبون منه - قلتُ لتلاميذتي - يعرفونه باسم أنطونيتو *Antoñito*. كان ابناً من أبناء بلدكم. وُلد بطنجة الدولية سنة 1929. هو ابن بائعة قَبَّعات ونادل. هنا نشأ وبدأ الكتابة. شعرتُ أنني استحوذتُ على فضولهم. مضيتُ أحكي لهم كيف أن أنخيل باثكيس رحل سنة 1965 في باخرة ليستقر بمَدْرِيد، حيث وافته المنية بإحدى فنادق أتوتشا *Atocha* على إثر سكتة قلبية سنة 1980. اكتشف أصدقاؤه أنه لم يترك من المال ما يكفي حتَّى لتغطية مصاريف دفنه. اتَّصل الصحفي إدواردو هارو تيغلين *Eduardo Haro Tecglen*، الذي كان ضمن الزمرة الأخيرة من مُديري صحيفة *إسبانيا* الطنْجِيَّة بالناشر لارا *Lara*، فقام هذا الأخير بأداء مصاريف الدفن. لم يكن من العيب أن يفوز أنخيل باثكيس بجائزة من جوائز بلانيتا *Planeta*، ولو بغير تحفته "خوانيتا ناربوني".

رُحْتُ أبسط أمامهم مُلَخَّص الرواية: تجد المواطنة الإسبانية خوانيتا - الفتاة العانسُ ابنة المواطن المُتحدِّر من جبل طارق - نفسها في طنجة، غارقة تدريجياً في مهاوي العزلة والفقر، طنجة تلك التي دخلت الزمن اللاحق لفترتها الدولية. حيث بدأ اليهود والأوروبيون والأمريكيون يشدُّون الرِّحَال إلى جهات أخرى، وحيث بدأ بهرجُ المدينة ولمعانها يزويان

ويذبلان. بدا أن طَنْجَة الدولية كانت مساحيق بدون جسد، وديكور بلا سيناريو وبلاغة بدون أفعال. لعلها كانت أسلوب عيش، أو حالة ذهنية، أو على الأرجح كذبة لذيدة. نعم، لنقل ذلك، هذه التعابير كلها تفي بالغرض. فتحت المجال للأسئلة. إحدى الفتيات اهتَمَّتْ بالجانب الشكلي للرواية. أجبْتُها: "هي مونولوج داخلي، وما نقرؤه هو تفكير خوانيتا، تمرين شديد الصعوبة بالنسبة إلى الكاتب. لكن أنخيل باثكيس استطاع شدَّ قارئه وكأنه إزاء رواية مغامرات: إنها رواية مَرِحَة أحياناً، وتُسبَّب لك إزعاجاً في أحيان أخرى. فتاة أخرى سألتني عن اللغة. أجبْتُها: "هي مكتوبة بالقُسْطَالِيَّة، لكن، مرشوشة بالإنكليزية والفرنسية وخاصةً بحكيتيا(*) العبريُّن الطَنْجِيَّين". طالب ثالث - فتى كنتُ أعلم أنه يَدْرُس بمدرسة للتجارة - اهتَمَّ بالمردود الربحي للرواية.

قلتُ له: "لم تكن الرواية ضمن الروايات الأكثر مبيعا *best-seller*، ولا الأكثر شهرة، حتَّى في إسبانيا. هي فقط رواية نخبة مُثَقَّفة، وقد تكون من بين أكثر الأعمال الإسبانية في القرن العشرين، التي طاردها اللعنة. أنهيتُ كلامي قائلاً: إن ابنة بلدكم فريدة بليزید، بدأت في طبخ ثاني اقتباسٍ للسينما، لقصة خوانيتا ناربوني. نزلتُ بعد ذلك لوسط المدينة لتناول العَداء. تناولتُ - واقفاً - سندويش دجاج مع زجاجة كوكاكولا، بإحدى مَحَلَّات ساحة فرنسا. حاصر سربٌ من الدَرَّاجات النارية النافورة الصغيرة التي توجد وسط الساحة، وبدا راكبو الدَرَّاجات النارية شبيهين

(*) الحَكِيَّتِيَّةُ (بالعبرية: חֲכִיטִיָּה، حَكِيَّتِيَه) هي إحدى لهجات الإسبانية اليهودية التي تُعرَف أيضاً باسم "اللادينو". هي اللهجة الوحيدة من بين لهجات اللادينو المتأثرة باللغة العربية، وخاصةً باللهجات المغاربية. ويتحدَّث بها يهود المغرب السَفَرْدِيُّون، وتُسَمَّى أيضاً بالإسبانية -العبرانية أو اللادينو الغربية، وكانت منتشرة في الشَّمال والشَّمال الشرقي للمغرب خاصةً بمُدُن تَطَوَّان وطنْجَة، بالإضافة إلى مدينتي سَبْتَة ومَلِيلَة، حيث حظيت في هاتين المدينتين باعتراف رسمي جزئي. (المترجم)

بمحاربي سيوكس sioux وهم يحومون حول حصن الغرب المتوحش. شجيرات من صنف تين بنيامين ficus benjamina كانت تنتصب فوق الرصيف. أوراقها الكثيفة مُشدَّبة كما لو كانت نبات سياج. يافطة إسرائيلية بالعربية، تُظللها أشجار صنوبر، تُعلن ولادة مشاريع سكنية جديدة.

في الصورة سيِّدة ثلاثينية ذات خَدَّين سمينين، ترتدي منديلاً وقُفْطَاناً ذا لون أخضر شاحب، تبسم بأسنان مكتملة، وهي تشاهد مبان من أربع طوابق، يتوسَّطها حوض سباحة متلألئ تحيطه أشجار نخيل؛ الواحة المثالية للطبقة المتوسطة المغربية الناشئة.

دفعْتُ ثمن العَدَاء، وانحدرتُ مع البولفار، لم أتأخَّر في الوصول إلى محلِّ باستور للخدمة الهاتفية. كان محللاً لبيع الهواتف وتوفير خدمة الإنترنت.

صَعِدْتُ السلالم. وداخل غرفة واسعة مُطلَّة على الخارج، مُجهَّزة بحواسيب طاولة كانت تتولَّى الخدمة فتاة في الثامنة عشرة من عُمرها تلبس حجاباً hiyab داكناً وساعة يد سميكة، مُذهَّبة من الدرجة الثانية. طلبتُ منها خمس عشرة دقيقة اتِّصال بالإنترنت. جلستُ أمام جهاز ذي لون رمادي مَعْدِنِي. كانت لوحة المفاتيح بالفرنسية والعربية شبيهة بخبز مُحَمَّص.

وجدتُ - كما هي العادة - مشكلات في كتابة أروباس والنقطة. قمتُ بكتابة رسالة إلكترونية لابنتي خوليا. كانت تلك طريقتنا الأساسية في التواصل. فالهاتف كان أكثر كلفة، أَضِفَ إلى ذلك، أننا كنَّا نجد حُرِّيَّة أكبر في التعبير بواسطة الكتابة. كانت خوليا تُنجز دورتها الدراسية الأولى في الصحافة بجامعة كومبلوتينسي (*). كان بودِّي أن تختار شيئاً آخر، ولكني

(*) نسبة إلى قلعة النهر Alcalá de Henares مدينة بإقليم مَدْرِيد.

مع ذلك لم أضع عراقيل أمامها، وهي ترغب في ممارسة مهنة جَدِّها من جهة أبيها. هي كانت تعتقد بأن الصحافة قد تكون مفيدة، وبأنها يمكن أن تساعد الناس في مواجهة شطط الأقوياء. شخصياً لم أكن أرى كيف يمكن أن يحدث ذلك، فكلُّما حاول أحد فعل ذلك، وُوجِهَ باعتراض رؤسائه. لم أحك لها شيئاً عن المتاعب التي تورَّط فيها ألبيرتو، لكنني أخبرتها بأن علاقتي بليلي تسير في مسار جيِّد، لم أخفِ عنها الموضوع. فخوليا لم تكن تلومني على انفصالي عن أمِّها، وكانت ترغب في أن أكون سعيداً. أنهيتُ الرسالة سائلاً إياها إن كانت تعرِّفتُ على عريسٍ ما في الجامعة، وفي الوقت نفسه، وجَّهْتُ لها الدعوة لزيارتي في طَنْجَة، حالما تنتهي من اختباراتِها شهر يونيو. هكذا تستطيع التعرُّف على ليلي. ضغطتُ على زرِّ الإرسال، نهضتُ لأُطلَّ من الشُرْفة وأشعل سيجارة.

كان المبنى المقابل من زجاج وخرسانة وَسِخَيْنِ، وكان بطابقه الأرضي محلٌّ تجاريٌّ، وعلى الجانب الأيسر من بابه وقف شخص ينظر باتجاهي. يلبس حذاء رياضياً أسود وجلباباً بُنيّاً وقبَّعة بيضاء مُطرَّزة. مُلْتَح ودون شارب، لحيته طويلة ومستطيلة كملعب كرة مضرب. أنهيتُ السيجارة وعدتُ إلى الداخل. دفعتُ للمُكَلَّفة بالمحلِّ ثمن الاتِّصال، ونزلتُ السلالم مُتَّجِهاً نحو البولفار. غيَّرتُ الرصيف صاعداً نحو قاعة الشاي لإسكينا La Esquina. كانت مُغطَّاة بمظلَّة شمسية. جلستُ في الطاولة الوحيدة الفارغة. كان الجوُّ لطيفاً جدّاً. قبل أن يقترب النادل مِنِّي، سبقه ماسح الأحذية الموجود عادة في ذلك المكان. اسمه حامد، رجل مُسنٌّ أسمر ومُجعَّد، يقول للإسبان إن بإمكانهم مُناداته بخايمي.

- هل تريد شيئاً، سينيور *siñor*؟

- لا، شكراً. قلتُ بالعربية نافياً. قدَّمتُ له مارلبورو، فأمسك السيجارة

بلهفة.

- هذا من النوع الجيد، سينيور.

- ليس هناك سيجارة جيّدة، يا خايمي. طلبتُ الشاي بالتّعناع. لم يتأخّر في الوصول. صبيتُ لنفسي كأساً، ورفعتُ عينيّ للسماء: لم تكن تعبُر زُرقتها الحادّة إلّا بضغُ نوارس. في الأسفل كانت أسطح المباني وشُرُفاتها تَعِجُّ باللاقطات المستديرة للقنوات الفضائية. كان المغاربة يبحثون في القنوات الأجنبية عن معلومات وأشكال من التسلية كانت تمنعها عنهم قنواتهم الوطنية.

أُخْرِجَنِي من حُلْمٍ يقظتي شخصٌ كان يبيع نظّارات شمسية. مباشرة بعده وضع آخرُ فوق طاولتي ورقة إشهارية. تفحصتها، كانت مكتوبة بالفرنسية وتُعلن عن مَعْرِضٍ للبناء والعقار *Salon du Bâtiment et de l'Immobilier* في فندق فخم بمالاباطا.

حُمِيَ الأجرُ التي خرّبت إسبانيا عبرتِ المضيق ووصلتُ طَنْجَة. كانوا مُحَقِّقِينَ أولئك الذين أعلنوا بأن طَنْجَة مع محمّد السادس، سوف تسترجع نبضها المفقود خلال فترة حُكْم والده الحسن الثاني، هذا الأخير الذي لم يُخَفِ أبداً كُرْهه لهذه المدينة الوقحة، الفاجرة، التي لم يُولِها أدنى اهتمام. أسوأ ما في الأمر، أن المدينة بدأت تنحو نحو النموذج الإسباني: الشمس والإسمنت.

للمرّة الثانية لمحتُ رجل اللحية الشبيهة بملعب كرة مضرب. كان يتصفّح بالناحية الأخرى للبولفار، عناوين الصحف التي يعرضها أحد الباعة فوق بطّانية على الرصيف. عدتُ إلى مكان عملي دون أن يغادرني الإحساس بأن عيناً ما لازالت مزروعة في قَفَاي. وصلتُ ساحة إيبيريا Iberia، وبدل الاتجاه نحو ثيربانتييس، اقتربتُ من المؤسّستين المتجاورتين: ثيبيرو أوشووا Severo Ochoa و رامون إي كاخال Ramón y Cajal. هناك كان

يدرس الآن أبناء الجالية الإسبانية القليلة العدد، فضلاً عن أبناء المغاربة الناطقين بالإسبانية.

كان الوقت وقت خروج التلاميذ. أمّهات إسبانيات ومغربيات كنَّ يأخذنَ فراخهنَّ. بعضهنَّ كنَّ يشتريْنَ لأبنائهنَّ الحُمصَ المطبوخَ من عربة خشبية مُثَبَّتةً بالقرب من بَوَّابة مدخل ثيبيرو أوشووا، يقوم عليها فتى ذو قامة طويلة، وجسم نحيل ورياضي. كان يرتدي قميصاً رياضياً لبرسُلُونَة، يحمل رَقْم عشرة، مع اسم اللاعب ريبالدو على ظَهْر القميص. لم يسبق لي أن رأيتهُ بغير هذا القميص، حتَّى في الشتاء المنصرم كان يلبسه فوق كترته الصوفية. أمران لا ثالث لهما، إمَّا أنه كان يَمْتَلِكُ نسخاً أخرى من القميص أو أنه كان يقوم بغسله كلَّ ليلة.

- ماذا هناك، يا ريبالدو؟ كيف هي الأحوال؟ قلتُ محيياً

قال رافعاً رأسه عن اللَّفَّافَة الورقية التي كان يملؤها:

- الحمد لله *Al hamdulilá* يا سيبوليدا. كلُّ شيء يسير على ما يرام.

كان شَعْر ريبالدو قصيراً ومُجَعَّدًا، وينتعل شبشباً بلاستيكيّاً وجوارب، ويلبَس سروال جينز باهتاً، فضلاً عن قميص نجمة المُفَضَّل. العلامة الثانية التي كانت تميِّزه هي السيارة المُثَبَّتة دوماً، فوق أذنه. كان في الثامنة عشرة من عُمره، يعيش مع أجداده في الحَيِّ الشعبي كاساباراطا Casabarata. كان يكسب لقمة عيشه بائعاً مُتَجَوِّلاً للتُرْمُس المسلوق والحُمص والبقول المُغَلَّى. ويُرَاهن دائماً على المنطقة الإسبانية. أحببتُ بقوليَّاته، وبهذه الطريقة نشأتُ بيننا صداقة. عهدتُ لريبالدو ببعض المهامِّ الصغيرة، كأن يحصل لي على شيء من الكيف للتدخين، أو يدلّني عبر زوايا ومجاهل المدينة، على قبر الرَحَّالة الكبير ابن بطُوطَة، أو يقوم بجلب أو إخراج أثاث بيتي أو أمور شبيهة بهذا. كان ودوداً ومخلصاً ومُمتَثلاً، وكنتُ أثقُ به.

همستُ في أُذنه:

- لديَّ إحساس بأن هناك ابن عاهرة يتعقَّبني. هل يمكنك أن ترى -
دون أن تجعله يُحسّ بذلك - إن كان ما يزال هناك؟ يلبَس برنيطة بيضاء،
وجلباباً بُنيّاً ولحية طالباية أفغانية.

- واخًا، سيّد سيولبيدا. ركّز ريبالدو اهتمامه على السيّدة التي طلبت
منه عشرة دراهم حُمص. ملأ اللَّفّة الورقية، وقَدَّمها لها وأخذ المقابل. ثمَّ
ملأ اللَّفّة الأخرى، وقَدَّمها لي. وهو يقوم بحركاته تلك، كان يمسح بنظراته
الأماكن المحيطة. كانت صومعة مسجد محمّد الخامس بلونها الرصاصي
تهيمن على ما سواها، وقد قام الكويتيون بتمويل بنائها، حتّى تنافس في
العلوّ برج الجرس المُدبَّب للكاتدرائية الإسبانية غير البعيدة من المسجد.
- نعم، إنه هناك، تحت الشجرة، انظر!

- اللعنة! وضعتُ يدي في جيب سروالي لأُخرج حَفَنَةً من النقود.
بدأت المنطقة تخلو من الناس، ومضتِ الأمّهاتُ مسرورات صُحبة أبنائهنَّ،
بحثاً عن الوجبة المسائية الخفيفة. وكما لو أن ضربة فرشاة هَرَّت ذاكرتي،
تذكّرتُ أن ريبالدو يترك عربته في أثناء الليل لدى حارس بَوَابَةِ ثيبيرو
أوشووا، مقابل شيء من البقشيش. وجدتُ قطعة نقدية من فئة خمسة
دراهم، سلَّمْتُها له وقلتُ:

- ماذا بوسعنا أن نعمل؟

أمسكَ بالقطعة النقدية التي ما زالت تحمل صورة الراحل الحسن
الثاني وقال:

- ليست هناك مشكلة، سيّد سيولبيدا. إن أردتَ أغلقُ العربة وأقوم
بمراقبة ابن العاهرة ذاك. قال ذلك مبتسماً بطريقة شريرة. أسنانه كان
ينقصها الناب العلوي الأيسر.

- يمكنني مراقبته، كما لو كان مُهاجِماً في فريق ريال مَدْرِيد.

- ليست فكرة سيّئة، خاي! أنا الآن سأذهب لدروسي. إذا لاحظتُ أنه يتبعني حتّى ثيربانتيس، تقوم أنتَ بتعقُّبه، وتحاول معرفة مَنْ هو وأين يعيش ومن أجل مَنْ يعمل؟ وأشياء أخرى من هذا القبيل. لكن، كن حريصاً ألا يكشفكَ.

- لن يكشفني، سيّد سيولبيدا.

- إذا علمتَ بشيء مُعيّن، فحدّثني على المحمول أو مرّ عندي في منزلي لتسوية ما يتعلّق بمصاريفكَ.

- اطمئنّ، أنتَ اطمئنّ! اتّجهتُ نحو ثيربانتيس وأنا ألتقط حَبّات الحُمص من الملفوف الورقي.

- انظرُ هناك، هانفري بوغارت! قالت ليلي. رنّت أساورُها حين أشارت إلى صورة كانت مُعلّقة على يسار منصّة تقديم الوجبات، إلى جانب تلفاز كان يبيّثُ مسلسلاً مصرياً بدون صوت. كانت الصورة داخل إطار رفيع ومُثبتة فوق مَسند بُنيّ. صورة عمودية بالأبيض والأسود وفي حجم بطاقة بريدية تُبرز وجه بوغارت ناظراً على نحو جانبيّ بنظرات مُكثّفة وشفَتَيْن مضغوطَتَيْن وياقة معطف مَطريّ مرفوعة إلى أعلى.

- نعم، العجوز بوغارت نفسه. - قلتُ مؤكّداً - إحدى الأساطير المحليّة تؤكّد بأنه أهدى هذه الصورة لـ دينْ Dean في الليلة التي كان فيها هنا، ودعا الحاضرين جميعهم إلى سهرة للشراب والأكل، لكن شكري ليس مُتيقناً من صحّة الواقعة.

- ما الشيء غير الصحيح؟ هل وجوده هنا أم دفعه ثمن سهرة الشراب والأكل؟

- هما معاً. شكري ليس مُتيقناً من أن بوغارت سبق له أن وضع رجلَيْه بهذه المدينة. ممكن نعم، وممكن لا. في الأحوال كلّها هو ليس مُتيقناً. لكنه يقول إن الأمر سيّان بالنسبة إليه، إن كانت رجلاً بوغارت قد وطأتا حانة دينْز Dean's Bar أم لا. لأنّ الأهمّ من هذا كلّهُ هو أنه حاضر في ذاكرة الشارين الذين يتكئون بمرافقهم على هذه المنصّة.

- كلام جميل، دعني أشرب نخبه! رفعتُ زجاجة بيرة "سُطورك". قلّدتُها،

فشرينا من القنينة مباشرة. خالجتني الرغبة أن أعانقها، وأغمرها بالقُبلات، لكنني تماسكتُ. كانت هي الزبونة الأنثى الوحيدة في حانة دِئِز، وما كنتُ أريد أن أضعها في وضعية إحراج، ولو أنني أفترض أن باقي الزبائن كانوا سيعتبرون الأمر عادياً. قلتُ وأنا أضع الزجاجاة فوق المنصّة.

- مَنْ كان يأتي إلى هنا، هو إيان فليمنغ Ian Fleming - أب "جيمس بوند"؟

- نعم، هو نفسه. كان بطنجة يُنجز بعض الاستطلاعات حول تجارة الماس، لحساب إحدى الصحف الإنكليزية. وكان يحلو له إنهاء يومه هنا باحتساء بضع فودكات ثلاثية ممزوجة بمشروب طونيك.

- ثلاثية؟ يا للفضاعة! هل تعرف أيّ كاتب أتى لهذه المدينة، ولم يكن سكيراً؟

- لا، يا أميرة. لم يكونوا جميعهم سكيرين، في الحقيقة كانوا في غالبيتهم شارين كباراً. كانت تلك، أزمنة أخرى، ولم يكن قد نزل بعدُ مبدأ "اللائق من الناحية السياسية" إلى حيّز التنفيذ. نظرتُ إليّ ليلي نظرة تهكُّم. زوال يوم السبت، التقينا أنا وليلي بنية قضاء أوّل يوم معاً منذ مجيء ألبيرتو. نقطة لقائنا كانت أوّل مدفع على اليمين من مدافع البرونز الأربعة المركونة بشُرْفَةِ الكسالي (سور المِعْكَازِين)، ذاك الذي نُقِشَ عليه مكان وتاريخ صنعه: برُشْلُونَة، 9 نوفمبر 1780.

كانت ليلي بالغة الجمال، بشعرها الممتوِّج المرسل وبذلتها الحمراء الصغيرة مع تُوّرة عند حدود الركبتين. وصدرية تحمي بها نفسها من الرياح الربيعية. كانت تتعل حذاء رياضياً أحمر تبرز منه جوارب سوداء قصيرة جداً. قبلنا بعضنا على الخدين، شممتُ فيها رائحة ليمون. سألتني عن مُستجدّات قضية ألبيرتو، فلخصتُ لها الموضوع مُتجنباً الأهم، أي الخوض

في موضوع وجود تحقيق ثان، وقيام أحد المُلْتَحِينَ بتعقُّبِي مساء اليوم السابق. بالمناسبة، لم يُظْهِر ريباً لِدَوِ آيَّةِ إشارة حياة، ولم يمرّ من بيتي أو يتّصل بي هاتفياً. خَمَنْتُ أَنْ المُلْتَحِي نجح في الإفلات منه، وأنه مُحَرَج من الاعتراف بذلك. العرب عموماً يصعب عليهم نقل الأخبار السيئة، ولذلك في الكثير من الأحيان يجيبونكَ بـ "غداً، إن شاء الله" عوض النفي الصريح.

كان من دواعي اطمئناني ألاّ أعود للالتقاء بذلك الشخص ذي السَمْتِ الجهادي. لم أشاهده وأنا أخرج من المنزل، ولا في طريقي لموعدي مع ليلي. بل تعمّدتُ في بعض المَرَّات للتوقُّف مُتَظَاهِراً بِرِبط خيوط حذائي والنظر من حولي غير أنني لم أكتشف ما يدعوني إلى الارتياب. قد أكون أخطأتُ المساء المنصرم. وقد يكون لقائي بالمفوّض الجديد أطلق لديّ شرارة البارانويا التي كنّا جميعاً نحيا داخلها منذ الحادي عشر من سبتمبر.

يكثُر في طَنَجَةِ الأشخاص الذين هم على تلك الهيئة. خاصّة يوم الجُمُعَة، يوم الصلاة الجماعية داخل المساجد، حيث تكثُر الألبسة التقليدية. والراجح أنّ ذهني دون شكّ، جَمَعَ - في شخصية واحدة - صوراً مُتعدّدة لمظهر مُتشابه.

ذهبنا إلى حانة دِئْنَز. كانت قرية جدّاً، بشارع أمريكا الجنوبية. أسفل قليلاً من فندق المِنْرَة. وكانت المَرَّة الأولى التي أذهب فيها إلى ذلك المكان صُخْبَة ليلي. منذ وقت طويل، فَقَدَ المحلُّ بريق المرحلة التي عاشها كملجأ مُفضَّلٍ للجالية الأنجلو - أمريكية.

كان دِئْنُ، الذي افتتحه سنة 1937، يُقدِّم فيه أحسن كوكتيلات الشراب في شَمَال إفريقيا.

كانت حانة دِئْنَز في الأعوام 1940 و 1950 شبيهة بمقهى ريكز Rick's Cafe الأصلي الذي تولّى تسييره - على نحو تخيلي - هانفري بوغارت

في فيلم كازا بلانكا. كان دينُ أصلعَ، وذا بشرة داكنة، مُتقناً لعدّة لغات، كان ودوداً ومِعْتِجاً عند الكلام عن أصوله الغامضة. فكان أحياناً يقول إنه جمايكي مُهَجَّن، وأحياناً ابناً لمصريٍّ وفرنسيّة. كان يُحكى عنه أنه قبل أن يُحدِث مشروعه التجاري، كان نادِلَ حانٍ في المِنْرَة. قيل عنه أيضاً إنه كان جاسوساً بريطانياً ومُدمناً للأفيون.

مات دينُ منذ سنوات عديدة، ومات معه زبونه "بول وجين بولز" وكلُّ أولئك الأصدقاء، الكُتّاب والموسيقيون والرّسّامون الإنكليز والأمريكيون الذين كانوا يزورونه، سرعان ما كان يداهمهم العطش لِمَا هو أكبر من الشاي بالنّعناع. لم يعد هناك من مُبرّر أمام الجواسيس الأجانب ليضربوا أوتاد خيمتهم في حانة دينز. لقد أصبحت مجرّد خَمّارة مغربية مشهورة بمُقبّلاتها المرافقة مجّاناً للمشروبات الكحولية: فول وعدس وفاصوليا وسمك صغير مقلّي وسلطة بالخضر ومَقالي "لاباهيّا" (أكلة الرزّ الإسبانية الشهيرة). أنا وليلى، كان من نصيبنا بعض السردين المُمْلَح.

- كم هو لذيذ! قالت.

كانت ليلي، كالتُنَجِّيْن كلّهم الذين يتحدّثون الإسبانية، تتحدّث بلُكْنَة أندلسية لذيذة كانت تحاول استئصالها؛ كانوا يُلحّون عليها في مركز الاتّصال *call center* الذي كانت تشتغل به، أن تستعمل قَشّالِيَّةً محايدة، وأن تعرف كذلك تفاصيل كثيرة عن الحياة الإسبانية. لم يكن يهْمُ الزبائن الذين يتّصلون من الجانب الآخر من البوغاز، أن يعرفوا أنهم يتحدّثون مع مغاربة ذوي أجور هزيلة، وبالتالي فهي كانت تُسمّي نفسها بالاسم الحربي، رُوسا Rosa.

- أُمّي تُعدُّ طاجين سردين رائعاً.

- هل تقترحين عليّ أن أتعرّف على أُمّك؟

- لا تكن أبله، يا سيولبيدا. ليس لدي أدنى رغبة في أن أقدمك إلى أهلي، ولا هم لديهم أدنى رغبة لمعرفةك. سيصعب عليهم تقبل أنني أصاحب أجنبياً، مسيحياً، أو نصرانياً *nasrani* أو كما يحلو لهم تسميته.

- رغم أنك تعتبرينهم من المغاربة الحداثيين؟!

- هم بالفعل كذلك. لقد أرسلوني إلى غرناطة للدراسة في الجامعة. ولا تعتقد أن الأسر جميعها هنا تسمح لبناتها بالذهاب وحدهن إلى الخارج.

- لا، لا أعتقد. أعرف جيداً كيف هو الوضع.

- هم أناس طيبون. لكنني لست أدري لحدود الساعة، كيف لي أن أخبرهم بأنك إلى جانب كونك نصرانياً، فأنت مُطلق ولديك بنت. قد أسترضيهم بالقول بأن الرجال جميعهم قد تحولوا إلى مثليين أو إسلاميين. أطلقت قهقهة ظننت على إثرها أنني بدأت أطيّر. كتب والتر بنيامين Walter Benjamin قائلاً: "عندما يضحك المرء، يُحسُّ بأجنحة صغيرة تنبت لديه. ثمّة علاقة قرابة ما بين الضحك والرفرفة". كلام الكاتب البرليني، كان أكثر صدقيّة، من كلام أيّ وليّ صالح. قلتُ حينما عدتُ لصوابي: نساء الضفّة الأخرى يشتكين من الأمر نفسه، فقط هناك، بدل الإسلاميين، رجال أعمال يمينيون. على أيّة حال، خذي ما وسعك من الوقت قبل أن تحكي لهم عن موضوع طلاقي وأبوتي.

- لا تقلق، لن أتعجل الأمر.

- أمس كتبتُ لخوليا رسالة أدعوها فيها لزيارة طنجة والتعرف عليك.

- وأجابتك؟

- لا أعرف، لم أعد لفتح علبة رسائلي، لكن، مع خوليا لن يكون هناك أدنى مشكلة، يمكنكما الانسجام على نحو جيد.

- إن شاء الله. وجَّه لي القائم على المحلّ نظرة مأكرة، وشغّل جهازاً موسيقياً، طلع منه صوتُ إيثابيل بانطوخا Isabel Pantoja وهي تُغنّي أغنيةً لثارتامورا La Zarzamora الشعبية. كان مغربياً أصيلاً مثل سان إيسيدرو لابرادور San Isidro Labrador. غطّى جدران حانته بمقالات وصور تمجّد فريق ريال مَدرِيد. طلبتُ منه زجاجة "سطورك" Stork أخرى. بينما ليلي رفضت الجولة الثانية، فهي تقريباً، لا تشرب كحولاً.

- ماذا قلتِ لوالديك عن برنامج اليوم؟

- كذبةٌ بيضاء. ادّعتُ أنني ذاهبة مع صديقة لي، وأني سوف أقضي الليلة في منزلها، على أن أعود إلى البيت غداً مع وقت العَداء. وقد تظاهروا بتصديقي. أمسكُها من يدها لأبعدُها عن المنصّة وأذهب بها إلى الداخل، إلى قاعة صغيرة ذات طاولات خشبية، حيث في الأزمنة الجميلة، ومع كوكتيلات الشراب التي كانت تتوالى، كان الحديث بالإنكليزية، حول أسعار صرف الدولار والليرة الإسترلينية، وحول الشجارات مع المراهقين، وحول الحفلات المُقامّة في قصر باربرا هوتون Barbara Hutton، حيث كان المعجون وفيراً، والمُربّى المصنوع من الحشيش بحسب الذوق والإمكانات، وحيث التمر والزبيب والتين والجوز والفسق والعلسل. حجاب كثيف من الدخان والشحوم والغبار كان يُغطّي تلك المرحلة الزمنية. الزبون الوحيد الذي كان بالقاعة، رجل مُسنٌّ يَصُبُّ بَيْرَتُهُ على نحو كئيب.

تركتُ يد ليلي، وأشرتُ لها بيدي إلى إطار مُعلّق بالحائط الأيسر. كانت لوحة زيتية مُشَبَّعة بالدخان، حيث كان من الصعب فيها تمييز التمثال النصفى لرجل أشيب الشَّعر واللحية.

- خَمْنِي مَنْ يَكُون؟ قلتُ.

تَصَفَّحَتِ اللوحة بعناية. قامت بإيماءة ساخرة لتُبَيِّن أن الأمر كان صعباً. هزَّت بحركة من رأسها أمواج شَعْرها، وغمغمتُ بشفتَيْها الأَفْرِيقَتَيْنِ. بعد ذلك نظرت إلى عَيْنَيَّ وكأنها تبحث عن الجواب داخل رأسي. وسرعان ما أشرقت بابتسامة:

- همنجواي Hemingway؟

- نعم - أَكْذَبْتُ - إنه همنجواي، في آخر أَيَّامه. كان دِينُ Dean يقول إنه كان صديقاً له، وإنه كان يأتي للحنة حينما كان يزور طُنْجَة. لكن همنجواي أيضاً لم يكن في طُنْجَة.

- عجباً! يبدو أن لا أحد كان هنا، باستثناء جيمس بوند. قالت وهي تمسك بيدي. وقد كُنَّا قَرِيبَيْنِ لدرجة أن أنفاسنا كانت تتمازج.

- ولا أنت أيضاً، يا سيبوليدا، تبدو موجوداً. أنت مجرد شبح، ولعلي أحلم بك فقط.

قَبَّلْتُها في فمها، فاستجابت. اتَّحَدَتِ الشفتان واللسانان، والتفا في قبلة لذيدة، طويلة. تجاهلتُ الشيخ الصامت الذي كان في الخلف يصبُّ قناني البيرة. تجاهلتُ أيَّ مغربيٍّ أو إسبانيٍّ آخر. لم نعد موجودَيْنِ في حانة دِينز، ولم نعد موجودَيْنِ في طُنْجَة، ولا في أيِّ مكان آخر، ولم يعد العالم موجوداً. فقط كُنَّا نوجد، نحن الاثنين. سدَّدنا الحساب، وذهبنا إلى منزلي.

طُنْجَة، خريف 1956

كانت رامونيتا Ramoneta تصنع أحسن أنواع الباهيّا في طُنْجَة، أو على الأقلّ، هذا ما كانت تقوله أسرة ماركينا Marquina التي كانت تشتغل في بيتها كمُدبّرة منزلية. عائلة سيبوليدا لم تكن بالطبع تُجادل في هذا الموضوع، فباهيّات رامونيتا كانت رائعة، وفي النهاية، فالمرأة مُتحدّرة من بِلَنسِيّة^(*). كانت أولبيدو تشاهدها، وهي تصبّ الماء بعناية شديدة في الوعاء المَعْدِنِي المستدير المسطح، حيث تمّ تحمير الدجاج والأرانب وقلّي الفاصوليا والخَرْشُوف والطماطم قليلاً خفيفاً، وذَرّ مسحوق الفُلْفُل الأحمر. هذه اللحظة الطقوسية كانت من اللحظات القليلة التي تفتح فيها رامونيتا فمها، دائماً لتقول إن الباهيّات لا تكون كلّها رائعة إلا إذا طبخت فوق حطب شجر البرتقال، وسُقِيت من ماء أرضها الأمّ. عدا ذلك، كانت رامونيتا شديدة الصمت.

حلّت رامونيتا بطُنْجَة في ربيع 1939 بعد رحلة طويلة عبر مارسيليا ووهران وفاس، هاربة من الفرانكاوية التي أعدمت رميّاً بالرصاص زوجها الذي كان أحد قادة النّقَابَة الوطنية للشغل بِلَنسِيّة CNT. ولقد مضت سنتان، على بداية عملها مع أسرة ماركينا.

كان يومَ أحدٍ مثالياً لتحضير الباهيّا بخضروات المزرعة في الغابة

(*) مدينة اشتهرت تاريخياً بهذه الأكلة الإسبانية المميّزة.

الديبلوماسية *Forêt Diplomatique*. كان هبوب الرياح خفيفاً، ولم تكن قطعان السحب البيضاء التي تشقُّ السماء بقادرة على طمس أشعة الشمس. ما كان أكثر وضوحاً من هذه السحب المتسكّعة، هو أسراب الطيور السريعة التي تقوم بهجرتها الخريفية نحو أفريقيا قادمة من أوروبا. كانت أولبيدو تُحدِّق في إحدى أسراب الطيور مُحاولَةً تمييز فصيلتها، في الوقت الذي أحسَّت فيه بيد تتكئ على كَتِفِها اليُمْنى.

- إلى ماذا تنظرين؟ سألهما كارلوس.

- إلى الطيور، يا عزيزي. أجابت وهي تدير رأسها نحو زوجها.

- أعترف لك أنني كنتُ جاهلة بمدى قدرتها على قَطْع المسافات. أمس قرأتُ ذلك في صحيفتك. هل كنتَ تعلم أن الملايين منها تعبر البوغاز في هذه الفترة، لتقضي فصل الشتاء في أراضٍ أكثر دفئاً؟ مثل طيور السنونو واللقالِق والبَط والحساسين والخطاطيف.

- نعم، قرأتُ المقال. إنها تنتهز فرصة قَصْر المسافة بين أوروبا وأفريقيا: أربعة عشر كيلومتراً من طَرِيقَةٍ حتَّى مغارة هِرْقُل. إنها أقصر رحلة طيران بدون استراحة بين القارَّتين.

- كيف لهذه الطيور ذات الرؤوس الصغيرة، بهذا الذكاء؟!

قَبِل كارلوس على مَضَض مزاح زوجته قائلاً:

- يا لغرابة ما تُفكِّرين به! هيّا، تعالي لتجلسي معنا. فايمليو Emilio يحكي لنا أشياء طريفة عن حفلات الإنكليز.

قال ذلك وهو يشير إلى الجماعة المستريحة فوق كراسٍ قابلة للطّي، ومصنوعة من الخشب والقماش. كانوا على بُعد أمتار من نار حطب الصَّنَوْبَر، حيث كانت رامونيتا تُعدُّ الباهيّا. رافقت أولبيدو زوجها وجلستُ على الكرسي الفارغ المُخصَّص لها.

كانت المجموعة تصطفُ في شكل نصف دائري، مُولية ظهرها للطبّاخة وشاحسة نحو الكُثبان التي تفصلها عن المحيط الأطلسي.

استعملت المجموعة مساحة صغيرة خالية من الأشجار وسط غابة أشجار الصَّنَوْبَر والبَلُّوط والسَّنَدِيَّان التي كانت تمتدُّ بشكل مُتواز مع المحيط الأطلسي انطلاقاً من مغارات هِرْقُل باتجاه منطقة أَصِيلَا. الطَّنْجِيُون كانوا يُسمُونها الغابة الديلوماسية، لأنه في الأزمنة الأولى للفترة الدولية، كان القناصل يأتون هناك لاصطياد الخنزير البري. تمكَّنت رماحهم وبنادقهم في ظرف سنوات قليلة من إبادة هذه الحيوانات إبادة نهائية.

كانت أوراق الصَّنَوْبَر وأكوازها الساقطة من الأشجار تُغطِّي التربة الرملية، وكانت الزيزان تُغني بسعادة. أحياناً كانت القرويات يَمُرُّنَ مُعتمرات قَبَّعات القش مُترنَّرات بمناديل مخطَّطة بالأحمر والأبيض وهنَّ يَقْدَن قطعاناً صغيرة من الماعز والخرفان. كانت أيديهنَّ تُحيي بلطف المترهِّين الأوروبيين.

كان إيميليو ثانس دي سوتو Emilio Sanz de Soto، مدير النادي السينمائي الروكسي Roxy محور الاجتماع. قَدِم من المدينة على متن سيارَة بيل إير Bel Air التي في ملكيَّة أسرة سيبوليدا التي نقلت بدورها الكراسي والطاولات القابلة للطيِّ من أجل النزهة. لويس Luis وأوخينيا Eugenia ماركيئا جاءا على متن سيارتهما كاديلاك Cadillac الصفراء المكشوفة، وبصُحبتهما رامونيطا، وبمعيتهما أدوات المطبخ وتوابل الباهيَّا وطفلهما الصغير ألبيرتو الذي في غضون شهر سيكمل العام، والذي كان ينام بوداعة في عربته التي كانت تغلق نصف الدائرة من جهة اليسار. كان لويس ماركيئا من أصول باسكية. استقرَّت أسرته منذ نصف قرن في شَمال المغرب، وقد جمعت ثروة صغيرة عن طريق تصدير معادن الريف إلى إسبانيا.

في الثلاثينيات، كان والد لويس قد بنى فيلاً من طراز آر - ديكو art déco في هضبة مرشان، المنطقة الأكثر ارتفاعاً وغنى في طنجة. وهناك استمرت أسرة ماركينا في العيش إلى أن انضم إليها الصغير ألبرتو.

انجذب كل من لويس وكارلوس إلى بعضهما، منذ لقائهما في إقامة القنصل الإسباني زمناً قليلاً قبل مجيء أسرة سيبوليدا للاستقرار بالمدينة. كلاهما كانت تستهويه سهراتُ المجون وألعاب الورق. انتهى الأمر بأولبيدو هي الأخرى، ناسجة خيوط صداقة مع أوخينيا. هذه الأخيرة كانت تتحدّر من سان سيباستيان San Sebastián، تعرّفت على زوجها حين كان يزور المدينة للتجارة. كانت بالنسبة إلى ذوق أولبيدو مغالية في جفافها ورصانتها ومسيحيّتها. وقد كانت الوحيدة ضمن المترهّنين التي ذهبت إلى القدّاس ذلك الصباح. لكن الاثنتين مع ذلك كانتا تردّدان معاً على المَحَلّات التجارية ومَحَلّات بيع الحلويات ودور السينما. منذ

أسبوع شاهدتا معاً، بعد طول انتظار، فيلم "المجتمع الراقي Alta sociedad". قال إميليو سانت دي سوتو مُتوجّهاً بالحديث إلى المُلتحقة أخيراً بالمجموعة:

- كنتُ أحكي - للمرّة الألف - عن الحفلة الشهيرة لصيف 1949، ومن باب التوثيق أقول إنني فعلتُ ذلك استجابةً لزوجك الذي طلب منّي ذلك. كان الرجلُ أندلسيّ اللهجة، يتجاوز الثلاثين، ذا شَعْر داكن ولامع، وحاجبين كثيفين، وأنفٌ مُستقيم، وشاربٍ خفيف، لا يُفلح في تغطية ذقنه المدبّب. كان صديقاً لأسرة بولز Bowles وكان يُشكّل همزة وصل بين المستوطنين الإسبان والمغتربين الناطقين بالإنكليزية.

كانت أولبيدو مغرمة بشائعاته.

- استمرّ، أو بالأحرى استهلّ من البداية، قالت تحته. لم يكن إميليو

لينتظر من أحد أن يترجّاه ليمضي في الحديث. كان كارلوس ولويس يُحملقان فيه بملامح مرحلة، بينما كانت أوخينيا غارقة في ضجرتها المعتاد.

- نحن في العام 1949، سبع سنوات فقط مرّت - ولو أنها قد تبدو دهراً - لا أحد كان قادراً آنذاك على تصوّر أن المغرب سيصبح مُستقلاً على ذلك النحو المُبكر. يا للعجب!

- هزّ كَتِفَيْهِ تسليماً بقوة قَدَرِ قاهرة - في ذلك الصيف، وصل ترومان كابوتي Truman Capote إلى طَنْجَة، بناء على دعوة من جين بولز Jane Bowles. كان شاباً صغيراً وشديد الوسامة، ومع ذلك حظيت روايته بنجاح منقطع النظير. كان الكلّ في نيويورك يعشقه. هكذا أخبرت جين دافيد هريبرت David Herbert بأن ترومان موجود بطَنْجَة...

- دافيد هريبرت - قاطعت أوليدو - هو قريبُ الأسرة المَلَكِيَّة البريطانية الذي يعيش هنا؟ أليس صحيحاً؟

- تماماً، عزيزتي - أكّد إيمليو - إنه الابن الثاني للكونت بيمبروك Pembroke ابن العمّ غير الشقيق للملكة إليزابيث. حَكَمْنَا الأَيْقُ الذي كان يَمْلِك الكثير من القطط، وَيُسَمِّيها كُلّها: لورد كذا، ولايدي كذا... - هؤلاء الإنكليز دائماً غريبو الأطوار!

أشار كارلوس باستخفاف.

- غريبو الأطوار وربّانٍيون في الآن ذاته - ردّ إيمليو - لكنّ، ماذا عن سجنائهم، يا كارلوس؟

- وماذا عن الويسكي الإنكليزي؟ - قال لويس ماركينا مُدْعِماً.

- تعرفُ، يا لويس، أن الويسكي الذي يُعجِبُنِي هو الويسكي الإسكتلندي وليس الإنكليزي - دَقَّقَ كارلوس - وإذا كان عليّ أن أختار بين الشعوب

كلّها التي تحدّث لغة شكسبير، فإني سأصوّت على الأمريكيّين، فهُم المستقبل، وهم الذين سينتهي بهم الأمر بغزو القمر.

- كارلوس يُعجبه الأمريكيون، لدرجة أنه يُفضّل الحليب المُجفّف على حليب الأبقار الموجود هنا.

نظرتُ أولبيدو إلى زوجها، وخيّل لها أنها رأتُ في عينيه بعضاً من الاستنكار على تعليقها.

- تذكّر، يا كارلوس، أننا ندين للإنكليز بالوضعيّة المُتميّزة التي تتمتع بها طُنجة - قال إميليو - هم رفضوا أن يكون المغرب جميعه فرنسياً، وألحوا على أن يتولّى الإسبان المساكين أمر منطقة الشّمال. وحتّى لا يتركوا لنا فرصة التحكّم في جانبيّ البوغاز، ضغطوا حتّى تكون طُنجة دولية. ونحن الذين نعيش هنا، علينا أن نشكرهم على ذلك. ألا يبدو لك ذلك منطقياً؟

- أنا مُتفق مع دفاعك عن الإنكليز، يا إميليو - قال لويس ماركينا - ولا تنسَ أيضاً، يا كارلوس، أن أحبّاءك الأمريكيّين هم من أقمعوا السلطان محمّد الخامس بالفكرة السخيفة لاستقلال المغرب. الأمريكيون أفسدوا علينا مُتعتنا.

- يا لكم من استعماريين! - أجاب كارلوس -.

- أنتم تعرفون حقّ المعرفة أن نظام الحماية والوضع الخاصّ لطُنجة هي أخطاء تاريخية، مستحيل أن يتمّ تبريرها بعد الحرب العالميّة الثانية. روزفلت لم يفعل أكثر من أنه شرح لمحمّد الخامس ما هو بديهي: نعيش عصراً جديداً، والإمبراطوريات الفرنسيّة والإنكليزيّة لم يعد لها من معنى. سلُحفاة كبيرة جدّاً عبرت حقل رؤية المُتشرّهين، وانتهت مُحتمية بإحدى

الشجيرات. قطعت أولبيدو الصمت المُسلّي الذي خلقه ذلك الظهور المفاجئ، وقالت مُتّجهة نحو إيمليو:

- وماذا يقول أصدقاؤك الأنجلوسكسونيون عن المستقبل؟ كم بقي لنا من الوقت؟

- زوجك الصحفي هو الذي يمكنه أن يكون الأعلّم بذلك. يبدو أن القوى العظمى تتفاوض الآن مع محمّد الخامس على نوع من الهدنة.

- هرّ كارلوس رأسه مُوافقاً - وما سمعته، هو أننا يمكن أن نظلّ مُطمئنين ما دامت باربارا هوتون لا تزال في قصرها بالقُصبة. اليوم الذي ستَحْزِم فيه حقائبها، سيكون اليوم الأخير بالنسبة إلى الجميع، النهاية *The end*.

- لحدود اللحظة، لم تفعل ذلك، صحيح؟

- لا، يا عزيزتي، حسب ما أعلم.

- تابع، من فضلك، قصّتك إذن.

استأنف إيمليو الحكى بسرور.

- كنّا موجودين في اللحظة التي اصطحبت فيها جين ترومان ليتعرّف على دافيد الذي كان ذلك الصيف، يعيش ببيته في مرّشان مع المصوّر سيسيل بيتون Cecil Beaton. وتعرفون ماذا حصل؟ لقد وقع ترومان في حُبّ سيسيل على نحو جنوني. لم تكن طُنجة حتّى ذلك الوقت قد أعجبته في شيء، غير أنه قرّر البقاء طوآل ذلك الصيف، فقط من أجل سيسيل.

- كابوتي أيضاً هو...؟ قالت أولبيدو دون أن تُكمل الجملة.

- مُتوتّر؟ بالطبع! في أيّ عالم تعيشين، يا أولبيدو؟ ألم تتجرّدي بعد من عقليّتك الريفية المألقيّة؟

- ابتسمت أولبيدو لسماعها كلام إيمليو.

- شيئاً فشيئاً، يا إيمليو. كَوْنْ أولبيدو درست في مدرسة للراهبات أمرٌ لا يمكن التحرُّر منه بشكل مُبكر. قال كارلوس.

- لكنك تمضين في الطريق الصحيح. والآن - بعد إذنكم - أنهي الحكاية، لنفسح المجال لباهياً رامونيٓطا: ما حدث، هو أن ذلك الصيف، كان الصيف الذي جرت فيه أحسن حفلات طُنْجَة في الأزمنة كلَّها. ربَّما لأن ذلك جاء بعد وقت وجيز من نهاية الحرب العالمية الثانية، والكلُّ كان يُحسُّ بشكل عارم بفرحة العيش *joie de vivre*. تحوَّل ترومان إلى الضيف النجم في العديد من الحفلات. دافيد نظَّم إحداها في مغارات هِرْقُل، وتولَّى سيسيل أمر الديكور. كان شيئاً لا يُنسى. كان الشيء الوحيد الذي تمَّ تقديمه هو الشامبان والحشيش. الموسيقى كانت من عزف جوقة مغربية، ولم يكن هناك من ضوء، غير ضوء النيران وضوء القمر المُكتمل. نحن المدعوُّون ارتميٓنا على الرِّزَابِيّ والوسائد المفروشة فوق الرمل، وكُنَّا نذهب للسباحة متى رغبنا في ذلك. توقَّف إيمليو عن الكلام مُحاولاً استرجاع ذكرى ما، مُغلِقاً عَيْنَيْه، ورافعاً للأعلى رأسه على نحو مسرحيٍّ، بدا فيه وكأن ذقنه مُقدِّمة سفينة. سارع كارلوس لإنقاذ الموقف والإتيان بالتعليق الذي كان مُنتظراً منه.

- كان كلُّ شيء، يا إيمليو، إنكليزياً جداً، وفاحشاً جداً، كما يحلو لك أنت.

- كما يحلو لي أنا - أكَد إيمليو - وهو ما زال مسافراً في صيف 1949، ثمَّ وهو يفتح عَيْنَيْه، وينحني برأسه عاد إلى 1956:

- لكن، لم يكن هذا أفضل ما كان..

- ما هو أفضل شيء كان في تلك الفترة؟ سألت أولبيدو التي كانت

على علم بالقصة، لكنها دائماً كانت تستمتع بالطريقة التي كان يحكيها بها إيمليو، والمتغيرات التي يقوم بإدخالها عليها.

- الأفضل هو أن ترومان قال إنه يخاف جداً عقارب البحر، وكان يرفض المشي في الطريق المؤدية إلى مغارات هرقل. كان يتخيل الرصيف الصخري وهو يعجُ بهذه الحشرات. لذلك كان على مغربيين مفتولي العضلات أن يقوموا بإنزاله، على طريقة كرسي الملكة، وكان عليهما مع الفجر طبعاً أن يصعدا به مخموراً بالطريقة نفسها.

كان ترومان يصرخ طالباً العودة حالاً إلى نيويورك. لا أحد يعلم ما الذي يمكن أن يكون قد حصل له في المغارات ليتصرف بذلك الشكل. ولكن المحقق هو أنه كان يأمر أولئك المغاربة بالإنكليزية بأن يقوموا بحمله على كرسي الملكة إلى الميناء، ووضعوه في أول سفينة عابرة للأطلسي نحو أمريكا.

كسر الصغير ألبرتو جوقة الضحكات باستيقاظه وهو يبكي طالباً زجاجة الرضاعة. أمه التي لم تمنح من وجهها - للحظة - علامات الانزعاج، طلبت من رامونيتا المسارعة إلى خدمتها..

خلال الربيع والصيف الماضيين، تابعت أولبيدو تقلبات خطوبة وزواج مارلين مونرو Marilyn Monroe وآرثر ميلر Arthur Miller، كاتب لم تكن قد سمعت عنه شيئاً قبل تلك اللحظة.

المَجَلَّةُ الأمريكية حياة Life كانت قد نشرت روبرتاجاً مُصَوَّراً كاملاً حول علاقتهما الغرامية، قامت مارلين بمراجعته مراراً. كانت مُشَعَّة، وتعلو وجهها ابتسامة العاشق. كانت قَصَّة شَعْرها الأشقر قصيرة للغاية. بينما كان هو شديد الطول والنحافة، جذاباً بنظَّارته ذات الإطار البلاستيكي. لم يبقَ هناك من شكٍّ في أن الكلمة الآن هي للشَّعر القصير. لم تكن مارلين قُدوةً لها، كانت كثيرة الإثارة، إلى حدود الابتذال أحياناً. كانت تُفضِّل عليها - ألف مرَّة - أناقة غريس كيلي Grace Kelly، رغم إعجابها الكبير بمارلين في فيلم الرجال يُفضِّلونها شقراوات. كان عليها أن تعترف لها بجمالها وعصريتها. ما من امرأة تُحبُّ أن تعيش النصف الثاني من القرن العشرين طويلاً وعرضاً، وهي تتجاهل مارلين. مؤخَّراً، ظهرت مارلين في العديد من الصور، بسرَّوال الجينز الأزرق blue jeans، كان جيمس دين James Dean الفتى ذو خُصلة الشَّعر والجاكيت الأحمر، قد لبس السروال نفسه وهو يُمثِّل في فيلم ثائر بدون قضية، والذي نال كثيراً إعجاب أولبيدو، عكس أوخينيا ماركيئا الذي بدا لها كخُبزٍ مُحَمَّص. هذه السراويل لم تعد مُقتَصرة على رعاة البقر الخشنيين في تكساس. بل يمكن - رغم رثائتها - أن تكون أنيقة جداً.

خلال نزهة ذلك الأحد الخريفي، قامت أولبيدو باستعراض أوّل سروال جينز أزرق خاصّ بها. كان من ماركة وانغلر Wrangler، وذا حزام مرتفع وضيق في أسفله على هيئة سيجارة. أرفقت ذلك بقميص رجالي ذي كُمّين طويلين، أخذته من خزانة ملابس كارلوس. كان لون القميص أزرق داكناً، تتخلّله شبكة مُربّعات بيضاء خفيفة. وكانت تتعلّ حذاء خيش أسود، دون جوارب. وبّخها كارلوس صباحاً، وهو يراها على تلك الحال: "لا تُفكّري في الذهاب للنزهة وأنتِ تلبّسين مثل حطّاب كَندي؟"

أجابته بتحدٍّ بأنها تنوي فعل ذلك، وأنهما من أجل هذا يعيشان في طُنْجَة، وليس في مَالَقَا أو مَدْرِيد، هما هنا - قالت - ليعيشا حياة حُرّة عصرية.

منذ تلك اللحظة وكارلوس لا يستطيع أن يمحو الجفاء الذي بينه وبين زوجته، سروال الجينز الأزرق الذي كانت تلبّسه نَعَصَ عليه نُزْهته.

كانت باهياً رامونيتا - كما العادة - لذيذة جداً. أرفقوها بنبيد أحمر، جلبه لويس ماركينا من لاريوخا La Rioja، وأنھوها بمندريّن عرائشي ضخّم وغزير العصارة. لم يدع إيمليو ثانس دي سوتو الفرصة تمرّ دون أن يُدكّر بأن الإنكليز كانوا يُسمّون هذه الفاكهة طانخرينا.

اقترح لويس التخلّص من وجبة الغداء عبر القيام بجولة على الشاطئ. وافق كارلوس وإيمليو على الفكرة، عكس النساء اللواتي رفضنّها؛ أوخينيا مُتعلّلة بكونها لا تريد مفارقة ابنها، بينما أولبيدو فضّلت الخلود إلى القيلولة، مُتمنيّة لو كان كارلوس ألحّ عليها في الذهاب معه، لكنه لم يفعل. مضى الرجال الثلاثة يمشون عبر الكثبان باتّجاه الشاطئ الذي يمتدّ رملياً ومُسْتَقِيماً كيلومترات وكيلومترات انطلاقاً من رأس اسبارطيل إلى كيب تاون كما قال إيمليو.

لم تُفكّر الجماعة في السباحة. فالماء يكون بارداً صيفاً، فكيف به وقد حلّ الخريف، ثمّ إن تواتر الأمواج والتيّارات المائية يمكن أن يكون خادعاً، بصرف النّظر عن الفصول. شاهدتُ أوخينيا وأولبيدو الرجال وهم يمشون مُتفادِينَ أحراج الكُثبان، شجيرات الرّوك بأزهارها البيضاء وشجيرات المُصطكَيّ بثمراتها الحمراء. وضعنا أغطية النزهة تحت شجرة البُلُوط، واستلقنا، بينما راحت رامونيتا تطوف حول المكان، وتسحب أواني الطعام وهي تراقب الطفل.

- ما أسرع ما ينمو ألبيرتو! يبدو أنه قريباً سيرغب في المشي، قالت أولبيدو.

- هذا ما يقوله طبيب الأطفال، وهذا ما اعتقده شخصياً. لقد وضعنا في غرفته قفص لعب، كي يحبّ داخله، لكنه ضاق به.

- يا لحلاوته! أحسّت أولبيدو بجفونها ثقيلة، فتركّتها ترتخي ببطء، أحسّت بمداعبة النسيم الخفيف لكاحليها العاريين. تذكّرت السُّلُخفاة التي شاهدوها قبل قليل، وبعدها راحت مستسلمة لنوم هادئ، لم يُوقظها منه إلّا صوت أوخينيا.

- وأنّما، متى ستمنحان ألبيرتو صديقاً صغيراً؟

فتحت أولبيدو جفنيها؛ ما تزال السماء الشّمّال أفريقية هناك، خلف أغصان وأوراق شجرة البُلُوط، زرقاء وشاسعة ومهيمنة.

- تعرفين أن هذا هو ما نرغب فيه، ولكن الحظّ لم يُسعفنا بعد.

- ولم تفكّري في الذهاب عند طبيب؟

- أنا؟ لماذا؟ أنا أبدو في صحّة جيّدة، يا أوخينيا.

هو جفناها من جديد، كما يهوي الرصاص، وتابعت:

- أضيفي إلى هذا، أنه ما يزال أماننا وقت طويل، وليس لديّ أدنى استعجال.

- كما تشائين، ولكنني إن كنتُ مكانك سأسارع بالذهاب إلى طبيب، بدل أن أخلدَ إلى النوم. بعد ذلك سمعتُ أولبيدو وأوخينيا تضيف:

سأُصليّ من أجلكما حتّى يساعدكما الربُّ على الحصول على ولد. أيقظ بكاء الطفل أولبيدو. أحسّت بلُزوجة في فمها، ونهضت لتشرب الماء من ثُرسٍ كان موضوعاً فوق إحدى الطاولات المصنوعة من المعدن والخيش، والتي جلبوها معهم في سيارَة بيل إير.

شرعتُ رامونيتا في تغيير حَقَاطات ألبيرتو. أزاحت أولبيدو الغطاء. تمطّت ودنّت منهما. نظر الصغير إليها بابتسامة جذّابة، وعيّن خضراوين ورثهما عن أمّه. كانت أوخينيا ما تزال تغطّ في نومها، حين عاد الرجال الثلاثة من جولتهم على الشاطئ. قال إيمليو إنهم صادفوا فقط مراهقين مغاربة يقومون بشقلبات هوائية فوق الرمال. وكأنهم - أضاف - سُحبوا سَحْباً، من إحدى لوحات ماتيس.

بدأ كارلوس وإيمليو في تفكيك المخيم، بينما هرع لويس لإيقاظ أوخينيا. ابتعد الاثنان محمّلين بالرُزْم باتجاه بيل إير المركون بجانب سيارَة أسرة ماركينا، على بُعد ثلاثمائة متر تقريباً بعيداً عن مرمى البصر، فيما استمرت رامونيتا وأولبيدو مُتملّئَيْن بمنظر الصبي الذي كان يُصَفّق ويتمدّد سعيداً في عرته. لن يتأخّر بالفعل في إعلان رغبته في المشي.

قرّرت أولبيدو أن الأوان قد آن لكي تتعاون، فاتّجهت لتحمل بعض الكراسي، لكنها توقّفت أمام مشهد الشمس التي بدأت تنحدر على نحو مهيب نحو قاع المحيط. أخرجت نظّارتها الشمسية من الجيب الخارجي للقميص، ونظرتُ إلى القرص الملتهب، في الوقت ذاته الذي اخترق فيه

سرب من طيور مهاجرة مجال رؤيتها. أحسَّت بالحزن لأن كارلوس رفض
أولى سراويل رعاة البقر التي ارتدتها، ولأنه عاملها طيلة اليوم بعداوة صمًا.
أحسَّت بأحدٍ ما يقف خلف ظهرها. استدارت، فرأت لويس ماركينا قد
اقترب منها، وفي يده طاولة مطوية.

- أنت جميلة أيضاً وأنتِ ترتدين سراويل، قال لها. قابلتُ غزله
بابتسامة، أرادتُها أن تكون شبيهة بابتسامة مارلين مونرو. لكنها ابتسامة
مارلين أخرى، شَعْرها أسود.

طَنَجَة، ربيع 2002

الرسالة القصيرة SMS كانت قاطعة تماماً: "اقرأ أخبار الشَّمال *Les Nouvelles du Nord*، وكُفَّ عن الحماقات" وصلتني على هاتف نوكيا وأنا أغتسل في حمَّام بيتي. أنا من أولئك الذين يحتاجون بعض الوقت، ويلزمهم قهوتان أو ثلاث، حتَّى يبدؤوا صباحهم. ولا يَصِلون سرعَتهم القصوى إلَّا مع الظُّهر أو بشكل أفضل عند المساء. وهو ما يُعرَى - بحسب ظنِّي - لِمَا يُسمُّونه إيقاعات بيولوجية. قيامي بتدخين سيجارة مارلبورو على الريق، سمح لي بالوصول إلى نتيجة أوَّلِيَّة: الرسالة القصيرة، أُرسِلت من هاتف جَوَّال مغربيٍّ لم أعرف رَقْمه. لكنه مثل رَقْمِي، لا يمكن إلَّا أن يكون تابعاً لاتِّصالات المغرب Maroc Telecom، لأنها شركة الهاتف الجَوَّال الوحيدة التي كانت موجودة بالبلد. وكانت الخدمة العمومية على امتداد الحياة. وحسب ما علمتُ الأسبوع الماضي، فهناك مجموعة فرنسية وأخرى إسبانية يشتغل لحسابها ألبيرتو تنافسان الآن من أجل الحصَّة الثانية من الصفقة. بالرغم من أني ظلَّلتُ بعيداً عن الإنجازات البطولية لجيمس بوند، فالأمر لم يكن سيئاً بالنسبة إلى مبتدئ.

عدتُ إذن لقراءة الرسالة القصيرة، وتوصَّلتُ إلى نتيجة ثانية، لكن، هذه المرَّة دون مساعدة النيكوتين: أَلَمْ يكن الأمر يتعلَّق برسالة بعثها قسم الإشهار بالصحيفة الطَّنَجِيَّة؟ انتهيتُ من تنشيف جسدي، لبستُ وخرجتُ بحثاً عن فطور مَصْحُوب بقراءة الأخبار المطبوعة ورقياً. بخلاف العديد من

أصدقائي وزملائي لم أكن حريصاً على هذا الطقس الصباحي؛ إذا كانت القهوة بالحليب أمراً حيويّاً بالنسبة إليّ، فقراءة الجريدة لم تكن بالأمر الضروري. أظنُّ أن بورخيس Borges هو مَنْ كتب ذات مرّة قائلاً بأن الصحف مَبْنِيَّة على قاعدة كِذبة مفادها أن كلَّ يوم تقع فيه أشياء مهمّة، لا يجدر بك تجاهلها.

اشتريتُ نسخة من جريدة أخبار الشَّمال، وجلستُ إلى طاولة بشُرْفَة مقهى باريس الكبير. كانت العناوين الرئيسة للصفحة الأولى تقترح قائمة صارمة من الأخبار، بدءاً من الحادي عشر من سبتمبر: ابن لادن لا زال مَقْرُوه مجهولاً رغم قيام بوش بغزو أفغانستان عبر الدم والنار. بارانويا الجمرّة الخبيثة ما تزال في الولايات المتّحدة الأمريكيّة رغم أن عمليات إرسال هذا المسحوق الخبيث قد توقّفت. الهجوم ضدّ الكنيس اليهودي بإحدى الجزر التونسيّة يزيد من إرهاب السياحة بالشَّمال الأفريقي. لا شكّ أن كاتب الرسالة القصيرة لم يكن يقصد الإشارة إلى هذا كلّه، لكنني مع ذلك قرأتُ الخبر المتعلّق بتونس القريبة منّي؛ مرتكب الهجوم كان إرهابياً انتحارياً، فجَرَّ شاحنة مُحمّلة بالغاز الطبيعي.

احتسيتُ رشفة من القهوة بالحليب، وفكّرتُ بأن الجهاديّين، برغم خطورتهم التي لا شكّ فيها، لا يبدو أنهم مُجهّزون بالأسلحة المتطوّرة التي يزعم آل بوش وشركاؤهم أنهم يتوقّرون عليها. وبعد كلّ شيء، فمُنْفَذو أحداث الحادي عشر من سبتمبر، الذين دَمَّروا البرجين التوأمين دخلوا الطائرات بتذاكرهم المشترية بطريقة قانونية، وحجزوا الرهائن بالسكاكين وشوكات الأكل الموجودة بالكافيتيريا التي على متن الطائرة. سلاح هؤلاء الأكثر تهريباً، لم يكن عدّتهم النوويّة والكيميائيّة والباكتروولوجيّة والإلكترونيّة والميكانيكيّة، بل استعدادهم للموت من أجل قضيتهم.

كان صعباً تخيّل كيف ستقوى قاذفات القنابل الأمريكيّة على استئصال

هذيان الأفية من رؤوسهم. أوقفت تأملي عند هذا الحد، وتوقفت عند عنوان آخر في الصفحة الأولى: خمسون ألف مغربي مُقيمون بإسبانيا مُهددون بالطرْد بسبب القانون الجديد للهجرة الذي صادق عليه أثنار Aznar. فَكَّرْتُ لِلْحِظَةِ، يبدو أن أثنار يُكِنُّ كراهية عظُمى للعرب عموماً وللمغاربة بشكل خاص. سبق أن حكى لي بعضهم، بأنه قد خرج ذات مرّة مُتَنَكِّراً في زِيٍّ صليبيٍّ، بحسب ما نشره الملحق الأسبوعي لجريدة إل بايس El País. لكن، مَنْ كان أبطاله في الطفولة هم سانتياغو ماتاموروس Santiago Matamoros والملوك الكاثوليك لا يدخل في حيز انشغالاتي.

عدم تعوُّدي على قراءة الصحف ربّما جعلني أتاخَّر في العثور على شيء يتعلّق بي في جريدة أخبار الشّمال. حصل ذلك في المراجعة العامّة الثالثة للجريدة حينما استرعت انتباهي كتابةٌ شاردة ومُؤطّرة بأدنى الصفحة تقول بالفرنسية، هذا الذي أترجمه للقصّائيّة: "هل هي تصفية حسابات ما بين جهاديين؟" (وكالة المغرب العربي للأبّاء MAP، طَنْجَة).

أفادت شرطة طَنْجَة بواقعة العثور ليلة السبت في إحدى شوارع حيّ بني مَكادَة على جثّة، تحمل آثار طعنة قاتلة بالسلاح الأبيض. تمّ نقل الجثّة إلى مستودع الأموات بغاية إجراء تشريح طبّي عليها. الشرطة تعرّفت على المَجْنِي عليه، ويُدعى أحمد السَّبّتيّ، ستٌ وثلاثون عاماً، ذو سوابق عديدة في السرقة مع استعمال العنف والاتّجار في المُخدّرات. في الآونة الأخيرة، عُرِف أحمد السَّبّتيّ بتردّده على بعض الأوساط المُتشدّدة. الأمر الذي جعل المُحقّقين يشتغلون بفرضية أن سبب موته كان نتيجة تصفية حسابات محتملة ما بين هذه المجموعات. كان هذا كلّ ما في الأمر، لم يكن الخبر مُرفقاً بصورة أو بتدقيقات أخرى مكتوبة، لكن يقيني بمعرفتي بهذا الشخص، جعلني مصدوماً على الفور وبوحشية، وكأن حافلة قامت بدَهْسي، وأنا أعبر شاردةً ممراً للراجلين.

تركْتُ الجريدة على طاولة المقهى مع ثمن ما استهلكته. دقائق بعد ذلك وصلتُ إلى باب معهد ثيبيرو أوشوا. كان ريبالدو هناك مع عرته. كان وحيداً ومُرتدياً سترة بُنيَّة لبذلة رياضية، وضع قَلنسُوتها على رأسه بينما كانت يده اليمنى ملفوفة في ضِمَاد.

- ما الذي حدث خاي jai؟ (يا أخي) سألتُه وأنا أدنو منه، مُستغنياً عن التحيات والمُجاملات.

- لا شيء، يا سيولبيدا. أجاب وهو يخفض رأسه.

- ما معنى لا شيء؟ كيف لم تتصل بي، أو تأتي لتراني طوال نهاية الأسبوع؟

- كنتُ مريضاً، يا سيولبيدا، مريضاً جداً، وطريح الفراش.

- آه، نعم، طريح الفراش. ولماذا لا ترتدي قميص ريبالدو؟

صمتَ دون أن يجيب. لقد أصبته في نقطة ضعفه.

- هيّا، يا خاي، قل لي، ما الذي حدث لك مع الشخص الذي كان عليك أن تتفقَى أثره؟

- لقد ضيّعتُ أثره، يا سيولبيدا.

- ضيّعتَ أثره؟ وكتكفير عن هذا الخطأ في المراقبة قرّرتَ أنك لم تعد ريبالدو؟ أليس كذلك؟ هيّا، دعك من هذا. ويدك، ما الذي حدث لها؟ لماذا تلقّتها في ضِمَاد؟ هيّا، احك لي ما وقع لك بالضبط، وسنرى كيف نُصلح الأمر.

- لا مجال لإصلاحه.

- لا مجال حقّاً؟

- لا مجال، أكيد. - الله وحده - يا ريبالدو - مَنْ يقول كلمته في هذا.

- لقد قضى الله أمره.

عادت الحافلة لتدهسني من جديد. سحبْتُ بشكل ميكانيكي علبة مارلبورو، عرضتُ واحدة على ريبالدو، وأخذتُ أخرى. أشعلنا سيجارتينا، ومضينا نُدخِّن في صمْتٍ، صمْتٍ كالرخام.

بصعوبة شديدة بدأتُ أَسْتَلُّ منه الحكاية: الجُمُعة مساءً، ترك ريبالدو عربته في غرفة استقبال المعهد. لأنه راقب المُلْتَحِي وهو ينتظرني قُرب ثيربانتييس. حين خرجتُ من الفصل، تبعني المُلْتَحِي، حتَّى وصلتُ منزلي بشارع إنكلترا. فعل ذلك دون أن يقترب أو يتخفَّى كثيراً، ودون أن يُلحظ بأنه كان مُراقِباً من ريبالدو.

لم أتأخَّر في أن أهويَ إلى فراشي، بعد أن تناولتُ حَبَّةً مُنومة. هكذا إذن، بعد منتصف الليل وحين شعر المُلْتَحِي أنه أنهى مهمَّته، مضى ماشياً نحو الحيِّ المحيط بابن مَكَادَة. مسار طويل لا يقلُّ عن ثلاثة أرباع الساعة. لكنه لم يغبَّ عن أنظار ريبالدو. حين أوشك ريبالدو أن ينعطف مع زاوية، ارتمى عليه المُلْتَحِي. لقد ضبطه مُقتفياً أثره.

- ابن العاهرة، كان يحمل سَكِّناً، يا سيبولبيدا! سَكِّناً من النوع الأوتوماتيكي. رأيتُ السكِّين يلمع على ضوء مصباح الرقاق.

- لقد سألني مَنْ بعثكَ لتقتفي أثري؟

- لم يُفكِّر ريبالدو في الفرار. لقد كان مُتميِّزاً بالروح المشاكسة لأبناء الأحياء الشعبية، وواجه الرجل شاتماً إيَّاه: اذهب لتنكح أُمَّكَ.

- لقد هوى عليَّ بضربة من السكِّين، فتلقَّيتُ الضربة بهذه اليد - مشيراً إلى اليد الملفوفة - لم يحسَّ ريبالدو بشيء عند تلقَّيه طعنة المُلْتَحِي. لقد تمكَّن بيده التي بدأت تقطر دماً، من الإمساك بمِعصَمِهِ، وانتهيا

مُشْتَبِكَيْن. كان الفتى كلاعب المفضل، طويلاً وضامراً وشديد المقاومة، فانتهى مُتَفَوِّقاً على غريمه.

- ابن العاهرة سقط أرضاً. لقد مات، يا سيبوليدا، لقد مات! غرز ريبالدو السكين التي كانا يتنازعان عليها في عنقه.

اقتربت من المكان سيّدة تلبس جلباباً في لون الخردل ولثاماً أسود يُغطّي فمها، وطلبت ملفوفاً من الحمص المطهيّ. تراجعتُ خطوتين إلى الخلف محاولاً أن أهدئ نفسي. لم أحسّ بأدنى أسف على المصير الذي آل إليه مَنْ كان يُسمّى - على ما يبدو - بأحمد السبتيّ.

في تلك اللحظة لم أكن قادراً أن اعتبره كائناً بشرياً. لم أكن أيضاً غاضباً من ريبالدو، ففي النهاية، أنا الذي وضعته بنفسه في كهف الذئب. كان الإحساس الذي يقتلع قلبي هو الخوف من الشرطة. لم أكن أتصوّر أبداً، أنني باعتباري السبب غير المباشر لجريمة القتل، سيولّد لديّ - وكرّد فعل وحيد، ودون تأخير - رغبة مُستبدّة ووضيعة لمحاولة إخفاء الآثار التي قد تدينني.

- هل رآكَ أحدٌ ما؟ سألتُهُ عندما أصبحت المرأة وحُمصها بعيدَيْن.

- لا أحد، يا سيبوليدا، اطمئنّ، لم يكن هناك أحد. ولقد قمتُ بإحراق قميص ريبالدو الذي كان مُلطّخاً بالدم.

- والسكين، هل تركتها هناك؟

- لا، لقد أخذتها معي، وألقيتها في حاوية أزال، بعيداً عن المكان.

- وبما أنك هنا، أفترض أن لا أخبار لديك حول ما قامت به الشرطة؟

- لا أخبار. لم أكنم تنهيدة ارتياح، كانت تنهيدتي الأولى بعد توصلي بالرسالة القصيرة.

كان عليّ أن أتصرّف بشكل طبيعي، كأني شخص آخر، ليس له أدنى علاقة بموت ذلك الجهادي. وكان على ريبالدو أن يقوم بالشي نفسه.

- نحن لن نفعل أو نقول أيّ شيء تماماً. - قلتُ له - هل فهمتَ؟ فالشرطة حسب ما قرأتُ في إحدى الجرائد، تتّجه في مسارات أخرى.

- أنا سألزم الصمت كسارية مرمى، ولا أدنى حركة.

- جميل! وإن أردتَ الاتصال بي على الهاتف، فحاذِر أن تشير ولو بكلمة إلى ما حدث. قد يكون أحدهم في الاستماع إلى ما نقول.

- واخا، سيبوليدا، أخرسَ سأكون.

أخرجتُ محفظة النقود، ومنحته الأوراق النقدية كلّها التي أحملها معي، ثلاثمئة درهم، وبقيتُ في جيب سروالي بعض القطع النقدية المعدّية.

- هذا من أجل القميص، خاي. سنُسوّي الحسابات في وقت لاحق.

مشيتُ باتجاه ثيرياتيس، وصعدتُ سلاله الخارجية. كنتُ مُستغرقاً لدرجة أنني كدتُ أصطدم وجهاً لوجه، مع أحد الخارجين من المعهد.

- معذرة! قلتُ.

- أنا الذي أعتذر! أجاب بكلّ لطف. بابلو مورينو Pablo Moreno، أستاذ بثيراتيس، كنّا تغدّينا معاً ذات مرّة بمنزل أليسيا، ومنذ ذلك الحين،

ونحن تتجاذب أطراف الحديث في ممرّات المعهد. كان في سنّي نفسها، ومُدخناً مثلي، وكنتُ أستلطفه.

- هل كلُّ شيء على ما يرام؟

- كلُّ شيء تمام، قلتُ كاذباً.

- علينا الاتفاق على موعد لمواصلة حوارنا حول خوان غويتيسولو Juan Goytisolo، قال وهو يتتعد. كان عَدَاؤنا بمنزل أليسيا بمناسبة زيارة خوان غويتيسولو للمدينة. هناك تعرّفنا عليه أنا وبابلو، وكلانا كان مُعجَباً بأعماله. حرّكتُ رأسي مُوافقاً، ودخلتُ ثيربانتييس، مُتّجهاً نحو الكافيتيريا، لأستخرج من الجهاز الآلي ثاني كأس قهوة وحليب لي خلال اليوم. مجموعة من الطالبات كنَّ يتابعنَ بقاعة التلفاز إحدى برامج الشائعات في قناة خاصّة إسبانية.

لم يكن مرّدُ الإقبال على مثل هذه البرامج، وكذا مقابلات كرة القَدَم في تلفزات الشَّمال، إلى التعاون الرسمي الإسباني البخيل، بل لكون اللغة الإسبانية ظلّت راسخة بالمنطقة. بينما كان المشروب يبرد في الكأس البلاستيكي، قمتُ بمحو الرسالة القصيرة من الهاتف، ودوّنتُ في أجندتي الورقية رَقْم الهاتف الذي أُرسلتُ منه. وضعتُ الرّقْم على حرف N إشارة إلى أخبار الشَّمال. بالفعل، لقد أصبحتُ الآن أَتصرّف كجيمس بوند. ولعلّه قد آن الأوان لذلك؛ فألبيرتو نزيل السجن في قضية لم تُعرَف تحديداً علاقتها بالأمن الوطني المغربي، بعد أن اتُّهم على نحو زائف بالاعتداء الجنسي على نادلة الفندق.

فيما يخصّني، فقد قام بتعقُّبي شخصٌ ذو هيئة طالبانية شبيه بأولئك الذين يهاجمون الأمريكيّين في الجبال البعيدة لأفغانستان. ريبالدو أجهز على الشخص المذكور بطعنة في الحَنجَرَة دفاعاً عن النَفْس، وأحدهم

أرسل لي رسالة قصيرة، يُفَسِدُ بها عليَّ بداية الأسبوع. وهذا الشخص الأخير - فَكَّرْتُ قَلِيلاً - هو بالتأكيد مَنْ أوصى الجهاديَّ بتتبع خطواتي، وهو وحده مَنْ يمكن أن يربط العلاقة بين شخصي وبين الجثة التي عُثِرَ عليها في إحدى أزقة بني مكادة.

قلتُ مع نفسي، فَكَّرْ، يا سيبوليدا، فَكَّرْ! هذا الشخص لا يعرف مَنْ قتل المُلتَحِي - هذا إذا كان ريبالدو فعلاً لم يره أحدٌ، كما يزعم، كما يزعم - فقط يعرف بأن المُلتَحِي كان يتبعني بأمر منه، وأنه انتهى مذبحاً كخروف في حفل عيد الأضحى. هو الآن في حيرة، وتعوزه الخيوط لكي ينسج العلاقة بين المهمة والجثة.

واصل التفكير، يا سيبوليدا! اضرب قِمة رأسك، ودخِّنْ لك سيجارة. امنح القهوة والحليب طعماً آخر. دع النيكوتين والكافيين يُحفِّزان رَيَّ الخلايا العصبية. هذا إذا كانت تُروى فعلاً!

واضح، بدءاً، أن هذا الشخص لم يُحرِّض عليك الشرطة. فهو لا يعرف صِلَتَكَ بالنهاية المأساوية لأحمد السَّبْتِيّ، زِدْ على ذلك أيضاً، أنه ربّما لن يكون له أدنى مصلحة، في حال معرفته بذلك، أن يصبح الأمر مُشاعاً بين عامّة الناس. لقد أرسل لك عن طريق الرسالة القصيرة بالون اختبار: في حالة ما إذا *Just in case*، كما يقال بالإنكليزية.

الأمر تمضي في طريقها، يا سيبوليدا، هناك أخيراً بعض الضوء. ولا مُبرِّر لديك لتخرج جاريّاً نحو أقرب مركز شرطة، وتعترف أمام ضابط الحراسة. المنطق يؤكِّد صحّة ردِّ فعلك الغريزي الأوّل، وأنت تتجاهل كيف عبر أحمد السَّبْتِيّ من هذه الأرض - وبالطريقة السريعة التي تمّ بها ذلك - ليجتمع بخالقه. ولعلّه يستمتع الآن رُقّة حوريات الجنة الفاتنات.

ما هي حصّة مَنْ مات شهيداً في سبيل الله منهنّ؟ أربعون؟ مئة؟ لا

أتذكّر ذلك الآن. على أيّة حال، فالصوم عن الفعل والصوم عن الكلام هو عين الصواب. لكن، هناك المزيد، هناك ما هو أكبر، يا سيولبيدا! ما هو، بحقّ الجحيم؟ ابحث عنه، بإمكانك ذلك. آه، نعم، الرسالة القصيرة كانت مكتوبة بالإسبانية! لكن الأمر طبيعي، ما دمتُ في طنْجَة. هذا ليس دليلاً دامغاً تُفكُّ به اللغز بجُرّة قلم. ابحث عن شيء آخر، هيّا لننظر ماذا كانت تقول الجملة الثانية من الرسالة؟ "دعك من الحماقات" هذا ما كانت تقوله. لعلّه أمرٌ مُعَبِّر. ألا يوجد بهذه الجملة نوع من الأريحية؟ ألا يريدك أن تبتعد عن المشكلات؟ نعم، هو كذلك. الآن لديك عنصر إضافي.

لتضع الآن لائحة المشتبه بهم. المفوَّض الجديد؟ الوحدة الخاصّة القادمة من الرِّبَاط؟ القنصل الإسباني؟ أخرجني صوت أليسيا الأَجَشُّ من تأمّلاتي:

- يا للغرابة! سيولبيدا يتناول فطوره هنا بدل إحدى مقاهيه الأثيرة؟!

- صباح النور، أيّتها الرئيسة! في الحقيقة، لم أرد أن يُفوتني هذا البرنامج التلفزيوني. لقد اكتشفتُ أنني مصاب بجنون متابعة الأسرار الغرامية ما بين مصارعي الثيران ونساء الفلامينكو.

- لم يُراودني أبداً أدنى شكّ بأن ذلك هو شَعْفَكَ السريّ، وما عداه مجرد تظاهر. لكن المشين هو أن دافع الضرائب الإسباني، لا يدفع لك أجرك مقابل مشاهدة التلفزيون، فهل تنوي الالتحاق بقِسْمِكَ؟

- الآن أفعل، حالما أنتهي من هذا المشروب.

- لا تبدو مُتدمراً من جودة قهوة وحليب الجهاز الالكي؟ - نفيتُ بحركة من رأسي.

- استمع الآن، إذا كان لديك وقتٌ وطاقَة، تعال لسحب عُلبتك الموجودة منذ أسبوع بمكتبي.

تذَكَّرْتُ - آه، يا لي من...!

- رمقتني أليسيا بصرامة - اليوم أمرُّ لأخذه دون تأخير. ذكَّرتني الإشارة إلى العلبة، بأنه كان عليَّ التأكُّد أيضاً إن كانت ابنتي خوليا، قد أجابت على الرسالة الإلكترونية التي أرسلتها إليها الأسبوع الماضي. لم يكن لديَّ إنترنت بالبيت، ولم يكن يروق لي استعمال إنترنت قاعة الأساتذة بشيربانتيس في أمور شخصية. لذلك وعند نهاية حصَّتي الصباحية، ذهبتُ إلى محلِّ باستور للخدمة الهاتفية *teleboutique*. كان بالخدمة بالطابق الأوَّل للمحلِّ شابٌّ في الثلاثينيات. كان يلبس نظَّارة بلاستيكية، حليق الوجه، وذا هيئة رسمية. لاحظتُ حين طلبتُ منه ربع ساعة اتِّصال، أنه يقرأ كتاباً عن المعلوماتية بالإنكليزية.

- هل أنت طالب؟ سألتُه.

- لا، لقد أنهيتُ دراستي في الهندسة، لكن، أُحبُّ مواصلة التعلُّم، ولو أنني لا أدري من أجل ماذا؟ إمكانيَّاتي ضئيلة للعثور على عمل بالمغرب.

- أليس ما تقوم به الآن عملاً؟

- طبعاً، هو عمل. لكن، لممارسته لم يكن ضرورياً إنهاء دراستي الجامعية. - أفهمُ، في الأحوال كُلِّها خيراً صنعتَ بمتابعة تعليمك، الأغنياء وحدهم، هم مَنْ يرفضون فعل ذلك. قلتُ، وأنا أتذكَّر أن عملي كأستاذ، هو ما يسمح لي بأداء فواتيري.

في علبة الرسائل، كانت تنتظرني العديد من الرسائل لفتحها. لكن اهتمامي انصرف لواحدة، تلك التي أرسلتها خوليا. وفي خانة الموضوع كانت ظهرت جملة: "أحبُّكَ أبي".

كانت خوليا بلسماً لروحي خلال السنتين الأخيرتين اللتين شهدتا انهيار

زواجي بكلاً بعد اكتشافي لعلاقتها بأحد زملائي في العمل. كانت كذلك أيضاً، في المعارك اللاحقة من أجل اقتسام الممتلكات، والتي استسلمتُ فيها جميعاً، بسبب إنهاكي المطلق.

أفضل ما كان في تلك الأشهر العاصفة، هو تمكُّننا أنا وخوليا من نسج روابط قوية بالنسبة إلى بقية أئامنا. من جانبي، كنتُ أَدعِمُها في رغبتها بالاستقلال عن أمِّها، وهي تدعمني في سعيي لأصنعَ لنفسي حياة جديدة. كانت لدينا أشياء كثيرة مشتركة، لكن، كنَّا نحترم بعضنا فيما كنَّا نختلف فيه. بدءاً بحماسها وارتياي في الفائدة الاجتماعية للصحافة، مهنة أبي ومهنة جدِّها.

قالت لي خوليا في رسالتها بأن صَحَّتْها جيِّدة، وإنها مسرورة بدراستها وأن لا صديق لديها، مُشدِّدة على أنها "لا ترغب في ذلك" مُضيفة أن معاركها مع أمِّها لا تزال مُتواصلة.

أمَّا بخصوص المشاوير الليلية وعطل نهاية الأسبوع خارج البيت، فقد كتبت قائلة: "أمِّي لا تريد أن تُدركَ أنني بلغتُ الثامنة عشرة من عُمرِي، وأني الآن راشدة" مُضيفة بالإنكليزية "Miss U أنا مُشتاقة إليك"، وأنها في الصيف القادم تفكَّر في المجيء إلى طُنْجَة، فهي لم يسبق لها أن زارت بلداً عربياً. وترغب في التعرُّف على ليلى، وترغب بوجه خاص في أن تكون إلى جانبي. أخبرتني كذلك أنها حضَّرت في الكلِّيَّة لحلقة نقاشٍ لِمَا كان بوش يُسمِّيه "حرباً على الإرهاب".

لا يمكنك، يا أبي، أن تتخيَّل حجم المبالغات التي كانت تقال في حقِّ المسلمين من طرف الحاضرين. الأغلبية كانت مُتَّفقة على أن الطريقة الوحيدة لحلِّ مشكلة ابن لادن هي القضاء على الجميع. أنا فكَّرتُ أنك تعيش الآن في أرضهم، وحسب ما تحكيه لي، فإنهم لا يعاملونك بطريقة سيِّئة، سوف أتيقَّن من ذلك - بعينيَّ - الصيف المقبل.

كُتِبَتْ عَلَى لَوْحَةِ الْمَفَاتِيحِ جَوَاباً قَصِيراً دُونَ أَنْ أَحْكِيَ لَهَا عَنْ مُشْكَلَةِ
الْبِيرْتُو الَّتِي أَصْبَحَتْ بِدَوْرِهَا مُشْكَلَتِي. أَخْبَرْتُهَا أَنِّي بِخَيْرٍ وَأَنِّي مُشْتَاقٌ إِلَيْهَا
وَأُحِبُّهَا بِشَكْلِ لَا يُتَصَوَّرُ، ثُمَّ قَمْتُ بِإِرْسَالِ الرِّسَالَةِ.

وَأَنَا أَدْفَعُ ثَمَنَ الْإِتِّصَالِ لِلْمُهَنْدِسِ الْمَعْلُومَاتِي الشَّابِّ الَّذِي كَانَ يَتَوَلَّى
أَمْرَ الْمَحَلِّ، خَطَرْتُ لِي فِكْرَةَ سُؤَالِهِ إِنْ كَانَ يَعْرِفُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يُمْكِنُ
بِوَاسِطَتِهَا أَنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ هُوِيَّةِ الشَّخْصِ الَّذِي أُرْسِلُ إِلَيْهِ الرِّسَالَةَ، فَقَطَّ مِنْ
خِلَالِ الرَّقْمِ الْهَاتِفِيِّ الَّذِي أُرْسِلْتُ مِنْهُ.

- لَقَدْ وَصَلْتَنِي رِسَالَةٌ قَصِيرَةٌ مِنْ رَقْمٍ أَجْهَلُهُ - أَضْفْتُ - وَأُرِيدُ مَعْرِفَةَ
مَنْ هُوَ الْمُرْسِلُ.

نَظَرْتُ إِلَيْهِ مُنْذِهِشَاءً:

- هَذَا أَمْرٌ يَسِيرٌ، عَلَيْكَ فَقَطَّ أَنْ تَتَّصَلَ بِهَذَا الرَّقْمِ أَوْ تُرْسِلَ إِلَيْهِ رِسَالَةٌ
أُخْرَى، وَتَسْأَلُهُ مَنْ يَكُونُ؟

- فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ، وَلَسْتُ عَلَى أَيِّ حَالٍ مِنَ الْعَصْرِ الْجُورَاسِيِّ. مَا
حَدَثَ هُوَ أَنَّهُ لَا يَجِيبُ عَلَى رِسَائِلِي الْقَصِيرَةِ، وَعِنْدَمَا أَتَّصِلُ يَخْرُجُ لِي ذَلِكَ
الصَّوْتُ النِّسَائِيُّ لِيُخْبِرَنِي بِأَنَّ الْهَاتِفَ غَيْرَ مُشْغَلٍ أَوْ خَارِجَ التَّغْطِيَةِ. وَأَحْتَاجُ
أَنْ أَعْرِفَ - عَلَى نَحْوِ مُسْتَعَجَلٍ - مَنْ أُرْسِلُ لِي بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ.

الْمَغَارِبَةُ مُوَلَّعُونَ بِالتَّحْدِيَّاتِ الَّتِي يُمْكِنُهُمْ مِنْ خِلَالِهَا إِبْرَازُ مَوَاهِبِهِمْ
الشَّخْصِيَّةِ. فِي بَلَدِ هَذَا الْفَتَى، يَكَادُ كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ مُسْتَحِيلًا بِالطَّرِيقِ
الْمُبَاشَرَةِ، وَلَكِنْ، كُلُّ شَيْءٍ يَصْبَحُ مُمْكِنًا إِذَا تَمَّ اتِّبَاعُ الطَّرِيقِ الْمُخْتَصَرِ
الْمُنَاسِبِ.

- يُمْكِنُ لِي أَنْ أُحَاوِلَ، قَالَ الْفَتَى وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ كَمَا لَوْ كَانَ بِصَدْدِ
مِهْمَةٍ حَيَاتِيَّةٍ جَسِيمَةٍ، هَاتِ الرَّقْمَ، سَوْفَ أَتَّصِلُ بِصَدِيقٍ لِي فِي الدِّرَاسَةِ،
يَعْمَلُ بِاتِّصَالَاتِ الْمَغْرِبِ. أَخْرَجْتُ مُفَكَّرَتِي مِنَ الْجَيْبِ الدَّاخِلِيِّ لِلْسِتْرَةِ.

مضيتُ إلى حرف N حدّدتُ موقع أخبار الشّمال، أمليتُ عليه الرّقم، فقام بتسجيله. خرجتُ للشّرفة لأدخّن سيجارة، فيما مضى هو يياشر عمله. لم ألحظُ ما يمكن أن يُشْتَبِه به أسفل العمارة الكريهة المُقابِلة. لم يتأخّر صاحب المحلّ كثيراً في الاقتراب من الشّرفة وعلى وجهه تعابير الأسف:

- لسوء الحظّ، هذا الرّقم يعود لبطاقة مُسبّقة الدفع، لا تحتاج في اقتنائها لأيّة وثيقة هويّة. يجري كلام كثير بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عن كون الحكومة ستراجع هذا الأمر، لكنّ، لا شيء حصل لحدود اللحظة.

- فعلاً، هو سوء حظّ. لكنّ، أليس بوسعنا التّحقّق - على الأقلّ - من المكان الذي بيعت فيه هذه البطاقة؟
ابتسم وهو يقول:

- لقد قمّتُ بذلك فعلاً. لقد بيعت هنا، في إحدى متاجر المدينة، ويمكنني أن أُعطيك حتّى اسم المتجر وعنوانه.

سجّلتُ هذه المعلومات فوق ورقة، سلّمني إيّاها الفتى. وسألته عن مُستحقّاته، فختم بانزعاج: لا شيء، نحن في الخدمة.

فقط في حالة ما إذا... *Just in case* وأنا أتكى على كرسي من الخَيْرُزَان بجوار مسبح المنْرة، فَكَّرْتُ أنه بإمكانني أنا أيضاً، أن أُرسل رسالة قصيرة للمجهول الهُوِيَّة الذي أمر المرحوم أحمد السَّبْتِيّ باقتفاء أثري. وهو ما لم أفعله بعدُ، رغم كلِّ ما حكيته للمهندس المعلوماتي القائم على محلِّ باستور للخدمة الهاتفية.

أُخْرِجْتُ هاتف نوکيا، وتأكَّدْتُ من أن القضيْب الصغير للجهة اليسرى من الشاشة الصغيرة بالأبيض والأسود، يشير إلى تغطية جيِّدة، وبدأتُ أكتب. كانت لوحة المفاتيح ميكانيكية، وكانت تحتوي على اثني عشر زرّاً، وتعطي الأولوية للأرقام على أحرف الكتابة. فلكي تكتب الكلمات، عليك تأليف الحروف بطريقة مُتَعَبَةٍ. وبما إنني كنتُ حريصاً على أن أكتب نصوصي الهاتفية بشكل دقيق، فقد كلَّفْتُني الجملة التالية الكثير من الوقت:

"توصَّلتُ هذا الصباح برسالة منك، لم أفهمها. أظنُّ أنك أخطأت في رَقْم الهاتف. سلام."

بعد ذلك استخرجتُ من مُفكِّرتي الورقية الرَّقْم الذي سأرسل إليه، كتبتُه وضغطتُ على زرِّ الإرسال. ساعة الشاشة الصغيرة للهاتف كانت تشير إلى الثانية وثمانٍ وأربعين دقيقة.

أشرتُ للنادل، فاقترَبَ بخفَّة:

- سيّدي؟

كان يرتدي نعلًا تقليدياً أصفر، وسراويل فضفاضة سوداء مع سترة بيضاء وطربوش فاسي أحمر.

- بيرة صغيرة.. فلاك.. تمام.. وقائمة الطعام من فضلك! (Une petite bière... Flag c'est parfait... Et la carte, s'il vous plaît).

- حالا، سيدي! Tout de suite, monsieur!

كان يحلو لي تناول ساندويش جيّد. وكان يروق لي أن أفعل ذلك بالمنزّه. ليس فقط لأن هذا الكابوس بدأ هنا، ولكن، أيضاً لسبب مُعاكس: لقد كان الفضاء المثالي لإنعاش الدوافع التي من أجلها جاء الواحد ليستقرّ هنا في هذه الزاوية من الكوكب.

يقع فندق المنزّه في شارع ليس بالواسع، يُسمّى شارع الحرّية. وفي العهد الدولي كان معروفاً بشارع الإساتاتو Estatuto. في روايته "العام المقبل في طنجة" كتب رامون بوينابنتورا Ramón Buenaventura أن ذلك الشارع كان "المعبر من المدينة الأوروبية نحو الأجواء المغربية". وقد كان بالفعل ينطلق من ساحة فرنسا، حيث بداية بولفار باستور، نازلاً بك وحاملاً إيّاك نحو السوق الكبير (سوق بارا) باعتباره باحة انتظار لدخول المدينة القديمة وسوقها الصغير (السوق الداخل).

بُنِيَ الفندق في مرحلة وبلد، بطريقة تجعل واجهته الخارجية غير اللافتة للنظر تُخفي بالداخل بحبوحة وجمالاً. واجهته البيضاء بالقضبان الحديدية المسبوكة كانت أندلسية الطابع، وكان فتاؤه الداخلي المسقوف موريسياً. وكانت أقواس أبوابه ونوافذه مصبوعة بالجير الأبيض. أمّا الرّباب الشرقي والأسقف الخشبية المُطعّمة بالعاج والصدف، فتذكرك - دون جهد - أنك موجود بالعالم العربي.

منذ افتتاحه في العام 1930، استقبل ضيوفاً من عيار ونستون تشرشل Winston Churchill وآفا غاردنير Ava Gardner وريتا هايوورث Rita Hayworth وصمويل بيكيت Samuel Beckett وماريا كلاس María Callas وبيرناردو برتولوتشي Bernardo Bertolucci، المخرج السينمائي الإيطالي الذي كان يُصوّر فيلم "السماء الواقية" المستوحاة قصّته من رواية بول بولز، ويدور موضوعه حول زوجين من نيويورك يشرعان في رحلة مميتة نحو أعماق الصحراء. مكتبة سُر من قرأ

حملني مفعول البيرة الأولى نحو العالم الكولونيالي، بينما كنتُ في مواجهة أشجار النخيل الرشيقة وحوض السباحة الصغير والإطلالة المشرفة من علوّ على خليج طَنْجَة. أوروبيان اثنان، الأوّل شابٌّ، والآخر سبعينيٌّ، كانا يسبحان في الحوض الذي لا بدّ أن مياهه، ما تزال باردة في هذه الأوقات من فصل الربيع. أحواض الزهور كانت أيضاً تُعطرّ الأجواء. تذكّرتُ أنّي قرأتُ، أن إيميليو ثانس دي سوتو أحد أصحاب الذوق الرفيع في طَنْجَة - وكان صديقاً لأبويّ - كان يُكرّر، بأن تركيبة مُعيّنة من الشمس والرطوبة لا تُضاهى في طَنْجَة، تجعل نباتات من قبيل زهور سيّدة الليل وزهرة العسل والنرددين والياسمين والورود تتضوّع بأزكى ما فيها من عطور. الكلام نفسه يمكن قوله عن الروائح الكريهة. روائح المجاري والقمامات والبول المُقرّف الشبيه بالصفعات.

كنتُ أنتظر بيرة أخرى مُرفّقة بساندويش من تونة وخسّ، حين رنّ هاتف نوكيا. كانت ليلى تتصل من هاتفها موتورولا Motorola. لم أرها منذ ودّعناها منتصف يوم الأحد، حين ذهبْتُ للغداء مع أبويّها، فيما مضيتُ أنا للانغماس في كُتبي.

- أميرتي البربرية! كيف تسنّى لك القيام من كرسي عاملة الهاتف، وأنتِ المستجيبة دوماً للزئانن الإسبان كثيري الشكوى؟

- هي فقط استراحة يومية لخمس دقائق، للذهاب إلى الحمام. لا يمكنني الإطالة، يا سيبولبيدا. فقط رغبْتُ في الاطلاع على أحوالك.

- تَعِسْ بدونك، لماذا الخداع؟

- يا لك من كذاب! هيّا، قل لي أين أنت؟

- لقد أسقطت عني القناع. أعترف أنني أتناول بيسكولايس pisolabis (*) في المنزلة.

- ماذا قلت؟

- بيسكولايس، نعم، هي كلمة إسبانية للتعبير عن الطعام الشهي، المثلج والخفيف. لم يعد أحد يستعملها اليوم.

- كذاب ومُتصنّع، هذا هو أنت. قالت مُبتهجة.

- أنت مَنْ يقول هذا؟! لستُ أدري إن كان بمقدوري تجاوز صدمة حفلتك السُخريّة أمس، حين صمّمتِ على قراءة كُفي من خلال ترسّبات قهوة تركية؟

- لكن، هل جانبِتُ الصواب في ذلك؟

- إذا كنتِ تُسمّين صواباً، أن حياتي ستكون بها أفراح وأتراح، وأني سوف أقوم برحلة غير مُتظّرة، فأنا لا أشكُّ مطلقاً في قدرتكِ على قراءة المستقبل. أنتِ بلا جدال مهبطٌ وحي ديلفوس في المغرب العربي.

- سأغضب، يا سيبولبيدا! أنا لم أقل هذا، قلتُ إن قصّتنا ستكون لها نهاية سعيدة.

- عفواً، أميرتي! فعلاً، هذا ما قلّته، وهذا هو الذي سيحدث فعلاً.

(*) وجبة خفيفة

- هذا أفضل بكثير. اتّصلتُ بكِ أيضاً لمعرفة الجديد بخصوص قضية ألبيرتو.

- لا جديد، لكن، خلافاً للصحافيّين، فإنني أوّمن بالمقولة الإنكليزية التي تؤكّد: " لا وجود لأخبار، معناه وجود أخبار جيّدة" *No news, good news*. الصمت، في كثير من الأحيان، قد يكون أفضل.

- أجل، قد تكون مُحِقّاً. انظر، أنا مُضطرّة لإنهاء المكالمة. لا بدّ أن المراقبة تبحث عني الآن. شيء آخر، لا تغضب منّي. لن يكون بوسعي رؤيتك بعد الحصّة الدراسية. لقد جاء خالّ لي يعيش ببلجيكا، ويتعيّن عليّ مساعدة أمّي في إعداد العشاء.

- المرأة المغربية المُعذّبة، التي عليها أن تطبخ من أجل العائلة، العشيرة والقبيلة!

- أنا قلتُ لكِ مراراً بأنّي أسوأ طبّاخة. أمّي هي التي تطبخ وأنا فقط أساعدها في تحضير المائدة. أُقبّلُكِ!

- ألف قبلة وقُبلة من جانبي!

أتممتُ غَدائي، وطلبتُ الحساب. أردتُ دفعه نقداً، لكن، عندما فتحتُ حافظة النقود، وجدتها فارغة بسبب الإكرامية التي أعطيتها لريالدو صباحاً. دفعتُ بواسطة بطاقة الائتمان، وباشرتُ طريقي نحو مخرج الفندق.

مررتُ بجانب حانة القائد Caid's Bar المحيطة بحوض السباحة. سُمّيَت كذلك بسبب اللوحة الزيتية الكبيرة والعمودية الواقعة بجانب منصّة تقديم الوجبات، والتي تُمثّل القائد ماكلين Maclean، محارب من القرن التاسع عشر، بلحيته التي لا يضاهاها في بياضها الثلجي، إلّا

الْعِمَامَةِ والرداء اللذَيْن إلى جانب المِعْطَف الأحمر وسيف الفرسان يُشْكِلَان زِيَّةَ العسكري.

حَيَّيْتُهُ فِي صَمْتٍ. كان ضابطاً إنكليزياً وقع في الخطيئة بعد أن ضُبطَ يَغْشُ في مباراة للعبة الورق في جبل طارق. استقرَّ بطنْجَةً، وجنَّدَهُ السلطانُ المغربي للقيام بتحديث جيشه. قمتُ ذات يوم بزيارة قبره. كان يقع بالمقبرة الواقعة بحدائق الكنيسة الأنغليكانية سان أندروو Saint Andrew، مباشرة فوق السوق الكبير، كانت كنيسة رائعة على الطراز المُدَجَّن mudéjar مَبْنِيَّة بأقواس من طراز حدوة الحصان، وسقف من خشب الأرز، وفوق قُبَّة جرسها كانت ترفرف راية بيضاء بالصليب الأحمر لسان خورخي San Jorge. كانت لا تزال مفتوحة، ليس في وجه السيَّاح فقط، بل لأجل العبادة أيضاً. كان القائمون عليها الآن من أفارقة جنوب الصحراء المنتمون للمستعمرات البريطانية القديمة، وكانوا يأتونها ليتضرَّعوا للربِّ لمساعدتهم في محاولتهم عبور البوغاز بواسطة القوارب. قفزتُ من الأسلحة إلى الأدب. وتذكَّرتُ كم كأساً شرب عابرو هذه الحانة من الكُتَّاب الذين أُعْجِبْتُ بهم. كان طقساً سخيفاً. كنتُ أعرف ذلك. ولكن، ماذا سأفعل مع هَوَسي الأسطوري هذا؟

كانت باتريشيا هايسميث Patricia Highsmith إحدى هؤلاء. أقامت في المِنْرَةِ، وهناك صمَّمتُ مشهد "ريلاي في خطر"، آخر رواياتها حول الفاسق والحربائي توم ريلاي Tom Ripley. كنتُ أحفظها عن ظهر قلب: قبل الخروج للعشاء بإحدى مطاعم الشاطئ يتناول ريلاي وزوجته هيلويز Heloise بعض الكؤوس بحانة القائد رُقَّة صديقة مشتركة. كلتا المرأتين شربتا بلودي ماري bloody mary بينما هو طلب جن تونيك gin- tonic. يبدو أنني وصلتُ إلى طنْجَةٍ مُتَأَخِّراً، فليست هذه هي المدينة التي عاش فيها والداي.

مكتبة

t.me/soramnqraa

دَخَنْتُ هذه الليلة بعضاً من غلايين الكيف في صالون بيتي، الذي كنتُ أستعمله أيضاً غرفةً طعامٍ ومكتباً. وكنتُ أستعمله أحياناً للاسترخاء أو سماع الموسيقى أو الحديث مع الأصدقاء أو ممارسة الحُبِّ. ما من أحد عرفته، مرض أو جُنَّ أو مات باستهلاك الماريخوانا أو الحشيش، فرغم أن الأمريكيين يخسرون ملايين الدولارات على الأبحاث لإثبات مساوئها، فهم لن يُقنعوني. الأكثر خطورة هو التبغ والكحول والأسلحة النارية ومحطات الطاقة النووية والرأسمالية المتوحّشة التي انتصرت عالمياً منذ سقوط جدار برلين.

كان الأجدر بهم أن يتحدثوا عن المُخدِّرات المحظورة والكوكايين والهروين والعقاقير المحوِّرة التي تُتداول في المراقص التي ربّما تتردّد عليها ابنتي خوليا. سحبتُ نَفْساً من السُّبْسبي، غليون، الكيف التقليدي المستطيل، وإلى أعماق ما في رئتيّ أدخلتُ الدخان الناتج عن احتراق النبتة الريفية في الوعاء الطيني الصغير. نفثته ببطء، وأحسستُ بنشوة ناعمة.

كان الموضوع يستحقُّ أن أُفردَ له إحدى حصصي الدراسية. كانت الفكرة جدّ سيئة. ولم يكن لها علاقة بالبرنامج الدراسي، وسيكون من حقِّ أليسيا أن تغضب.

وإذا قاربُ الموضوع من باب "الحشيش في الأدب" فالأمر سيّان من حيث مقبوليته. ولماذا لا أتحدّث عن بودلير Baudelaire؟ لا، يا

سيولبيدا، لا! بودلير أديب فرنسي، ودافع الضرائب الإسباني لا يعطيك
أجرتك مقابل القيام بالدعاية للفرنسيين.

سحبتُ نَفْساً آخر. وأحسستُ أن القُنْبَ النُرُويَّ يحملني إلى حيث
الموسيقى التي كانت ترنُّ في صالوني الصغير: "خُذْ خامسة" Take
Five للرباعي دايف بروبيك Dave Brubeck. أغمضتُ عينيَّ، وبدأتُ
أرقص ببطء وتناغم، كأحد أفراد البيتينيك beatnik داخل كاباريه للجاز
الفاتر cool jazz في عشية الخمسينيات.

إنها الأزمنة الرائعة - فكَّرتُ مع نفسي - كان الناس أشدَّ أناقة من الآن
بكثير. وحتى المُتمرِّدون كان لهم أسلوبهم.

لكن، لحظة! ما الذي يَحْدُثُ الآن؟ وما هذا الصوت الجديد، بحقِّ
الجحيم؟ تينتون تيروريوتيرورا... تينتون تيروريوتيرورا هذا لا يعرّفه بروبيك
ومجموعته. إنه انتهاك مؤسف، ويا للعنة! فتحتُ عينيَّ، ونظرتُ حولي.
أسعَفَنِي دماغي بمعلومة كانت مُخَرَّنة لديه. هذا الصوت كان للقطعة
الموسيقية التي وضعتها نوکیا بشكل رسمي على هواتفها المحمولة، وهي
التي اختلستُها من فالسٍ للمؤلِّف الموسيقي البالنسي فرانسيسكو تاريغا
Francisco Tárrega. كنتُ أمقتُ تلك الرنّة ذات الصراخ الشديد
والبهجة الزائفة. ومع أن ليلي كانت قد أخبرتني بأن استبدالها أمرٌ يسيرٌ
إلا أنني لم أجد الوقت للقيام بذلك.

أمسكتُ بالهاتف المتهالك: الرِّقْم الذي يظهر على شاشته الصغيرة كان
مجهول المصدر، ولم تُسعفني ذاكرتي بشيء عنه. بدا أنه لهاتف مغربي
ثابت. رفعتُ السماعة، إذا جاز لي هذا التعبير وأنا أستعمل هاتفاً محمولاً:

- نعم؟

- سيولبيدا؟

- ألبيرتو؟

- نعم، أنا هو. كيف حالك؟

- أنا في حالة جيّدة، من أين تتصل؟

- من إقامة القنصل. لقد خرجتُ من السجن هذا المساء.

- اللعنة! يا للخبر السار!

- هذه هي الحقيقة. لقد قاموا بحفظ شكوى النادلة. كانت الشكوى أكثرَ زيفاً من قُبلة يهوذا.

- لم يخامرني، أبداً، أدنى شكٍّ في ذلك. تعال، لأراك في الحال، سأذهب حيثُما قلتَ لي.

- لن يكون ممكناً ذلك، يا سيبوليدا. أنا لحدود الساعة في نوع من الحرّية المحروسة. لقد احتفظوا بهاتفني وجوازي، ولا يمكنني الخروج من الإقامة ولا استقبال الزيارات. فهمت؟

- وماذا يعني هذا؟

- لا أدري بما أبلغوك عني، حول كونهم يبحثون معي في قضية أخرى، لا أملك عنها أدنى فكرة. تلك هي مكائدهم. هؤلاء الرجال مُعقّدون للغاية كما تعلم. لكن الأمر سيتمُّ إصلاحه، أنا مُتأكّد. لتتفق على البقاء على تواصل، مباشرة أو بواسطة القنصل.

أفرغتُ الإناء الطيني الصغير للسّيسي، فصلتُ قطعهُ الخشبية التي كانت تتصل لتُشكّل أنبوبة الطويل. حَفِظْتُ ذلك كلّهُ في الغمد الجِلدي. وقفتُ وحملتُ معي الغمد والكيس البلاستيكي الذي كان يحتوي على الكيف إلى دُرج طاولة العمل. كنتُ أتصرّف ببطء ودقّة ورصانة تقريباً.

كان القُنب يقود أوركسترا تحرّكاتي. فأنا من أولئك الذين يمكن أن

تمنحهم النبتة إحساساً سيئاً إذا ما داهمهم عنصر إزعاج، وهم تحت تأثيرها. وهو ما حدث لي في تلك الليلة.

ذهبتُ إلى فراشي وحاولتُ النوم بعد مكالمة ألبيرتو، لكن، دون جدوى. كان رأسي يدور بي من هنا لهنالك، كما لو كان قارباً صغيراً وسط عاصفة. كان يعيد نسج المعركة بين ريبالدو وأحمد السبتيّ في إحدى أزقة بني مكّادة، وهما يحاولان افتتاح السكين من بعضهما. كان يفحص إمكانية وجود احتمال يمكن أن يقود الشرطة إلى ربط صلةٍ ما، بيني وبين جثة الجهادي. كان يتساءل عن هوية الشخص الذي بعث لي بالرسالة القصيرة، ويتحقّق من كون ذلك الشخص لم يجب عن الرسالة التي قمتُ بإرسالها له من المنزلة. لم يكن يفهم لماذا ألبيرتو لا يتمتّع بحريته كاملة. وكان يحاول معرفة ما الشبهة التي تُثقل ظهره الآن.

- توقّف! اللعنة توقّف! ودعك من هذا، سنام، يا سيبوليدا. الليل يتقدّم ولم يبقَ إلّا القليل على صوت المؤذن الذي سيعلن نهايتها بكلامه المبهّم. عليك أن ترتاح، فغداً يوم آخر، وتحتاج أن تكون في حالة جيّدة. ماذا لو شربت حبة دواء؟ من الأفضل لا. سوف يتأخّر مفعولها، ولن تكون مفيدة لك الليلة، وفي الغد ستكون مُخدّراً. لكن، نعم، قُمْ لتشرب كأس ماء، ففمك وحلقك جافّان كجوف فرن في قمة غليانه. أووف، الآن يبدو الأمر أفضل! ترى هل تجد لديك حلوى؟ لا، لا وجود ولو لقطعة بسكويت! آه، كم يحلو لك تحلية فمك ببعض المُرطبات. هيّا! عُد لسريرك، ونمّ كطفل وديع. ودعك من اللَّفّ والدوران، اهدأ ونمّ مرّة واحدة. لم يكن هناك من سبيل إلى النوم. وصل أذنيّ مع الساعة الخامسة والنصف فجراً ترتيل المؤذن - وهو يعلن أن الله أكبر، وأن لا إله إلّا الله وأن محمّداً عبده ورسوله - في الوقت الذي كنتُ ما أزال فيه صاحياً.

أخيراً تعرّفتُ على أصدقاء ليلي. هي من اقترحتُ الخروج للعشاء يوم الأربعاء مع رشيدة، إحدى زميلاتها في العمل وزوجها سعيد. وافقتُ بدون تردّد. فكون أنها ستبدأ في جعلي أنفتح على عالمها هو علامة "فألّ حسن".

لحدود تلك اللحظة، كانت علاقتنا منعزلة، سواء عن محيطها أو محيطي. هل ما شجّعها على هذه الخطوة هو قراءتها لترسّبات القهوة في فطور يوم الأحد؟ لا شيء مُستبعد. فلدى ليلي إجازة في الصيدلة، وهوما يقتضي نوعاً من العقلانية. لكن، مع ذلك كان لديها غير قليل من الإيمان بأكاذيب السّخر. سعيد - حسب ما أخبرني ليلي - صحفي بمحطّة ميدي1. هذه الإذاعة التي تعتبرها ليلي "ماء شروباً" مقارنة مع بقية المحطّات التي يمكن سماعها بداخل المدينة.

- هل تستطيع أن تتجاوز نفورك من الصحفيين؟ قالت ليلي.

- طبعاً، يمكن أن أكون اجتماعياً، إذا ما حاولتُ ذلك بجدّ.

كانت رشيدة تتحدّث الإسبانية بطلاقة، عكس سعيد الذي وُلد بالقنيطرة، وكانت لغته الأولى هي الفرنسية.

- هل هذا يُمثّل مشكلة بالنسبة إليك؟

- لا مشكلة، يُعجبني الحديث بالفرنسية في سهرة عشاء. هي لغة

مثالية عند تناول الطعام وعند ممارسة الحُبِّ. لذلك كنّا هناك، في إحدى طاوولات مطعم "الدورادو" El Dorado، تعلو رؤوسنا نسخة من ملصق سياحي للمستشرق الغرناطي ماريانو بيرتوشي Mariano Bertuchi تمّ نشره في فترة الحماية الجمهورية الإسبانية بالمغرب. كان الملصق يجسّد مشهداً لمدينة تطوان: امرأة قروية بقبّعة قشّ، حواقيها واسعة، تقود حماراً صغيراً مُحمّلاً بالسلال. كان مشهداً، ذا ألوان حيّة ومُبهِجَة.

قرأتُ بتمعّن لائحة أطعمة الدورادو، بينما كانت ليلي ورشيدة وسعيد يتكلّمون الدارجة dariya في أمور أجهلها. كانت قائمة الطعام مكتوبة بالإسبانية، لكنني ابتسمتُ وأنا أرى كيف كُتبتُ على نحو غريب كلمات "أنشوة، وسمك ملفوف وشواية".

كنتُ مُغرماً بذلك المطعم. كان قد افتُتح من طرف يهودي سيفارديّ، حين كان الشارع لا يزال يُسمّى شارع جان دارك Jeanne d'Arc. وكنتُ أرى فيه شاهداً على مرحلة كانت فيها الجالية العبرية تُشكّل إحدى ركائز طنّجة العالمية. كان هناك وقتئذ سبعة عشر ألف يهودي، والآن لا يتجاوزون الخمسين بالكاد. وكان الكنيس اليهودي بالبولفار لا يتوفّر في الكثير من الأحيان على الحدّ الأدنى المُتمثّل في عشرة رجال لإقامة الصلاة في بداية يوم السبت. علماً أن الكنائس الأخرى تمّ إغلاقها، ولم تعد متاحة للعبادة. كنتُ أتألّم لمأساة السيّفارديّين، المطرودين من أرضهم على يد الأصولية الكاثوليكية سنة 1492. وكنتُ أتألّم لمأساة الموريسكيّين المنفيّين، بسبب إرادة قضت بأن على الجميع - في الممالك الاسبانية- أن يعتنقوا نفس الدين وأن يتحدثوا نفس اللغة. كانت تؤلمني مآسي اللوثريّين والمُنوّرين والمُتفرّسين والليبراليّين والجُمهُوريّين. كان يؤلمني عجز بلدي المزمّن عن تحمّل تعدّديته الرائعة. لم تكن العقلية الموحّدة لطوركيمادا Torquemada شراً إسبانياً حصرياً. أمرٌ وجب الاعتراف به.

فالقرن العشرون كان قرنَ المُستبدين والقرنُ الواحد والعشرون مع ابن لادن وبوش وجماعته بدأ بأسوأ نُذُرِ الشؤم.

- فيمَ تفكّر؟ قالت ليلي وهي تتوجّه إليّ بالفرنسية في محاولة لإدماجي في الحديث مع أصدقائها.

- كنتُ أفكّر في تسمية "عند إلياس" Chez Elías التي كان يطلقها الطَّنَجِيُّونَ القدامى على هذا المطعم. كان شكري قد حكى لي بأن ذلك يعود لاسم اليهودي الذي افتتحه.

- حكّت لنا ليلي، بأنك صديق لشكري، قال سعيد. كان سعيد رجلاً في الثلاثين ونيّف من عُمره، مُتوسّط الطول والبنية، وذا بشرة زيتية ونظرات قلقة. أنفه كان كبيراً، وصَفْرِيّاً. استعمل في حديثه عبارة أتمم *vous* المستعملة عادة مع أشخاص لا نعرفهم.

- هذا صحيح، ولكن، أليس من الأفضل التخطب بالمفرد؟ عبّر الجميع بإيماءة جماعية عن استحسانهم للفكرة. فاتّجهتُ نحو ليلي مبتسماً:

- أرى أنك قد تحدّثتِ لأصدقائك عني؟

- بالطبع، لقد أخبرتهم بأنك ترى شكري مرّة أو مرّتين في الأسبوع لأسباب أدبية محضة.

- لأسباب أدبية محضة - كرّرتُ بنبرة وقارٍ ساخرة.

يحكي شكري أنه كان من عادته المجيء "عند إلياس" مع غانية إسبانية اسمها ماغداлина Magdalena. كان يُسمّيها أنثى الثَّمر، كان وجهها مستطيلاً، وأنفها كليونباتريا، وشفتاها شبيهَتَيْنِ بالفراولة. كان شكري يؤكّد أنها لم تكن تمارس الجنس مع المغاربة، لكنها كانت تصحبه إلى بيته بعد بضع كوؤوس من الكونياك. (ضحكنا).

- هل يشرب كثيراً كما يقال عنه؟ سألتُ رشيدة. كانت رشيدة بدينة وقصيرة، وذات وجه بهيج كبدر التمام. تعرّفتُ على ليلي في معهد سيبيرو أوشووا، حيث كانتا تدرسان معاً الباكالوريا الإسبانية. لكنها لم تستطع فيما بعد إكمال دراستها الجامعية. توسّطت رشيدة ليلي للعمل بمركز الاتصال *call center*، بعد أن انفصلت هذه الأخيرة عن زوجها التّطوّانيّ، وعادت إلى طَنْجَة لترى كيف أن العديد من الأبواب قد أُغْلِقَتْ في وجهها، بما في ذلك العمل في صيدلية عمّها الكثير التدنُّن، والتي راهنت عليها كثيراً.

- هذا أمر حقيقي، لا مجال لنفيه - قلتُ - كان يشربُ تعويضاً لِمَا لا تشربانه أنتما مجتمعَتَيْن.

ليلي ورشيدة طلبتا ماء مَعْدِنياً، بينما اختار سعيد مثلي أن يطلب بيرة Flag.

- لكنني لم أرُ شكري أبداً يضع نفسه في موقفٍ سخيّف. كان حريصاً على كبريائه رغم شربه الكثير من الكؤوس.

هذا ما سمعتهُ - قال الصحفي - أعتقد أن المغرب لم يكن عادلاً معه. هذا البلد محافظ جداً. لا بدّ أنّك اكتشفتَ ذلك.

- هناك أيضاً، إسبانيا أخرى، مُغرقة في المحافظة. قد لا تُصدِّقُ هذا! حدثتنا للسنوات الأخيرة حادثة تقف في منتصف الطريق، هي ما بين السراب والعمل المنقوص.

- تقول ذلك بسبب حكومتكم الحالية؟

- لذلك السبب، ولغيره. فرانكو Franco مات على سريرهِ وهو رجلٌ طاعن في السنّ. كونه استطاع أن يبقى على قيد الحياة من الناحية السياسية، فذلك لأن الملايين من الإسبان كانوا يساندونه، أو على الأقلّ كانوا يتحمّلونه.

- الأمر نفسه حصل هنا، مع الحسن الثاني. قليل هم الناس الذين تجرؤوا على معارضته.

- لسنا مختلفين كثيراً عن بعضنا البعض. أليس كذلك؟ - قالت ليلي - فأنت كثيراً ما تكرر على مسامعي قولة بيريس غالدوس Pérez Galdós التي تتحدث عن قرابتنا. كنستُ الهواء بيدي اليمنى، مشيراً إلى أنني لا أريد الوقوف عند ذلك الموضوع، ولا أريد أن أبدو مُتَحَدِّلاً. لكن سعيد ورشيدة كانا ينظران إليّ بنوع من الفضول، قلتُ:

- كان بيريس غالدوس كاتباً إسبانياً عاش من نهاية القرن التاسع عشر حتّى بداية القرن العشرين. كتب سلسلة روايات تاريخية سمّاها الحلقات الوطنية *Episodios nacionales*. واحدة من هذه الحلقات "عطية تطاون" *Aita Tettauén*، تدور أحداثها في تطوان. وتُعيد بناء ما وقع سنة 1860، حين احتلّت المدينة مؤقتاً من طرف جيوش إاثايل الثانية Isabel II في استعراض قوّة قومي ومُتَعَصِّب. إحدى شخصيات الرواية تقول ما يلي: "المغربي والإسباني أخوة أكثر ممّا قد يبدو. يكفي أن ننزع قليلاً من الدّين وقليلًا من اللغة، حتّى تبرز القرابة أمام أعيننا. ماذا يعني المغربي، إن لم يكن إسبانياً محمّدياً؟"

- أليس هذا رائعاً؟

- قالت ليلي مُتَعَجِّبة. قاطعنا النادل ليسألنا ما إن كنّا قد قرّرنا ما ستناوله خلال وجبة العشاء. طلب كلّ منا ما يريده. بالنسبة إليّ، فقد طلبتُ سمك السلطان إبراهيم salmonetes. جرّت رشيدة الحديث نحو نطاق شخصي أكثر:

- إذا كنتِ وُلدتِ في طَنْجَة، فلماذا لم تعُدِ إليها إلّا في هذه اللحظة؟

- لا أعرف، صراحة، لا أعرف. دائماً أحكي الشيء نفسه، ولكنها الحقيقة:

والداي لم يُرياني على الاشتياق لهذه المدينة. لم يتحدثا أبداً عن حياتهما هنا، ولا كيف كانت سنواتي الأولى.

- وأنتَ، هل تتذكّر بعض الأشياء؟

- لا أتذكّر شيئاً تقريباً. لقد خرجتُ صغيراً جداً، في صيف 1962 حين كنتُ أوشك على إتمام عامي الخامس حكّت لي أُمِّي ذات مرّة أنني تقيأتُ على متن العبّارة التي كانت تُقلّنا إلى الجزيرة الخضراء. لكنني لا أتذكّر ذلك أيضاً. ما أتذكّره كذكريات أولى، كان في مَدْرِيْد.

- يا للأسف. هل ما يزال أبواك يعيشان في مَدْرِيْد؟

- لا، لقد تُوفّيَا. أُمِّي ماتت في عرّ شبابها، في العام 1976 حينما كانت تقود سيّارتها باتجاه مَالْقَة، فاصطدمت بشاحنة في أثناء تجاوز معيب. أبي عاش بعدها عقدين من الزمن، ومات بسرطان الرئة سنة 1998.

- كم أنا أسفة لهذا كلّهِ - قالت رشيدة - ليلي لم تحكِ لنا عن هذه الأشياء. وهل استمرّ أبواك في ربط علاقة مع الإِسبان الآخرين الذين كانا قد التقيّا بهم في طَنْجَة؟ الطبيعي هو أن المنفيّين يحاولون الحفاظ على الروابط فيما بينهم.

- ليس في حالة والدَيّ، هذه الروابط انمحت بسرعة. فقط استمرّ في التواصل - ولو بشكل سطحي - مع مَنْ كانوا أفضل أصدقاءهم، كعائلة ماركينا. في حالتنا أنا وألبيرتو نعم، لقد قامت الأُسرتان بتسجيلنا بالمدرسة نفسها، وحرصتا على أن نلتقي في أعياد الميلاد والمُخيّمات وحفلات الأطفال. وهكذا، تدريجياً، صرنا أصدقاء.

- ما حكته ليلي عنك، هو أنك لم تكن تحبُّ أن تكون صحفياً مثل أبيك، قال سعيد.

- أبي كان يشتغل صحفياً بجريدة كانت تصدر بطَنْجَة، اسمها إسبانيا

España. بعد ذلك واصل مساره المهني بمدرّيد. ولاقى الكثير من النجاح. أمّا بالنسبة إليّ، فلم أنجذب نهائياً نحو مهنته. أخذتُ رشفة بيرة، وأنا أرمق بعض الأسي على وجه سعيد، فتداركتُ:

- لا تقلق، ابنتي خوليا حريصة على استرجاع التقليد العائلي. فهي تدرس الصحافة.

- ابنتك الوحيدة؟ قالت رشيدة.

- نعم، هي تعيش مع أمّها في مدرّيد. لكن، كفى حديثاً عنّي *safi*! أحكوا لي عن أشيائكم. هل تريدون أن يكون عندكم أبناء؟

- نعم، اثنتين - أجابت رشيدة - لكن ليس الآن. فيما بعد، إن شاء الله *Inshalá*. إذا قمنا بجمع أُجرتيّنا نحن الاثنتين، فإننا بالكاد نصل إلى ما قدره منحة دراسية بالنسبة إلى طالب إسباني. الحياة هنا جدُّ مُكلّفة، كما ترى.

- رشيدة وسعيد - قالت ليلي - يعيشان في بيت والدي سعيد.

- في غرفة صغيرة كعلبة عود ثقاب - دقّقت رشيدة - بحيث لا يمكننا أن نلبس ملابسنا نحن الاثنتين دفعة واحدة. علينا التناوب على ذلك. وبالتالي فمستحيلُ الرّجّ بطفليْن هناك.

أتى النادل يحمل صينية نحاسية، بها صحنون صغيرة من زيتون وسلطة بندورة وقطع جزر وبنجر، ووضع ذلك كلّهُ على الطاولة.

كنتُ جائعاً، فبعد أن تمنّيتُ لجلسائي شهية طيّبة *Bon appétit*، انقضتُ على أوعية البنجر الصغيرة.

- أعتقد أن الأمور في المغرب، يمكن أن تتحسن مع الملك الجديد - قالت ليلي - يبدو أقلّ تسلّطاً من أبيه، وأكثر وعياً بمشكلاتنا.

- هذا ما يظهر - قال سعيد مُوافقاً - حالياً نتكلّم بحُرِّيَّة أكبر نسبياً. نحن الصحفيّين، مُتحمّسون، وتتساءل ما هي الخطوط التي قد يُسمَح لنا بالوصول إليها؟

- هل صحيح ما يُحكى عن كون محمّد السادس تُعجبه هذه المدينة؟ سألتُ وأنا أضع نَوَاة حَبَّة زيتون في مِنقَصة السجائر. كانت المِنقَصة خاوية. فجلّسائي لا يُدخّنون، وأنا كنتُ في طريقي للانتصار على اللعين.

- هذا صحيح - أجاب سعيد - أبوه لم يكن يريد حتّى الاقتراب من هنا، بينما هو يأتي إلى هنا بكثرة. يُعجبه ممارسة رياضة التزلّج المائي بشواطئنا. يقولون إنه يريد أن يُعيد لطَنجة دَوْرها كَصِلَة وَصَل مع بقية العالم، ويخطّط لبناء ميناء كبير للمسافرين والبضائع على بُعد كيلومترات شرق المدينة.

- وماذا سيفعلون بالميناء القديم، الموجود هناك أسفل المدينة؟ - يجري الحديث عن تحويله إلى ميناء رياضي لليُخوت والمراكب الشراعية لأصحاب الملايين. ميناء أسفل المدينة القديمة، على طراز ميناء بانوس، Puerto Banús بمطاعم وبوتيكات فاخرة.

تمّ إحضار وجبة العشاء، فطلبتُ بيرة أخرى. سعيد لم يجارني، ومضى يشرب المياه المَعْدِنية التي طلبتها الفتيات. كانت أسماك السلطان إبراهيم طَرِيَّة جداً، كما لو كانت قفزتُ من مياه المضيق إلى صفيحة الشواء. اقترحتُ على ليلي أن تأكل واحدة، فقبلتُ شريطة أن أُنقاسم معها حَبَّاراتها. اتَّفَقنا، ثمّ قامت بمداعبة فخذي من تحت الطاولة. عادت رشيدة وهي تجلس قُبَّالتي، مجدّداً للمجال الشخصي:

- هل ستقضي الصيف هنا؟

- تلك نِيَّتِي. أرغب في الاستحمام في شساعة الأطلسي، الذي يبدأ من رأس سبارتيل Cabo Espartel.

- نزعْتُ شوكَةَ من إحدى سمكات السلطان إبراهيم - محتمل أن تأتي ابنتي لزيارتي. وجَّهْتُ رشيدة لليلي نظرةً ذات مغزى، مفادها، هل ستختفين عندئذٍ من حياته؟

رفعت ليلي التحدي قائلة:

- بهذه الطريقة، أتعرف على خوليا. حقيقة لديَّ رغبة للتعرف عليها، وإن كانت هذه الرغبة مشوبة ببعض الخوف.

سارعتُ لدعم ليلي قائلاً: عُمر ليلي هو منتصف ما يفصلني عن خوليا. أكبرُّ ليلي بثلاث عشرة سنة، ويلي تكبر خوليا بثلاث عشرة سنة. تبدو لي توليفة ممتازة. ليلي لا مُسوَّغ لديها لتقوم بدور الأم بالنسبة إلى خوليا - فخوليا لها أمُّها على أيَّة حال - ولا ليلي سوف تُحبُّ أن تراها كابنتها، على هذا الأساس يمكنهما أن تكونا صديقتين.

- يمكنهما تقاسم الملابس حتَّى. قالت رشيدة مازحة.

لا أظنُّ أن ذلك ممكن - قالت ليلي - لقد رأيتُ صوراً لخوليا. هي جدُّ نحيفة، ولن تكون سراويل الجينز الخاصة بها على مقاسي، مهما حاولتُ. ضحكتُ رشيدة وهي تُغطِّي فمها كما تفعل الكثير من المغريات، وضحكتُ ليلي مُستعرضة أسنانها الجميلة، كما لو كانت بصدد وَصلة إشهارية. أمَّا أنا وسعيد، فقد تبادلنا تلك النظرات الذكورية المتواطئة التي تعلن في صمت: "هذه شؤون نسائية!"

أحسستُ بتوترٍ وأنا أرى حلويات ما بعد الأكل. لم يكن في الأمر أدنى غرابة: يتعلَّق الأمر بمتلازمة الامتناع عن التدخين. رفضتُ عرض الفواكه والحلويات، وطلبتُ فنجان قهوة ممزوجة بالحليب. مُتمنيًا إنهاء جلسة العشاء، حتَّى أخلو بنفسي وأدخُن على راحتي بعيداً عن نظرات العتاب

التي يمكن أن تُوجَّهها ليلي إليّ. نعم أعرف ذلك: التدخين سيّئ، عليّ الإقلاع عنه، لكنّ، ليس الآن، الآن أعاني ضغطاً كبيراً. في وقت لاحق سأفعل ذلك، حين تصبح حياتي أكثر استقراراً. كان هذا حديثنا المعتاد كلّما تعلّق الأمر بموضوع التدخين. سعيد بدوره لم يطلب حلوى ولا قهوة أو حتّى شاي. الفتيات بالمقابل كنّ عديمات الرحمة، رشيدة طلبت فطيرة ليمون ويلي طلبت تيراميسو tiramisú، استعملت الحيلة الأثوية بالقول بطريقة عذبة، إنها تنوي اقتسامه معي، رغم أنني كنتُ صريحاً في تنبيهها إلى أنني لا أنوي أن أقضم منه ولو قضمه واحدة.

وبينما مضتِ الفتياتُ في إغارتِهِنَّ على الحلويات، أحبّ سعيد أن يسأل عن المكان الذي كنتُ فيه وقتَ وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر. كان طرح مثل هذا السؤال أمراً معتاداً، مثلما اعتاد الأمريكيون لوقت طويل طرح السؤال حول جريمة اغتيال كيندي. أجبتُه بأنني كنتُ آنذاك أقدمُ أوّل درسٍ لي بمعهد ثيرباتيس، بينما أخبرني هو أنه حين كان في طريقه للإذاعة، شاهد أشخاصاً كثيرين يتزاحمون أمام متجر لبيع أجهزة التلفاز، كما لو كان الأمر يتعلّق بنهاية لكأس العالم في كرة القدم.

- مَنْ في نظرك، كان وراء تلك الهجمات؟ سألني سعيد.

- مَنْ سيكون؟ الانتحاريون الذين احتجزوا الطائرات، أتباع ابن لادن.

- طبعاً، هذا أمر واضح. ولكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك بدون شركاء. هذا ما أقصد. بالنظر للوقت الذي قضيتُه بالمغرب، تعلّمتُ بأن العرب مهووسون بنظريات المؤامرة. ريبالدو كان من جملة المُتحمّسين لها، وقد أوجع دماغي بالضلوع المُفترَض فيها لجهاز المخابرات الأمريكية، CIA والموساد، وذوي النفوذ.

- إذا كنتَ تقصد عدم وجود اليهود يومذاك في البرجين التوأمين...

- لا أقصد ذلك، هذه سخافات. ما أتساءل حوله هو، مَنْ المُستفيد من الحادي عشر من سبتمبر؟

- لا أعتقد أن أحداً ما كان مُستفيداً منها، قلتُ وأنا أكمل فنجان قهوتي. نظرتُ نحو الفتاتين، لم تكونا قد انتهتا بعدُ من التلذُّذ البطيء بالحلويات، وهما تتابعان حوارنا.

- أنا على العكس - قال سعيد - أظنُّ أنها تخدم البعض، ولا سيَّما أولئك الذين يكرهون العرب والمسلمين، والذين من مصلحتهم أن يُقدِّمونا للعالم، باعتبارنا إرهابيين. تخدم كذلك دعاة الحرب في الولايات المتَّحدة وإسرائيل، والذين سيكون أمامهم مُبرَّر لخوض حروب غزو جديدة. وتخدم أيضاً الديكتاتوريين العرب الذين يُقدِّمون أنفسهم بعجرفة على أنهم البديل الوحيد للمتديِّنين المتعصِّبين.

- نعم، بقي أن نقول إنهم قاموا جميعهم بعقد قَمَّة سرِّيَّة للتخطيط لأحداث الحادي عشر من سبتمبر!! لنكنْ جِدِّيِّين، يا سعيد! أحسستُ بيد ليلى تلمس فخذي. لم تكن مُداعبةً، بل كانت قرصة تنبيه، وكأنها تقول لي: كفى!

- لن أجادلك في أن ردَّ فعل بوش كان حماقة أخرى - أضفتُ تاركاُ بُرِّي الساخرة - لكنْ، أن نتطلق من ذلك، للتشكيك في أنه كان وراء تنظيم الهجمات، فهو أمر لا يقبله عاقل.

- لم أقل إنه هو، أو أجهزة استخباراته السريَّة مَنْ نظَّم الهجمات. سُؤالي هو، أَلَمْ تُغمِض إحدى هذه الأجهزة عينها عن الإرهابيين وتركَّتهم يفعلون؟
- ليظهر هو - في نهاية المطاف - كابن كلب أمام العالم؟! لا أعتقد ذلك.

- ربّما كنتَ على حقٍّ - بدأ سعيد يتحدّث بنبرة تصالحيّة، فتساءلتُ
مع نفسي إن كانت رشيدة هي الأخرى قد بعثتُ له برسالة خفية.
- ولكنّ، لأوضّح فكرتي، دعني أقلّ لك بأنّ الجهاديّين موجودون حقيقة
بالطبع، بل إنني أعرف بعضهم بحُكم عملي. وأعتقد أيضاً أن لديهم قابلية
لأن يُتلاعبَ بهم من قِبَل الأجهزة السريّة، المحليّة منها أو الأجنبيّة.
انتصب شبحُ أحمد السبّتيّ واقفاً أمامي، في مطعم الدورادو كعفريت
مصباح علاء الدّين بعد فَرَكه، لكنني كنتُ الوحيد الذي أراه.
أومأتُ للنادل بيدي لأطلبَ الحساب واعتذرتُ لليلى ورشيدة وسعيد
للذهاب خارج المطعم لتدخين سيجارة في انتظار إعداد الحساب.

- هل تُنظّف حذاءكَ، سيّدي *siñor*؟ سأل حميد.

- اليوم نعم، تفضّل. وَضَعَ حميد كرسيّه على الرصيف، جلس فوقه، وفتح صندوق مُعِدَّات حِرْفَتِهِ. أمسك بِقَدَمِي اليمنى، وبدأ يزيح الغبار عن الحذاء بخرقة قدرة.

- كلّ شيء على ما يرام؟ *Kulshi misian*؟

- لا بأس، الحمد لله *La-bas, alhamdulilá*.. وأنت، كيف حالك؟
تمام؟

- الحمد لله *Alhamdulilá*.

بعد أن حمدنا الله على استمرارنا في الحياة - وهو ما لم يكن بالأمر الهين - انكبّ حميد على عمله بينما رُحْتُ أنا أَتَصَفَّحُ الجرائد التي اقتنيتها من عند بائع في البولفار. جمعتُ الجرائد المطبوعة بالفرنسية بطَنْجَة كلّها، والرِّبَاط والدار البيضاء. الجرائد العربية للأسف لم أكن أفهمها على الإطلاق.

بدأتُ بجريدة اسمها الرأي *L'Opinion* حين اقترب النادل ليرى ما أريد. طلبتُ قهوة بالحليب مع هَلَالِيَّةٍ *croissant*.

كان البولفار غاصّاً بالراجلين. وأيّ مكان آخر في المدينة كان سيكون على الدرجة نفسها من الامتلاء. المغاربة يُعَجِّبُهُم الشارع، ويعملون

المستحيل، لكي يقضوا به أكبر وقت ممكن. في الشارع يُحسّون بحُرِّيَّة أكبر مقارنة مع بيوتهم.

كان حميد قد انتهى من الحذاء، قبل أن ينتبه للصحف التي كانت في يدي. تأمّلني مُفكِّراً، بينما كنتُ أبحث في جيبِي عن النقود المَعْدِنِيَّة لأدفعَ له مقابل خدمته:

- هذه أوّل مرّة تشتري فيها صحفاً، يا سيّدي؟

- أنتَ لا تُقوّت شيئاً، يا خايمي.

- هل من أخبار سيّئة؟

- لا، لا شيء. اليوم أحببتُ فقط أن أخرجَ عن القاعدة، هذا كلّ ما في الأمر.

- دفعتُ له ثمن الخدمة، وودّعنا بعضنا بعضاً، بعبارة *Bislama* المَدْوِيَّة. لم أعر في الصحف ولو على أدنى إشارة لأحمد السَّبَّيَّ. لا بدّ أن موته لم يكن أمراً ذا أهمّيَّة بالنسبة إلى الصحافة المغربية. الخبر الطَّنْجِيّ الوحيد الذي احتفظتُ به، هو العثور على جثّة مهاجر سرّيّ *harraga* إلى إسبانيا في غرفة التبريد بإحدى الشاحنات المُخصّصة للمنتوجات الزراعية. الشاحنة المُسجَّلة بِإِسْبِيلِيَّة والقادمة من أكادير، تمّ تفتيشها في الميناء قبل أن تُبحر إلى ألمريا. رجال الشرطة اكتشفوا جثّة الطفل، الذي فارق الحياة بسبب بقائه اثنتي عشرة ساعة - زمن السفر ما بين أكادير وطنجة - محبوساً في غرفة مُثلّجة. كان شيئاً فظيلاً، فظيلاً تماماً.

قرّرتُ أن أخصّص حصّتي لهذا الصباح لخوان غويتيسولو. كان واحداً من أكبر رواة مضيق جبل طارق، في جماله ورُعبه، في وضعه كخندق مائيّ وكقنطرة عبور. بدأتُ أسأل تلامذتي إن كانوا يعرفون عنه شيئاً.

- هو كاتب إسباني يعيش بمراكش، ويُعجبه المغرب كثيراً. أجابت إحدى أكثر التلميذات يقظة وحيوية.

- تماماً! وماذا أيضاً؟ هل لديه علاقةٌ ما بطنجة؟

- يقضي عطلة الصيف هنا - بسرعة، قال ذلك الطالب الذي يدرس التجارة - الموسم الماضي قدّم محاضرتَه هنا، بمعهد ثيرباتيس، وقال لنا إن مناخ طنجة أكثر احتمالاً بكثير من مناخ مراكش خلال شهري يوليو وأغسطس.

- صحيح أيضاً. خوان غويتيسولو هو بالفعل كاتب إسباني نُفِيَ إلى باريس في عهد فرانكو. أتى في السبعينيات إلى طنجة. ولم يتأخر في الاكتشاف بأنها لم تكن المكان الأنسب بالنسبة إلى رغبته في تعلّم العربية. كان الجميع يتحدث معه بالإسبانية، ولذلك شدّ الرّحال نازلاً نحو مراكش، حيث استقرّ، وتعلّم الدارجة. لكن، لا تقلقوا! طنجة تُعجبه كثيراً، ليس فقط لهوائها الصيفي المنعش، بل لأنه اختارها مكاناً لأشهر رواياته "استرداد الكونت دون خوليان" *Reivindicación del conde don Julián*. هي جولة مُتمهّلة في المدينة القديمة، وحيّ القَصَبَة kasbah لشخصية مجهولة تتماهى مع دون خوليان، الكونت الذي - حسب الأسطورة الإسبانية - قام بفتح أبواب شبه الجزيرة الإيبيرية للجيوش العربية.

- هل تعرفه شخصياً؟ سألت الفتاة اليقظة.

- نعم، مديرتنا قامت نهاية السنة الماضية بتقديمه لي. حين كان هنا، دعته للعداء معها في بيتها، وكنتُ أنا وأستاذ آخر مدعَوَيْن بالمناسبة. كان غويتيسولو قلقاً جداً بصدد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتناجها، وبصدد هذه الحرب التي يدفعنا إليها المتعصبون من هذا الجانب وذلك.

- هل قال شيئاً ما عن المغرب؟

- قال شيئاً أدهشني. قال لي إنه يعشق ابتسامة المغاربة. وأضاف قائلاً: ابتسامة أولئك الذين يكونون سعداء ولو بالقليل. وحتى هذا القليل، فهم محرومون منه.

عند نهاية الحصّة، اقتربتُ من ثيبيرو أوشوا. كان ريبالدو في موضعه مُحاطاً بدُرّينة من الأولاد الذين خرجوا للتوّ من أقسامهم. ما زال يلبس السترة الرياضية ويلفُّ يده بالضّمّاد، لكن رأسه لم يكن مُغطّى، وكان يُنبّتُ سيجارة فوق أُذنه. كانت هذه علامات جيّدة. من وراء ظهره اندلقتُ زهور الجهنّمية في انفجار أرجواني عبر سياج المعهد.

وقفتُ إلى جانبه، فأخبرني بصوت عالٍ، بأن نهاية بطولة كرة القَدَم 2001- 2002 la Liga أصبحت وشيكة. وأن اللقب سوف يضع من برّسلُونَة، وأن بالأنسيّا التي يُدريها رافا بينيتيث Rafa Benítez مُتقدّمة عليه كثيراً في الترتيب، كما أن دييورتيبو لاكورونيا Deportivo de La Coruña وريال مَدْرِيد Real Madrid مُتقدّمان عليه.

سألته عن بطله البرازيلي الذي كان يحمل الرّقْم عشرة فوق قميص البارصا الأزرق الكَسْتَنائيّ، وكيف كانت حصيلة موسمه الكروي.

- أهداف قليلة، يا سيبوليدا، أهداف قليلة! ليس هو ريبالدو الذي كنّا نعرفه دائماً! حرّك رأسه مُنزعجاً وهو يسترسل في تلبية طلبات بعض المراهقين.

تذكّرتُ الحماس الذي حدّثني به في الشهور السابقة عن ذلك المُهاجم الأعسر الذي تبنّى اسمه كلقب خاصّ به، والذي يُشبهه جسدياً، في طوله ونحافته ووجهه الخِلاسيّ وشَعْرهُ المُجعّد. وكيف كان يراوغ المدافعين حتّى يصيبهم بالجنون. وكيف كان يُسدّد قذائفه المدفعية نحو المرمى.

حدّثني عن العام 1998 حين أحرزت البارصا مع ريبالدو في الهجوم لقب

الليغا، وكأس الملك وكأس أوروبا الممتازة. كلَّمني عن الأهداف الثلاثة التي سجَّلها بمرمى بالنِّسيَا في الموسم السابق، وخصوصاً الهدف الأخير، بضربة مِقْصَصٍ على مشارف مُرَبَّعِ العمليات. كان مُولِياً ظَهْرُهُ لِلْمَرْمَى حين تَلَقَّى الكرة. ودون أن يستدير وفي حركة بهلوانية أَسَكَنَ الكرة في الشِّبَاك.

ربَّما لن يجد الفتى المغربي نفسه مُضْطَرَّاً مُسْتَقْبَلاً لِلندم على إحراق النسخة المشابهة لقميص لاعب الكرة البرازيلي. في الوقت الذي كان فيه ريبالدو يقوم بخدمة زبائنه، بدأتُ أَتَفَحَّصُ ما حولي بحثاً عن مُشْتَبِهين. جُلْتُ بنظرة بطيئة عبر الرصيف المقابل، ذاك الذي يُطلُّ على المسجد الكبير المُمَوَّل من طرف الكويتيين بصومعته الصارمة.

لم أَرِ أحداً يمكن أن يندرج ضمن هذه الفئة، ما عدا شخصاً بجِلْبَاب كان يتابع حركة السير، وآخر بمظهر مُسْتخدَم مواكب جنائزية، يقرأ جريدة. لكن، كلاً، استبعدتُ الأمر في الحال. لم تكن هنالك أسباب منطقية للتشكيك في أحدهم، لم يسبق لي أن رأيتُ أحدهم من قبل. ليلة البارانونيا، جعلتني أحسب الكلَّ على شاكلة واحدة.

لم أتلَقَ جواباً عن الرسالة القصيرة التي أرسلتها من المِنْرَة، مُتَأخِّراً بعض الوقت عمَّا كنتُ قَلْتُهُ لِمُسْتخدَم محلِّ الخدمة الهاتفية باستور، اتَّصلتُ في اليوم السابق أيضاً بذلك الرِّقْم. فَرَنْ في مسامعي - هذه المرَّة - صوتُ أنثوي يقول بالعربية والفرنسية إنه مُطْفَأ أو خارج التغطية.

كنتُ أودُّ تكليف ريبالدو بالتحريِّي حول هذا الرِّقْم. أن يقوم عملياً بالذهاب لمتجر المدينة الذي باع البطاقة الهاتفية للدفع المُسَبَّق، ويحاول الاستفسار ما وسعه الأمر عن هُويَّة المشتري، هل هو رجل أم امرأة؟ شاب أم عجوز؟ مغربي أم أجنبي؟ كنتُ أودُّ التحقُّق أيضاً من عدم ظهور مُسْتجدَّات في موضوع موت أحمد السَّبَّتي.

حينما خلا المكان وأمکننا أن نتناقش بحُرِّية أنا وريبالدو، تفاعل بشكل إيجابي مع الموضوعين: لم يعترض طريقه أيُّ شرطي، الحمد لله *alhamdulillah!* وسوف يتوجّه مساء هذا اليوم إلى المتجر، ليرى ما يمكنه أن يظفر به هناك.

سحبتُ من حافظة النقود، الورقة التي دوّنتُ عليها اسم المتجر وعنوانه. قرأتها بصوت مرتفع، وطلبتُ منه أن يحفظ ما فيها من معلومات. مرّقتُ الورقة إلى قطع صغيرة قصّد رميها في وعاء نفايات، ودفعتُ له خمسمئة درهم نظير مصاريف يمكن أن يحتاجها في عملية التقصي. صافحتُ يد ريبالدو مُودّعاً إيّاه.

لا يُقرُّ معظم الناس بالخوف، ولا يعترفون بأن الكثير ممّا يفعلونه، وخاصّة ما لا يفعلونه، هو نتيجة لخوفهم. يُفضّلون أن يُعزّوا ذلك إلى عوامل أخرى كالواقعية والبرغماتية والحذر وما إلى ذلك من الفضائل المُفترضة لهذا الكائن المستمرّ على قيد الحياة. لم يكن ريبالدو من هذه الفصيلة. يمكن أن يكون أيّ شيء، إلّا أن يكون جباناً.

عدتُ إلى ثيربانتييس. لم أعزّ بالآل لهمهمّات جماعات التلاميذ الموجودين بالرّدهة. صعدتُ الطابق الأوّل، وكنتُ أوشك على الوصول إلى قاعة الأساتذة، حين تذكّرتُ العلبة التي لم أسحبها بعدُ من المكتب. كان الظرف مناسباً للقيام بذلك.

رجعتُ على أعقابِي، ودلّفتُ باتجاه مكتب المدير. كان الباب مُغلّقاً، وهو ما كان أمراً غريباً. أليسيا دائماً تتركه مفتوحاً سواء كانت بالداخل أم لم تكن. طرقتُ الباب برؤوس أصابعِي، فلم أسمع جواباً. ألححتُ، فانفتح الباب جرئياً، ليظهر وجه رئيستي. ومع أن فجوة الباب كانت في حدّها الأدنى، فقد خامرني الشعور بوجود شخص آخر بالداخل.

- قل لي...، همهمتُ أليسيا بصوت أجشّ أكثر من ذي قبل.

- جئتُ لأخذ علبتي، لكن، إذا لم يكن الوقت مناسباً...

- الوقت ليس مناسباً، يا سيو ليذا، ليس مناسباً.

- هل حدث أمرٌ ما؟

- نعم، حدثَ - مررتُ يدها فوق شَعْرها وهي تتفرّسني لِلحظة - على آية حال، فأنتَ كنتَ ستعرفُ ذلك قريباً. قالت ذلك وهي تفتح الباب على مصراعَيْه. ضابطا شرطة بزيٍّ رسمي كانا يحيطان بمكتب مديرة ثيرباتيس. أحدهما مُتوسِّط العُمْر، والآخر على مشارف التقاعد. كلاهما بدينان، ويحملان بحزامهما مُسدَّساً من عيار تسعة ميليمترات، وينظران إلى أليسيا نظرة استطلاع.

- إنه الأستاذ سيبوليذا، يتمتّع بكامل ثقتي.

وافق الضابط الأكثر حُنْكة على كلامها بحركة من رأسه، فيما استمرَّت هي تُوجِّه الكلام إليّ:

- هؤلاء السادة، أتوا لإخباري بأن زميلنا بابلو مورينو Pablo Moreno - على ما يبدو - وُجد مقتولاً في شُقَّته.

طَنْجَة خريف 1956

وصلتُ رقصةً لازامبرا La zambra الموريسكية ذروتها، على إيقاع
غيتارٍ مُوشَّحٍ بزخرفة عربية. وعلى وقع التصفيفات المُشجَّعة راح مُغَنِّي
الفلامنكو يرقص رقصة التانغو:

آه، من مرفأ طَنْجَة المغربي، حيثُ رأيتُكَ تمضي في مَرْكَب صغير من
زيد مع زُمُرْدَة البحر.

آه، آه.. من مرفأ طَنْجَة المغربي! لم أعد أراك، آه، آه، آه.. لن أقوى
الآن على نسيانك.

وفي الليل الأزرق الفضِّي طَرَزَتِ المغربيةُ فوق شَفَتَيْكَ أُغْنِيَّةً مرَّةً تبكي
حين تُغْنِيها.

آه، مرفأ طَنْجَة المغربي، المرفأ الذي رآني راحلاً في مَرْكَب صغير من
زيد مع زُمُرْدَة البحر.

آه، يا مرفأ طَنْجَة المغربي، آه، لن أراك بعد اليوم، آه، آه، آه.. لن أقوى
الآن على نسيانك.

سألتُ أوليبدو كارلوس عن اسم مُغَنِّي الفلامنكو، لكنه لم يكن يعرفه،
ولم يكن يعرف كذلك اسم الراقصة الشابة. لكنه يعتقد أن عازف الغيتار
كان غَرْنَاتِيًّا مُلقَّباً بأبيشويلا Habichuel، والراقصة العجوز كانت تُدعى

عَقِبَ هذا الكلام تملّص من زوجته الجالسة على يساره، وانبرى لمتابعة حديثه مع لويس ماركينا الموجود وحده على الجانب الآخر من مائدة خشبية مستديرة. مائدة نقالة على شاكلة تلك الموائد التي كان الأندلسيون يضعون فيها مَبْخَرَةً.

كانت الراقصة الشابة جميلة - فَكَّرَتْ أولبيدو - وذات مَلَمَحِ عِرْقِيٍّ واضح، سمراء، نحيفة وصغيرة وذات شَعْرٍ مُجَعَّدٍ وَعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ مُشَعَّتَيْنِ. يبدو أنها لم تصل بعدُ الثامنة عشرة من عُمرها. وكان صدرها الممتلئ، الجزء الوحيد الأكثر سخاء في جسدها. برز ذلك من خلال الفتحة الجريئة لفستانها العجري. كانت تنظر بنظرات جسورة نحو الجمهور.

كانت كارميلا، ضمن ثنائي الرقص النسوي، الأكثر تقدُّماً في السنِّ، كانت شمطاء وبذيئة ودَرْدَاءَ، وكأنها خرجت من كابوس مغارة من مغارات ساكرومونت Sacromonte. أهَي جَدَّةُ الشابة أم لعلها جَدَّتْها الكبرى؟ ضحكت أولبيدو مع نفسها، من تفكيرها الشرير.

كان مُغَنِّي الفلامينكو ذا قُبْحٍ مَهيب. أربعينيُّ بارز البطن ومُتَعَرِّقٌ، يرتدي قميصاً ضيقاً جداً، يبرز من خلاله لحم أبيض مُشَعَّرٌ على مستوى الحزام. كانت تقطر من وجهه المتعب نوازل من الرطوبة، وتعلّق تحت حَنَكِهِ.

أغلقت أولبيدو عينيها، وتماهت مع الغناء الأندلسي، ليس لأنها على دراية كبيرة بفنّ الفلامينكو، ولكن، لأن المغنّي قد بدا لها أنه يؤدّي بإتقان، يُغَنِّي بصوت جيّد وبإحساس عالٍ. وابل من الصيحات والتصفيقات، صدحت عند خاتمة التانغو. فتحت أولبيدو عينيها، كانت تُحسُّ بوخز فيهما بسبب دخان السجائر ودخان السيجار الكوبي الذي كان يُغْرِقُ حان "لامار تشيكا" La Mar Chica.

فكَّرت في الذهاب لدورة المياه، لثُنُشَ وجهها بالماء، وتُعيد وضع مكياجها، لكنها قرَّرت ألا تفعل؛ كان فوق طاقتها أن تقوم باجتياز تلك القاعة المليئة بالعرابدة، وتتفادى نظراتهم الداعرة ومحاولاتهم للاحتكاك بها، لتنتهي في النهاية في مراحيض نجسة. لذلك فضَّلت الاستمرار في الجلوس متظاهرة بالاهتمام برقصة الزامبرا الموريسكية.

كانت المرَّة الأولى التي يصحبها كارلوس إلى لامارتشيكّا، وأقلُّ ما يمكن قوله، هو أن تلك الخمَّارة أكّدت بالفعل تخوُّفاته. كانت تقع في إحدى أسوأ مناطق طُنْجَة سُمْعَة، في مدخل الميناء تحت زنقة دار الدبَّاغ، وسلاّم السينما الأمريكيّة، وعلى بُعد أربع خطوات من مباغي المدينة. لم يكن المكان الذي يمكن أن يتَّسع لوجود نادٍ خاصٍّ بالمجتمع الراقى.

كان على كارلوس وأولبيدو - بعد تَرْك شيفي بيل إير Chevy Bel Air لدى أحد حُرَّاس السيَّارات - وهما يمشيان على قدميهما، أن يتفاديا جماعة من بَحَّارة الأسطول السادس الأمريكي الحديث الرُّسُو. سمِعْتُ بعض البحَّارة يتغرَّلون بها بلغة إنكليزية، أو هكذا خُيِّلَ إليها. وهي تشبَّث بذراع زوجها، أحسَّتْ بأن ما منعهم من مهاجمتها، كان فقط وجود اثنين من أفراد الشرطة العسكرية الأمريكيّة بالقرب منهما، شرطيَّين أسودَّين طويلَي القامة بخوذتيَّين بيضاويَّين وهراوى خشبية.

زبائن النادي كانوا كارثيَّين أكثر ممَّا تخيَّلتُ: خليطٌ من الصيَّادين وعمَّال الميناء ورجال العصابات والمُهرَّبين والبوهيميَّين، وأخسُّ ما لفظتُهُ أحشاء الأمَّهات المغريبات والإسبانيات والإنكليزيات، كان الجميع إلى حدود ذلك الوقت من السهرة ثَمَلًا. لم يكن المكان يخلو من نساء، لكن، ولا أسرةً محترمة واحدة، سوف ترضى بأن يَكُنَّ زوجاتٍ لأبنائها.

كان كارلوس مُصرّاً على الذهاب ليلة السبت تلك، إلى لامارتشيكاً. لقد اعتاد بين الفينة والأخرى، بعد الخروج من الجريدة - قال مُعترفاً - على اللقاء مع لويس ماركينا لاحتساء بضع كؤوس من الويسكي، ولعب مباراة صغيرة من البُوكِر.

كانت الحانة تتوقّر على أجود ماركات الشراب الإسكتلندي، وبأسعار جيّدة، وتتمتّع بأكثر الأجواء جاذبية. كان هناك سبب إضافيٌ لتعرّف زوجته على ذلك المكان في تلك الليلة: لقد صرّح إيمليو ثانس دي سوتو بأنه سيصحب معه آل بولز بعد حفل العشاء الذي سيكون حاضراً فيه إلى جانبهما بفيلاً مليونير إنكليزي. وبهذه الكيفية ستمكن عائلة سيبوليدا من التعرّف على أشهر زوجين بطُنجة، "سوف يكون الأمر مُسلّياً، سترين" قال كارلوس واعداً زوجته.

ألقت أولبيدو نظرة على كأس الشامبان شبه الفارغة التي شربتها، وتساءلت إن كان عليها أن تُعيد الكُرّة. كان الشامبان يصعد بسرعة إلى رأسها، وتلك المغارة، ما كانت تبدو بالمكان المناسب لتفقد فيه رأسها. لكنها لم تجد - في الوقت ذاته - أفضل من ذلك، في انتظار وصول آل بولز.

مضى كارلوس ولويس، في طريقهما نحو زجاجة تشيفاس Chivas الثانية، واستمرّاً مُنغمسين في محادثة حول المدى الزمني المُحتمل لبقاء فرانكو في سُدة الحُكم. يعتقد كارلوس أنه لن يصل إلى 1960، فالبلد تمّ إفقاره، والأوساط الجامعية والعمّالية بدأت في التملل. بينما لويس على العكس كان يرى بأن الأمور كلّها تمضي في اتّجاه تعزيز الوضع الصحيّ للجنرال: "الجليقي سيموت في البارودو El Pardo بعد أن يقوم بدفننا جميعاً" سمعته أولبيدو يقول، رغم ضوضاء الزامبرا المورسكية.

"يا لذكاء أوخينيا، وهي تعلن عدم رغبتها في الخروج هذه الليلة!"
فَكَرَّتْ أولبيدو. السيِّدة ماركينا تعلَّتْ بارتفاع درجة حرارة الصغير ألبيرتو،
لكيلا ترافق زوجها إلى لامارتشيكًا. تذكَّرت أنها لم تكن المرَّة الأولى التي
تركها وحدها في سهرة يُدعى لها الزوجان.

كثيرة كانت هي الأحاسيس التي تأخَّر تطوُّرها لدى أوخينيا، ومن
أكثرها لفتاً للانتباه حسُّ الدعابة وحسُّ الفضول. كانت جامدة وكسولة.
نعم، هي وأوخينيا، كانتا مختلفتين كثيراً، لكن، هذه المرَّة، خلُصت
أولبيدو إلى أن زوجة لويس المتعوسة كانت على صواب! كانت زجاجة
شامبان من نوع كروغ Krug مُستقرَّة داخل طبق من الثلج بجانب
الطاولة. التقط لويس ماركينا نظرة التردُّد التي كانت أولبيدو تُوجِّهها
للإناء المَعْدِنِي المَبْلَل.

- انتظر، يا كارلوس. لقد نسينا بالمرَّة زوجتك، قال ونهض وعلى وجهه
ابتسامة رجل مُهذَّب.

استخرج القِنِّيْنَة من الطَّبَق، ولَفَّها في منديل، ساكباً قليلاً من الشامبان
في كأسها مُحَاكِاً بطريقة ساخرة معلماً un maître فرنسياً. وفي صمتٍ
تركته أولبيدو يفعل، لتُوجَّه له الشُّكر في الأخير. وبينما كان لويس يُنَشِّف
عُنُق الزجاجة، سأَلها:

- ما رأيك في هذا المكان؟

بعد البحث عن جواب، قالت أخيراً:

- جذَّاب، جذَّاب كثيراً! تطلَّع كارلوس إليها مُبتَهجاً. ما قالته كان
بالضبط، هو الوصف الذي استعمله، وهو يعلن لها المكان الذي
سيذهبان إليه.

- شبيه أيضاً بمنصّات الفلامينكو في بلادك الأندلس، أليس كذلك؟ لكن، هذه المرّة بحضور مغربيّ - علّق لويس - تكادين تشعيرين وكأنك في بيتك.

- أنا لم أكن أذهب، يا لويس، إلى منصّات الفلامينكو في مآلقا. ردّت أولبيدو بغضب، ماطّة شفّتيها من الانزعاج.

- لا شك أنك مُحِقّة، أنا أسحب ما قلته سابقاً. وحتى تسامحيني، أقترح أن نشرب نخباً في صحّتك.

شرب الثلاثة، لكنها بالكاد بلّلت شفّتيها بالشامبان.

- أظنّ أنني لم أحك لك بعد - قال كارلوس متّجهاً نحو زوجته - بأن مالك هذا المكان فوضوي anarquista إسباني اسمه باكو بوينو Paco Bueno وهو الذي يوجد خلف منصّة تقديم الوجبات.

نظرت أولبيدو، فلمحت رجلاً في منتصف العمر. كان يحرك خلاط مشروبات أمام العينين المفتوتتين لمن توهّمهما مومسين. انتبه الساقى إلى نظرة أولبيدو، وقام بتحيتها بهرّة من رأسه. يقال إن باكو تمكّن من الخروج من إسبانيا بفضل مساعدة الدكتور غريغوريو مارانيون Gregorio Marañón الذي كان طالباً لديه بكلّيّة الطبّ بمدريد.

- لقد سمعتُ قصّة أخرى - قال لويس - يقال إن باكو كان من مدرسة دروتي Durruti وإنه هرب من السجن مُستعملاً مُسدّساً، وبالطريقة نفسها اختطف قارب صيد من الجزيرة الخضراء، وانتقل به إلى هنا.

- هذا احتمال آخر - قال كارلوس موافقاً - ما نعلمه على وجه اليقين، هو أنه بمجرد نفاذه بجِلده، ووصله إلى هذا الجانب من البوغاز، قام بالزواج بمغربية وفتح حانة فلامينكو، لا يعرف أحد مصدر تمويلها.

- تزوّج من مغربية؟ - سألت أولبيدو مندهشة - أنت قلت لي، يا كارلوس، إنه لكي تقوم بذلك عليك أن تصبح مسلماً.

- هو ذاك، أتصور أن باكو سيتظاهر بالتحول للإسلام أمام أيّ فقيه من فقهاء المدينة القديمة. يمكنه الحصول على شهادة إيمان مكتوبة بأفضل لغة عربية ممكنة، مقابل حَفَنَة من البسيطات pesetas، وبالدولارات يكون الأمر أكثر سهولة.

- انتبه! الأمر ليس بالسهولة التي يمكن تصوُّرها - قال لويس - كان على باكو أن يُخْتَنَ. شعرت أولبيدو بأن وجهها يحمرُّ، ناهيك عن أنها كانت في حالة من الانفعال الشديد.

عدّلت من جلستها فوق كرسيّ عُشب البرّك.

- يا لك من وحش، يا لويس - احتجّت قائلةً - بمجرد ما تتهاون، يفلت منك ذلك الباسكي الذي تحمله بالداخل.

- نعم، من قاع بلباو، أجب مُؤكِّداً.

كان بول بولز يبدو كيبَّغاء صغير، وكانت جين بولز تبدو أيضاً كقطعة صغيرة. دخلت عائلة بولز لامارتشيكاً بعد منتصف الليل، يقودها إميليو ثانس دي سوتو، وهو يُلقى تحية المنتصر، وكأنه صاحب دم أزرق نازلاً من عابرة محيطات.

بعد ذلك وعبر لكرات ودفعات خفيفة، تمكَّن الثلاثي من شقَّ طريقه نحو طاولة نقالة، حيث كانت تجلس أسرة سيبولييدا رُفقة لويس ماركينا.

بعد أن انتهت التقديمات، استقرَّ الثلاثي في جلسته: جين على يسار أولبيدو، يقابلهما إميليو، بينما توسَّط بول كُلاً من لويس وكارلوس. كان شَعْر بول بولز أشقر، مُجعَّداً، على هيئة عُرف الديك. كان ذا جبهة عريضة وعينين زرقاوين وأنف ببغاوي. حزنٌ ما كان يرشح من نظرتيه، ومن ابتسامة شفتيه وشكل ذقنه الأملس. لم يُشوَّش أبداً على صورته كرجل نبيل *gentleman*. كانت حركاته مُترنة وثقيلة ربَّما على نحو مُبالغ فيه. لا بدَّ أنه دَخَن كِيْفاً، فَكَّرَتْ أولبيدو. حكى لها إميليو بأن الكاتب والموسيقي الأمريكي كانت تُعجبه النبتة، سواء دَخَّنَهَا بواسطة غليون أو عبر الحلوى المُسمَّاة معجوناً *mayún*.

- تُسعدني رؤيتك، عزيزتي، قال إميليو مُبتَهجاً، وهو ينظر إلى أولبيدو. كنتِ ستكونين في غاية السعادة لو كنتِ حاضرة في حفل العشاء الذي أتيْنَا منه. كان في فيلاً بالجبل الكبير Monte Viejo، عشبها متلألئ

ونخلاتها سامقات كبرج لندن، أمّا إطلالتها على البوغاز، فكأنما كانت من عين النّسر. كانت طنّجة كلّها حاضرة Tout Tanger بسيّداتها وساداتها، بعاهراتها وقوّاديهها، بمجنوناتها وعِلّمانها. فقط كنتِ أنتِ الغائبة، في خانة السيّدات، طبعاً of course.

- شكراً على التدقيق - أجابت أولبيدو - لا بدّ أنه كان عشاء رائعاً، يبدو أنّك استمتعت كثيراً؟

- بشكل رائع. استقدم برايون جيسين Bryon Gysin فرقة troupe من المغاربة كان أفرادها يرقصون على إيقاع مزامير وطبول جهجوة. فوق رؤوسهم كانت صينيات مملوءات بكؤوس الشاي، لم تندلق منها ولو قطرة واحدة، مذهل للغاية! amazing كان المشويّ mechui رائعاً؛ خروف مطهوٌ ببراعة، ومشويٌّ ببطء على نار من حطب، وكأنه معدٌّ للسلطان نفسه. للأسف أن جيني Yeini تعيش الآن مرحلة نباتية.

ابتسمت جين بولز المقصودة بصيغة التصغير تلك، وهذا ما جعلها تبدو قبيحة، فأسنانها العلوية كانت بارزة وشبيهة بأسنان الفرس. كانت السيّدة بولز تلبس قميصاً ذكورياً ذا مربّعات. إن كان لكارلوس أن يشبهه، فسيقول بأنه شبيهه بقميص حطّاب كَنديّ. كان القميص مُزّراً حتّى العنق. تنوّرتها طويلة، وبلا ملامح، وتنتعل شبشباً قروياً من الجلد، وتطوّق مِعصَمها الأيسر بإسورة بربرية من الفضّة. كان شعْرها فاحماً ومُجعداً وقصيراً، ومَقصُوصاً من القفا، مع أُذُنَيْن مُرسلَتَيْن في الهواء. وتُغطّي جبهتها المستديرة بطاقيّة لطيفة. كانت نحيفة وقليلة الطول.

أعجبت بها أولبيدو بسرعة. لا بدّ أنها توشك أن تُكَمِّل الأربعين من عُمرها، ولكنها لم تغدُ بعدُ سيّدة مهيبّة ومحترمة كما يحصل للكثيرات من الإِسبانيّات والمغربيّات. كانت تُشعُّ مرحاً وشباباً وجاذبيّة. هذا هو معنى أن تكون امرأة عصرية، فكّرت أولبيدو.

- نعم، الآن لديّ شكوك كثيرة حول ما إذا كان أكل اللحم صحيّاً وأخلاقياً - قالت جين، مُجيبة إيميليو بقشّاتٍ لِيّةٍ ممتازة - قد يكون سبب ذلك هو أن لدينا بالبيت حيوانات كثيرة: ببغاء، وقطط كثيرة، وكلب.. لستُ أدري إلى متى ستستمرُّ معي هذه الحالة.

نظرتُ إلى أولبيدو بعينَيْها الكسَتائِيَتَيْنِ النفاذَتَيْنِ، وأضافت وهي تُعيد استعراض الجزء العلوي البارز من أسنانها:

- سعيدة بمعرفتكِ، يا أولبيدو. لم يكن إيميليو يبالغ حين قال إنكِ جميلة جداً. جمال حقيقيّ بالتأكيد *a true beauty*. تورّد وجهُ أولبيدو للمرّة الثانية في السهرة، لكنها خَمِنَتْ أن حُمْرة وجهها الناتجة عن الحرارة والدخان كانت كفيلة بصرف انتباه أيّ أحدٍ عن ملاحظة ذلك التورّد.

- شكراً، يا جيني - أجابت مستعملة الاسم اللطيف الذي استعمله إيميليو - أعترف لكِ، أنني أنا وكارلوس كانت لدينا رغبة قوية في التعرّف عليكما. فالجميع يتحدّث عنكما. حرّكتُ جيني يدها بطريقة تفيد بأن الأمر لم يكن ذا أهميّة.

- أتصوّر أنكما تشعران بالألفة في هذا المكان؟

- أتينا إلى هنا بضع مرّات مع أصدقاء أمريكيّين كانوا في زيارتنا. الفلامينكو هنا ممتاز، وكلّ ما له طابع غجري يجده ضيوفنا رائعاً. حتّى إنني لستُ متأكّدة إن كانوا يعرفون، هل هم في الأندلس أم في المغرب، وعلى أيّة حال *Anyway*، فأنتِ بالتأكيد مُتطلّبة أكثر. لقد قال لي إيميليو بأنك وُلدتِ بمالّقا.

- لا تُصدّقِي ذلك. أنا من مالّقا، لكنّ، ليس عندي أدنى فكرة عن الفلامنكو.

- أولبيدو سيّدة من سيّدات مالّقا - قال إيميليو مُشدّداً على كلمة

سيّدة - رُيِّتْ على فكرة أن الفلامنكو شيء خاصٌّ بالعَجَر والشيوعيين والمُخْتَلِئين.

- نعم، شيء من هذا القبيل. أبي كان مهندس طُرُقَات، شديد الالتصاق بما هو قديم. خلال انتخابات 1936، صَوَّتَ على الكونفدرالية الإسبانية للأحزاب الكاثوليكية واليمينية CEDA. الآن، هو سعيد مع فرانكو.

- فرانكو! دعني أدقّ الخشب، ثمّ ضربتُ جيني براحتها على الطاولة. بلَّلْتُ أولبيدو بالشامبان، شفتيها المصبوغَتَيْن بلون المَرَجَان.

- كيف نزلتُما حتّى هذا المكان؟

- في جاغوار Jaguar يول ذات السقف المُتَحَرِّك - أجاب إيميليو - السائق *le chauffeur*، التمسمني ظلّاً بالخارج يعتني بها.

- لديكم سائق؟ نظرت أولبيدو إلى جيني مُستفسرة.

- نعم، وسيّدة تُدبّر المنزل. إنها واحدة من الأمور الجيِّدة في المغرب، الخدمة جدّ رخيصة؟ ألا تعتقد ذلك؟ بالتأكيد أن لديكما أنتما أيضاً أحدٌ مَّا؟

- لدينا فتاة تأتي كلّ يوم، لتُنظّف وتطبخ وتكوي. اسمها عِيشَة، لكنها لا تبقى لتنام معنا في البيت.

- ذلك أفضل، أليس كذلك؟ بهذه الطريقة يكون زوجك لك وحدك طَوَالَ الليل.

- لا تكوني واثقة، يا جيني. هو يُهملني كثيراً.

بدأت أولبيدو تُحسُّ بالارتياح، هل هو الشامبان؟ هل هي نكاتُ إيميليو الفاجرة؟ هل هي حادثة جيني؟ انعطفتُ بوجهها ناحية اليمين، حيث تشكَّلتُ زمرة مُكوَّنة من كارلوس ولويس وبول.

عرُفُ أبيشويلا Habichuela، وغناء الأربعينيِّ المتُعَرِّق، وطققةُ كعبِ الراقصة الشَّابَّةِ المَهْيَّجَةِ، والتصفيقاتُ الموزونة لكارميلا الدَّرْدَاءِ، وقهقهاتُ الزبائن الوَقَّحِينَ وشتائمهم، هذا كلُّه جعل من المستحيل أن تتشارك الطاولة حديثاً واحداً. بدا كارلوس ولويس مُستغرِقَيْن، فيما كان الأمريكي يقصُّه عليهما.

رأت أولبيدو أنه كان يلبس كوفية *un foulard* حريرية بنفسجية، تَسُدُّ ياقةَ سِتْرَةٍ لوُنُها في لون الخَرْدَل. كان جريئاً، وكان ذلك يناسبه. كان يُدخِّن ببطء سيجارة من فتحة عاجية.

لم تلتق نظرتها بنظرة كارلوس، فحوَّلت نظرتها مُجدِّداً باتِّجاه مجموعته. رشفت رشفة صغيرة من كأسها، وأعادت الكأس إلى الطاولة، نقلت يدها إلى صُدْغَيْهَا، لتَنفَسَ شَعْرَهَا، في الوقت نفسه الذي راحت ترفع رأسها وتأخذ نَفْساً عميقاً. كانت أصابعها الدقيقة تنتهي بأظافر مصبوعة - في تواؤم مع شَفَتَيْهَا - بلون المَرَجَان.

أساورُ نحاسية كانت تلمع في مِعْصَمَيْهَا. شَعْرُهَا اللينُّ الفاحم ما زال يحافظ على تسريحة غريس كيلى التي وضَبَّتْها مع بداية الصيف. لم تغفل عينا جيني عن أدنى حركة قامت بها أولبيدو. صاحب النادي أتى شخصياً ليرى الطلبات، بعد أن لَفَّت انتباهه حضورُ المشاهير المحليِّين.

- جين، بول، مرحباً بكما في لامارتشيك *welcome bac*!

- قال باكو بوينو Paco Bueno مُحِيّاً - ماذا بوسعي أن أقدم لكم؟

- شامبان للجميع؟

- اقترح إيميليو مُتسائلاً - بهذه الطريقة، لن نترك أولبيدو بمفردها. وبعد أن جال بعَيْنَيْهِ بين الحضور مُسجلاً مُوافقتهم الصامتة، توجَّه إلى باكو مُستفسراً:

- ماذا يمكن أن تقترح علينا، يا باكو؟

- السيّدة تشرب شامبان كروغ Krug لسنة 1952، سنة رائعة حقّاً. أمّا أنا، فأقترح الاستمرار على المنوال نفسه، فلا أزال أحتفظ عندي ببعض القناني.

- انتهى الكلام! علينا بها! معك خصوصاً، لن أتناقش، لا حول الفوضوية، ولا حول الفلامنكو، ولا حول أنواع الشراب.

- ولا أنا، يمكن أن أناقشك في السينما، أجاب باكو بوينو.

ودونما اعتراض من أحد، انسحب حاملاً معه الإثاء الثلجي الذي يضمّ الزجاجة الممتلئ نصفها، والتي كانت أولبيدو تشرب منها.

كانت أولبيدو في حاجة إلى الذهاب للحمام. كان من الصعب تجنّب العبور من كهف القراصنة ذاك، لكنّ، الآن بإمكانها أن تراهن على دعم جيني. مالت نحوها وهمست في مسامعها بما تفكّر به. قبلت جيني، فيما كان إيميليو يراقبهما بنظرات ساخرة. وقفت المرأتان وقفة واحدة، كانت الإسبانية أطول وأنحف من الأمريكية، زدّ على هذا أنها كانت تلبس حذاء ذا كعب عالٍ. وفي تلك الليلة ارتدت بدلة من بدلات حزام الزنبور مع تنورة واسعة، لباس ناسبها كثيراً، وكان يستجيب لصيحات الموضة الرائحة وقتئذ. كان لون البدلة بنفسجياً، وكان كُمّاهما قصيرين وفتحة العنق على شكل v. كانت تتدلّى من عنقها قطع سميكة من عقد اللؤلؤ الذي أهداه إياها كارلوس.

أخذت جيني أولبيدو من ذراعها، وراحتا تسيران معاً نحو الجانب الخلفي من الحانة. بعد خطوتين من سيرهما اصطدمتا بجسم عربيّ بالغ، ذي بذلة بُنيّة فاتحة وقبّعة فاسيّة بلبادٍ أحمر. كان العربي يتحدّث واقفاً مع مجموعة من مواطني بلده المجلبيين الجالسين حول طاولة فوقها بضع زجاجات من جوني والكر Johny Walker العلامة السوداء.

- معذرة، سيّداتي، قال بابتسامة، أطل بها الثواني التي تكفيه لكي يتفرّس في وجه المرأتين. مباشرة بعد ذلك ابتعد ليُفسح ممراً ضيقاً، لكي تمرّ منه.

أحسّت أولبيدو بأنه استغلّ مرورها ليُثبت نظراته بدقّة في فتحة صدرها. توسّط طريقهما نادلٌ مُحمّلٌ بصينية مليئة بالكوكتيلات. كان عليهما التوقّف لتمكينه من تقديم المشروبات لبعض الزبائن الذين كانوا يتحدثون بالإسبانية.

أحسّت أولبيدو كيف انزلت يدُ جيني تحت ذراعها حتّى أمسكت يدها، فتحت أصابعها وشبكتهما في أصابع أولبيدو. أحسّت هذه الأخيرة بأن جيني تمدّها بالطاقة، فتبدّدت مخاوفها ولم تعد تخاف أشرار لامارتشيكاً. بفضل صديقتها الأمريكية الجديدة، سوف تتمكّن من الذهاب والعودة من الحمام دون أن تُعاني أدنى خدش. ضغطه يدها كانت ضغطة لطيفة وقوية، وشبيهة بضغطة أخت كبيرة تقودها عبر مجاهل الحداثة. جمع النادل كؤوس الإسبان الفارغة، ومضى حاملاً الصينية المُثقلّة على راحة يده. كان يتمتّع بمهارة بهلوان سيّرك صيني، وهو يتفادى الحواجز في طريقه إلى منصّة الأكل.

ومن على الجدران المصبوغة بأخضر بشع، كانت تتابعه بنظراتٍ مُعجبةِ الصورِ الفوتوغرافية لفنّاني الأغنية الشعبية الإسبانية والفلامنكو. إحداها كانت لـ خوانيتو بالديراما Juanito Valderrama الذي قدّم على مسرح ثيريانتيس في العام 1949 أغنية، يدور موضوعها حول مهاجر إسباني يُعيس.

كانت الأغنية تبدأ على هذا النحو: "عليّ أن أصنع من أسنانك العاجية سبحة، أقدر أن أقبلها حينما أكون بعيداً عنك". وصلت المرأتان إلى الممرّ المفضي إلى دورة المياه، ودخلتا عبره. بدا لأولبيدو بأن رفيقتها تعرج قليلاً من رجلها اليسرى.

كان الممرُّ مُعْتَمَماً مثل فم الذئب، فضغطت أولبيدو على يد جيني التي أجابتهَا بضغطة أخرى. توقَّفت جيني، ودفعت أولبيدو قليلاً نحو الجدار، حتَّى تُفسِّح مجال المرور لشابٍّ ذي شارين وسروال جينز، خرج لتوه من دورة المياه. توقَّفت الشابُّ ذو الشارين قُبالة المرأتين، وبوقاحة سألهما إن كان بإمكانهما منحه سيجارة.

- تَبّاً لك، أجابته جيني.

- هَرِّ ذو الشارين كَتَفِيه، وتابع طريقه. أطلقت جيني يد أولبيدو، وبِكلَّتَي يديها أمسكتها من خصرها، وأعادت دفعها برفق، لثَبَّتَ ظَهرُها على الحائط. ووسط إحساس بالارتباك، لم يسعُ أولبيدو إلا الاستسلام لها. اقتربت جيني منها حتَّى تَلَامَسَ جسداهما.

- أَنْتِ رائعة، يا أولبيدو! -همست لها - لقد وقعتُ تَوّاً في حُبِّكِ! كانت عينا جيني تلتمعان كجمر مُتَّقَدٍ. وضعت أولبيدو يديها كحاجز فوق كَتَفَي جيني.

- أريد فقط أن أُقَبِّلَكَ، يا أولبيدو. اسمحي لي أن أُقَبِّلَكَ من فضلك. فقط مرّة واحدة، لو سمحت! سحبت أولبيدو يديها من كَتَفَي جيني، وتركتهما مُسدلتين. كان قلبها يخفق بقوة لدرجة تكاد معها تسمعه ينبض في صُدْغَيْهَا. اقتربت جيني بوجهها، أغلقت عينيها، وطبعت قُبلةً عذبةً على شَفَتَي أولبيدو.

طَنْجَة، ربيع 2002

لم أَرْقُطْ جُثَّةً من قَبْلُ. أريد القول جُثَّةً ميتة حديثاً، في المكان الذي سقطت فيه، ودون أن يعمد أحد عمَّال شركة الدفن إلى سحبها وتنظيفها. وأنا أوشك أن أكمل العشرين من عُمْري، رأيت أُمِّي في تابوتها، وقد كانت تُوقِّيت في اليوم السابق على إثر حادثة سَيْر، لكن كفنها لم يكن يكشف منها إلَّا وجهها مُزِيناً بالكثير من المساحيق. عَقْدان من الزمن ونَيْف، بعد ذلك وتحت وطأة سرطان الرئة بدا والدي وقوراً داخل نعشه وقد ارتدى سترة بربطة عُنق. في كلتا المناسبتَيْن، لم أُمِرَّ إلى مستودع الأموات لأُلْقَى نظرة سريعة عليهما. ومع ذلك كان الأمر بالنسبة إليَّ مؤلماً في المرَّة الأولى، ومحزناً كثيراً في المرَّة الثانية.

كُنَّا أنا وأليسيا الآن على مسافة متر واحد من جسد إنسان توقَّف عن التنفُّس. كان في استراحة إحدى الشُّقق التي تقع بالطابق الثالث لِعِمَارَةِ بشارع رابلي Rabelais، غير بعيد عن ساحة الأمم.

كانت الجُثَّة بذراعَيْن ورجلَيْن مُرتخِيَيْن، مثل دمية مُتحرِّكة كبيرة، سقطت كيف ما اتَّفَق فوق زريبة مغربية، كانت مُلَطَّخة بالدماء التي نزفت من عُنقه. كان رجلاً يزيد عن الأربعين في عُمْره، مُحْتَفِظاً بكامل شَعْرِهِ، ولو أن بعض الشعيرات البيضاء كانت تتخلَّل فُؤْدَيْهِ. كان يلبس جِلْبَاباً أبيض مُلَطَّخاً كثيراً أيضاً بمعجون مائل إلى الحمرة، وكان حافي القدمَيْن.

كان المكان يعبق برائحة شبيهة بالحديد المؤكسد. تساءلتُ ما إن كانت تلك هي رائحة الدم المتخثر. لم أذكّر أنني قرأتُ شيئاً مّا بهذا الصدد.

- ولا خطوة واحدة! صاح الشرطي ذو اللباس المدني الذي استقبلنا عند البوّابة. كان يتحدث بالفرنسية، وقدّم نفسه على أنه المُفوّض بوعلي، وبّنهنا إلى ألاّ نلمس شيئاً أو نقوم بحركات أخرى غير تلك التي يطلبها ممّا.

- هل يمكنكما التعرف عليه؟

نظرتُ نحو أليسيا. كانت الشخص المَعْنِي الذي قام الشرطيان صاحبا الرّي الرسمي بالبحث عنه في ثيربانتييس ليصبحهما رسمياً للتعرف على الجثة المكتشفة حديثاً. شخصياً اكتفيتُ باقتراح إمكانية مرافقتها في هذه الوضعية الصعبة، وهي من جانبها، قَبِلَتِ الفكرة. رجال الشرطة لم يُدوا اعتراضاً على أريحيّتي.

- نعم، هو الأستاذ بابلو مورينو Pablo Moreno - قالت أليسيا بصوتها الأجش الذي يكاد لا يُسمَع.

- هل تعرفون ما إذا كان لديه أفراد من عائلته بطنجة، يتعيّن علينا أن نتّصل بهم؟

- حسب علمي، لا. قالت رئيسّتي. كنتُ أنظر إليها وهي تنظر إلى المُفوّض. كلانا كان يتفادى النظر إلى الجثة مجدّداً.

- كان أعزب، وأظنّ أنه كان يعيش وحيداً. كان المُفوّض بوعلي، يمسك بيديّه جواز سفر إسبانياً، تصفّحه بحثاً عن خاتم الدخول والخروج من المغرب، وفي النهاية قال مُستفسراً وقد أبقاه مفتوحاً على صفحة أمسكها بسبّابة يده اليمنى.

- منذ متى والسيد مورينو يشتغل بمؤسسة ثيربانتييس؟

- منذ موسمين دراسيين - أجابت أليسيا - التحق بالمؤسسة في سبتمبر من العام 2000. أتى من مركزنا بتونس. أتجه بوعلي نحوي سائلاً:

- هل كنت صديقاً للمُتوفى؟

- لا، فقط كان زميلاً في العمل. كنّا نتبادل التحية عند لقائنا في ممرّات المؤسسة. وذات مرّة تناولنا الطعام معاً في بيت المديرية. هذا كل ما في الأمر. هَرَّ المَفْوُضُ رأسه مُوافِقاً. كان قد أكمل نصف قرن من عُمره، كان شَعْرُهُ في مثل بياض الثلج، تجاعيدٌ عميقةٌ تشقُّ جبهته وتُفاقِمُ تقطّيبه حاجبَيْه. عيناه تبدوان مُتعبَتَيْنِ خلف نظّارة بصرٍ حسيّرٍ. شاربٌ قصيرٌ أشيبٌ كان يُغطّي شفَتَيْنِ غليظَتَيْنِ بنفسجِيَّتَيْنِ.

- نعم، فهمتُ - قال مُطَرِّقاً - هل يستطيع أحدكما أن يقول لي شيئاً عن حياته خارج العمل؟ أصدقاؤه، علاقاته، أذواقه، أو أنشطته الأخرى؟ أيّ شيء يمكنه أن يُفسّر هذا. وأشار بيده - التي كانت تحتفظ بالجواز - إلى الجثّة. تابعنا أنا وأليسيا حركته تلك بنظراتنا.

- الآن لا يخطر على بالي شيء، يمكن أن يكون مفيداً لك - أجابت أليسيا - لم أكن أتعامل كثيراً مع الأستاذ مورينو. على أيّة حال، يمكنني أن أقول لك إن تكوينه كان جيّداً، وكان يقوم بعمله خير قيام. ما عدا ذلك، فقد كان رصيناً. أمّا حياته الخاصّة، فلا أعلم عنها شيئاً.

- أليس هناك احتمال أن يكون مثليّاً؟ استدارت أليسيا نحوي، بينما هزّزتُ أنا كَتِفِيّ مشيراً إلى أنه ليس لديّ أدنى فكرة عن الموضوع.

- بصراحة، لا أعلم، لماذا تطرح هذا السؤال، ردّت رئيستي في العمل. قرّص بوعلي شاربه الأشيب بإبهام يده اليسرى وسبّأبتها.

- لقد اتّصلتُ بك، السيّدة المديرية، فقط من أجل الإجراء الرسمي للتحقُّق من الجثّة. لكنني أتصوّر بأنك أنتِ ورفيقك ستعرفان كيف تحتفظان

بما قد أحكيه لكما. أخبركما أننا في الدقيقة الصفر من التحقيق: كل شيء مُحتمَل، ولا شيء مُستبعد - استدار نحو باب الشُّقَّة، حيث كان ينتظر رجلان يرتديان معطَفينَ أبيضين وقفَّازي مطَّاط، وحقائب - لكن، من الأفضل أن نواصل هذا الحديث في الخارج. فالتَّقْنِيُون يتعيَّن عليهم القيام بعملهم. أحسستُ بالارتياح. فالدقائق التي مرَّت عليَّ بالاستراحة، بدت لي أزلية. أن تظلَّ واقفاً دون أن تقوم بأدنى حركة، أن تكون مُضطراً لتركيز نظراتك في وجه أليسيا ووجه المُفَوَّض، أن تقاوم ميل نظراتك، للانعطاف نحو الدمية المُتحركة المذبوحة التي كانت بالقرب من أقدامنا، ذلك كلُّه استنزفني، وأنهكَ قواي. مررنا نحو بَسْطَةِ السُّلَم، فدخل صاحبا المِعْطَفينَ الأَبْيَضينَ الشُّقَّة.

نزلنا السلالم حتَّى وصلنا رَدْهَةِ المبنى، حيث كان هناك شخصان بالرَّيِّ الرسمي، يحقِّقان مع بعض الجيران، ثمَّ خرجنا إلى الشارع. مقابل البَوَّابَةِ كانت هناك ثلاث سيارَات شرطة مُتوقِّفة في الوضعية الثانية، أضواؤها الدَّوَّارة مُشعَّلة وصقَّاراتُ إنذارها صامتة. كان هيكلها مصبوغاً بالأبيض، وقد كُتب فوقها بعبارة فرنسية "الأمن الوطني" "Sûreté Nationale" مع مقابلها العربي مكتوباً على جانبيها باللون الأحمر. ثلاثة أو أربعة من رجال الشرطة راحوا يمنعون الفضوليين الذين بدؤوا يلتئمون في شكل طواوير.

أخرجتُ علبة مارلبورو، وقدَّمْتُها لأليسيا التي سحبتُ منها سيجارة دون أن تتكلَّم، ثمَّ للمُفَوَّض بو علي الذي صدَّها براحه يده اليمنى. لم تعد يده تُلوِّح بجواز سفر المُتوفَّى، لا بدَّ أنه احتفظ به في أحد جيوبه. أخذتُ سيجارة، وبولاعة بلاستيكية أشعلتُ سيجارة أليسيا وسيجارتِي. أليسيا التي عادت لتكون سيِّدة نفسها، قطعت الصمت، قائلة:

- ما الذي كنتَ ستقوله لنا، السيِّد المُفَوَّض؟

- ما كنتُ سأقوله، هو أننا لحدود هذه اللحظة، لا نعرف إلا القليل. منذ بضع ساعات عثرتُ السيِّدة التي تتولَّى تنظيف شُقَّة السيِّد مورينو على

جثته هناك، حيث رأيتموها أنتم في الاستراحة، ثم خرجت تصرخ وتُولول. أحد الجيران أخطرنا، وحين وصلنا تأكدنا من أن الباب لم يُفتح بالقوة. تقول المنظفة بأنها وجدتته مُوارباً. ومن خلال وضعية الجثة وغياب آثار العراك، كان استنتاجنا الأولي أن الضحية فتح الباب للمعتدي عليه، وفُوجيء به. وبعد بضع حركات تمكّن من شل حركته وقطع رأسه. تمّ ذلك بسرعة فائقة.

لا أكشف لكما سرّاً إذا قلتُ إن الكثير من الديبلوماسيين والصحفيين والمتعاونين والأساتذة الأوروبيين الذين يأتون إلى المغرب هم مثليّون - أنا وأليسيا، أكدنا بابتسامة، أننا نعرف ذلك - فعلى امتداد مساري المهني وقفتُ على حالتين أو ثلاث، مات فيها أحد الطرفين على يد عاشق محليّ بدافع الغيرة أو المال أو أيّ شيء آخر. استعمال السكين هي طريقة العمل المعتادة في مثل هذه الحالات، أحياناً يتمّ اللجوء إلى الخنق.

رُحنا أنا وأليسيا ندخّن مُحاولين استيعاب هذا المعطى.

- قد يتعلّق الأمر أيضاً بسرقة! أضفتُ أخيراً.

- مُحتمَل، سيّد سيبوليدا - قال المفوّض مُوافقاً - لكننا لم نلاحظ من خلال المعاينة البصرية أيّ آثار للسرقة. لم تكن هناك أدراج أو خزانات ملابس مفتوحة، لم تكن ثمة أشياء مطروحة أرضاً، وقد عثرنا بدون صعوبة على محفظة ووثائق هويّة الميت الذي كان يحتفظ في المحفظة والدُرَج ببعض المال الذي لم تطلّهُ يد المعتدي. كانت أليسيا هي من تنفّس براحة الآن. توقّفت سيّارة بوجو Peugeot من طراز راق، وذات لون أزرق غامق إلى جانب سيّارات الشرطة. أحد رجال الشرطة بيّرتِه الرسمية اتّجه نحو السيّارة مُلوّحاً بذراعيه، وكأنه يَنشُ سحابة بَعُوضٍ. توقّف حين اكتشف من خلال لوحة تسجيلها أنها تنتمي للسُّلك الديبلوماسي، وتحديداً للسفارة الإسبانية. من جهة مكان سائق سيّارة بوجو، برز رجل قصير ذو شَعْر أشيب مَحْلُوق

بواسطة فرشاة شَعْر، مُرتدياً بذلة ذات لون بُنِّي فضيٍّ لامع. أغلق الباب بدفعة قوية، واتَّجه برباطة جأش نحو الثلاثي الذي كُنَّا نُشكِّله، أنا وأليسيا والمفوض بوعلي.

- أهلاً أليسيا، قال مُحيياً، وهو يقترب منَّا.

- أهلاً أرسينيو، Arsenio أجابت رئيستي.

- أرسينيو نوغيرا Arsenio Noguera رئيس الأمن في قنصلية إسبانيا، قال الوافد الجديد مُقدِّماً نفسه. ثُمَّ مدَّ يده إلى المفوض بوعلي برشاقة مَنْ يريد إبرام صفقة تجارية مُربحة.

- لقد اتَّصلوا بنا من المقرِّ المركزي للشرطة لإشعارنا باحتمال تعرُّض مواطن إسباني لجريمة قَتْل في هذا العنوان. شدَّ بوعلي على يد أرسينيو مُجيباً بالفرنسية:

- نحن مَنْ كان وراء المكالمة. أنا المفوض بوعلي من الفرقة الجنائية. لقد تعرَّف هؤلاء السادة على الميت، يتعلَّق الأمر ببابلو مورينو أستاذ بمعهد ثيربانتييس بطَنْجة منذ سبتمبر 2000.

- يا له من عمل قَدِر، سيدي المفوض! قال الموظَّف الإسباني باستغراب، مُستعملاً اللغة المُستعمَلة من طرف المغربي. ثُمَّ عاد للإسبانية وهو ينظر إليَّ. كانت عيناه رماديتان.

- افترض أنك هو السيّد سيبوليدا؟

- افترضك في محلِّه، لقد جئتُ مُرافقاً أليسيا للتعرُّف على الجثة. كانت المرَّة الأولى التي أرى فيها ذلك الشخص، وتساءلتُ مع نفسي كيف استطاع التعرُّف عليَّ. لكن، سرعان ما فكَّ اللغز وهو يقول:

- لقد هانفتُ سكرتيرة أليسيا قبل المجيء إلى هنا، فقالت لي بأنك رافقتها. لكني كنتُ قد سمعتُ عنك. لدينا صديق مشترك يقيم بالقنصلية.

أَحَبَّتْ أَلِيسِيَا أَنْ تَعُودَ لَتَوَّهَا إِلَى ثِيرِيَانْتِيس. فَالتَّلَامِيذُ وَالْمُسْتَخْدَمُونَ لَا بَدَّ أَنَّهُمْ قَلِقُوا مِنْ ظُهُورِ رِجَالِ الشَّرْطَةِ وَقَلِقُوا لِخُرُوجِنَا لِأَحَقًّا فِي هَيْئَةٍ مَنْ يَقُومُ بِفِرَارِ جَمَاعِي.

- لَا تَقُلْ شَيْئًا لِأَحَدٍ، حِينَمَا نَصُلْ - أَمَرَتِ الرَّئِيسَةُ، لَمَّا انْحَشَرْنَا فِي الْجَزَاءِ الْخَلْفِيِّ مِنْ سِيَّارَةِ الْأُجْرَةِ الصَّغِيرَةِ - دَعْنِي أُخْبِرَ الْجَمِيعَ بِذَلِكَ.

- سَيَكُونُ مَا تَقُولِينَ، أَيَّتُهَا الرَّئِيسَةُ.

لَرَمْنَا الصَّمْتَ لِحِظَةٍ، وَبَعْدَ ذَلِكَ سَأَلْتُ:

- مَنْ يَكُونُ أَرْسِينِيو هَذَا؟ وَاضِحٌ أَنْكُمَا تَعْرِفَانِ بَعْضُكُمَا.

- أَنَا أَعْرِفُ تَقْرِيْبًا الْجَالِيَّةَ الْإِسْبَانِيَّةَ كُلَّهَا، يَا سِيْبُولِيدَا. لَيْسَ بِالْأَمْرِ الصَّعْبِ. فِي عَهْدِ آبَائِنَا كَانَ هُنَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْ أَبْنَاءِ الْبَلَدِ، لَكِنْ، الْآنَ بِالْكَادِ نَصِلُ إِلَى الْأَلْفَيْنِ. أَمَّا بِخُصُوصِ أَرْسِينِيو، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْلِقَاءَاتِ الرَّسْمِيَّةِ. لَدَيْهِ سُلْطَةٌ كَبِيرَةٌ. لَسْتُ مُتَأَكِّدَةً، مَا إِنْ كَانَ يُمَثِّلُ الْيَدَ الْيَمْنَى لِلْقَنْصَلِ أَمْ رَئِيسَهُ.

- هَلْ هُوَ مِنَ الشَّرْطَةِ أَمْ مِنَ الْحَرَسِ الْمَدَنِيِّ؟

- بَدَأَ سَائِقُ التَّاكْسِيِّ الصَّغِيرِ مُنْشَغَلًا بِتَفَادِي الْحَوَاجِزِ الَّتِي تَبْرُزُ بِشَكْلِ مُفَاجِئٍ مِنَ الْأَنْحَاءِ كُلِّهَا، سِيَّارَاتٍ، حَافِلَاتٍ، شَاحِنَاتٍ، عَرَبَاتٍ، دَرَّاجَاتٍ، رَاجِلِينَ، حَمِيرٍ، قَطَط... وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنْ أَلِيسِيَا أَمَّالَتْ رَأْسَهَا نَحْوَ رَأْسِي، وَهَمَسَتْ فِي أُذُنِي:

- لَا، إِنَّهُ مِنَ الْجَيْشِ. قَائِدٌ لِلْقَوَّاتِ الْبَرِّيَّةِ، وَرَئِيسُ لَجَهَازِ مَخَابِرَاتِنَا.

- هَلْ هُوَ مِنْ CESID؟ (الْمَصْلَحَةُ الْعَلِيَا لِلْمَعْلُومَاتِ الدِّفَاعِيَّةِ).

- أَنْتَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ! مَبَاشَرَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ صَمَتَتْ. لَعَلَّهَا كَانَتْ تُفَكِّرُ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَقْلُ بِهَا خَبَرَ مَقْتَلِ بَابِلُو مَوْرِينُو دُونَ أَنْ تُحَدِّثَ جَلْبَةَ كِبْرَى فِي مَعْهَدِنَا.

رحتُ أنا بدوري أتأمل الكلمات التي وجهها إليَّ أرسينيو نوغيرا. وجدتُ أنه من الطبيعي أن يعرف ألبيرتو ماركينا، اللّاجئ بالقنصلية منذ خروجه من السجن، كما افترضتُ أن يكون عالماً بمشكلاته جميعها مع السلطات المغربية.

في الحصيلة، كان هذا يمثل جزءاً من عمله - كما سمّاه - رئيس الأمن، هكذا قالها: رئيس الأمن في قنصلية إسبانيا. لم يكن مُستغرباً أيضاً، أن يكون القنصل وألبيرتو قد حدّثاه عني. ضربتُ صفحاً عن الموضوع، وانتقلتُ لأتساءل عن بابلو مورينو التعيس. كنّا على بُعد دقائق من ثيربانتييس حين قاطعتُ مرّة أخرى أفكار رئيسي:

- عفواً، بادرتُها وأنا ألمس كتفها. نظرتُ إليّ بودٍ، أذنة لي بالاستمرار:

- كيف تنظرين إلى فرضية أن يكون بابلو مثلياً؟

- كنتُ أتصوّر ذلك. وكان ممكناً أن تتصوّر أنتَ الشيء نفسه، إذا قيّض لك أن تتعرّف عليه أكثر. كان يبدو عليه ذلك! لا أعرف كيف أُعبر عن ذلك حتّى يكون تعبيري مقبولاً؟ لنقل إنه كان يبدو مُرهفاً على نحو خاصّ. لذلك دعوته لوجبة العّداء مع غويتيسولو. كان قد قال لي بأنه مُعجّب به كثيراً، ليس ككاتب فقط، بل كإنسان شجاع يواجه ولا يتستّر.

- أفهم، ولكنك لم تكوني على علم بأيّة علاقة تخصّه، لا عشيق، ولا صديق تحديداً؟

- لا، لا أحد. لم أراه يوماً يرتبط بعلاقة حميمة مع أحدٍ ما في ثيربانتييس. لم يكن مثلك مُتهكاً، يا سيبوليدا.

أنقذني الجرس من شجار مُحقق. فسيّارة الأجرة الصغيرة وصلت في الحين ذاته إلى بوّابة المعهد.

تقول الشرطة - بحسب ما قرأتُ ذات مرّة - بأن المصادفات لا توجد في عالم الإجرام. رُحْتُ أفكّر كشرطيّ. كان الأمر مُنطويّاً على الكثير من الشبهة؛ أن يعقَبَ مقتلَ بابلو مورينو إجهازُ ريبالدو على أحمد السَّبَّتيّ، أيّام قليلة بعد ذلك - دفاعاً عن النَّفس، كما استمرَّ ضميري يُؤكِّد لي - في وقتٍ تطلُّ فيه "قضية ألبيرتو" مُعتمّة كجوف مغارة هِرْقُل. شيءٌ ما هناك، كانت تفوح منه رائحة كريهة!

من ناحية أخرى، لم يكن لبابلو مورينو - حسب علمي - أدنى علاقة، لا مع ألبيرتو ولا مع ريبالدو، أمّا العلاقة التي كانت تجمعهم معي، فكانت علاقة مهنيّة بحتة. كلانا كان يشتغل في المكان نفسه، هذا كلُّ ما في الأمر. في الحقيقة، كان يصعب عليّ أن أتخيّل ذلك المُعجَب بغويتيسولو، مُقحماً نفسه في معارك شركات شبكة الهاتف المحمول، أو مقاتلاً في "حرب بوش على الإرهاب" عدا إن كانت لديه حياة سرّيّة! ولمَ لا؟ أمر مُحتملٌ! حتّى رئيستنا أليسيا نفسها، لم يبدُ أنها تعرف عنه الكثير.

بالرغم من تصميمنا على افتراض حياة سرّيّة لبابلو مورينو تبقى فرضية المُفوّض بوعلي الأقرب إلى التصديق. استعادت ذاكرتي وثائقياً تلفزيونياً كانت أليسيا قد أعارته لي قبل أسابيع، في شريط (دي. بي. دي) حول فترة طُنْجَة الذهبية، يوضّح فيه إيدواردو هارو تيكلين Eduardo Haro Tecglen أن ما كان يبحث عنه البوهيميون الأوروبيون والأمريكيون، في

الحقيقة، هو الجنس، خاصّة ذلك الجنس الممنوع عليهم في أراضهم. ما إن تطأ أقدام أولئك الكُتّاب والرّسّامين والموسقيّين والأرستقراطيّين والمليارديرات الميناء - يحكي هارو تيكلين - حتّى يحيط بهم الصعاليك المحليّون عارضين عليهم مباشرة، أطفالاً وطفلات، عذراوات أو مُجربّات، حسب رغبتهم. وإذا لم يوافق ذلك هواهم، فما كان عليهم إلّا أن يُعبرّوا عن ذلك، حتّى يتوافق العرض مع الطّلب بدون أدنى مشكلات.

كان هارو تيكلين مديراً لجريدة إسبانيا التي كان يشتغل بها والدي. ولكن هذا الأخير لم يكن يعتقد بأنهما التقيا في إدارتها. أسرة سيبوليدا رحلت عن طنّجة في العام 1962. وحسب ما فهمتُ، فإن هارو تيكلين تولّى إدارة الجريدة ثلاث أو أربع سنوات فيما بعد. المؤكّد هو أنهما التقيا - وهما في مَدْرِيْد - في صحيفة الباييس، حيث سيصبحان من شخصيّاتها البارزة.

كان من النادر في ذلك الوقت أن أتحدّث إلى والدي. ومن ثمّ، فلم أكن أعلم أبداً، إن كان صديقاً لهارو تيكلين أم لا. وفي الواقع، لم أتكلّم كثيراً، ولو مرّة، مع أبي لا عن عمله ولا عن أيّ شيء آخر.

في الوقت الذي راحت فيه أليسيا تدعو الأساتذة الآخرين لمكتبها، لتُخبرهم بمقتل زميلنا، قلتُ مع نفسي وأنا أجلس في كافيتيريا ثيربانتيس أمام كأس قهوة وحليب مُستخرّجة من "الآلة بالعة النقود":

كُفّ عن الاستطرادات، يا سيبوليدا! عُدْ إلى التعليل المنطقي البوليسي. أين كنتَ؟ آه، نعم، عند فرضية مثليّة بابلو مورينو. سوف نرى. ما الغريب فيها؟ الجواب عن هذا السؤال لا يطرح أيّة مشكلة. لا، ليس في الأمر أدنى غرابة. لا غرابة ولا شرّ. المثليّة موجودة، وليس هناك سبب لاعتبارها خطيئة أو مرضاً أو جريمة. المُفوّض بوعلي على حقّ، المغرب

ودول عربية أخرى هي حقول مناسبة بالنسبة إلى اللّاجئين المثلّيين. العلاقة بين الرجال هنا كانت دائماً محطّ نقاش، هو مزيج غريب ما بين تسامح اجتماعي ومنع رسمي، غويتيسولو قام بتحليل هذا الأمر على نحو جيّد. والموضوع شبيه بما عاشته اليونان القديمة.

انظر، يا سيبوليدا، تذكّر مشاهير مثليّ الجنس كلّهم الذين عاشوا هنا. برهن على أن قراءتك قد نفعتك في شيء ما. ابدأ بالأسهل، بالزوجين المضيفين بامتياز، خلال الفترة الدولية: الثنائي النيويوركي بول وجين بولز. لقد حكى لك شكري عن معرفة والدك بهما، رغم أنهما لم يحدثاك قطّ عنهما. هل تعرف بأن الاثنين كانا - إذا شئنا القول - ثنائيّ الجنس. لم يكن سرّاً أن بول كان يُعجبه اكتشاف أصحاب المواهب الفنيّة، وأنه لم يكن يتأخّر في تحويلهم إلى عشّاق، وكأن الرعاية الفنيّة، بالنسبة إليه، كانت تعني، بالضرورة، المرور عبر السرير.

الرّسام أحمد اليعقوبي، كان أحد هؤلاء، ولعلّه كان أهمّهم بالنسبة إلى بول. في العام 1947 اكتشفه في فاس. سنتين بعد ذلك اصطحبه معه إلى طنجة. وفي السنوات الخمس الموالية سيكون اليعقوبي بمثابة الحُبّ الأكبر لصاحب كتاب "السماء الواقية". هذا الأمر موجود في الكُتب أيضاً. وجين بولز؟ هذه الكاتبة ذات الأنف النافر، كيف كانت تتعايش مع صديق زوجها الوسيم، الرجولي واللطيف؟ انطلاقاً ممّا قرأته، فقد كانت جين تشتكي من أن اليعقوبي كان دائماً يأخذ مالا من بول، وعند هذا الحدّ كانت تتوقّف شكواها. جين كانت تُعجبها النساء، وكانت معروفة بعلاقاتها الغرامية. لكنّ علاقتها الأسوأ سمعة، والشّبه سادو - مازوخية هي تلك التي جمعتها مع شريفة، مُدبرة منزلها. ببغاء عائلة بولز كوتوريتو Cotorrito كان شاهداً على هذه المعاشرة الرباعية. ماذا تقول، يا سيبوليدا؟ قلّ خماسية وسداسية أيضاً.

في منتصف الخمسينيات، نزل الرسّام فرانسيس بيكون Francis Bacon في ميناء طُنْجَة مُقْتَفِياً خطوات حُبّه الكبير بيتير لايسي Peter Lacy، طيارٌ مقاتل بسلّاح الجوّ المَلَكِيّ البريطانيّ خلال الحرب العالمية الثانية. بول بولز رَحَّبَ به، وساعده في الاستقرار، وقَدَّمه لليعقوبي، وطلب منه أن يُعَلِّمَ مَحْمِيَّه الرسم بالصباغة الزيتية. وهكذا لم يتأخَّر اليعقوبي في أن يصبح زائراً مُوَاطِباً للورشة التي فتحها ليكون بالمدينة القديمة. هناك صورة بالأبيض والأسود تحمل تاريخ 1956 يظهر فيها بيكون بقميص أبيض وسروال طويل وصندل من الجِلْد، وهو يضع يده اليسرى بحنو على كَتِفَي اليعقوبي الذي لم يكن يَلْبَس سوى سروال سباحة قصير ذي مُرَبَّعات، ويستعرض جسماً مفتول العضلات. تقول الأسطورة الطُنْجِيَّة إن بيكون ظلَّ يجمع بين مغامرته مع اليعقوبي الذي كان يعيش بمنزل عائلة بولز، وولعه ببيتير لايسي.

كان من الممكن مشاهدة طيَّار الحرب البريطاني المُحَنِّك في حان دينز Dean's Bar، حيث كان يكسب قُوَّت يومه، عازفاً على البيانو من المساء إلى غاية طلوع الفجر. كان في حوزته رصيد واسع من مواضيع الجاز التي كان ينثرها وهو يُفْرِغ قِنِينَات خينيبيرا ginebra. كان ذا شَعْر طويل، خفيف ومصفوف نحو الخلف. وكان وجهه شاحباً ووسيماً، من عادته ارتداء بذلة خفيفة مع قميص أبيض وربطة عُنُق سوداء. في العام 1962، حين مات بيتير لايسي، وتكريماً لِحُبُّهما المُعَذَّب، سيرسم بيكون في طُنْجَة لوحة، سيُسَمِّيها "منظر قُرب مالاباطا"، لوحة تَعَكِّس أشدَّ اللحظات قتامة ومأساوية في مساره: مشهد تجريدي، عاصف، تُضيئه البروق.

ها أنتَ، يا سيبوليدا، وقد جمعتَ في حورتكَ ستَّة! جميعُهم مطبوخون في الطاجين نفسه. وعليكَ أن تضيف، على غِرَار الصحن الأخرى لقائمة الطعام، الكَتَّاب: تينيسي وليامز Tennessee Williams

وترومان كابوتي Truman Capote ووليام بوروز William Burroughs وجان جينيه Jean Genet وباتريشيا هايسميث Patricia Highsmith والمُصوّر الفوتوغرافي سيسيل بيتون Cecil Beaton والأرستقراطي دافيد هيربرت David Herbert، المعروف بملكة طُنْجَة *The Queen of Tangier*. وأيضاً بالطبع أبناء بلدك أنخيل باثكيس Ángel Vázquez وخوان غويتيسولو Juan Goytisolo.

بخصوص أنخيل باثكيس، فقد قرأتُ بأنه ذات مرّة اعترف لجين بولز قائلاً: "أعشق الجنود الناضجين غير الحاصلين على رُتب، والرهبان على الطريقة الإسبانية، وذوي البطون الكبيرة والبدويّين، وأولئك الذين يغسلون الشوارع ليلاً، ويرتدون بدلات صفراء".

أليس لديك حالةٌ ما، أكثر راهنية؟ طيّب، انظر، هناك: مُصمّم الأزياء إيف سان لوران Yves Saint-Laurent الذي ألْبَسَ النساءَ ببراغة ألبسة كانت لحدود ذلك الوقت لا يَلْبَسُها إلّا الرجال. قام هو وعشيقه بيير بيرجي Pierre Bergé مع بداية التسعينيات بشراء فيلاً وإعادة بنائها عند مخرج القُصبة باتجاه مرشان. وقد سمّاها "مبروكة" جَلْباً للحظّ السعيد. وقد كانت رائعة كما يحكون.

أليس الأمر واضحاً؟ لنفترض إذن أن بابلو مورينو كان مثلياً، ولعلّه كان من النوع الذي لا يُشهر مثليّته، أو أنه يُخفيها، على غرار ما كان يقترحه كلينتون بالنسبة إلى مثليّي القوَّات المُسلَّحة الأمريكية: لا تقل ولا تسأل *Don't tell, don't ask*. الشيء نفسه إذن. كان الفقيد من أولئك الذين لا يضعون صفة مثليّ على بطاقتهم المهنيّة، ولكن، في الوقت ذاته، لم يكونوا يتظاهرون بأنهم مغايرو الجنس. مَنْ يدري؟ ها أنتَ تعود لتعقيد الأمور، يا سيبوليدا! خُذْ قهوة، وعُدْ إلى الحاضر!

لِنلاحظ: الذَّبْحُ - يُوَكِّدُ المَفْوُضَ بوعلي - هو طريقة العمل المعتادة في مجال تصفية الحسابات بين المِثْلِيِّين في المغرب. وإذا أَقَرَّ هو بذلك، فمعنى ذلك أن الأمر حقيقيٌّ. وقد سبق لأحد الأشخاص أن حَدَّثَكَ منذ مدَّة قريبة، عن فرنسيٍّ تَمَّ إرساله بهذه الطريقة للعالم الآخر، على يد عاشقٍ محليٍّ ناظم. كان ذلك في المنطقة الشاطئية لأصِيلاً على مَبْعَدَة أربعين كيلومتراً من الجنوب الغربي لطَنجَة حسب ما تذكُّر، أو لعلَّ ذلك حصل بعيداً، في مُراكش، لستَ الآن مُتيقِّناً من ذلك.

في أَصِيلاً أو في مُراكش، ما أهميَّة ذلك؟ لا تترك نفسك فريسة للجنون، يا سيبولبيدا! شَقُّ الحَنَجَرَة يُستعمل أيضاً في العديد من الجرائم التي لا علاقة لها بالمِثْلِيَّة. الجهاديون مثلاً تروق لهم هذه الوسيلة ذات الجذور الدينية. طريقة العمل هذه modus operandi - إذا شئنا استعارة عبارة المَفْوُض بوعلي - التي استعملها إبراهيم نفسه، وهو الجَدُّ الأعلى للديانات التوحيدية الثلاثة، لحظة تضحيته بابنه إسحاق مسألة مُتجدِّرة بعمق.

إنتشَلتني أليسيا - بارك الله فيها - من استيهاماتي. جلستُ بجانبها في كافيتيريا ثيرباتيس وقالت: لقد تَمَّ الأمرُ، وأخبرتُ جميع مَنْ هنا بما حصل لبابلو مورينو. لقد قرَّرتُ تعليق الدراسة حَدَّاداً، بدءاً من الآن، إلى غاية الاثنين. وقد انضمَّ مديراً معهدَي ثيبيرو أوشووا، ورامون إي كاخال إلى خطوة الإغلاق نفسها. ما رأيك؟

- يبدو لي أمراً جيِّداً. هذا أقلُّ ما يمكننا عمله. في أيِّ يوم نحن؟

- اليوم يوم خميس، يا سيبولبيدا. ويظهر لي أنه بإمكانك استغلال نهاية الأسبوع الطويلة هذه لتكمِّلَ عمل شكري.

- عمل ماذا؟

- أيّ عمل سيكون؟ قيامك بطبع كتاب شكري.

- لقد نسيْتُ بالمرّة.

كانت أليسيا قد خطر ببالها أن يقوم ثيربانتيس بتكريم شكري، بنشر كتاب يضمُّ قصصه التي لم يسبق له نشرها. لقد تمكّنتُ من جعله يبحث في أدراج بيته حتّى عثر في بطونها المُعبّرة، على نصف درّينة من المخطوطات. صديقتنا مليكة مبارك كانت قد ترجمتها من العربية إلى الإسبانية، وبقي أمامي أن أُجريَ عليها بعض اللمسات الأخيرة.

- معكِ حقٌّ دائماً، أيتها الرئيسة. سأقوم بذلك نهاية هذا الأسبوع، بكلّ تأكيد. نظرتُ إليّ بتشكُّكِ.

فكرة أنني قد أكون أنا المُستهدف من طرف الشخص الذي ذبح بابلو مورينو، أتنني ساعةً نحو فندق ريتز. ماذا لو اشتبه على المجرم أستاذ ثيربانتييس؟ بدأت تلك الفكرة تنبض في رأسي بإيقاعية وإلحاح كصوت "دريوكة"، تلك الطبلية المغربية المصنوعة من الخزف. في النهاية، بابلو مورينو وأنا في سنٍّ واحدة، ونشتغل في المكان نفسه، وكلُّ واحد منّا يعيش وحده. ليس معنى ذلك أننا كنّا كالتوائم، ولكن، من يدري؟ قد نكون في عينيّ قاتل مأجور وغبي شبيهين بقطرتي ماء. حتّى نحن الأوروبيين يصعب علينا التمييز ما بين اليابانيين والصينيين.

حاولتُ إسكات الدريوكة بالعودة إلى التعليل المنطقي البوليسي. افترض - قلتُ مع نفسي - أن أحداً ما، أرسل إليك قاتلاً مأجوراً انتقاماً من قاتل أحمد السَّبْتِيّ! افترض أن ذلك القاتل المأجور انتظر قُبالة ثيربانتييس، وأنه تعقَّب - خطأً - بابلو مورينو، وأمام البَوَّابة، انتظر غروب الشمس، وفي الساعة التي تكون فيها البرامج التلفزيونية الليلية في ذروتها، طرَّق بابه، ودون أن يَنبِس بكلمة، ذبحه كما يُذبح الخروف. افترض أنه مضى مسروراً مُعتقداً أنه أنجز مهمَّته.

هذه الفرضية، يا سيبولبيدا، ليست مُستبعدة. لنُحلِّل الآن نقط ضعفها. أوَّلاً، لماذا تفترض في الشخص الذي كلَّف أحمد السَّبْتِيّ بتتبُّع خطواتك، أن يربط بين شخصك وبين مقتله؟ ريبالدو - بحسب ظنِّه - لم

يترك أثراً، ولم يره أحد وهو يصارع الجهادي في بني مَكَادَة. ما يؤكّد هذا هو عدم إزعاج الشرطة لريبالدو خلال الأيام التي تلت وقوع الحادثة.

استمرّ إذن! أحمد السبّتيّ بسوابقه الاجرامية وعِشْرَاتِهِ الأخيرة مع مجانين الله، بوسع أيّ كان أن يقوم بتصفيته بطريقة عاجلة. لا بدّ أن يكون له أعداء، لذلك فليس هناك مُبرّرات لا تُناقش، تجعل من هؤلاء الذين كلّفوه بتعقُّبك - كانوا مَنْ كانوا! - مُتيقِّنين بأن لك علاقةً ما بموته. أضِف إلى ذلك، أن نَبْرَة الرسالة القصيرة ليوم الاثنين التي كانت تنصحك بقراءة "أخبار السَّمال" لم تكن معادية في مخاطبتك. هذا كلُّه قمتَ بتحليله، واستنتاجاتك الأولى ما تزال قائمة.

باختصار، فرضية الجريمة العاطفية التي رسمها المفوِّض بوعلّي، كانت الأقرب إلى التصديق. لم يكن شكري في ريتز؛ لقد ترك كلمة مفادها أن مَنْ يسأل عنه يمكن أن يجده في نيغريسكو Negresco.

عدَلْتُ خطواتي باتّجاه مفترق شارع مكسيكو الذي كان يُسمّى في الماضي بشارع بينياس Viñas. كان نيغريسكو - بزخرفته الأرت ديكو art déco ولوحاته المُجسّدة لمشاهد أزقة وحوار مغربية، مع موسيقى المامبو وأجود المشروبات الكحولية الموجودة في السوق الدولية - الحان الطنجيّ الأكثر شَبْهاً بحانات نيويورك، في خطّ استواء القرن العشرين.

كان شكري يذهب من حين لآخر إلى هناك ليشرب كأس الخامسة مساءً. تلك اللحظة من اليوم التي يتردّد فيها ذئاب وول ستريت Wall Street على حانات آخر طراز، ويرخون ربطات أعناقهم، ويَطوون أكمّام قمصانهم، ويشربون أنخاب الملايين التي ربحوها تَوّاً من خلال بيع فقايع لمذخّرين مُغفّلين وجشعين. بطقس كهذا، كانوا يُنْهون يوماً من العمل، ويُعلنون بداية حفلهم الماجن.

قبل ثلاثة عقود، كان من عادة جان جنيه في المواسم التي يقضيها في طَنْجَة، أن يرافق شكري إلى نيغريسكو. كان الكاتب الفرنسي يُسمَّى طَنْجَة "وكر الخَوْنَة" *repaire de traître* لكن هذا الوصف - على لسانه، وفي قلمه - كان يعادل مَذْحَاً.

كانت عاصمة البوغاز تأوي كلَّ هُلوسات صاحب كتاب "يوميات لص": الخيانة، السجن، الاحتيال، المِثْلِيَّة، الدعارة، الجريمة، والأبْروتِيكية. وكان شكري وجنيه قد ارتبطا بعلاقة جيِّدة، وتقاسما كُؤوساً وأحاديث أدبية، لكن، مرَّت على وفاة الفرنسي ستّ عشرة سنة، وما يزال قبره بالمَقْبَرَة الإسبانية بالعرائش - كما لو كان وَلِيّاً صالحاً - مَحَطّاً تبجيل من قِبَل بعض مُسلمِي المنطقة.

كان شكري - أحد الناجين من العصر الذهبي - الزبون الوحيد الذي يستند بكوعه على منصّة نيغريسكو المَقوَّسة.

كان المكان يفوح برائحة العفونة والتبغ، تلك الرائحة التي تعبق بها العديد من نوادي القمار بطَنْجَة، والتي ولَّت ظَهْرُها لشبابها البعيد. وإن كان المكانُ مُضَاءً على نحو حزين، فقد حدستُ أن يكون ملفوفاً بالغبار والزغب، ويستصرخ طالباً عدم التباطؤ في إغلاق أبوابه، لفتح صالون شاي أو محلّ بيتزا أو مُثَلَّجات أو أيّ مشروع من هذه المشاريع، التي لا تُسبِّب طفحاً جِلْدِيّاً وسط جموع مُسلمِي المدينة الوَرَعِيْنَ.

- أين كنتَ، يا رجل، في هذه الأيام الأخيرة؟! قال شكري مُتَعَجِّباً، حين رَأْنِي.

- لقد كنتُ مشوّشاً كثيراً، يا أخي! وأخاف أن تستمرَّ معي هذه الحالة. كان أمام شكري كأس مستطيل وسطه سائل كَهْرْمَانِيّ، يبدو أنه ويسكي.

سألتُهُ:

- هل تغدّيتَ؟

- نعم، منذ لحظة، أكلتُ شيئاً في ريتز. وأنتَ، هل ما تزال صائماً؟

- كأننا في رمضان، لم أكل شيئاً يُذكر، ولا أدري إن كنتُ أستطيع ابتلاع شيء؟

- ماذا يحدث، يا رجل؟

- مشكلة عويصة أخرى، يا أخي. لن تُصدّق ذلك، لقد قتلوا زميلاً لي في ثيربانتييس.

- يا للويل، يا سيبوليدا! طُنْجَة كانت مكاناً آمناً، لغاية مجيئك أنتَ وكأنك آفةُ جراد.

قبلتُ كلامه دون أن أتفوّه بكلمة، وطلبتُ من النادل زجاجة فلاك Flag وسندويشاً بالخضار مع بيضة مسلوقة ومفرومة. وفي أثناء تقديم المطلوب، رحّتُ ألخّص لشكري مُستجذّات اليوم: اكتشاف جثّة بابلو مورينو، وكيف ذهبنا أنا وأليسيا للتعرّف عليها، وشكوك المفوّض بوعلي بصدد أسباب الجريمة، وظهور العسكري أرسينيو نوغيرا على مسرح الأحداث. ولم أقل له شيئاً بعدُ عن موت الجهادي.

راح يفكّر مُداعباً أطراف شاربه بسبّابة يده اليسرى وإبهامها.

- أكره رجال الشرطة. ولكنّ، من المحتمل أن يكون هذا المفوّض على صواب. هل تعرف إن كان الميتُ مثلياً؟

احتسى شكري جرعة طويلة من مشروبه الذي انبعثت منه رائحة الويسكي مجدّداً.

- حَتَّى الْآنَ لَا أَعْرِفُ، وَلَا يَهْمُنِي فِي شَيْءٍ أَنْ أَعْرِفَ. مَا أَعْرِفُهُ هُوَ أَنَّهُ كَانَ يَزِيدُ عَنِّي بَسَنَةً فِي ثِيرِبَانْتِيسَ، وَأَنَّهُ كَانَ مُعْجَبًا بِأَعْمَالِ غَوَيْتِيسُولُو. لَكِنْ هَذَا الْآخِرُ لَمْ يَكُنْ إِرْثًا حَصْرِيًّا لِمِثْلِيَّ الْجِنْسِ - وَافَقَ شُكْرِي فِي صَمْتٍ، فَقَدْ كَانَتْ تَجْمَعُهُ بِغَوَيْتِيسُولُو صَدَاقَةٌ جَيِّدَةٌ - أَمَّا أَلِيسِيَا، فَقَدْ قَرَّرَتْ إِغْلَاقَ ثِيرِبَانْتِيسَ حِدَادًا، لِمَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ.

- وَبِهَذَا تَكُونُ قَدْ أَهْدَيْتَ نَهَايَةَ أُسْبُوعٍ طَوِيلَةٍ لِتَقْضِيَهَا مَعَ خَطِيئَتِكَ.
ابْتَسَمْتُ بِحُزْنٍ، قَائِلًا:

- لَمْ أَرِ الْمَوْضُوعَ عَلَى هَذَا النَحْوِ. لَكِنِّي أَخْشَى أَلَّا تَكُونَ لَيْلَى حُرَّةً حَتَّى حُدُودِ يَوْمِ السَّبْتِ. هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَوَالِدَيْهَا زِيَارَاتٌ عَائِلِيَّةٌ. أَفَكَّرْتُ فِي الْإِنْكَبَابِ عَلَى وَضْعِ اللَّمَسَاتِ الْآخِرَةِ عَلَى قِصَصِكَ. لَكِنِّي لَا أَعْرِفُ إِنْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ تَحْقِيقَ ذَلِكَ. فِي الْحَقِيقَةِ أَنَا جَدُّ مُنْشَغَلٌ بِهَذِهِ الْحَادِثَةِ. وَصَلْتُ الْبِيرَةَ وَالسَّانْدُوِيْشَ. أَخَذْتُ جُرْعَةً مِنَ الْأَوَّلَى، مِنَ الزَّجَاجَةِ نَفْسَهَا، وَقَضَمْتُ زَاوِيَةً مِنَ الثَّانِي. كَانَ شُكْرِي يَتَأَمَّلُنِي فِي صَمْتٍ. قَرَّرْتُ إِخْبَارَهُ بِمَوْتِ أَحْمَدِ السَّيْتِي، وَبِالْأَسَى الَّذِي ظَلَّ يَجْتَاحُنِي أَمَامَ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ لِذَلِكَ عِلَاقَةٌ مَّا بِمَقْتَلِ زَمِيلِي. كُنْتُ أَثِقُ بِشُكْرِي، فَقَدْ يَقْبَلُ أَنْ يُقَطَّعَ إِرْثًا قَبْلَ التَّفَكِيرِ فِي خِيَانَةِ اعْتِرَافَاتِ صَدِيقٍ.

لَمْ يُبَدِّ شُكْرِي أَدْنَى عَاطِفَةٍ تَجَاهِ الْمَصِيرَ الَّذِي لِحَقِّ الْجِهَادِيِّ. كَانَ يَزْدَرِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَغَالُونَ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُونَ قَلِيلًا أَوْ لَا يُؤْمِنُونَ إِطْلَاقًا بِالْإِنْسَانِ. أَوْلَئِكَ الدَّوْعَمَائِيُّونَ الَّذِينَ حَكَمُوا عَلَيْهِ بِالمَوْتِ بِسَبَبِ كِتَابَاتِهِ وَأَسْلُوبِ حَيَاتِهِ، لَمْ يَكُنْ يَشِيرُ أَشْمُزَارَهُ أَنْ يَذُوقُوا مِنْ دَوَائِهِمْ نَفْسَهُ الَّذِي أَعْدُوهُ. أَكْمَلَ عَلَى مَهَلٍ زَجَاجَةَ الْوَيْسَكِي، وَطَلَبَ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَشْرَعَ فِي الْكَلَامِ.

- وإذا مضينا شيئاً فشيئاً *chuiya, chuiya*. فليس لديّ مع هؤلاء الجهاديين المجانين أيّة علاقة. أريدهم خارج حياتي تماماً. وبالتالي، فلا يمكنني أن أساعدك في هذا الموضوع. ولكنني أعرف بعض الشيء عن عوالم المثليين. يمكننا التحقق ممّا إذا كان بابلو مثلياً أو كان يُعرّف له على وجه التقدير عاشق ثابت.

- وكيف سنفعل ذلك؟

- بالسؤال، يا رجل.

- أين سنسأل؟

- ردود فعلك بطيئة، يا سيبوليدا. سنسأل طبعاً في الحانات الخاصّة بالمثليين. الآن ما يزال الوقت مبكراً، لكن، يمكننا الذهاب هذه الليلة. قُضمت الزاوية الأخرى من السندويش. وجدت صعوبة في ابتلاعها، فاستعنتُ بجرعة من البيرة.

- كان جنيه رجلاً طيباً - قال شكري بحزن - لقد كان لصّاً، لكن الأدب حرّره كما حرّرتني أنا. كان هذا هو المشترك بيننا. هل تعرف أنه حتّى حين أصبح كاتباً مرموقاً، فقد استمرّ مقتنعاً بأن سرقة الأغنياء لها ما يُبرّرها؟ رُمقتهُ بدهشة.

- وما مُبرّر هذا الكلام، يا أخي؟

- تذكّرتُ جان جنيه، لأنّه ذات مرّة ذهبنا معاً لإلقاء نظرة على منزل مانولو Casa Manolo.

- منزل مانولو؟

- نعم، يا رجل، منزل مانولو، كان من أشهر دُور البغاء الخاصّة بالمثليين

في عهد طُنْجَة الدولي. كان في الحَيِّ الخاصِّ بدُورِ الدعارة، في المكان الواقع ما بين السوق الداخل، نزولاً نحو الميناء. كان المسؤول عن المبعُ يُصَفِّقُ، فيخرج لفناء الدار مُعْزِرِيَّوْنَ مَطْلِيَّةً وجوهمهم بالمساحيق، ويلبسون لباس نساء. لكنني حين ذهبتُ إلى هناك مع جنيه، كان قد قُضي أمرُ الدار. لم تكن هناك نسمة آدمية، عدا العجوز الإيطالي الذي كان يُسِيرُها. وكما لو قرأ شكري نوعاً من القلق يشوب نظرتي، أضاف:

- لا تقلق. لن أذهب بك هناك. سنزور بعض أماكن الوقت الراهن. ابتسمتُ مُوافِقا، وأخبرته بأنه عليَّ الخروج إلى الشارع للاتّصال بليلي. فمِنذ ليلة العشاء الأخيرة، رُفقة سعيد ورشيدة، لم تتبادل الحديث.

ربّما كانت ليلي على علم بتعليق الدراسة، أو ربّما لم تكن على علم بذلك. ولعلّها علمت بمقتل بابلو مورينو، أو أنها لم تعلم. الراجح أن يكون الجواب سلبياً في كِلَا الحالتَيْن، لأنها لو كانت على علم بشيء، لاتّصلت بي. في الأحوال كلّها، أحسستُني خائناً، لأنه كان عليَّ إخبارها قبل هذا الوقت بكثير.

- أهلاً!

- حَيَّتني فرحة على الجانب الآخر من الاتّصال اللاسلكي - أنا الآن خارجة للتوّ من العمل وذهابة باتّجاه ثيربانتيس. لم تكن على علم بالأخبار، الأمر الذي أراحني من وَخز الضمير.

- إذن، لا تذهبي هناك. فثيربانتيس مُغلَق إلى غاية يوم الاثنين.

- ولماذا؟

قلتُ بعد أن ابتلعتُ ريقِي:

- لقد قُتل أحد الأساتذة، والشرطة تخمّن بأن الجريمة ذات طابع

عاطفي. مسألة غيرة بين مثليين - أحسستُ بتوقُّف ليلى وكأنها بقيت دون كلمات - أنا في حالة جيِّدة، وأجلس بنيفريسكو مع شكري. تعالي هنا وأحكي لكِ عن كلِّ شيء.

- انتظرني، سأتي هناك، قالت، ولكنها قبل إنهاء المكالمة سألت:

- مَنْ كان الميت؟ هل هو صديق لك؟

- لا، لم يكن صديقاً لي. لم أحدثكِ عنه قطُّ، لأنه لم يكن يجمعنا أدنى رابط. تعالي وأضعكِ في الصورة.

سحابة من القلق كانت تُغطِّي وجه ليلى المضيء عادة، وهي تدخل الحان بعد عشرين دقيقة من مكالمتنا. حَيَّتْ شكري بحركة من رأسها، فردَّ بدوره التحية بالطريقة نفسها. وقامت بتقبيلي على خدي.

- هذا هو إذن، نيفريسكو الشهير؟ قالت بصوت رنان.

- هو هذا بالفعل!

- أجاب شكري - أهلاً وسهلاً. أجمل أيامه صارت في الخلف كثيراً.. كدتُ أقول مثل أيامي، لولا أن في الأمر بعض الظلم، ما دام ماثلاً أمامي مثل هذا الجمال!

كان العجوز اللئيم، يعرف كيف يتلاعب بعقول النساء. ابتسمت ليلى وبادرتُه:

- أرى أن ما يجمع بينك وبين صديقك سيبوليدا يتعدَّى عشق الكتب والحانات. أنت مُتملِّق مثله. كانت المرَّة الأولى التي يلتقيان فيها، لذلك بادرتُ إلى تقديمهما لبعض بصيغة رسمية.

- ليلى، هذا هو صديقي الأعزُّ شكري. هذه ليلى، يا شكري، إنها أميرتي البربرية. لقد حدثتُ كُلاً منكما عن الآخر كثيراً.

طبعْتُ ليلي قُبلة على خدِّ شكري. أسرعْتُ للبحث لها عن كرسيٍّ، وضعْتُهُ بيننا نحن الثلاثة. وضعتُ هاتفيها وحقيبة الظَّهر فوق المنصَّة، وجلستُ فوق الكرسيِّ.

- هل تعلمين بأنني هنا أيضاً، تعرَّفتُ على والدَي سيولبيدا؟ قال شكري وهو ينظر إلى ليلي.

- لا، لم أكن أعرف ذلك. سيولبيدا لم يحك لي شيئاً عن الموضوع. قالت ذلك وهي تُوجِّه لي تكشيرة عتاب، قابلتها بإيماءة اعتذار.

- كان ذلك مع بداية الستينيات. وكنتُ رأيتُهما سنوات قبل ذلك، حين قمتُ ببيع بعض السجائر لوالد سيولبيدا بباب مسرح ثيريانتيس. ولكن المكان الذي تعرَّفتُ فيه عليهما بطريقة رسمية، كان هنا.

حين دخلنا أنا وبول بولز كان والدا سيولبيدا يشربان بعض الكؤوس مع إسبان آخرين. اقترحتُ على بول الانضمام إلى تلك المجموعة، فقَبِلَ وقام بدور مدير التشريفات. دنا منَّا النادل من الجهة الأخرى للمنصَّة.

- سيِّدتي Madame؟ كان يلبس سترة قصيرة حمراء وربطة عُنق سوداء فوق قميص أبيض. كان لباسه كلُّه بالياً.

- ماء معدني Une eau minérale - أجابت ليلي - مع صحن من فضلك Plat s'il vous plaît..

- أجل، سيِّدتي، في الحال D'accord, madame. Tout de suite. استفسرتُني ليلي مُقطَّبة جبينها. فلخَّصْتُ لها بصوت خفيض وقائع اليوم. كان الحذر غير ذي معنى، لأن المكان كان خالياً من الزبائن، والنادل ابتعد باحثاً عن ماء معدني دون غاز كما طلبتُ ليلي. لكنني لم أكن أقوى على التخلص من الإحساس بالخطر. كان خطراً افتراضياً مُتوهماً

بدون ملامح. وأظنُّ أن هذا النوع من الأخطار له قدرة السيطرة عليك، أكثر من أيِّ خطر آخر، وإن كان معلوماً و يقينياً.

ظلَّت ليلي جاهلة بقصَّة الجهادي المطعون من طرف ريبالدو، ولم أقم من جانبي، بإخراجها من جهلها المريح هذا. كما لم يبدُ أنها ربطت ما بين موت بابلو مورينو ومصائب صديقي ألبرتو ماركينا، واستحسنَت تخمين المُفَوِّض بوعلي حول كون الجريمة تمَّت في إطار علاقةٍ مثليَّة.

نظرت ليلي نحوي نظرة حزينة، وقالت:

- مسكين هذا الأستاذ! رغم أنك لا تعرف عنه الكثير، فستكون حزيناً لأجله. أمر مُرعب هذا الذي حدث، يا سييولبيد!

عانقَتني لبعض الوقت بحنان، فأحسستُ بحرارتها. كان حضورها بجانبني يُشعرني بالطمأنينة.

- إذن، كنتَ على معرفة ببول بولز حين قدَّمَكَ لوالدَيَّ سيبوليدا؟
قالت ليلي وهي تتوجَّه بالكلام نحو شكري.

- بعض الشيء، ليس كثيراً. علاقتي ببول - قال شكري، وهو يحركُ
كؤوس الثلج الصغيرة لثالث زجاجة وسيكي بنيفريسكو - أصبحت وثيقة
أكثر بعدَ مغادرة معظم الأجانب تقريباً لطَنجَة، وإدخال جين للعلاج في
مَالَقَا. حينها بدأ بول يشعر أنه يشيخ ويحسُّ بالعزلة. وكُنَّا آنذاك أنا والمرابط
من أفضل أصدقائه.

بول بولز - قلتُ ليلي من باب التذكير - هو مَنْ قام بالتعريف بقصص
وروايات شكري ومحمَّد المرابط. وهو مَنْ كان يقوم بترجمتهما إلى الإنكليزية،
ويسعى لنشر أعمالهما في أوروبا والولايات المتَّحدة الأمريكية.

- نعم، ولكنه احتفظ لنفسه بمعظم الأموال - أشار شكري بمرارة - كان
عاشقاً للبَسِيطة، كما تقولون أنتم الإسبان.

- قلتُ إنكَ لَمَّا أصبحتَ علاقتُك ببولز متينة، كانت جين قد أُدخِلتْ
للعلاج في مَالَقَا. ما الذي حدث لها؟ قالت ليلي.

- كانت جين نزيلة بإحدى مصحَّات المرضى العقليَّين، التي تُديرها
بعض الراهبات. وهناك فارقت الحياة سنة 1973، في الخمسين ونيف

من عُمرها. حين كانت في أسوأ أوضاعها الصحيّة، تعرّضت لضغوط الراهبات من أجل التحوّل إلى الكاثوليكية. بول بدا له في غاية البشاعة أن يتمّ استغلال ضعف زوجته على ذلك النحو.

- جين بولز كانت يهودية غير مُمارِسة - قلتُ مُذكّراً - ولكنها كانت يهودية جدّاً من حيث ثقافتها. هي مدفونة في مَآلَقا، وقد حُفِرَت صيغة ترومان كابوتي "رأس الغاردينيا" على شاهدة قبرها.

- رأس الغاردينيا! جميل، قالت ليلي. أعشق رائحة هذه النبتة. هل تعلمون أنها أتت من الصين؟

- أنا، لا - قلتُ ناظراً نحو شكري الذي نفى، هو الآخر بإيماءة، علّمه بالموضوع.

- لعِلْمِك، أضفتُ، فليلي لديها إجازة في الصيدلة من غُرْناءة، وتعرف الكثير عن النباتات والزهور والجرعات العلاجية والمشروبات السُخْريّة.

- نعم، أنا من "رابطة كُُمّ الزهرة والأفعى الخبيثة". لكن، لا تقلقا، لن أقوم بتسميمكما. فأنتما وحدكما تتولّيان الأمر عن طريق الإكثار من المشروبات الكحولية والسجائر.

كان شكري يُدخّن إحدى سجائره، أولمبك Olympic، لكنني نجحتُ لحدود اللحظة في الإمساك عن التدخين. أمّا البيرة، فنعم، لقد كنتُ في طريقي إلى الثانية.

- ليلي، ساحرة طيّبة - قلتُ - تنصّحني أن آخذ بدل الحبوب المُنومة منقوع النبتة المدهِشة التي لا أعرف اسمها؟

- نبتة حشيشة الهرّ، يا سيبولبيدا، حشيشة الهرّ. هي الأفضل

لتساعدك على التصالح مع النوم. حتَّى ديسقوريدس Dioscórides امتدح مزاياها العلاجية.

لكننا بدأنا نبتعد عن الموضوع - استدارت ليلي نحو شكري - قائلة:

- على الرغم من أنك لم تتمكّن من التعرّف على جين، فلا شكّ أن بول حدّثك عنها كثيراً. كيف كانت؟

- الجميع يقول إنها كانت مُفعّمة بالحياة وجذّابة كطفلة، كما يقولون عنها بأنها كانت أيضاً مُتدمّرة وسريعة الوقوع في الحبّ. لم تكن قطّ سعيدة، وكانت نهايتها مضطربة. لقد كتبتُ هذا كلّهُ في كتاب لي حول هذا الثنائي صدر منذ بضع سنوات.

- اسم الكتاب "بول بولز وعزلة طُنْجَة" - قلتُ مُخبراً ليلي - وما زال لحدود الساعة لم يُترجم إلى الإسبانية.

- لم يتعاف بول قطّ من فقّده لجين - قال شكري - حين كنتُ أواظب على علاجه، كان إنساناً تعساً.

- لعلّه كان يحبّها كثيراً، قالت ليلي.

- إن كان بول قد أحبّ في حياته شخصاً مّا، فهو قد أحبّ جين، لكنّ، بطريقته. لم يكن هناك شكّ في أن جين كانت تبادله الحبّ نفسه. هل تعرفان بأن بول اعترف بأنهما تزوّجا بغاية التحرّر بصورة متبادلة من الرجال والنساء. زواج بول من جين حرّره من النساء. وزواج جين من بول حرّرها من الرجال.

- لقد تُهتُ - أكّدت ليلي حائرة، وهي تمرّر راحة كفّها اليُمْنَى على شَعْرِها المُجَعَّد.

- هل لي أن أُصدِّق ما تقولُه الآن؟

- نعم، أنتِ تسألين، ما إذا كان بول وجين مثليين؟ والجواب هو نعم، ولكنني أعتقد أن زواجهما كان أكثر من زواج مصلحة، كان زواجاً مَبْنِياً بالأحرى على علاقة أخوية. لمعتُ عينا ليلي من الفضول، وقالت:

- يا لغرابة هذا كلُّه! لعلَّ حياتهما كانت مليئةً بالمشكلات؟ أنتِ، يا شكري، الأجدر بمعرفة ذلك مباشرة.

- بخصوص بول، فهو على الأقلِّ لم يكن مُنحلاً. كان يُدبِّر مثليَّته بتقدير وتكتم، وكان يعيشها على نحو أفلاطوني.

- وجين؟

كانت على العكس، تستسلم للحُبِّ بالعطش نفسه الذي كانت تستسلم به لشراب خينبيرا. لم تُخفِ ميلها للنساء، وعشقها للإيقاع بهنَّ.

- جين - قلتُ - كانت لديها مغامرات مع مغاربة وأجانب. ومغامرتها الأطول والأشهر كانت مع "شريفة". شكري يمكن أن يحكي لنا ذلك أفضل من أيِّ كان.

- هذا أيضاً وارد في كتابي، قال شكري.

- لكن، لا شكَّ أنكِ خَمَنْتَ بأني لم أقرأ الكتاب، قالت ليلي.

- إذن سوف ألخص لكِ الحكاية. بول تعرَّف على شريفة في السوق الكبير، حيث كانت تبيع حبوب الدُّرة. قدَّمها إلى جين التي فُتِنَتْ بها، وأحضرتها إلى بيت الزوجية، باعتبارها مُدبِّرة بيتٍ وعاشقة. هناك كان يعيش أيضاً صديق بول، الرسَّام أحمد اليعقوبي. قامت شريفة بإحكام سيطرتها على جين. انتَبَهَا! لقد كانت تأخذ من مالها وتُعَنِّفها وتبترُّها عاطفياً. لكن جين كانت تُحِبُّها بجنون.

- هل كانت كثيرة الجمال؟

- لا، على العكس. كانت بشعة، وكانت جين تقول بأن الأكثر جاذبية في شريفة هو قُبْحها، وشراستها وغبأؤها. أنهى شكري كأس الويسكي، وأضاف قائلاً:

- شريفة كانت عكسكِ تماماً. أنتِ ذكية وجميلة - مَطَّتْ ليلي شَفَتَيْهَا منزعة من مداھنة شكري لها - مرَّ عليَّ نصفُ قرن، وأنا أقول بأنَّ أُمَّ سيبوليدا، كانت المرأة التي لم تشهد لها طُنْجَة مثيلاً، لكن، بدءاً من هذا المساء، سأضيف: إلى أن ظهرت ليلي!

- هيّا، يا شكري، لا تُعْذِ إلى المغازلات، واستمرَّ في الحكاية - قالت ليلي - كيف كان يعيش بول، علاقة زوجته بشريفة؟

- لم يكن أمامه من حلٍّ غيرُ تحمُّلِها، كما كان على جين أن تتحكَّم في الغيرة التي تحسُّها بسبب علاقة بول باليعقوبي. لكن بول كان يقول أيضاً بأن شريفة تصنع سِحْراً لجين، وجين نفسها تحكي أنها ذات يوم عثرت تحت مخدَّتها على قطعة قماش تلفُ خُصلات شَعْر وأظافر ودم مُتخثِّر.

- سِحْر مغربي، - قلتُ لليلي - تعويذات مكتوبة في قِطْع ورق صغيرة، أو على قشرة بيضة، أو جرعات مشروبات أو مأكولات، تُحوَّل الضحية إلى عبد مأمور. قد يكون الأمر على شكل تكهُّنات بالمستقبل بوضع قواقع في الرمل، أو تماائم ضدَّ العين الشريرة، أو علب صغيرة مَحشُوَّة بأشياء نَجِسَة، كما قام شكري بوصفها قبل قليل. أنتِ تعرفين الكثير عن هذا، يا أميرتي البربرية.

- يا لكَّ من أحمق، يا سيبوليدا! الشيء الوحيد الذي أفعله هو أنني

أقرأ ترسُّبات القهوة التركية، وهذه عادة ليست مغربية، بل أتت من الشرق الأوسط، وقد تعلَّمتُها، لِعِلْمِكَ، من زميلة سورية بالكلية.

- في هذه الحال، أسحبُ ما قلتُ. انحنيتُ وأخذتُ يدها اليمنى، وحاكيتُ حركة تقبيلها، بينما هي قَبَلَتِ البيعة أو الولاء بلباقة سلطانية.

- لم أكن أعرف قصَّة عائلة بولز - قالت وهي تنظر إلى شكري - لقد حدَّثني سيبوليدا عنها، لكن، ليس بهذه التفاصيل كلّها. شكراً لأنك فعلتَ، وأعدك بأنني سوف أقرأ كتابك.

- الشُّكر لكِ، لأنكِ أصغيتِ إليها - أجاب شكري - أظنُّ أن بول وجين سوف يدخلان التاريخ باعتبارهما من الزيجات الفنيَّة الأكثر سِحْراً في القرن العشرين. كانت جين ممثلة عظيمة، وكان بول مُتفرِّجاً عظيماً.

اقترب شكري فَرِحاً كَصَنَاجَةٍ.

- ما رأيك أن نلعب لعبةَ خبرٍ حسنٍ وخبرٍ سيِّئٍ؟

- إذا كان هذا هو الحلُّ، فلمَ لا؟ قلتُ متنهِّداً.

- الخبر السيِّئ هو أن الشرطة تجاوزتْنا. فمنذ لحظة، مرَّ من هنا مُفَوِّضُ
ذو شَعْرٍ وشَوِيزٍ أَشْيَبَيْنِ، شبيه بذلك الذي استقبلكما - كما حكيتُ
لي - في سُقَّة الميت.

كان يرافقه شرطيٌّ آخر أكثر منه شباباً. وكلاهما كانا يرتديان لباساً مَدَنِيّاً.

- لعلَّه المُفَوِّض بوعلي، أتى مُمارِساً العمل الذي من أجله يتقاضى
أُجرته. وما هو الخبر الجيِّد؟

- كان المُفَوِّض يحمل معه صورة الميت. المسؤول عن المحلِّ تعرَّفَ
على الأجنبي الموجود في الصورة. لقد قضى هنا بضع ليالٍ. انتبه،
فالشرطة قد وقَّرت لنا المعطيات. كنَّا في حان بويز Boys، ثاني الحانات
ذات الأجواء المِثْلِيَّة الموجودة بمحيط بولفار باستور، والذي قمنا بزيارته
بعد أن ودَّعنا ليلي عند بَوَّابة نيغريسكو. هي ذهبتُ لتناول العشاء في
منزلها أو في منزل أبويها، وأنا من جانبي وعدتُها أنه من الأفضل لي، بعد
تناول السمك مع شكري في الدورادو Dorado، أن أذهب للنوم في
منزلي. لن يكون بوسعي أن أشرب مُغلَّى حشيشة الهرِّ، لأنني لا أتوقَّر ولو

على ذرّة واحدة من هذه النبتة، لكن، غداً، سوف أشتري علبة من إحدى
مَحَلَّات الأعشاب.

لم أكذب على ليلي بخصوص مسألة العشاء، لكنني فعلت ذلك
بخصوص استمرار السهرة. لم أُرِدْ أن أجعلها تقلق أكثر، باعترافي لها بأنني
وشكري نُخْطَط للقيام بدور مُحَقِّقَيْن هاويَيْن في طَنْجَة الحُبِّ القاتم.

بقيت مُتَسَمِّراً أمام منصّة الحان، مع بيرتي ومُقبِلاتي المُكوّنة من قِطْع
صغيرة من الموز، في الوقت الذي انفرد فيه شكري بالمسؤول عن الحان،
وبصوت خفيض وبالدارجة، مضى مُحاولاً التحقُّق ما إذا كان هذا الأخير
يعرف شيئاً عن بابلو مورينو. كان الجواب سلبياً في المحاولة الأولى:
الوصف غير الدقيق لإسباني راشد بدون أوصاف مُميّزة، لم يكن له أيُّ
صدى لدى المُستجوب.

لا يخلو المكان من هذه النوعية - قال مجيباً - هنا يتردّد علينا أيضاً
فرنسيون وإيطاليون وإنجليز، رغم أن مجيئهم قلّ مع هجمات الحادي عشر
من سبتمبر.

سقوط البرجين التوأمين - أضاف مُشتكياً - أطلق رصاصة الرحمة على
الحياة الليلية في طَنْجَة التي ظلّت لسنوات تحتضر، كما يعرف ذلك
شكري جيّداً. لعلّها وخزة في العظم، لكن، على الأقلّ لدينا هنا في البويرُ
خطُ في لعبة البينغو. كان مقرُّ الحان قُرب ثانوية رينيو Lycée Regnault.
وكان مزخرفاً على شاكلة الحانات الإنكليزية، مع فائض من الخشب الداكن
والشمعدانات المذهّبة والمُخَمَّل السميك وزخارف الأزهار في المفروشات
والوسائد. حتّى اللوحات في الجدران كانت مشاهد لصيد الثعالب في
إنكلترا الفيكتورية.

على الطاولة الموجودة خلف ظهورنا، كان يترأس الجلسة أوروبي ستينيّ،

ذو شَعْر أحمر، وكان يَلْبَس قُفْطَانًا أخضر بُرْقُوقِيًّا بخطوط عمودية مُذهَّبة. كان يجالسه مغريان في الثلاثين من عُمرُهما، كان كلاهما يَلْبَس قمصان تي شيرت، عليها تمساح لاکوست Lacoste، وكانا يبدوان مشدودين إلى ما يقوله ذو الشَّعر الأحمر. لم تكن هناك ولو أنثى واحدة. عشرات الزبائن الآخرين كانوا أيضاً ذكوراً: فُرَادَى وأزواجاً أو في مجموعات صغيرة. كانوا يحتسون مشروباتهم في هدوء، وكانوا، تقريباً، يتهامسون.

كان هناك الكثير من الذهب في شكل أساور وساعات وأقراط. رُئْتُ أُغْنِيَّةً لمايكل جاكسون، Michael Jackson، فنهض مغربي في العشرين من عُمره، في وسامة غجر أشعار غارسيا لوركا، من على الكنبه التي كان يجلس عليها وحيداً، وبدأ في الرقص وسط الحان. كان يفعل ذلك بأناقة وشهوانية.

تفحَّصْتُ المسؤول عن حان البويز الذي انكبَّ على تنظيف بعض الكؤوس داخل حوض ماء تحت المنصَّة. كان أربعينياً يعتمر قَبَّعةً بيسبول بيضاء، تُعلن حُبَّه لنيويورك، قَبَّعةً يوجد منها الملايين فوق ظهر الكوكب. بينما كان قميصه القَرْمِزِيُّ فريداً وجذاباً.

- هل قال لك شيئاً إضافياً؟ سألتُ شكري.

- نعم، المُرَاكُشِيُّ إنسان لطيف. كان في شبابه يتغرَّل بمومس، كنتُ مُعجَباً بها كثيراً. كان اسمها ثُريَّا، وتزوَّجت شخصاً من العرائش، كان يشتغل ببلجيكا، قام باصطحابها معه هناك. قرَّر المُرَاكُشِيُّ حينئذ تغيير العَبَّة، والتخصُّص في عالم المِثْلِيِّين.

- رجل مقدَّام، سيكون مَحَطَّ إعجاب الحكومة الإسبانية. لكن، طيِّب، ماذا قال لك؟

- سأله المُفَوَّض عما إذا كان النصراني يأتي وحده أم كان برُفْقته أحدُ

مَا. أجابه المُرَاكُشِيُّ بأنه كان يأتي منفرداً، وينتظر أن يقترب منه أحد ما ليتجاذب معه أطراف الحديث؛ إلصاق الخيط كما تقولون، أنتم الإسبان. أضاف شكري وعيناه الصغيرتان تلمعان بخُبث:

- لكن، بالنسبة إليّ، فقد خَصَّنِي بشيءٍ أكثرَ شيءٍ لم يَقُلْهُ للمُفَوَّض، وهو أنه في المرّة الأخيرة، منذ أيام، دخل بمَعِيَّة شخص آخر - هنا أصبح بحورتنا، خطُّ آخر من لعبة الينغو - ولكن المُرَاكُشِيّ - وهذا يندرج في باب الأخبار السيئة - لا يعرف الشخص المرافق للنصراني. كانت المرّة الأولى التي يراه فيها. مغربيٌّ في الثلاثين ونيف من عُمره، يتحدث بلكنة بيزاوية، ولديه لحية صغيرة وشبيهة بلحية جَدِّي.

- ليس الأمر سيئاً، - قلتُ - هذا يختصر قائمة المشتبه بهم إلى بضع مئات من الأشخاص فحسب.

- لا تُصدِّق، يا هذا. طُنْجَة يَقُطُن بها ثمانمائة ألف ساكن، لكن هذا الشخص المُلْتَحِي ليس من الوجوه المألوفة هنا.

- وماذا عن المعلومة التي مدَّ بها المُرَاكُشِيُّ المُفَوَّضَ بوعلي، ما تراه فاعلاً بها؟

- ماذا سيفعل؟ سوف يواصل الجولة. ليلة الخميس في طُنْجَة لم تكن شبيهة على الإطلاق بليلة مَدْرِيْد. المدينة الصاخبة والمزدحمة بالراجلين والسيَّارات في يوم مُشْمِس، أفسحت المكان لما يشبه حالة منع التجول. كان عدد القطط التي تحوم في شوارع وسط المدينة حول أكياس القمامة أكبر من عدد العابرين، وكانت حركة السير خفيفة. هنا وهناك، كانت لوحة إشهار مضاءة تُعلن عن وجود مَلْهَى ليلي مفتوح. من الصعب تخيُّل أن طُنْجَة كانت إحدى العواصم العالمية للخطيئة. كان شكري أكبر منِّي عُمرًا، باثْنَيْنِ وعشرين عاماً. لكن، فاقني في تلك الليلة، من حيث الطاقة

والقتالية. فكون أن لدينا مهمة تُبرّر ترحالنا الساهر، أعاد من جديد شحن بطّاريات الأسد العجوز. أتذكّر أنه كتب في إحدى أعماله: " أتمسك بالأحلام، لأنها خيط أريادنا Ariadna، في رحلة ضياعي عبر المدينة. وهي التي تحميني من أمطار اليأس ". عند الحانة الثالثة التي قمنا بزيارتها، وحين أخبر المسؤول عنها شكري بأن الشرطة قد مرّت، وأنه أخبرهم بحقيقة كونه لم يتعرّف على صورة الأجنبي، اقترحتُ على شكري إقفال تحريّاتنا. لقد تحقّقنا - لخصتُ قائلاً - من أن المفوّض بوعلي يَمْتَلِك حاسّة شمّ رائعة: بابلو مورينو كان مثليّاً. وأنا مُطمئنّ لكون موته لا علاقة لها بموت الجهادي. لنَدع الشرطة، يا أخي، تُكْمَل عملها. فهم أوّلاً وأخيراً، يتقاضون أجرتهم من أجل ذلك. لنُنهي هذه الكأس، ونذهب للنوم، فأنا ميت من التعب.

- لا، على الإطلاق. ما زال أماننا مكان آخر، يتعيّن الذهاب إليه.

لُنْتَمِّم هذه الكأس، ولنذهب إلى الآتيو Anteo؛ ملهى شاطئي يتردّد عليه أشخاص من الأصناف كلّهم، متغايرو الجنس، مثليّون، مغاربة وأجانب، مقيمون وسائحون. مالك المحلّ فرنسي صديق لي. وهو مثليّ مُعجَب بكتاب الخبز الحافي، ويستضيفني دائماً كلّما ذهبتُ هناك. اسمه باتريك Patrick.

النّبذة التي كان يتحدّث بها شكري، جعلت أيّ مقاومة غير ذات جدوى. هبطنا من منطقة البولفار حتّى الرصيف الذي يحدّ الشاطئ. جزؤه الغربي الأقرب إلى الميناء والمدينة القديمة لا زال يُسمّى شارع إسبانيا. أمّا الجزء الشرقي الذي يمتدّ نحو رأس مالاباطا، والذي بدأت تنمو فيه مطاعم وملاهي وفنادق جديدة، فقد أُعيدت تسميته باسم شارع محمّد السادس، الملك الجديد. كان هناك شيء من الحركة. بعض الدراجّات النارية والسيّارات كانت متوقّفة أمام بعض المحلّات أو تبتعد عنها.

ما بين السيَّارات البرَّاقة باهظة الثمن وذات الطراز الألماني والإنكليزي والياباني، كانت تكثر سيَّارات الدَّفْع الرباعي التي كانت تُقَلُّ فتياناً وفتيات مُتأنِّقين ومُرتدين آخر ألْبسة الموضة الأوروبية. هم أبناء البورجوازية المحليَّة أو أغنياء الحشيش الجدد. الفتيات كنَّ يلبَسْنَ سترات ضيّقة شبيهة بأقمصة التكيل وأحذية بكعوب شديدة العُلُوّ. كان الآتيو يعلن عن نفسه بواسطة أنايب النيون. كان يحمل اسم العملاق الأسطوري الذي يَنسَبُ له التقليدُ اليونانيُّ - الرومانيُّ تأسيسَ طُنْجَة. غريمهُ هِرْقُلُ Hércules أتى لغاية هذا المكان، مُنْطَلِقاً من اليونان البعيدة، ليقوم بِخَنَقِهِ، ويفصل - فيما بعد ذلك - بِقوَّته الخارقة القارَّيْنِ الأفريقية والأوروبية. وبهذه الطريقة فتح المضيقَ، ووضع بأعمدته علاماتِ نهاية العصور القديمة. وبينما كنَّا في طريقنا نحو المدخل، سألني شكري:

- ألم أحكِ لك ذات مرَّة، أنه في ليلةٍ مَّا، في زقاق من هذه الأزقة، سُرِقَتْ مِنِّي ساعتِي عن طريق تهديدي بطعنة سَكِّين؟

- لا، لم تحكِ لي عن ذلك، ويُفاجئني أن تتركهم يفعلون بك ذلك!
- أجل، مع القيمة التي كنتُ أوليها لتلك الساعة. كان قد أهدانيها للتوُّ شاعر مغربي.

- ألم تدافع عن نفسك؟ ألم تُخرج سَكِّينك؟

- كنتُ على وشك أن أفعل - ولمس الجيب الأيسر لسترة الخيش، حيث كان يحتفظ بالسلاح الأبيض - لكنني فكَّرتُ على نحو أفضل. قلتُ مع نفسي بأن الليل هو ليل الفقراء، وأن الفقراء لا يعرفون معنى الهدايا ومعنى الشعراء.

أربكني للحظة الدخان والصخب والزحام الموجود بالأتيو. ثم ما لبثتُ أن عدتُ لطبيعتي بعد سماع الأغنية التي كانت تصدح في الملهى: "سأعطي كل ما أملك من أجل أن أقبل الفتاة النحيلة، كل ما أملك من أجل أن أقبلها ولو قبلة واحدة". شعرتُ بقرصة حنين. لقد رقصتُ على إيقاع أغنية مجموعة "شراب العصا" Jarabe de Palo مع كلارا نهايات القرن العشرين، في ملهى الباشا Pachá بمَدْرِيد. حينها كنتُ بصدد محاولة إنقاذ علاقتنا الزوجية، بعد اكتشافني أنها كانت تقيم علاقة ساخنة مع شخص في مكتبها. ولكن، ولغرابة الأمر، لم تكن تلك الذكرى هي ما دفعني للشعور بالشجن. فـ "خِلاسيّة هافانا الرائعة، التي فوق وجهها شمسان ناطقتان دون كلام" كما تقول الأغنية، لم تكن إلّا ليلي، المرأة التي كنتُ أشتاق إليها في تلك اللحظة. ليلي التي لم تكن خِلاسيّة، أو ربّما نعم، ولا كوبيّة والتي كنتُ قد تركتها منذ ساعات قليلة.

الحنين شعور غريب، يمكن أن يكون موضوع شيء لم تَعِشه. ألبيرتو غوميس فون Alberto Gómez Font الصحافي الذي كان يأتي هنا كثيراً، أكّد أن الحنين كان يشدّه كثيراً إلى طَنْجَة الدولية التي لم يَعِشَ زمنها، لأسباب تتعلّق بسنّه. ذات مرّة صادفَتْهُ بإحدى اللقاءات في ثيربانتييس، واتّفقنا على أن سبب ذلك يرجع إلى كون هذه المدينة - وعلى غرار كامِلوت Camelot والدُّورادو Dorado - تُجسّد أحد الأحلام النموذجية للبشرية. وفي حالته تمثّل طَنْجَة مُلتقى طُرُق حيث يمكن للجميع

أن يتعايش في حُرِّيَّة، وبدون إزعاج، عثرنا على طاولة فارغة، فأوينا إليها. وقبل أن يأتي النادل اختفى شكري باحثاً عن حوض استحمام، بينما رحتُ أتأمل مشهد الراقصين على الحلبة الدائرية المضاءة بالأضواء المتسارعة الدوران. الآن ترنُّ في المسامع الأغنيَّة التي كانت ليلي مُعجبة بها "أنا بحبك أكثر" للمصري عمرو دياب، واليونانية أنجيلا ديميترو Angela Dimitrou. كلُّ من المُغنيِّ والمُغنيَّة كانا يُعلنان بالتناوب حُبَّهما بلغة عربية: الحُبُّ الأصيل، الذي لا علاقة له لا بالشرعية ولا بالمصلحة، ولا يعرف معنى الطبقات والحدود والديانات. على إيقاع هذه الأغنيَّة كانت العديدُ من الفتيات الطنَّجِيَّات يتلوَّينَ في حلبة الرقص كأفاعٍ مخمورة.

لم يكن مُستغرباً، أن يكون الإسلاميون ضدَّ ما نُسمِّيه نحن في الغرب رقصة البطن. من المغرب حتَّى الهند، كان رقص الإلهة الأمِّ، أstarté يُقدَّس تفوُّق الجسد الأثثوي الذي يُجسِّد الجمال والملاحة والإغواء، لكن إله ابراهيم التوحيد الذي كان اليهود والنصارى والمسلمون يشتركون في عبادته، والذي كان شديد الكره للنساء، فرض نفسه بعد أن هزم أساستري، واستمرَّ يَمَقَّتُ بعد آلاف السنين أن تَستعرضَ بناته بابتهاج سلطتهنَّ البدائية، سواء عن طريق هذا الرقص الإيروتيكي المُقدَّس أو أيَّ طُرُق أخرى.

تأخَّرَ شكري بعض الوقت قبل أن يعود. وحينما عاد أخبرني أنه تحدَّث مع نادل، وسأله عن باتريك مالك المحلِّ. كان باتريك داخل مكتبه مع بعض الأصدقاء، لكن النادل سيتولَّى إخباره بأننا نسعى للقاءه.

تقدَّم نادل آخر من طاولتنا ليأخذ طلباتنا. استمرَّ شكري يشرب الويسكي، بينما طلبتُ أنا ماء مَعْدِنياً غازياً. كان يوماً طويلاً جدّاً، وأحسستُني وسخاً ومُنْهَكاً ومُتخماً من البيرة.

- بيرري Perrier أو والماس Oulmès؟

- والماس ستلائمني أكثر.

كنتُ أيضاً في حاجة للذهاب إلى حوض الاستحمام. تجنَّبتُ طاولة كانت تجلس بها ثلاث مغربيات في الأربعينيات من أعمارهنَّ. كنَّ يستعرضنَ تسريحات شَعْر مُجَوَّف وكثير الصباغة مع حواجب حليقة ووجوه مَطلِيَّة بالمساحيق كما لو كُنَّ دُمى من الخزف الصيني. كنَّ يلبسنَ بلوزات بحمَّالات، تكشف صدورهنَّ السخية، ويتحلَّينَ بخواتم وأساور وعقود غزيرة. كنَّ يتحدَّثنَ بابتهاج، بخليط من دارجة وفرنسية، في الوقت الذي لفت انتباههنَّ وصول زجاجة نبِذ أبيض ميدايون سوفينيون Médaillon Sauvignon. تخيلتُ أنهنَّ مُطلَّقات من الطبقة العليا، كنَّ يستمتعنَ بحريَّتهنَّ.

في مكان أبعد، كانت طاولة أخرى يجتمع حولها أربع ذكور شباب، لا شكَّ أنهم كانوا يتَّخذون شخصية ساندوكان Sandokán مرجعاً جمالياً لهم. كانت وجوههم سمراء، وعيونهم داكنة ومُشعَّة، أمَّا شعورهم، فطويلة ومشدودة بضفائر، ولِحَاهم كَثَّة ومُجعَّدة. لم تكن الألبسة الغالية والمجارية للموضة ولا الذهب الكثير الذي يتحلُّون به بقادر على إخفاء أصولهم البدوية. لا شكَّ أنهم ريفيون مُغتَنون بزراعة الحشيش والاتِّجار فيه. لم يكونوا يشربون كحولاً، بل كانت قناني كوكاكولا وفانتا هي التي تملأ مائدتهم إلى جانب حُرمة من الهواتف النقالَة.

قبل الوصول إلى حوض الاستحمام، كان عليَّ أن أفتح لي طريقاً بين سادة أوروپيَّين ذوي أصداغ فضيَّة، وشباب محلِّيَّين ذوي وسامة وعضلات مفتولة في الصالات الرياضية. يحملون بين أيديهم زجاجات بيرة كورونا Corona، وفتيات شعورهنَّ مُجعَّدة ونظراتهنَّ حارقة وقهقهاتهنَّ كبيرة، إلى جانب نسخ أخرى من كائنات هذه المدينة الأنيقة.

حين عدتُ بصُحبة شكري، لم يتأخَّر باتريك في الظهور. كان يلبَس

حذاء رياضياً أبيض خاصاً بكرة المضرب وبنطال جينز أسود ماركة أرمانى Armani مع قميص رمادي، وكوفية بيضاء وحمراء فلسطينية مُعلّقة برشاقة حول عنقه. لا بدّ أن عُمره لا يتجاوز الخمسين ونيّف، يبدو أنه عاشها في أفضل حال.

- يا للسُرور أن أراك من جديد! *Quel plaisir de te revoir!* حيّا باتريك شكري. فنهض هذا الأخير، وتعانق الاثنان. نهضتُ بدوري، فقام شكري بتقديمنا لبعض.

- السيد سيبولبيدا، أستاذ بشيرياتيس *Monsieur Sepúlveda est professeur au Cervantes* — قال - لذلك أتينا لرؤيتك... هل أنت على اطلاع بما جرى؟ *C'est pour ça qu'on est venu te voir...* ? *Est-ce que tu es au courant*

- بالطبع! جريمة قتل أحد الأساتذة، لقد سمعتُ الخبر هذا المساء، عبر أمواج إذاعة ميدي1. كان أمراً فظيماً! — *Mais bien sûr!* *L'assassinat d'un professeur... J'ai entendu la nouvelle* *ce soir sur Medi 1... C'est affreux!* دعانا باتريك للجلوس بحركة من يده، وجلس هو الآخر. وصل النادل بالمشروبات، وسأل رئيسه إن كان يريد شيئاً، فأجاب هذا الأخير بالنفي. لن أقدر على البقاء معكم لوقت أطول، ينتظرني بعض الأصدقاء الذين أتوا اليوم من ليون Lyon - قال باتريك مُستمرّاً في الحديث معنا بالفرنسية - لكنني جدُّ مُندهش من حدث مقتل زميلك - أضاف مُتّجهاً نحوي -.

- هل كنتَ تعرفه؟ سألتُ.

نظر باتريك إلى شكري الذي طمأنه بإشارة من رأسه بأنني موضع ثقة.
- نعم، بابلو كان يتردّد أحياناً على الأتتيو. كما كنتُ أراه خارج هذا

المكان، إمّا في محاضرة أو في افتتاح مَعْرُض أو في حفلة من الحفلات. كان رجلاً جيّداً، واسع الثقافة، ولطيفاً جداً.

- وهل مرّت الشرطة من هنا؟ سأل شكري.

- لا، ولكن، ما الداعي لمرور الشرطة؟

- هناك مُفَوّض اسمه بو علي يُشرف على التحقيق. سيولبيدا تعرّف عليه هذا الصباح. وهو يشكّ في أن الجريمة يمكن أن يكون سببها علاقة تربط القتل مع أحدٍ ما. وهو الآن يقوم بجولة في الحانات والملاهي بحثاً عن دلائل. لقد التقينا به مُصادفة عدّة مرّات.

لمس باتريك شحمة أُذنه اليمنى، حيث كان يضع قِرْطاً فضيّاً، وقد بدت عليه علامات الاندهاش. - في ميدي 1، لم يقولوا شيئاً من هذا. وقد خطر لي شخصياً، أن الأمر ربّما كان يتعلّق بسرقة. تأملنا باتريك بفضول، وعاد لِلْمَس شحمة أُذنه.

- وما مصلحتكما أنتما في الموضوع؟ نظر إليّ شكري تاركاً لي مسؤولية الشرح.

- سأكون معك صريحاً، يا باتريك - قلتُ - لستُ مقتنعاً بأن بو علي يسير في الطريق الصحيح. قد تكون هناك إمكانية أخرى. من الممكن أن تكون جريمة قتل بابلو مورينو مرتبطة بموضوع آخر. ولا تطلب منّي - من فضلك - أن أفصح لك عن ذلك الموضوع. تأمل باتريك مليّاً، وختم قائلاً:

- أجل، لن أطلب منك ذلك. ولكن، في هذه الحالة، كيف لي أن أكون مفيداً لكما؟

- سوف تساعدنا إن أخبرتنا إذا كان الأستاذ بابلو مورينو في المدّة الأخيرة قد أقام علاقة مُستقرّة أم لا. نحن نظنّ ذلك، لكننا لسنا مُتأكّدين.

أشار باتريك بيده للنادل الذي لم يكن يقف بعيداً. وحين اقترب الأخير، طلب منه أن يُخبر أصدقاءه الذين كانوا ينتظرونه في المكتب بأنه سوف يعود خلال دقائق، وأن يُناولهم جولة أخرى من المشروبات.

- سأحكي لكما شيئاً، لن أقوله بالطبع للشرطة - قال ذلك حين ذهب النادل - شيئاً يجب أن تُعداني بأنكما لن تُفضيا به لأحدٍ. صدّقنا على كلامه، فمضى قائلاً:

- بابلو كان بصدد الشروع في قصّة حُبٍّ مع مغربيٍّ. قصّة حُبٍّ جدّية وأصيلة، وليست من نوع العلاقات العابرة في عطلة نهاية الأسبوع. يتعلّق الأمر بمحامٍ شابٍّ مُختصٍّ في الشؤون العائلية، جدُّ واعدٍ، وجدُّ وسيمٍ.

- تعرفُ، طبعاً؟

- أي نعم، أنا الذي عرّفتهما على بعض.

تقاطعت نظراتنا أنا وشكري: الآن بحورتنا خطأ ثالثٌ من لعبة البينغو، وما نزال تتقدّم! قال باتريك بعد لحظة صمت:

- هنا بالضبط، في الأتتيو، قبل بضع أسابيع. لكن ميمي Memé غير قادر على قتل ذبابة، فكيف يمكن تخيّل أنه استطاع طعن بابلو بسكين. إنه لأمر سخيف تماماً.

أيقظتني رنة نوكيا الكريهة. تحسست المنضدة التي بجانب السرير حتى وصلت إلى الهاتف الذي وجدت ساعته تشير إلى التاسعة وثمان وثلاثين دقيقة صباحاً.

صباح جمعة - أردف عقلي، وهو يستيقظ من سباته. سكرتارية قنصل إسبانيا هي التي كانت على الخط. كان الديبلوماسي، باسمه وباسم السيد ماركينا، يود معرفة إن كنت تقبل دعوة الحضور لتناول وجبة الغداء هذا اليوم في إقامته الخاصة؟

أجبتها بصوت رخو بأن لا شيء سوف يسعدني أكثر من تلبية الدعوة. ولم أكن في هذا كاذباً، لأنني كنت حقاً راغباً رغبة شديدة في رؤية ألبرتو، الذي لم أعانقه منذ إطلاق سراحه من السجن ونقله إلى القنصلية. ألبرتو، حيث بجعبتني الكثير من الأسئلة التي أودُّ طرحها عليه، هو والقنصل وكل من خطر لي في الطريق.

أشعلت سيجارة مارلبورو دون مغادرة السرير. تذكرت أن ميمي رسمياً كان اسمه أحمد. وباتريك لم يرد أن يعطينا المعلومات كلها حوله، ولكنه التزم بأن يخبره بشكوك المفوض بوعلي، وبكوننا نحن الاثنين مهتمان بالحديث معه.

نحن الثلاثة جميعنا تصوّرنا إلى أي حد سيكون المحامي الشاب مصدوماً للفقْد المفاجئ لبابلو مورينو، وللخوف الذي قد يستولي عليه

مخافة أن تنسب له الشرطة جريمة قتله، في حال ما إذا كان بريئاً من قتله طبعاً.

غادرت السرير، ونزعت عني ملابسني الداخلية، ودخلت الحمام. استمرّ الماء البارد في تنشيط دماغي.

قلتُ مع نفسي: قهوة جيّدة، يا سيبولبيدا، وسوف تغدو إنساناً بالمعنى الكامل. وأنا أنشّف جسمي بمنشفة صغيرة للغاية، تساءلتُ عن مكان المذياع الصغير ماركة سوني Sony الذي تركه صاحب الدار، في جملة ما تركه من أثاث منزلي. بحثتُ عنه، فوجدته في دُرَج منضدة الليل، واكتشفتُ أن البطاريات كانت مُستنفَدة، جهرتُ باللعنات، فهذا لم يكن يحدثُ إلّا في الوقت الذي كنتُ فيه محتاجاً لسماع الأخبار.

قد يكون لمحطّة ميدي 1 جديدٌ ما بخصوص موت بابلو مورينو أو بخصوص الجهادي الذي طعنه ريبالدو، أو بخصوص المعركة ما بين شركات الهاتف الفرنسية والإسبانية أو أيّ موضوع آخر.

ارتديتُ ملابسني، وخرجتُ إلى شارع إنكلترا لباساً نظّارتي الشمسية التي بدونها لا يمكنني أن أطيق ضوء طُنْجَة. كان هذا الضوء حيّاً، وواضحاً ومُبهِجاً، ولم تكن قوّته تُفلح في جعل الألوان تتلاشى، بل بالعكس تجعلها أكثر سطوعاً، وتستخلص أكثر ما فيها من الجمال.

تعلّلتُ بسحبي للنظّارة الشمسية من سترتي، ووضعها ببطء فوق عينيّ، للبحث عن مؤشّرات مراقبة مُحتمَلة.

تفحّصتُ من حولي، هل هناك سيّارة مرْكُونة، بها بضْعُ أشخاص مشوّومين؟ أو ذلك الماشي المستند على عمود إنارة، وهو يتظاهر بأنه يتحدث في الهاتف؟ أو أولئك العَمّال بربّاتهم الذين يصعدون السلالم

وهم يتظاهرون بأنهم يقومون بإصلاح علبةٍ مَّا؟ كان يحدث لي هذا، في كلِّ مرَّةٍ كان يستغرقني فيها هذا التمرين الذهني، فالشارع مليء بهذه الأشياء كُلِّها، وأشياء أخرى كثيرة يمكن تفسيرها على أنها أمور مُهدِّدة.

لكنني اخترتُ أن أتنفَّس عميقاً، وأُباشِرَ سَيْرِي. في هذه المرَّة لم أصِل البولفار، بل تناولتُ فطوري في إحدى مقاهي شارع المكسيك. ومن هناك أرسلتُ لليلي رسالة قصيرة، أقول لها فيها صباح الخير، وإنني بخير، وأخبرها بأنني سوف أتعدَّى مع ألبيرتو في إقامة القنصل.

كنتُ أقضي وقتاً طويلاً وأنا أكتب الرسائل النصِّية على الهاتف. كان ذلك من عيوبي كأستاذ، لم أكن أريد اللجوء إلى اختزال الكلمات ولا ارتكاب الهفوات الإملائية والنحوية. خلال الصيف الماضي في مَدْرِيْد، ماتت ابنتي خوليا من الضحك وهي تراني أستغرق ربع ساعة لكتابة رسالة قصيرة، أوَّكِّد فيها لصاحب بيتي المستقبليَّ بأنني أوافق على سعره وشروطه.

اتَّصلتُ هاتفياً باليسيا، فأشعرني صوتُ أنثوي بالعربية أولاً، ثمَّ بالفرنسية ثانياً، بأن هاتف رئيستي لم يكن مشغولاً أو خارج التغطية. تركتُ لها رسالة صوتية، أسأَلُها إن كانت موجودة بثيربانتيس، وهل تحتاج مساعدة، وهل هناك مُستجدَّات.

سرتُ باتِّجاه ثيربانتيس، لأرى هل تمكَّن ريبالدو من معرفة شيءٍ مَّا عن الشخص الذي اشترى البطاقة الهاتفية ذات الدفع المُسبق، لكنني لم أجده. لا شكَّ أنه ذهب بعمرته الصغيرة إلى جهة أخرى حين علم بأن المراكز التربوية الإسبانية ستكون مُعلَّقة حِداداً على موت بابلو مورينو.

أسفتُ من جديد لعدم امتلاكه هاتفاً محمولاً، ولعدم معرفتي بعنوان جَدِّيهِ بحَيِّ كاساباراطا.

بدا لي الصباح غيباً، ولم يُنقِذني من الغرق في الحزن سوى رنة نوكيا.
أمر غير مُتوقَّع! أليسيا تردُّ على اتِّصالي.

- كيف الحال، يا سيبولبيدا. هل استطعتَ أن تنام؟

- بضع سُويغات، ليس كثيراً. وأنتِ؟

- أنا ميتة من النُّعاس، البارحة نِمْتُ جدُّ مُتأخِّرة. كان عليَّ أن أتكلَّم
مع الجميع. مع رؤسائنا في مَدْرِيْد، مع القنصلية هنا، مع السفارة في
الرَّباط، ومع أسرة بابلو...

- تمكَّنتِ من الاتِّصال بالأسرة؟

- أجل، هذا أوَّل ما قمتُ به بعد ما افترقنا. وجدنا في المِلَفِّ الإداري
للفقيد رَقْم هاتف أُختٍ له تعيش في أليكانتي Alicante. تحدَّثْتُ معها،
وسوف تأتي اليوم لتتولَّى أمر الجثمان، سوف يُدفن هناك.

- مرَّ عليكِ وقتٌ عصيب؟

- بالفعل، يا سيبولبيدا. تصوَّر أنه كان عليَّ أن أخبرها بموت أخيها.
لقد ظَلَّتِ الأخت مُحطَّمة. كان واضحاً أنها تُحِبُّه كثيراً.

- أووف! وهل علمتِ شيئاً من الشرطة؟

- لا شيء منذ عودتنا من شُقَّة بابلو. هذه الجبهة يتولَّى مسؤوليَّتها
رئيس الأمن أرسينيو نوغيرا، كما تعلمين.

أفترض أن يكون على اتِّصال بالمفوض بوعلي. ولكن، على أيَّة حال، لا
يبدو أن هناك مُستجدَّات مُهمَّة في التحقيق. البارحة تحدَّثْتُ مراراً مع
القنصل، ولم يُحدِّثني في الموضوع.

- وفيمَ تحدَّثتما إذن؟

- في أي شيء سوف نتحدث؟ طبعاً في التدابير والإجراءات وكثرة الأوراق، التي تجهد أنت كثيراً في تفاديها. الموت كذلك يتطلب نوعاً من البيروقراطية.

- وأفترض أن الموت سيكون مُرهقاً أكثر، إذا ما وقع في بلد أجنبي.

- طيب، حاول ألا تموت، ما دمتُ في مناصبي مديرة لثيرباتيس.

- سأبذل قصارى جهدي، أعدك، يا رئيستي.

وبعد صمتٍ دام ثوانٍ، سألتها: أين يوجد جثمان بابلو؟

- في المشرحة، يا سيولبيدا. لقد قاموا الليلة الماضية بتشريح الجثة. لم تكن أليسيا تحتاجني في شيء، ولكن، بما أنني كنتُ قريباً من ثيرباتيس، فقد طلبتُ منِّي أن أسحب من مكتبها العلبة التي وصلت منذ أسبوعين تقريباً. لن يكون الباب مغلقاً بالمفتاح، كانت من عاداتها تركه كذلك. امتثلتُ لطلبها. فالرُزمة كما تصوّرتُ أرسلتها زوجتي السابقة كلارا من مدرّيد. كانت كبيرة في حجم حقائب العجلات التي يُسمح لكُ بشحنها في الطائرة، وكانت ثقيلة للغاية. نقلتها بمعاناة شديدة إلى شارع إنكلترا القريب، وتركناها مغلقة فوق الطاولة التي أشتغل عليها وأنا في حالة امتعاض.

بقيت في البيت مُنتظراً ساعة العَداء، ومُنصرفاً لتنظيم الكتب والأوراق. وهذه من الأنشطة الإلزامية التي نحاول من خلالها - نحن البشر - الاستراحة من المِحن التي تعصف بنا. أعرف أشخاصاً يقومون للغاية نفسها بتنظيف بيوتهم، وآخرين يبدؤون في الإجابة على رسائلهم الإلكترونية العالقة، وحتى منهم مَنْ يذهب لصالة الرياضة، ليدفع بقوة جسده إلى حدودها القصوى. وصلتُ مشياً على القَدَمين إلى البوابة الخارجية للإقامة، مُتقدماً

بعشر دقائق على الموعد المحدد من قبل سكرتارية القنصل. كاميرتا فيديو ركزت عليّ، فيما تولّى جهاز هاتفى صغير ضبط هويّتي: خمنتُ، أن اسمي وصورة وجهي من ناحيتي اليمين واليسار، كانا كافيين لـ "يفتح سمسم" بوابة الدخول.

انفتحت البوّابة دون صرير، فقد كانت جيّدة التشحيم. حيّاني من الجانب الآخر أحد أفراد الشرطة الوطنية الإسبانية، رافعاً يده نحو قوّده الأيمن. كان يلبس سروال عمل وكنزة صوف ذات ياقة مغلّقة، لون الاثنتين كان في الأزرق البحري. لا شك أن الصوف كان يخبره بحلول هذا الوقت من أوقات الربيع. كان يتدلّى من حزامه مُسدّس. قال لي الرجل إنهم ينتظرونني، وإن عليّ فقط أن أسير في خطّ مستقيم حتّى أصل مدخل الإقامة. على الجانب الآخر من حديقة النخيل، سيكون هناك مَنْ سيستقبلني.

سرتُ حتّى وصلتُ دائرة المرور التي كانت ترتفع وسطها راية كبيرة حمراء وصفراء. لم أر سيّارة مرسيدس التابعة للقنصل. فوق السلالم المؤدّية للبناية السكنية كان يتولّى الحراسة نادل يرتدي سروالاً أسود وسترة بيضاء. كانت قاعة الاستقبال تزوّد برائحة القرفة والتفّاح. ولا زال التمثال البرونزي لكلاودينا Claudina منتصباً فوق الطاولة الكبرى وسط القاعة. حيّيتُ النادل، وسرتُ خلفه حتّى أوصلني عند ألبيرتو. كان ألبيرتو يجلس فوق كنبه بيضاء داخل قاعة ذات نوافذ زجاجية، تطلّ على الحديقة الخلفية. كانت رجلاه مُستندتين على زريبة رياطيّة منفوشة. لم يكن معه أحد، عدا كومهُ صحف ومجلّات إسبانية. وفوق طاولة صغيرة إضافية كان هناك كأس زجاجية مكتنزة، بداخلها سائل أحمر. لمّا رأيته وقف وألقى من يده الجريدة التي كان يقرؤها. أضاء عينيه الخضراوين الرّتوتيتيّين بريق من الفرحة، ثمّ تعانقنا.

- أنا أشرب عصير طماطم - قال - ماذا تريد أنت؟

- بيرة إسبانية، إن أمكن. أجبْتُ مُتَّجِهاً نحو النادل الذي كان قريباً مِنِّي.

- هل تريد بيرة الحمراء 1925؟

- هذا سيكون ترفاً حقيقياً!

- سوف أحضرها اللحظة، سيّد سيبوليدا؟

عاد ألبيرتو إلى الكنبه فيما جلستُ أنا على كرسي كان يسمح لي بتأمله، وجهاً لوجه. أخبرني أن القنصل سوف يأتي اللحظة، وأنه يطلب منك الاعتذار، لأنه مُشَوَّش البال كثيراً بسبب إجراءات نقل جثمان زميلك في ثيربانتييس. يا لثقل المهمّة!

- أمر بديهي، شخصياً، لستُ أقلّ منه قلَقاً وانزعاجاً.

- ليس لهذا السبب فحسب، جريمة قتل بابلو مورينو- حسب ما قيل لي - يبدو أن فيها تصفية حسابات بين مثليين. حسب ما أعلم، فأنت لا زلتَ متغاير الجنس غير قابل للاختزال.

- نعم، ما أزال كذلك. علاقتي، يا ألبيرتو، مع ليلي واعدة، وتصل الآن لسرعة مَرَكَبٍ شراعي - قلتُ ذلك وأنا أَلْعَبُ الإِسْوَرة الجِلْدِيَّة التي أهدتني إِيَّاهَا - لكنني أعترف لك أنني لا أتوصّل إلى الفصل بين جريمة قتل بابلو مورينو والمشكلات التي تتخبّط فيها أنت.

اتّكأ ألبيرتو على ظهْر الكنبه، وأغمَضَ عَيْنَيْهِ الخَضْرَاوَيْن، ثمَّ حدّقَ فيَّ بنظرة فاحصة، وقال:

- المصادفات موجودة، يا سيبوليدا، لا تكن مُصاباً بالبارانويا. كونهم يتحرّشون بي لأنَّ عَرَضنا أفضل من العرض الفرنسي، فالأمر لا علاقة له

بموضوع زميلك. هذه ليست رواية من الروايات التي تقرأها. إنه الواقع، وفي الواقع تحدث أشياء كثيرة بمحض المصادفة، هل توافقني؟

- إذا كنت أنت الذي يقول هذا! ظهر النادل من جديد حاملاً صينية فضية وضعت فيها القنينة الخضراء للحمراء 1925، وكأس زجاج واسعة ومكتنزة شبيهة بكأس أليبرتو، وصحناً صغيراً من الفاكهة الجافة، ومندبلاً صغيراً أبيض من قماش الكتان. فتح القنينة، وملأ نصف الكأس بالبيرة. وضع الكل فوق المائدة الصغيرة، وسأل:

- هل تريدون شيئاً آخر؟

- هل يمكنك أن تأتي بكأس آخر من عصير الطماطم؟ قال أليبرتو.

- بالطبع، سيد ماركينا. كرعتُ جرعةً من كأس البيرة، كانت لذيذة. مسحتُ شفتيّ بالمندبل مُنتهِياً إلى شعار المملكة الإسبانية الذي كان منقوشاً عليه.

- هل تظنُّ بأن التدخين مسموح به هنا؟ سألتُ.

- طبعاً مسموح به. انظر، هناك منقضة - مشيراً إلى منقضة برونزية منقوشة موضوعة فوق المائدة الصغيرة الإضافية.

أشعلتُ سيجارة، فراح أليبرتو يتفحصني بلامح ساخرة. أن أدخن، كان بالنسبة إليه دليلاً إضافياً على أنني قطعة من الماضي. وأني لا أندرج ضمن مَنْ فهموا بأن الصفقات التجارية بالمليارات على صعيد الكوكب كانت المرحلة العليا للتطور البشري. كنتُ مُتقبلاً الأمر، لأننا كنّا أصدقاء منذ الطفولة، ولأنني استنتجتُ بأنه سيكون من المفيد له أن يترك كوة مفتوحة على عالم، ليس هو بالضرورة عالم مجالس الإدارات.

- طيب، وما هو الجديد بالنسبة إلى موضوعك؟ قلتُ.

- هل علمتَ بالشبهة الأخرى التي تُثقلُ كاهلكَ؟

- بوضوح، لا. رسمياً لا تهمة مُوجَّهة ضديّ، منذ أن حفظت الشرطة في الأرشيف تهمة نادلة المنزلة، وتمَّ إطلاق سراحِي. كان أمراً في غاية الوضاعة. لحدود اللحظة لم يُعيدوا لي بعدُ جوازي، ويستمرُّون في منعي من مغادرة القنصلية. نحن في الوضعية نفسها. يحاولون الضغط علينا لنرفع الراية البيضاء في سباقنا نحو الرخصة الثانية للهاتف المحمول.

تذكّر أن هذه ليست دولة قانون كما هو الحال في إسبانيا. شخصياً لم أكن مُوقناً بأن إسبانيا هي فعلاً دولة قانون لا تشوبها شائبة، ولا كونها تحوَّلت إلى الأعجوبة الاقتصادية الثامنة في العالم التي يحسدها الجميع بأفواه فاغرة.

الصِّلَف الطاووسي الذي كان يرشِّحُ به أثنار وحكومته والنخب الإسبانية والكثير من مواطني بلدي العاديِّين، كان يبدو لي مبالغاً فيه.

البلد الذي كانوا يتباهون به كان يبدو لي، بالأحرى، فلاحاً ساذجاً اغتنى، لأن سلسلة دولية اشترت منه مزرعة بطاطس من أجل إقامة فندق من خمس نجوم. لكنني لن أناقش ألبيرتو في كون أن المغرب كان أقلَّ من إسبانيا من ناحية الحرِّيات والحقوق، لقد كان أمراً واقعاً. لكن شروحاته بدت لي تجريدية للغاية.

- أنا مُتَّفَق معكَ، يا ألبيرتو، المغرب ليس هو السويد، ليس أيضاً هو كوريا الشَّماليَّة. فلا بدَّ أنهم قالوا لك شيئاً، أو أعطوك سبباً يجعلهم يحتفظون بك هنا.

- لا شيء واضح. هذه هي الحقيقة. عبَّ جرعة من عصير الطماطم. كان يبدو في أحسن هيئة. كان رأسه الحليق ووجهه الجذاب يُشعَّان سُمرة

بهية كان مصدرها - بدون شك - الساعات التي كان يقضيها في مسبح القنصل المحاط بأشجار السرو، المسبح الذي يَخْمَنُ وجوده في الحديقة الخلفية التي تُطلُّ عليها القاعة. كان لا يزال بلحيته ذات الأيام المعدودة، المُشدَّبة بعناية والتي تُضفي عليه مسحة سافل مُتأنِّق. أضاف قائلاً:

- هم مُستمرون فيما قاله لك أحد رجال الشرطة، عن كوني موضوع تحقيق في قضايا تتعلَّق بالأمن الوطني. محض هُراء وضبايات. شممتُ القنصل قبل أن يدخل مجال رؤيتي. كنتُ قرأتُ ذات مرَّة، أن الديكتاتور مبارك كان يُنفق في مُستحضرات صباغة الشَّعر نصف الميزانية القومية لمصر.

وفي هذا الإطار، فممثِّل المملكة الإسبانية بطَنْجَة، كان عليه أن يُدرج ضمن مصاريفه للتمثيل الدبلوماسي حصَّة سخية من العطور والروائح والكريمات الخاصَّة بما بعد الحِلَاقَة.

- عزيزي ألبيرتو، سيّد سيبولبيدا، أعتذر عن التأخُّر! قال القنصل مُحيِّياً بودِيَّةٍ حرفية.

- لكنني أحمل معي أخباراً طيِّبة. الآن لدينا التراخيص الضرورية كُلِّها لترحيل جثَّة المأسوف عليه بابلو مورينو.

كانت هناك أربع وحدات من مستلزمات الأكل، فوق مائدة غرفة الطعام، رغم أننا كنّا ثلاثة: ألبيرتو والقنصل في ناحية، وأنا في الناحية الأخرى.

- أرسينيو نوغيرا سينضمُّ إلينا حين سيتسنّى له ذلك - أعلن الدبلوماسي - أنه بصدد إنهاء بعض الإجراءات، ثمَّ يلتحق بنا هنا مباشرة. أأنتم تعرفونه، أليس كذلك؟ أضاف وهو ينظر إليّ.

- تعرّفتُ عليه يوم أمس - أكّدتُ - لكنّ، دعونا نتخاطب بصيغة المفرد، سيكون الأمر مريحاً أكثر بالنسبة إلى الجميع، أليس كذلك؟

- رائع، فليكنّ. لقد قال لي أرسينيو بأنه التقى بك وبأليسيا بباب منزل بابلو مورينو. التعرّف على الميت كان أمراً مُزعجاً للغاية. لا تتصوّر، كم أنا أسف على مروركما بهذه التجربة القاسية.

- كان بالفعل أمراً مُزعجاً، لكنه أصبح أمراً واقعاً.

- قلتُ وقد عُنّت لي فرصة السؤال عن جوهر القضية.

- هل هناك أخبار حول التحقيقات البوليسية؟

- ليس هناك أخبار، بحسب علمي. لكن أرسينيو، لا بدّ أنه سوف يأتي بأخبار طازجة، هو ذو كفاءة مُدهِشة.

اقترب النادل ذو السترة البيضاء الذي كان في استقباله، من القنصل

في انتظار الأوامر. - سوف نبدأ إن ارتأيتُم - قال الدبلوماسي - لقد أعدُّوا لنا أشياء خفيفة: في البداية، لدينا فطائر سلطعون، ثمَّ بعد ذلك سمكة نازلي على الطريقة الباسكية، والأفضل سيأتي مع حلوى ما بعد الأكل، البارحة وصلني أوَّل توت أرضي لمنطقة أرانخويث، Aranjuez وهو ذو مظهر رائع، ويمكننا تناوله مع قشدة منزلية، تُعِدُّها بإتقان طبَّاختنا المغربية. قدَّم النادل نبیذاً أبيض من زجاجة قرأتُ على شريطها اللاصق، أنها من مزرعة عَنَب إثميرالدا Esmeralda ثمَّ انسحب بحثاً عن الطبق الأوَّل. شممتُ وذقتُ النبید، كان ذكي الرائحة وذا طعم حريري.

- هل اشتكى عزيزنا ألبيرتو من نوعية المعاملة التي نعامله بها هنا؟ استفسر القنصل مُوجَّهاً نحوي نظرةً ودِّيَّةً.

- لا، لم يفعل ذلك.

- ألبيرتو - تابع وهو ينعطف نحو المشار إليه - هو مثال لإسبانيا تلك التي بدون عُقد، والتي تُبهر العالم. قيمته الإنسانية والمهنية، هي موضع تقدير ليس في شركته فحسب، بل حتَّى لدى الحكومة، وبالطبع لدى هذا المُوظَّف المتواضع - حرَّك ألبيرتو رأسه رافضاً هذا المديح - أجل، يا ألبيرتو، اسمح لي أن أقولها لك في حضور صديقك القديم، أنتَ من هؤلاء الفاتحين الجدد الذين يعيدون لإسبانيا عَظَمَتَهَا.

- شكراً، عزيزي القنصل، لكنك تُغالي. أنا فقط عضو في فريق جيِّد، وحتَّى أعود إلى موضوع معاملتك لي، فعليَّ أن أقول بأنها معاملة رائعة. لا أدري كيف كان لي أن أواجه هذه الوضعية الكفكاوية بدونك، وبدون مساعدتك.

حاولتُ بكأس جديدة من عَنَب مزرعة إثميرالدا مكافحة حالة الخزي الغريبة التي سيطرتُ عليَّ من جرَّاء هذا النوع من تبادل الورود. أحسستُ

بنفسي مسافراً نحو لوحة بلاط الملك كارلوس الرابع، التي رسمها غويا Goya.

- وأنت كيف تمضي مع تحرّياتك الخاصة؟

- عاد القنصل ليتوجّه إليّ - الأسبوع الماضي قمتُ بإنجاز كبير حين أكّدت - عبر خطيبتك - بأن نادلة المُنْزَهِ كانت تكذب كشريرة.

قرع جرسُ تنبيهه داخل دماغي، فأنا لم أقلُ للقنصل بأنني حصلتُ على هذه المعلومة عن طريق ليلي، ولا قلتُ له بأن لديّ خطيبة مغربية. لا بدّ أنه ألبيرتو، هو الذي أبلّغهُ بذلك. نعم، بكلّ تأكيد. ألبيرتو هو الذي حكيتُ له عن مشاركة ليلي حين رأيتهُ في السجن. وهكذا عاد الجرس إلى الصمت.

- في الحقيقة، لم أقمُ بالمزيد من التحرّيات - خُيِّلَ إليّ وكأن وجهي أصبح شبيهاً بوجه جرو ضبطه صاحبه يحمل جورباً في فمه.

- لقد اتّبعْتُ نصيحتك، وأمسكتُ عن لعب دور جيمس بوند. إلى غاية اليوم الذي رافقتُ فيه أليسيا للتعرفُ على جثة بابلو مورينو، اكتفيتُ بالحديث لتلامذتي عن أنخيل باثكيس وخوان غويتيسولو. أفضل الساردين الإسبان في هذه المدينة.

لاحثُ إيماءة رضى على وجه القنصل، بينما لاحظتُ من خلال نظرات ألبيرتو نوعاً من عدم الاقتناع بشروحاتي.

أتى النادل بفطائر السلطعون، وبينما كان يقوم بتقديمها، دخل أرسينيو نوغيرا قاعة الأكل، يُرشده عامل منزلي آخر. كان ما يزال يلبس بذلة رمادية فضيّة لامعة، هي بذلة اليوم السابق ذاتها أو توأمها، وسلوكه كان أيضاً هو ذاته: فعالية عسكرية، لدرجة أنني ظننتُ أنه سيقف الوقفة الحازمة، وسيضرب الأرض بكعب حذائه، ويحيي التحية العسكرية، لكنه لم يفعل، واختار الصيغة المدنية لتحيته.

- المحترم ألبيرتو، السيّد القنصل، الأستاذ سيبولبيدا، معذرة عن التأخير، لقد أحرثني بعض مُتطلّبات عملي. كان أرسينيو ما يزال واقفاً، فأشار له القنصل بحركة من يده بأن يجلس بجانبني. فعل ذلك واضعاً المنديل فوق فخذه اليمنى.

- حدّثنا، يا أرسينيو، نحن في أجواء ثقة تامّة، قال القنصل وهو ينقضُّ على أولى فطائر السلطعون.

- أنا آتٍ من المفوّضيّة، وهناك بعض المُستجدّات - أبعدَ جسده، لكي يتمكّن النادل من خدمته، فيما شجّعه القنصل بحركة من حاجبيه ليستمرّ في الكلام - الشرطة المغربية استبعدت أن يكون لجريمة قتل بابلو مورينو علاقةٌ ما بالإرهاب الدولي.

المسح البصري الذي أُجري في بيته أكّد أنه كان مثلياً. كما تمّ التحقّق من أن الضحية كان يتردّد على بعض حانات المثليين.

- وماذا وجدوا ببيته؟ سأل ألبيرتو.

- المعتاد في مثل هذه الأحوال: صورٌ ومجلّات وكُتُب ذات محتوياتٍ مثليّة. حسب الأمر القضائي، فالفقيّد أشعل شموعاً وأعواد بخور؛ لقد كان ينتظر أحداً ما. كما كان يحتفظ في منضدة غرفة النوم ببعض الحشيش والعوازل الطيّبة.

تحدّث أرسينيو نوغيرا عن الأشياء التي عُثِرَ عليها بلهجة توحى بالخطورة القصوى، وكأن الأمر يتعلّق بحيّزة أسلحة ومُتفجّرات تُؤكّد، بما لا يدع مجالاً للنقاش، خِسة الميت. لم أستطع لجم ابتسامة مأكرة، التقفها ألبيرتو، فابتسم بدوره معي بنوع من التواطؤ.

- هل عثرتم على أحد المُشتبهين؟ قلتُ سائلاً.

التقت نظراتُ العسكري في زِيٍّ مَدَنِيٍّ مع نظرات ألبيرتو والقنصل،
قبل أن يُجيبني قائلاً:

- لديهم وصف جسدي للمجرم المُحتمَل، ولو أنهم لم يعثروا له بعدُ
على اسم أو لقب. إحدى الجارات كانت ببِوَابَةِ البناية، تعثَّرت مُصادفة
مع مغربيٍّ، كان يخرج مُستعجلاً وقت وقوع الجريمة، وتمكَّنت من رؤيته
بشكل جيّد.

قبل أن يُقدِّم لي النادل سمكة النازلي، سألتني إن كنتُ أرغب في تغيير
النبيد. اقترح نبيداً مَلِكِيّاً، ماركة آسوا Real de Asúa، من مخزون 1996.
وافقتُ مسروراً. هذا النبيد الأحمر الريوخي كان ذا لون كَسْتَنَائِيٍّ، تندُّ
منه رائحة براميل خشب البلُّوط، ومذاقه كان بمذاق توت العليّق. كان
القنصل يَمْتَلِكُ مخزن نبيد رائعاً، دُفع ثمنه من قِبَل دافعي الضرائب
الإسبان.

كان موضوع طبقنا الثاني، هو المعركة من أجل رخصة الهاتف النقال.
قال ألبيرتو إن الملك محمَّد السادس لم يُعبِّر بعدُ عن موقفه بخصوص
العرض الذي يُفضِّله. وإذا كان هذا الخبر جيّداً، فإن الخبر السيِّئ هو أن
الأغلبية المَخْرَتِيَّة تميل لتفضيل الشركة الفرنسية. وهم من قدماء الحاشية
المَلَكِيَّة الذين يَمْتَلِكُون شُققاً وعشيقات ومشاريع في باريس. وهم مَنْ
كانت كلمتهم مسموعة في عهد الحسن الثاني، مضى ألبيرتو يقول -
والقنصل يتابع بشَغَف وبابتسامة خفيفة، تعليقه - لكنّ، هناك بعض
المستشارين الشباب الذين يراهنون على ترشيحنا، ويعتقدون أن على
المغرب أن يكون - بدل ميله الشديد لفرنسا - مُتَوَازِناً في علاقاته الدولية.
ويظنُّون أن إسبانيا يمكن أن تُشكِّل خياراً جيّداً.

- نحن دون شكّ الخيار الأكثر أهُمِّيَّة - أكّد القنصل - دائماً ما أُكرِّها

على مسامع المغاربة: في إسبانيا هاته، لا نتعل أحذية خيش. نحن نلعب في دوري أبطال أوروبا.

- في المراتب الأولى من دوري أبطال أوروبا - قال ألبرتو - وقد نجحنا في الاختبارات جميعها للدخول لليورو. كنتُ مُتَعَوِّداً على هذه النغمة، نغمة اندماج إسبانيا في العملة الأوروبية الموحَّدة التي تمَّ عرضها مُؤخَّراً، والتي أخذت تُوجَّجُ نشوة النصر عند الأغنياء الجدد من أبناء بلدي الذين أصبحوا مُقتنعين بأن زمن الأبقار السمينة بات سرمدياً. تناول أرسينيو نوعاً من الكلمة قائلاً:

- مشكلتنا الأساسية ما زالت هي هؤلاء الفرنسيُّن الملاعِين. فمَنْذ قرون وهم يضعون أماننا العراقيل، في المغرب وفي كلِّ مكان - لهجته كانت مطبوعة بالاستياء - لا يقبلون أن نرفع رؤوسنا.

وجَّه ألبرتو والقنصل إليه نظرات لا تعبیر فيها، فيما لم أستطع أنا تمالك نفسي، واستدرتُ نحوه قائلاً:

- ليس الأمر كما تقول، يا أرسينيو. هم يمضون لمصالحهم ونحن نمضي أيضاً لمصالحنا. إنه قانون الحياة. لكن، يجب علينا الاعتراف بأنهم في القرون الثلاثة الأخيرة كانوا دائماً في المُقدِّمة، وهذا بسبب عصر التنوير والسيطرة على سجن الباستيل.

تصلَّب وجه أرسينيو مثل يد تحوَّلت إلى قبضة، وكأنني أتيْتُ في كلامي على ذِكر الشيطان. أحسستُ به يتحامل على نفسه ليلجم جواباً غاضباً، وقد أمكنه ذلك فعلاً، بفضل انضباطه العسكريِّ دون شك.

تدخَّل القنصل لإنقاذ الموقف قائلاً: لنمضِ إلى توت أرانخويث.

عند تقاطع شارعِي مكسيكو وإنجلترا، بمسافة قليلة قبل الوصول إلى منزلي، توقَّفتُ وتراجعتُ بخطوتين، وأعطيتُ صدقة عشرة دراهم لعجوز كفيفة.

كان هناك الكثير من المتسولين في الأحياء المغربية، لدرجة أنك لا تراهم. لكن تلك المرأة المسكينة لم يكن لها ذنب في ذلك. تجاهلتُ دعواتها وشكرها، ودخلتُ بوابة البناية التي أسكنها. اجتزتُ قَيْصَرِيَّةَ مَحَلَّاتِ القفاطين التي تحتلُّ الطابق السفلي، وأخذتُ المِصْعَد. ولمَّا وصلتُ الشُّقَّةَ بحثتُ عن زجاجة روم أو ويسكي، لكنني وجدتُها كلَّها فارغة مثل خطابات زعماء الدول في أعياد الميلاد. وجدتُ بقايا "كيف" في دُرج مكتب عملي، وقمتُ بإعداد غليون.

سحبتُ من "السَّبْسِي" نَفْسًا عميقاً، وحبستُ الدخان في رثتيَّ لبعض الوقت، ثمَّ نفثتُهُ ببطء. نظرتُ حولي، لم يخلُ لي أن أقرأ أو أستمع للموسيقى أو أُتعبَ دماغي طبعاً، في تركيب أجزاء لعبة الغاز مُعَقَّدة. السيِّئ في الأمر هو أنني بعد تناول العَداء في إقامة القنصل وفي انتظار اتِّصال شكري، ليُزودني بأخبار عن باتريك، سأجد نفسي عاطلاً فيما تبقى من مساء ليلة الجُمُعَة. بعد سحب النَّفَس الثالث فقط، وجدتُ ما أُشغِل به نفسي. لقد تمكَّن القُنْب الهندي من جعل اللعبة الكبيرة الموضوعية فوق مكتب عملي، تستجديني لأفتحها بصورة نهائية. وهو ما

قمتُ به، مُستعمِلاً سَكِيناً جَلْبَتُهُ من المطبخ. ومن العلبة خرجتُ كما كان ذلك مُتَوَقَّعاً عِدَّة حافطات صفراء، كانت تحتوي على صور مُلتَقَّة وأوراق متصلِّبة. لقد قامت زوجتي السابقة كلارا بدون رحمة بإفراغ بيت شامبري Chamberí العائلي من أيِّ وثيقة تتعلَّق بشخصي، ولا تشير إلى مال أو ممتلكات. أُرِحتُ جانباً نسخة مُعتمَدة من شهادتي للإجازة في الفيلولوجيا الإسبانية، قد تصلح لي في يوم من الأيام، مَنْ يعرف؟ أُرِحتُ كَرَّاساتٍ تحتوي على النتائج الدراسية لسنواتي في الابتدائي والباكالوريا. تكفي الشهادة الجامعية، قلتُ مع نفسي. وجدتُ عدداً من صور طفولتي ومراهقتي لم أرها منذ سنوات عديدة: مناولتي الأولى في كنيسة سانتا طيريسا Santa Teresa وسانتا إيثابيل Santa Isabel، بِمَدْرِيد، نزهاتي بحديقة الريتiro Retiro، عُطلي في شواطئ مَالَقَا Málaga ورحلاتي إلى آبيلا Ávila و ثيغوبيا Segovia و طوليدو Toledo. وكلُّ هاته الأشياء التي تمثِّل ذاكرة جماعية للعديد من الإسبان المنتمين لجيلي.

كان أبي يبدو في الصور التي يظهر فيها طويل القامة، جاداً ومُتكلِّفاً، فيما كانت أُمِّي تبدو حزينة وأنيقة وفاتنة. هكذا كنتُ أذكِّرُهُما؛ زوجان - على غرار أزواج آخرين - تربطهما علاقة فاترة ورسمية. كان أبي يعاملها بلطف، وكانت هي دائماً تحتفظ إزاءه بمسافة، دون أن يشيع بينهما ذلك الحُبُّ الذي يبدو أنه كان السبب في مجيئهما إلى طَنْجَة الدولية.

أفرغتُ الطُوبِيَقَ الخزفِيَّ للسَّبْسِي، وعدتُ لملئه بالنبتة، أشعلتها واستنشقتُ. تفَحَّصْتُ لقطة فوتوغرافية بالأبيض والأسود لمناولتي الأولى أُخِذَتْ بباب الكنيسة؛ على اليسار كان أبي يرتدي قَبَّعة وبذلة أنيقة مزدوجة الصدر. وفي الوسط كانت أُمِّي تلبس قَبَّعة صغيرة في الأبيض والأسود، ومعطفاً أبيض بطاقم أزرار مضاعف، كان يبدو خفيفاً، كما كانت تلبس قُفَّازَيْن دَاكِنَيْن وقلادة ذات قِطْع بيضوية الشكل وسميكة. على اليمين،

وفي زِيِّ بَحَّار كان يقف الطفل الذي كنتُ وقتئذٍ، والذي كان يشبه قائداً
لتشيكو سولوفاكيا الشيوعية.

كنتُ مثيراً للشفقة كقطُّ مُبَلَّل، فيما كانت أُمِّي تلبس على طريقة
جاك لين كينيدي. في إحدى الصور المَدْرِنْدِيَّة، كان يظهر ألبيرتو ماركينا بِرُقَّة
أَبَوَيْه، لويس وأوخينيا، بِمَعِيَّةِ الثلاثي الذي نُشكِّلُه نحن عائلة سيبوليدا.

كنَّا أنا وألبيرتو نبتسم، وكان يبدو علينا السرور، بينما كان الكبار يجلسون
جلسة عقلاء. بحثُ عن صورة من صور سنواتي الأولى في طَنْجَة. كنتُ
أودُ مشاهدة نفسي في عربة أطفال، تجرُّني أُمِّي في ساحة فرنسا، أو في
السوق الكبير أو - لمَ لا - في السوق الداخل. كنتُ سأكون سعيداً لو
تقاسمتُ هذه الصور مع ليلي، وكأني بذلك كنتُ سأؤكِّد بصورة قطعية
انتمائي الطَنْجِيّ، وأُعزِّز بهذه الطريقة ارتباطنا العاطفي. لكنني لم أعثر
ولو على واحدة.

قلتُ مع نفسي، بأن الأمر ليس مُهمّاً إلى هذه الدرجة. سحبتُ نَفْساً
من السُّبْسِي، ومضيتُ في استكشاف العلبة. كانت هناك حافظة تحتوي
على أوراق أَبَوَيْ الرسمية، ووثائق هُوِيَّة ودفتر عائلي، وجوازات مختومة
وبطاقات صحفية وأشياء أخرى من هذا القبيل. قرَّرتُ التخلُّص من الجزء
المنتهي الصلاحية دون أدنى تردُّد، والاكتفاء بحمل الوثائق التي لا زالت
صالحة للاستعمال. تحت الحافظة، كان هناك مِلَفٌ يعلوه العَفَن، ضمَّ
رسالتين استأثرتا باهتمامي بشكل أكبر. كانت الرسالتان تحملان خواتم
بريدية إسبانية تعود لشهر سبتمبر من العام 1969. كانتا مُوجَّهَتَيْنِ لأبي
في سكنه بِمَدْرِنْد. وكانت أُمِّي هي المُرسِلة، من مَالَقَا.

قرأتُ الرسالتين اللتين كانتا مُختَصَرَتَيْن. كانت أُمِّي موجودة بِمَسْقَط
رأسها، لأن أباهَا تعرَّض لجلطة دماغية. في الرسالة الأولى كانت تُخبر أبي

بتطوّر مرضه، وتنبّهه إلى أن حالته بدت لها ميؤوساً منها، وتُخبره بأنه من المحتمل أنه سوف يكون مُضطراً للهبوط إلى مَالَقَا في الأيام القادمة.

تذكّرتُ فعلاً أن الأمر كان قد تمّ على هذا النحو. وأنا أنا وأبي سافرنا باتجاه الجنوب في سيارته التي كان يَمْتَلِكُها حينذاك - سيارَة فولسفاكن على هيئة خُنْفَسَاء - وذلك لحضور مراسيم دَفْنِ جَدِّي من جهة أُمِّي.

استرجعتُ أيضاً صورة المَقْبِرَة التي كانت تعلو تلاً يُطلُّ على البحر الأبيض المُتوسّط، وتلفحه شمس حارقة. الجمل الأخيرة من الرسالة الثانية صعقتني. كتبت أُمِّي تقول لزوجها:

عزيزي: مَالَقَا لم تتغيّر كثيراً، رغم أنهم، هنا، يعتقدون العكس، نظراً لإنشاء مجموعة من المباني الجديدة بالقرب من الشواطئ. ما تزال تبدو في عينيّ ريفية ومنكمشة. أمّا بخصوص المنزل، فلكَ أن تتصوّر كيف تسوء الأمور؛ حالة أبي تتدهور يوماً بعد يوم، وأُمِّي تبدو وكأن هموم العالم كلّها قد حطّت فوق كتِفِهَا. صرْتُ أوطُنُ نفسي على فكرة لزوم أن أبقى إلى جانبها لوقت مُعيّن. يقف الموت عند حدود قطع الأسلاك التي تربط الشخص بالحياة، ويترك للآخرين مهمّة كنس البقايا.

رغم هذا كلّهُ، فأنا لا أريد أن أُضَيّع وقتك في تأمّلات لا جدوى منها. الهدف من هذه الرسالة ليس هو أن أصف لك كيف هي مَالَقَا، ولا أن أُحدّثك عن قسوة الاستعداد لفقدان الأب أو عن واجب مؤازرة الأم. أنتَ تعرف مثلي، هذا جيّداً، وبإمكانك، بدون شكّ، التعبير عنه بمهارة أكبر، فنسج الكلمات هو جزء من حِرْفَتِكَ.

أكتب إليك، لأنه قد نما إلى علمي - وأنا غائبة - أن الفتور الذي كنتَ تعاملُ به الولد دوماً قد تحوّل إلى قسوة. هو يبدأ فترة المراهقة الصعبة، وأنتَ تعلم أنني أحاول تلقينه معنى الواجب ومعنى الاحترام. لكنّ، يصعب

أَنْ تصنع منه شخصاً راشداً وسوياً وهو لم يَلقَ منذ طفولته غير العدا
من قِبَل الرجل الآخر الذي يعيش معه بالبيت. الطفل ليس مسؤولاً عن
الإحباطات التي تعيشها، ومن المحزن أنك حوّلته إلى وعاء لضغيتك.
حين تحتقره وتسخر منه وتوبّخه بلا رحمة، فأنت تجعله مسؤولاً عن ماضٍ،
ليس له يدٌ فيه، ومن حسن حظّه أنه يجهله.

حسب فهمي، فلسنا سوى مُرشدين للأطفال الذين نُلقِي بهم إلى
العالم. وإذا كنّا سنقودهم عن طريق اللكزات والرفسات، فالأحرى أن
ندعهم يتسكّعون في الظلام. حتّى روابط الدم لا تعطينا حقّ معاملتهم
معاملة سيّئة. لكنّ، فضلاً عن هذا - ولستُ في حاجة لتذكيرك، لأنّ
الأمر مائل أمامك كلّ يوم - أنت تعلم جيّداً أنك لست أباه. سأتصل بك
عندما يحين الوقت.

أولبيدو

"أنت تعلم جيّداً أنك لست أباه!" أولبيدو كانت تُذكّر كارلوس
سيبوليدا بشيء كان يعرفه؛ أنني لم أكن ابنه، وأن أبى كان رجلاً آخر؟
نعم، يا سيبوليدا، هذا هو ما كانت أولبيدو تُذكّر به زوجها كارلوس.

سقطت الرسالة من يدي على الأرض. غليون الكيف تحوّل في يدي
إلى شيء سخيّف، طرحته جانباً، ومضيتُ أتعثّر نحو غرفة النوم، وانبطحتُ
على وجهي في السرير. بدأ العالم يدور بي كناعورة مَعرِض، يقودها شخص
مخبول. أحسستُ بألم لا يُطاق، بطعنة في القلب، لم أجد معها سبيلاً
إلى بكاء يخفّف عنيّ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

مكتبة

t.me/soramnqraa

طُنْجَة، خريف 1956

كانت السماء تُمطر فوق طُنْجَة. كانت قطرات الخريف الأولى سميكة وعنيفة كحركة اندفاع بقر الجاموس. كان المارة الأوروبيون في شارع لافايتت Lafayette يجرون للاحتماء بالبوابات والمحللات التجارية والكافيتريات. أمّا المغاربة الذين كانوا يحتمون بأغطية جلابيهم وحُيّاكهم، فقد مضوا في طريقهم، بتصميم أكبر ممّا هو معتاد.

لمحت أولبيدو المشهد من بَوَّابة البناية التي كانت تحتضن عيادة الدكتور بيردوغو Berdugo. حينها فقط انتبهت إلى أنها قد تركت المَطْرِيَّة بقاعة الانتظار. كانت حريصة على أن تحملها معها من البيت بعد أن أُنذرتها الفتاة التي تُدبّر البيت بأن تلك السُحُب الكبيرة السوداء التي أفطرت بها المدينة كانت تُنذر بمطر غزير. لكنها، وعند خروجها من عيادة الطبيب، نسيَتْ أن تأخذها من وعاء حفظ المَطْرِيَّات الموجود بقاعة الانتظار. ضحكت وهي تُفكّر بأن ما وقعت فيه من سهو، يطابق اسمها الأول. وفكّرت وهي تصعد السلالم على القَدَمَيْن بأن تبوح بهذه الدعابة للممرضة اللطيفة للسيد بيردوغو. كانت العيادة في الطابق الثاني، ولم يكن ضرورياً استعمال المِصْعَد. أحسّت بسرور عند عَتَبَة البناية، وهي تفتح من جديد المَطْرِيَّة المسترجعة.

لقد اقتنعت أخيراً بفكرة أوخينيا ماركينا بالذهاب عند طبيب نساء.

وأوخينيا نفسها هي التي أوصتها بالذهاب عند الدكتور بيردوغو، الذي كان طبيبها خلال فترة الحمل بالبيرتو وولادته. ثم إن عيادته كانت قريبة جداً من المنزل المكترى من قِبَل عائلة سيبوليدا في شارع بينياس. أضافت أوخينيا قائلة بأنها رغم كاثوليكيّتها النقية، فمن واجبها الاعتراف بأن العبريين كانوا من خيرة أطباء طَنْجَة. لقد ارتاحت أوخينيا كثيراً مع الدكتور بيردوغو. "وأنا كذلك" فكرّت أوليدو. طبيب التوليد أكّد لها للتوّ عدم ظهور أسباب تمنعها من الحمل. "أنتِ - في رأيي - سليمة كشجرة سَنَدِيَان، ومُوَهَّلَة لكي تأتي للعالم بمزيد من الأبناء لسيبوليدا، قال الطبيب السِّيفَارْدِي، مُشخّصاً حالتها بنبرة قَادِيشِيَّة أنيقة.

كيف تنقل الخبر إلى كارلوس، دون أن يحسّ أنه مُتهم بالعقم؟ كان الأمر مُعقّداً، لكن، طيّب!

سوف تجد طريقةً ما.. أو لعلّ الأفضل ألا تقول له شيئاً، إلّا إذا قام هو بإثارة الموضوع. كان يكفي بالنسبة إليها أن تعلم أن الطبيب المُختصّ لم يكتشف لديها شيئاً غير عادي. كان هذا يعطيها الكثير من الاطمئنان. لم يكن كارلوس على علمٍ حتّى بذهابها إلى طبيب نساء. فلقد طلبت من أوخينيا أن تكتُم سرّ ذهابها إلى الطبيب، فالأمر كلّهُ يثير لديها الكثير من الخجل، ويكفيها ما عانته من خجل كثير في عيادة شارع لافاييت.

سارت تحت مَطَرِيَّتِهَا اتّجاه مقهى باريس الكبير. اتّفقت على اللقاء هناك مع إيميليو ثانس دي سوتو لتناول قهوة ما بعد الظُّهر. كانا يفعلان ذلك من حين لآخر بمعرفة تامّة من كارلوس. علاقة زوجته بالصدّيق المشترك المُحبّ للسينما، لم تكن تُسبّب له أدنى شعور بالغيّرة. لقد كانت عيوب إيميليو بادية للعيان. كان إيميليو جالساً وسط المقهى، على طاولة يمكنه من خلالها إبصار مدخلها، كما كانت تَعْلُو رأسه ساعة حائطية

كبيرة من ماركة كيبنزل Kienzle الألمانية التي كان يشير قرصها إلى مَدْرِد وباريس كمصدر للتزويد بهذا النوع من الساعات، للمتجر الكائن بالطابق الأرضي لمسكن عائلة سيبوليدا.

على يمين الساعة الدائرية المذهَّبة كانت هناك لوحة خشبية تحمل رموز دائرة الأبراج zodiaco. كان إيمليو يقرأ في إحدى المَجَلَّات، وكانت لديه مَجَلَّات كثيرة موضوعة فوق الطاولة.

- انظري ما أعددتُه لك، يا عزيزتي - قال بصوت مرتفع وهو ينهض واقفاً لدى رؤيتها - هذه بعض آخر المَجَلَّات السينمائية التي وصلتني من باريس ونيويورك، حتَّى تكوني على اطلاع بآخر المُستجَدَّات.

قَبَلْتُ أولبيدو إيمليو على خَدِّه، وبحثتُ بنظراتها عن مكان تترك فيه مَطَرِيتِها. سارع النادل مُلتَمِساً أَنْ تُسَلِّمَهُ إِيَّاهَا. جلستُ وخلعتُ قُفَّازَينِها وطَوَّهتُهما ووضعتُهما فوق الطاولة إلى جانب كومة المَجَلَّات. عاد النادل وأخبرها بأنه وضع المَطَرِية في المكان المُخصَّص لها بجانب مدخل المقهى.

- هل تريد السيِّدة شيئاً آخر؟

- السيِّدة، من فضلك، تريد قهوة بالحليب الدافئ مع خبز مُحَمَّص بالزبدة الهولندية، قال إيمليو.

- تبدين مُشرِّقة رغم هذه الأمطار المُزعِجة، قال.

- لا، ليست مُزعِجة. نحن في عزِّ الخريف. وإذا لم تكن هناك أمطار، فماذا سيكون مصير هذه النباتات التي تُعجبك كثيراً؟

- معك كُلُّ الحقِّ، لكنني أُلحُّ بأنك تبدين مُشِعةً كمنتصف يوم من أيَّام أوغسطس. هل من أخبار جيِّدة؟

- نعم، شيء من هذا القبيل.

- احك لي.

- يا لك من مُحبٍّ للقليل والقال! هذا أمر شخصي، حقاً لن يهمك في شيء، ولن يفيدك في الثروة مع أصدقائك الإنجليز والأمريكيين.

- لعلّه أمر جيّد، أفترض.

- نعم، هو أمر جيّد، ولكن، هيّا، دعنا من هذا الأمر!

- لا أفكر في تركه! وإذا كنتَ تريدان أن أُعيركِ المَجَلَّات، فعليك أن تحكي لي عن الموضوع.

- يا لك من مُبتَرٍّ، يا إيميليو! سوف أقصُّ عليك الموضوع، لكن، من فضلك، اكتم السرّ! لقد عدتُ للتوّ من عند طبيب النساء، وأكّد لي أنه بإمكانني أن يكون عندي أطفال. أليس أمراً رائعاً؟

- بالفعل، هو كذلك، يا عزيزتي! *darling*، هل أخبرتِ كارلوس بالأمر؟

- لا، وليس في نيّتي فعلُ ذلك. الطبيب نصحني بأن عليه هو أيضاً، الذهاب عند طبيب. غير أنني مُتأكّدة بأنه سوف يغضب كثيراً إذا ما قلتُ له ذلك. لقد قضى أياماً وهو مُتجهّم الوجه، لا يُفصح عن شيء، لكنني أعتقد أنه خسر مالا كثيراً في مباراة للعبة البوكر. الوقت غير مناسب - حقاً - لإثارة مثل هذا الموضوع.

وافق إيميليو في صمت، بينما مضت أوليدو تقول:

- هيّا، يا إيميليو، ضعني في صورة ما سنشاهده قريباً على الشاشة الكبيرة.

- الصيف سوف يكون ساخناً - أعلن إيميليو - لن أحدثك عن الأفلام الأمريكية، لأنها تَرَدُّ في المَجَلَّات التي تشتريها. لكنّ هناك فيلمين أوروبيين

وشيكيّ العرض، لا يتعيّن علينا تفويتهما. شبكت أولبيدو يديها فوق الطاولة، ورفعت ذقنها، وحدّقت فيه، مُبرزة اهتمامها.

-أحد الفيلمين إسباني - رغم أنك لن تُصدّقي - اسمه الشارع الرئيس Calle Mayor. وقد فاز للتوّ بإحدى جوائز مهرجان فينيسيا، وكاد يحصد جائزة الأسد الذهبي.

- آه، نعم، قرأتُ مقالاً كتبه كارلوس حول هذا الفيلم. ما يحكيه جدّ مُحزن، وهو مَبْنِيٌّ على عمل مسرحي، أليس كذلك؟

نعم، مسرحية الأنسة ترييليس La señorita de Trevélez لكارلوس أرنيشيس Carlos Arniches. لكنهم يقولون إن الفيلم شيء جديد، وإنه يأتي في إطار دخول إسبانيا لمدرسة الواقعية الجديدة. وقد أداره شابُّ اسمه باردريم Bardem.

- هل لك أن تُذكرني بقصّة الفيلم؟

- تدور أحداثه في إحدى المُدن الريفية. واحدة من تلك المُدن الرمادية التي كان لنا - أنا وأنتِ - حظُّ الإفلات منها. أحسّت أولبيدو بلفحة مودّة تجاه كارلوس. فإليه يعود الفضل في أنها عاشت هنا، وتعرّفت على شخصيات جدّ مهمّة. ابتسمت وهي تُفكّر في زوجها؛ كانت لديه عيوبه، لكن مَنْ هذا الذي يتّصف بالكمال؟ حتّى الأفلام الوردية لا تُقدّم شخصيات مُتّصفة بالكمال. فكّرتُ في ذلك وهي تلمس بأصبعها خاتم زواجها الذهبي.

- في تلك المدينة - مضى إيميليو يقول - كانت تعيش امرأة من أولئك النساء المُتقدّمات في السنّ، هل تعرفين ما أقصد؟ if you know what I mean

- تقصد امرأة عانس؟

- تماماً! *Voilà!*

- ثمَّ ماذا؟

- كان يعيش هناك أيضاً بعض أبناء السادة، الذين أحبُّوا أن يمزحوا معها مزحة ثقيلة، متظاهرين بأن أحدهم قد أغرم بها.

- لا تستمرّ؛ هذا مُحزِن جداً.

- على شاكلة إسبانيا، يا عزيزتي، لهذا يُسمونها واقعية جديدة.

- لكن، يا إيميليو، أنا كنتُ أعتقد بأنك تعتبر إسبانيا سوربالية.

- هذا أمر آخر. ما أقوله هو أن إسبانيا يمكنها أن تكون سوربالية حين تحتك مع فرنسا وتهذب. وفي هذا السياق يأتي بونويل Buñuel وميرو Miró مثلاً. لكن، إذا تُركت وحيدة، فهي بالكاد تصل إلى بشاعة بايي إنكلان Valle-Inclán.. لا يمكنكِ تصوُّر كيف كان دخول عساكر فرانكو إلى طَنْجَة في يونيو 1940.

لقد استغلَّ فرانكو انشغال هِتْلَر باحتلال باريس، ليقوم في اليوم نفسه بغزونا والقضاء على القانون الدولي، وإدماجنا في نظام الحماية الإسبانية لتَطَوُّان. لقد كان تسيير موكب الكولونيل يوستي Yuste لقوَّات المشاة والفرسان الريفِيِّين عبر ساحة إسبانيا وبولفار باستور وشارع الإستاتوتو والسوق الكبير مسرحية غنائية كبيرة.

- لحسن الحظَّ أن هِتْلَر انتهى منهزماً.

- صحيح، لحسن الحظَّ. ففرانكو كان عليه الرحيل في 1945. لكن أفراد قوَّاته هذه المرَّة لم يقوموا بأيِّ استعراض، بل هربوا على رؤوس أصابعهم.

صَدَّقْتُ أولبيدو على كلام إيمليو وهي تُصَفِّقُ تصفيقات صامتة.

- إذن علينا بمشاهدة فيلم الشارع الرئيس، وسوف تقوم بإخباري حين يأتي موعد عرضه بطَنْجَة؟ هل يمكننا الذهاب معاً؟ أعرف أن أوخينيا ماركينا لن يهتمها هذا الفيلم.

- أعدكِ بذلك.

صمتا، بينما كان النادل يضع القهوة بالحليب مع الخبز المُحمَّص المدهون بالزبدة الهولندية. احتست أولبيدو جرعة من المشروب، وقامت بقطع زاوية الخبز المُحمَّص بواسطة الشوكة والسكين، ثمَّ حملتهُ إلى فمها، وقامت بمضغه ببطء، ثمَّ مسحت فمها بالمنديل.

- تحدَّثتَ عن فيلمين أوروبيين، ما هو الفيلم الثاني؟

- الفيلم الثاني هو مثل الديناميت. عنوانه وخلق الله المرأة *Et Dieu créa la femme* وهو من إخراج روجي فاديم Roger Vadim، أحد المبتدئين. لم يُعرض بعدُ في فرنسا وقد أثار فضيحة من العيار الثقيل.

- أيضاً قرأتُ عنه شيئاً. أظنُّ في باري ماتش *Paris Match*، تمثِّل فيه ممثلةٌ شقراء شابة، طراز مارلين مونرو Marilyn Monroe على الطريقة الفرنسية.

- تماماً، اسمها بريجيت باردو Brigitte Bardot

- شاهدتُ صورها، دائماً تلبس ثياباً خفيفة.

- في هذا الفيلم تكاد تظهر عارية. تقوم بدور فتاة من سان تروبيز Saint-Tropez، يُغرَم بها ثلاثة رجال في الوقت نفسه. وهي، ماذا أقول؟ غير مُتحرِّجة تماماً، وتُشجِّعهم على ذلك، تصوِّري!

- تماماً، عكس المرأة العانس في الفيلم الإسباني، كما أفترض.

- عكسها تماماً. فلا تزال هناك جبال من البيرينييه Pirineos تعلو وتعلو، منذ تولي الكاوديو للحكم.

- هل تعلمين شيئاً؟ أضاف عاشق السينما وعيناه الصغيرتان تلمعان بخبث تحت حاجبيه الكثَّين:

- هناك ناقد باريسي، قال دعونا من سارتر Sartre وكامو Camus، بريجيت باردو تبقى أحسن إضافة للثقافة الفرنسية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. من ضحكها كادت أوليبدو أن تختنق بقطعة صغيرة من الخبز المحمص. قالت:

- واضح جداً أن الموضة الآن هي موضة الشقراوات؛ مارلين مونرو وغريس كيلي، والآن هذه الفرنسية الصغيرة.

- محتمل جداً، يا عزيزتي - أجاب إيمليو - ولكن، أنتنَّ السمراوات، تبقينَّ الأفضل، ولا يصدقُ عليكنَّ التقادم. انظري إلى أفا غاردنير Ava Gardner وجين تيرني Gene Tierney وأنتِ أيضاً. عينا لويس ماركينا لم تُفارقكِ طوال نزهة الغابة الديلوماسية. لقد كنتِ فاتنة بسرّوالبلاجين، وفي ليلة لامارتشيكاجعلتِ جين مُتيمّة بكِ.

- هل هذا هو متجر كونرادو؟ Conrado سألت أولبيدو.

- لا، هو للأسفل بعض الشيء. أجابها الرجل ذو الجلباب، المتمركز بمدخل محل، حسبته المحل الذي كانت تبحث عنه. أضحكها الطريقة التي يتحدث بها ذلك الرجل الإسبانية؛ طريقة مغربية جداً. شكرته على المعلومة، واستمرت نازلة المنحدر عبر شارع بيلاتكيس Velázquez. استغرق وابل أمتار الخريف الأولى العنيفة ذاك الصباح، ما يكفي من الوقت لجعل الجو صافياً وبعثاً على الإحساس بالحياة.

تنفست أولبيدو عميقاً، وأحسّت أنها بتلك الطريقة تستفيق من الخمول الذي يستولى عليها عادة بعد وجبة الغداء.

قررت عائشة - الفتاة التي كانت تقوم بتدبير منزل عائلة سيبوليدا - على مسؤوليتها الخاصة، اعتبار أن موسم البرد قد بدأ فعلاً، فقامت بإعداد حريرة harira تكون مقدمة لوجبة الغداء.

استطاب كارلوس وأولبيدو الحريرة، مُسترجعين أجواء رمضان الأخير. كانت الحريرة حساء ثقيلاً، مُعدّياً وذا طعم حريف، يتم تحضيرها مع الشعيرية والخضار واللحم والدقيق والبيض والتوابل. كانت الوجبة المفضلة لدى المغاربة لإتمام صيام، كانوا، في غالبيتهم، يمارسونه في ساعات الشمس خلال شهرهم المقدّس.

مع الصحن الثاني من أفخاذ الدجاج الصغيرة والسلطة، بدأ الزوجان

يُعلّقان على المُستجدّات التي تعرفها طُنْجَة. تحدّث كارلوس عن الخوف الآخذ بالتمدّد من جرّاء الاستقلال الجديد للمغرب. الكثير من الناس كانوا خائفين من فكرة أنه بمجرد تسلّم السلطان السلطة على طُنْجَة، سيجعل الحياة مستحيلة أمام الأجانب.

- كيف يمكنه فعل ذلك؟ سألت أولبيدو.

- تسألين كيف؟

- ردّ كارلوس مستاءً - طبعاً سيقوم بإغلاق الحانات والكازينوهات ودُور الدعارة، وسيفرض التعامل بالدرهم، وسيقضي على المنطقة التجارية الحرّة مُستخلصاً الضرائب. أقصد هذا النوع من الإجراءات.

- وهل تظنّ بأنهم سيكرهون النساء على تغطية رؤوسهنّ؟ أنا يُعجبني الخروج من حين لآخر بغطاء الرأس، لكن، لا أن يصبح ذلك إلزامياً.

- لن يفعلوا ذلك؛ لقد أقرّ محمّد الخامس مرسوماً بعدم إلزاميته حتّى بالنسبة إلى المسلمات. وهو نفسه التقط بطُنْجَة منذ سنوات صوراً مع الأميرات العلويات يستعرضنّ تسريحات شعورهنّ. وإذا كان من قال ذلك هو سليل النسب النبوي وأمير المؤمنين، فمن ترى سيُجادل في هذا؟

تمّ إحضار حلوى ما بعد العداء: عِنَبٌ مِسْكِيٌّ لا يقلّ جودة عن عِنَب مَالَقَا.

لم تُفضّ أولبيدو لكارلوس ولو بكلمة واحدة، حول نتيجتها الإيجابية على إثر زيارتها للطبيب بردوغو. كانت تشتعل رغبة لإخباره بأن طبيب النساء العبري أكّد لها بأنها يمكن أن تصبح أمّاً. لكنها ظلّت خائفة من أن يفهم كارلوس بأنها تُوجّه له اللوم. كما لم تقم بإخباره بأن جين بولز - على حدّ قول إيميليو - أغرمت بها خلال سهرة لامارتشيكّا.

لم تكن تستطيع أن تنزع من رأسها موضوع جين؛ كان ذلك يُشعرها بالخجل. حتّى ذلك الوقت لم تكن قد سمعت من قبل عن الحب بين النساء.

لم تكن غبية لدرجة أنها لم تكن تعرف بأن هناك رجالاً يُعجبهم رجالٌ مثلهم، فطنّجة كانت مليئة بهم، بما في ذلك العزيز إيمليو، لكن، أن يتعلّق الأمر بنساء؟ فقط الآن، وهي في السادسة والعشرين من عُمرها ومُتزوّجة، بدأت تفهم مغزى الضحكات الخافتة لزميلاتها بمدرسة الراهبات، حين كانت تتمّ الإشارة إلى شِعْر سافو دي ليسبوس Safo de Lesbos..

كان واضحاً أن جين أساءت فهم أن ما كان من جانب أولبيدو هو مجرد رغبة في الصداقة، لكن أولبيدو أيضاً تتساءل عما إذا لم يكن الشامبان قد شطّ بها بعيداً جداً. احتمال كهذا كان يُشعرها بالذنب.

لقد طلبت من إيمليو أن يفعل كلّ ما بوسعه لكي يُوضّح لجين سوء الفهم هذا. الكاتبة الأمريكية لا زالت تُكنّ لها الإعجاب، ولا زالت تبدو لها المرأة الأكثر أهميّة التي عرفت في حياتها. كانت مُثقّفة وتلقائيّة وعصرية إلى أبعد حدّ. ولا تزال ترغب في أن تكون صديقة لها؛ صديقة لها، لا غير.

بعد الغداء ذهب كارلوس إلى عمله، فيما انصرفت أولبيدو إلى تصفّح جريدة إسبانيا *España*. في الصفحة الأولى كان الحديث عن فوز إزنهاور Eisenhower للمرّة الثانية بالانتخابات؛ لم يكن الأمريكيون يريدون تغيير الرئيس، وهنغاريا وقناة السويس مشتعلتان، والعالم على شفا حرب عالمية ثالثة. تحدّث الجريدة أيضاً عن دالي Dalí الذي كان يعلن من باريس أنه كان مُنكبّاً على رسوم عن دون كيخوطي *Don Quijote*.

في إحدى الزوايا كان هناك خبر، عن عودة مارلين مونرو إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، بعد تصويرها فيلماً في إنكلترا مع السيّر لورانس أوليفيي

Laurence Olivier. ثقلتُ جفونها، لكنها استبعدت فكرة الاستمتاع بقليلة، واستمرت في قراءة الصحيفة. كان رَسْمُ فتاة بقبعة وملابس سوداء، يعلن قدوم أقمشة جديدة إلى مراكز التسوق الممتازة بطَنَجَة، عليها أن تقوم بإلقاء نظرة عليها.

متجر أحد العبريين بشارع فيرناندو دي بورتوغال Fernando de Portugal بدأ يعلن أن لديه أولى أجهزة الاستقبال التلفزيوني الأوروبية؛ كانت تُسمَّى غرونديك Grundig. سوف تسأل كارلوس إن كان مفيداً شراءً أحدها.

لم تلقِ بالاً لإعلان إحدى دُور السيَّارات الأمريكية، التي تُقدِّمُ إشهار آخر موديلات كاديلاك كوب دوفيل Cadillac Coupe de Ville. كان كارلوس مسروراً بسيَّارته شيفي بيل إير. ابتسمت حين رأت إشهاراً جديداً لدالامال وسون Dalamal & Sons فوق حمَّالة جواربها الأمريكية الأصلية المصنوعة من نيلون دوبون Dupont. سيَّدة تقود بيدها جروئن لعوبيّن، الجروان يشبكان سلسلتيهما حول قدَمَي المرأة، ويرفعان ثَنُورتها، ليجعلا الأربطة تبدو للعِيان. أصغت أولبيدو لترتيلة بعيدة لأحد المؤدِّنين، وهذا يعني أنها الخامسة مساءً، وهي ساعة الصلاة بالنسبة إلى المسلمين وساعة الشاي بالنسبة إلى الإنكليز. ما يزال بعض الوقت أمامها، قبل أن يحين موعدُها مع أُوخينيا في متجر كونرادو Conrado للتحف القديمة. طلبت من الفتاة أن تُحضِر لها قهوة، وعادت لتصفُّح الجريدة، لقد احتفظت لنفسها - على سبيل حلوى ما بعد الطعام - بقراءة آخر خبر حول فضيحة كانت تتابع فصولها باهتمام: فضيحة الروك أند رول rock and roll.

كانت صحيفة إسبانيا تنشر - كلَّ يوم تقريباً من أيَّام هذا الخريف - تطوُّرات قضية الشابِّ توني Tony، ابن ووريث اللورد موينيهان Moynihan الذي اضطرَّ للهروب إلى أستراليا، ليفرَّ بجِلده من غضب

أبيه. كانت خطيئة طوني أنه نظّم في إقامته بلندن حفلاً حضره ما يربو على ثلاثمئة شابّ رقصوا بشكل ماجن، رقصة الروك آند رول. هذا الجديد الموسيقي القادم من أمريكا، والذي بدأ يُحدث حالة من الهيجان في أوروبا. انتهى الحفل في حدود الخامسة فجراً مع حلول الشرطة، وقيامها بجملة من الاعتقالات. استشاط اللورد موينيهان غضباً، بينما ابتعد الابن عنه بمسافات ومسافات.

لم ترَ أولبيدو بعدُ أحداً يرقص الروك آند رول. كانت تُحسُّ بالكثير من التشويق لمعرفة كيف ستكون هذه الموضة، التي بحسب ما يقال، كانت لها جذور في مجتمعات السود، والتي - على ما يبدو - تفتن فتياناً وفتياتٍ، ليسوا أكثر منها شباباً، هي التي أطفأت هذا العام ستّاً وعشرين شمعة.

"الموسيقى والإيقاع يُنتجان إثارة جنونية، والكثير من الشباب والشابات يسقطون في نوع من حالة الانتشاء، تجعلهم قادرين على ارتكاب تجاوزات غير متوقّعة" تقول إحدى التقارير المنشورة في جريدة إسبانيا. عندما قرأت أولبيدو ذلك، تساءلت مع نفسها، ما إذا كان للروك آند رول علاقة ما، بتلك الرقصات الصوفية التي يقوم بها أصحاب الزوايا الإسلامية في السوق الكبير.

نصف ساعة بعد ذلك، وفي شارع بيلاثكيس Velázquez، وجدت، كما قال لها الرجل المُجَلِّب، متجر التحف القديمة، الذي كان يقع أسفل قليلاً من المتجر الأوّل. أطلّت برأسها داخله، فرأت أن أوخينيا كانت بالداخل تقوم بتقليب التحف. كان هذا إذن، هو متجر كونرادو. إيطالي أكّدت أوخينيا، بأن لديه بعض أفضل التحف المغربية في طُنْجَة.

- يا للروعة، ها أنتِ هنا! قالت أوخينيا حين رأتها تدخل المتجر. كان بيدها خنجر فضيٌّ منقوش.

- ما رأيك في هذه الخردة؟

قَبَّلَتْهَا أولبيدو على خَدِّهَا، وَقَلَّبَتْ الخَنْجَرَ. كان طوله أربعين سنتيمتراً، وكان يبدو قديماً. ورغم أنها تكره الأسلحة، فقد كان عليها أن تعترف، بأنها كانت تحفة رائعة.

- القطعة رائعة، يا أوخينيا. سيكون منظرها جذاباً وهي مُعلَّقة على الحائط، أو فوق مائدة غرفة الجلوس، إلى جانب أوانٍ فضيَّةٍ أخرى.

- ذاك ما أفكَّر فيه. سوف آخذها إذا لم أجد شيئاً آخر. قالت ذلك وهي تنظر للرجل الذي كان شَعْرُهُ مصفوفاً ومدهوناً بكريم مُثَبَّت. كان يتابعهما بنظراته، بانسراح من قاع الممرِّ. لا بدَّ أنه كونرادو، فكَّرت أولبيدو.

- متى سيكون عيد ميلاد لويس؟ سألت.

- ما يزال أسبوعان على ذلك. لكنني أُفضِّل أن تكون الهدية مُهيَّأة. يُزعِجني ترك الأمور لآخر لحظة. ما رأيك في أن أشتري له ساعة؟ توقَّفت أولبيدو أمام طاولة عُرِضَتْ فيها - تحت غطاء زجاجي - ساعات يدويَّة قديمة.

- انظري، هنا أرى ساعة كارتيي Cartier قديمة. خفضت أولبيدو رأسها، ونظرت إلى الساعة التي كانت تشير إليها أوخينيا. كان شكلها مُستطيلاً، وذات علبة ذهبية وحزام جلدي بُني، أمَّا التوقيت، فقد كُتِبَ بأرقام رومانية. اقترب الرجل ذو الشَّعْر المُثَبَّت منهما، وبدأ يُحدِّثهما بإسبانية مشوبة بنبرة إيطالية.

- يبدو أن ذوق السيِّدَتَيْن رفيع! معامل كارتيي أبدعت موديل تانك Tank في 1917، ولا أحد منذ ذلك الحين استطاع التفوُّق على هذه الساعة، من حيث هي مثال للحُرِّيَّة والأناقة. إنها رائعة.

- فعلاً رائعة bellissimo أكَّدت أولبيدو. ارتسمت ملامح الأسف على وجه أوخينيا، وهي تقول:

- زوجي لديه الكثير من الساعات، ومن غير المُستبعد، أن يكون لديه طراز كارتبي هذا. هيّا، لنرَ أشياء أخرى. تراجع كونرادو إلى الخلف خطوة، حين رأى أوخينيا تستعدُّ لمواصلة الزيارة.

- هل أقدم لكما شايًا؟ قال مُقترحاً.

تساورت المرأتان عبر نظراتهما؛ ولا واحدة منهما راق لها، في مثل هذا الوقت، احتساء شراب منقوع. تسكَّعتا لمدة ربع ساعة من الزمن بمتجر كونرادو، الذي يشبه مغارة علي بابا.

قالت أوخينيا لأولبيدو، إن هذا المكان كان مصدرًا للعديد من اللوحات والمرايا والزَّرابيّ والأثاث والأواني الخزفية والمصابيح والشمعدانات والأباريق ولوازم المائدة الموجودة بالإقامة الفخمة التي بَنَتْها باربارا هوتون Barbara Hutton سنة 1946، والتي دمجت فيها مجموعة من الدُّور المغربية لحيّ سيدي حسني بالقَصْبَة kasbah والتي هي كُوَّة سقْف المدينة القديمة. اشتهرت باربارا هوتون بثرائها الفاحش. فهي وريثة ثروة تكدَّست عبر تجارة العنابر الكبيرة، ثمَّ إنها تزوّجت أيضاً بِكاري غرانت Cary Grant ونصف دُرّينة من شباب البلاي بوي المستهترين وأصحاب الملايين. أولبيدو لم تكن تعرفها، فقد كان كارلوس في أوّل خطوات مساره الصحفي، وعائلة سيبوليدا لم يكن لها من سبيل آخر، إلى الطبقة الراقية الطَّنَجِيَّة غير نمائم إيميليو سانس دي سوتو، لكنها كانت تراها بصورة مُتكرِّرة في المَجَلَّات؛ امرأة مُتوسِّطة العُمْر، ذات شَعْر أشقر شديد القصر، ولم تكن تبذل أدنى جهد، لتمحوَ من وجهها ملامحها المُتَغَطَّرسة. كان من عاداتها استعراض تيجان ذات أحجار كريمة وقلائد وأقراط ذات لآلئ سميكة. حكى لها إيميليو، بأن المليونيرة الأمريكية كانت تجود على فتیان القَصْبَة ببقايا طيور التُدْرُج المَسْوِيَّة، التي كانت تُقدِّمها لضيوف حفلاتها. فقد كان هذا يُشعرها

بالأرياح. وقال أيضاً إنه كان يُعجبها أن تُحمَل في تنقلاتها على هودج، وإن مادة المورفين كانت تجري في عروقها أكثر من جريان الدم.

توقفت أولبيدو أمام مرآة قديمة كاملة الطول، كان إطارها الخشبي مُرصَّعاً بالعشرات من القواقع البحرية الصغيرة. طالعُها المرأة بصورة امرأة شابة، طولها مترٌ وسبعون سنتيمتراً، تلبس بدلة رسمية داكنة، وتنتعل حذاء ذا كعب مُنخفض، أمَّا الوشاح الوردي، فقد كان يضيف نوعاً من الإشراق على تلك البدلة الصارمة. في ذلك اليوم أيضاً، صبغت شفَتَيْها وأظافرها باللون الوردي.

- كيف كان صباحك مع الدكتور بيردوغو؟ سألتها أوخينيا بنبرة صوت بطيئة، وهي تقترب من المرأة.

- جيّد جدّاً - أجابت أولبيدو بسرور - هو شخص لطيف، وقد وجدني في حالة جيّدة، وأن بإمكانني أن يكون لديّ أبناء.

- سأواصل صلاتي للربّ، حتّى يهبك أبناء، قالت مُنهيّة المحادثة. جالت أولبيدو بالمكان، حتّى صادفت مجموعة قفاطين حريرية، كانت مصبوغة بألوان خضراء فستقية، وأخرى بنفسجية مُشوَّشة وحمراء قانية، وفي لون توت العليق الناضج والأصفر الأسدي، كلّها مُوشاة بزخارف ورد رهيبة وأشكال هندسية.

فكّرت أن القفاطين ستكون رائعة كملابس لغرفة النوم. كان عليها أن تطلب من كارلوس أن يهديها إحداها بمناسبة حفلة الملوك السّحرة Los Reyes.

- كانت هذه القفاطين في ملكيّة نساء أرسقراطيات مغربيات - قال كونزادو، الذي كان يمشي خلفهما بمسافة غير بعيدة - أيّ قُطّان من هذه

القفاطين لم يلبس سوى مرّة واحدة، وقمنا نحن بعُسله بالعناية اللازمة التي يستلزمها الحرير.

- هذا أمر مُلاحظ، إنها كُلُّها جديدة. تخيلت نفسها لابسة قُفْطَانًا كإمبراطورة إيران ثريًا، التي شاهدتها على صفحات باري ماتش، *Paris Match* تستعرض هذه الأزياء في إحدى الحفلات الفخمة. يا لجمال وأناقة ثريًا، تلك السمراء الجريئة التي للأسف الشديد - كانت تقول المَجَلَّة - كان رعاياها يتهامسون حول موضوع عُقمها. مرّت عليها لحدود اليوم، خمس سنوات، ولم تهب للشاه وريثاً للعرش.

- أظنُّ أني سأخذ هذا الخنجر، قالت أوخينيا مُنتشلة أولبيدو من أحلام يقظتها.

طُنْجَة، ربيع 2002

فتحتُ باب الشُّرفة لتهوئة الشُّقَّة. دخلتُ نسمة هواء بارد ورطب. مطر طوفاني كان يهطل فوق طُنْجَة. كان رأسي يُوجِعُني، ولم أفلح في جعل جسدي وروحي منفصلان عن العالم إلا بعد أن تناولتُ حَبَّتَي مُسَكِّن. ومع ذلك تذكَّرتُ ما قاله القنصل خلال وجبة العَدَاء حول التوقُّعات الجَوِّيَّة لنهاية الأسبوع، والتي تُنبئُ بسماوات مُلبَّدة بغيوم أمطار سوف تنهمر بشكل مُتقطِّع. وعساها تكون آخر الأمطار قبل قدوم الربيع.

كانت هذه الأمطار، بالنسبة إلى المغاربة، نعمة ربَّانية. فالجنرال ليوطي قالها قبل ثمانية أو تسعة عقود من الآن: "أن تحكم في المغرب، معناه أن تُمطرَ السماء" *"Au Maroc, gouverner c'est pleuvoir"*.. كان يعلم مُنشئ نظام الحماية الفرنسية بالمغرب، بأن أفضل مساعدة يمكن أن يتلقَّاها حاكم بلدٍ زراعيٍّ منكوب بمواسم طويلة من الجفاف هي أن تُمطرَ السماء، ويحصل الفلاحون على غَلَّة جيِّدة، ويعمُّ الفرح الجميع.

كان المطر مُزعِجاً بالنسبة إليّ، لدرجة أنني لم أكن أتوقَّر على مَطَرِيَّة. كنتُ أكره هذه الآلات؛ لم أكن أحتاج فرويد Freud، لأعرف لماذا كنتُ لا أتأخَّر في تضييع أيِّ مَطَرِيَّة، يمكن لأحدٍ ما أن يقوم بإهدائها إليّ. أن أحمل مَطَرِيَّة، معناه أقبَل المطر دون احتجاج، علماً أنني يمكن أن أعيش جيِّداً في الصحراء على مدار السنة.

نظرتُ إلى الأسفل، إلى حَيِّ إنكلترا: كانت السيول تكشف وجهه العالم
ثالثي؛ كان الحديد يبدو أكثر صدأً، والعمارات أكثر تشظيًّا، والأرصفة أشدَّ
تعرُّضاً لسوء المعاملة، كما تبدو النفايات ظاهرة للعيان والعابرون أكثر
فقراً. بدا الأمر، كما لو أن كاتب سيناريو راح يتلاعب بمشاعري. كان أحد
رجال الشرطة يتصارع مع الرياح القوية من أجل ارتداء معطف مطّاطي فوق
بدلته الرمادية المائلة للرُّزّة.

أشعلتُ سيجارة، ورحتُ أجول بنظراتي في أسطح الجيران. كانت
الأمطار الغزيرة تُحقّق معجزة فراغ أيّ منها، ممّن ينشغلون بتثبيت هوائيات
التلفزيون أو إصلاحها. عدلتُ ذلك السبت عن النزول إلى البولفار للبحث
عن قهوتي الأولى الممزوجة بالحليب. أثرتُ العودة إلى البيت كالدجاج
المُبَلَّل، واخترتُ أن أحضّر لنفسي بالبيت ما توقّر لديّ من الشراب الأكثر
دفئاً وقدرةً على تنبيه حواسي.

عثرتُ بالمطبخ على علبة تكاد تكون فارغة من القهوة التّطوّائيّة كاريون
Carrión، وعلى صندوق به بقايا من حليب نصفيّ الدّسم، لم يفسد
بعد. كان هذا كلّ ما فضّل في ثلاجتي ومخزني: أمر مؤثّر يشبه طفلاً أصبح
دون هدايا يوم حفلة الملوك السّحرة.

عدتُ إلى الصالون، أحمل بين يدي كوباً يعلو منه البخار. كانت الأوراق
والصور والحافظات التي انبثقت عن الحُرمة التي أرسلتها كلارا، تُخيّم على
أرضية الشّقة، في وضعية من الفوضى المطلقة. ضمن هذا الرُّكام كانت
ترقد رسالة أُمّي المألقيّة، تلك الجثّة المُحنّطة التي عادت إلى الحياة
بمُجرّد قراءتي لها المساء السابق.

عُدتُ أدُسّ - كيفما اتّفق - تلك الأشياء كلّها في علبتها الكرتونية،
واحتفظتُ بها في دولاب ملابس. كان عليّ التحكّم في مشاعري، وأن

أُقيمَ لها بصفة استعجالية، أسواراً تكبحها في أبعد نقطة ممكنة، تماماً كما فعلتُ مع العلبة الكرتونية وأنا أُودِعُها دولاب الملابس.

أنتَ تستطيع، يا سيوليدا! فلستَ أوّل مَنْ يكتشف بأن أباه ليس بأبيه وأن أمّه هي.. هيّا، دَعْ عنكَ هذا، يا صاح! لا تَمْشِ في ذلك الطريق. لقد سبق وأن مشيتَ فيه مساء أمس، وهو لا يقودك سوى للألم والجنون. رَكَزْ في موضوع آخر. قصص شكري مثلاً. لقد وعدتَ أليسيا بأنك سوف تنشرها نهاية هذا الأسبوع. اللعنة! لا، الآن لا يروق لي أيّ شيء! ولن يكون الأمر ناجحاً. ابحثْ عن شيء آخر، شيء ميكانيكي. لماذا لا تتولّى أموركَ المنزلية؟ أنتَ عكس بابلو مورينو، لا أحد من الخارج يقوم بتنظيف شُقتك، ويشتري أغراضك. أنتَ تفعل ذلك بنفسك في صباحات السبت البليدة الشبيهة بهذا الصباح. نعم، هو ذا، يا سيوليدا. يمكنكَ البدء بوضع الملابس في الغسّالة، فليس لديك تقريباً ألبسة نظيفة! لكن، أين سأجفّف الملابس؟ حبل غسيل نافذة المطبخ مُعرّض للأمطار مثل الشرطيّ صاحب المعطف المطّاطي الأبيض في شارع إنكلترا. طيّب، عليكَ بعد تنظيفها أن تقوم بتوزيعها داخل الشُقّة. لقد سبق أن قمتَ بهذا في بعض الأيام المُمطرة الشتاء السابق. لن يخلو الأمر من بشاعة، لكنك هذا الصباح لا تنتظر أيّة زيارة. نعم، ابدأ من هذا.

بعد ذلك، وفيما تشرعُ الغسّالة في طَقْطَقَتِهَا وجَلَجَلَتِهَا، تبادر أنتَ بكُتْس الأرضية ومَسَحِها وإشباع الحمام تنظيفاً بالمنظّف العالمي الذي ما زال لديك بعضٌ من مخزونه. تُفرِّغُ المنفضاتِ وتُزيل الغبار الأكثر ظهوراً عن أثاث البيت. هو ذا، يا صاح، إنه مكان عملك. كان رائعاً أن تقوم صباح البارحة، قبل الذهاب للغداء في الإقامة، بتنظيم الكُتُب والأوراق. في بضع ساعات، بإمكانك صيانة مأواك، وجعله في أفضل صورة.

انخرطتُ في العمل مُتوسِّماً، في سرِّي، أن أتلَقَى مكالمة تُرغمني على تركه. لكن، لم تكن هناك أيَّة مكالمة. بعد هستيريا الأيام الأخيرة، بدا لي أن هذا السبت يبدأ بدون مُنغصات.

أخبرنا القنصل خلال وجبة العَداء، بأن جثة بابلو مورينو سيتمُّ نقلها إلى إسبانيا في طائرة ستخرج في الساعة الأولى من هذا الظهر.

لقد قَدِمْتُ أُختُهُ من أليكانطي Alicante وقامت أليسيا باستقبالها ومساعدتها. لا أحسد أليسيا على عملها، فلمثل هذه الأسباب، رفضتُ منصب الرئاسة.

أمَّا ليلي، فقد أتى عليها الدَّور هذا اليوم بمركز النداء لتقومَ بالمداومة، وقد اتَّفَقنا على الاحتفاظ بيوم الأحد لِلِّقاء. اللهُ رحيماً. فتماماً بعدما أنهيتُ تنظيف الشُّقَّة، وتساءلتُ عمَّا سوف أفعله بعد ذلك، توقَّف المطر، وانقشعت الغيوم عن فسحة سماء مُشمِسة. كانت لحظة مثالية للنزول للتسوق.

من مركز تجاري اشتريتُ قهوة وحليب وبسكويت وعلب تونا ورغيف خبز وزيتون مُتنوِّع وإجاص وموز وعلبة أسبرين.

حملتُ المشتريات إلى الشُّقَّة. تناولتُ حَبَّتَي أسبرين مع كأس ماء، وعُدْتُ للخروج مُجدِّداً دون تأخير، لأن السماء بدأت تكفهراً من جديد.

كان القانون السائد في المراكز التجارية المغربية هو القانون القرآني؛ لا يمكن شراء المشروبات الكحولية إلَّا بواسطة رخصة خاصَّة من السلطات الإدارية. لذلك كان عليَّ أن أسير بعض المسافة. فقد تعوَّدتُ على الذهاب عند بَقَّال سان فرانسيسكو المقابل للقنصلية الإسبانية الذي كان يَمْتَلِك رُخصة ترويج السجائر والبيرة والأنبذة والمشروبات الكحولية.

قُمتُ بتكديس هذه المشتريات في صندوق لسجائر مارلبورو؛ دُرِّنة علب مَعْدِنِيَّة من بيرة فِلاغ سِبيسيال Flag Spéciale، وقِنِينَتَا نِبيذ مغربيٍّ أحمر، القصر Ksar. كان سعر السجائر أقلَّ من إسبانيا، بينما كان النبيذ والبيرة أغلى.

كانت المملكة المغربية تَفَرِّض الضريبة على المشروبات الكحولية أكثر منها على التبغ، وإسبانيا كانت تفعل العكس. ابتلَّت ثيابي كِلِّيَّة وأنا أعود إلى شَقَّتِي. فاضت السماء ذلك اليوم بكلِّ الماء الذي بخلت به طوال الأسابيع الماضية.

عند وصولي لشارع المكسيك، وخرَّني في المعدة ذلك الاكتشاف الذي كنتُ أحاول كَبْتَه: لم يكن كارلوس سيبوليدا بأبي. لم يكن الرجل - الذي نظرتُ إليه دوماً على أنه جَلَّاد - سوى ضحية لتلك الجميلة المُسمَّاة أولبيدو، والتي لا أحد يعلم مع مَنْ ذاك، أو مع مَنْ أولئك الذين كانت تستمتع معهم بحُرِّيَّة طَنَجَة الدولية؟ وأنا أُمسك بكيسي البلاستيكي، ظلَّلْتُ واقفاً تحت المطر كَقَرَّاعَة في حقل ذُرَّة في فيلم من أفلام الرعب. كنتُ أحاول التحكُّم بعقلانية في الكراهية التي كانت تتولَّد في أحشائي ضدَّ أُمِّي مثل حريق في غابة، شهر أغسطس.

حاولتُ دون جدوى إقناع نفسي بأنني لم أكن على علم بالظروف التي قادتها إلى الخيانة الزوجية؛ فأنا لم أكن أعرف شيئاً عن الأخطاء التي ارتكبتها كارلوس سيبوليدا في حياته الزوجية، ولا عن مفاتن الرجل الآخر الذي انتهت مُتعلِّقة به، أو الرجال الآخرين، قلتُ مُمتعضاً.

كنتُ أكره أُمِّي لِمَا فعلته بزوجها وأكرهها لِمَا فعلته بي. كنتُ أشتُمها بأقذع ما في لغة ثيرباتيس من كلمات. وحَتَّى عندما كنتُ أفلحُ في لَجِّم حريقي العاطفي، كان عقلي يقول لي ببرودة، بأن الخيانة التي عشتُ في ظلِّها، إلى حدود قراءتي تلك الرسالة، أمر لا يُغْتَفَر مهما كانت الظروف.

خلصتُ إلى أن أولبيدو كانت مُذنبَة، وعدتُ للمشي حتَّى وصلتُ للمبنى الذي أَقطنُه. كانت قَيْصَرِيَّة مَحَلَّات القفاطين التي بأسفل المبنى مزدحمة عن آخرها رغم وابل الأمطار. ربَّما هي بداية أعراس موسميَّ الربيع والصيف. ولا شكَّ أن الكثيرات من قريبات وصديقات العروسات كنَّ يحلمنَ باستعراض إحدى هذه الأزياء.

ارتقيتُ بالمِصْعَد حتَّى الطابق الخامس والأخير، وأنا أتساءل، كيف أطاق كارلوس سيبوليدا العيش مع مخلوق أنجبته أولبيدو من رجل آخر. ومهما كان الطلاق مُستحيلاً في إسبانيا على عهد فرانكو، فحالة ذلك الرجل قاربت درجة القَدَاسَة. إن سوء معاملته لي لا تُقاس ولا تُقارَن مع المعاناة والخزي اللذين لحقا به. ثمَّ يا لصبره، وأولبيدو تُلَوِّحُ له في الرسالة، بخيانتها الزوجية!

جَفَّفتُ شَعْرِي بمنشفة، وهَيَّأتُ لنفسي شطيرة تونة، التهمتُها مع بيرة، وتناولتُ إجازة من باب التحلية. بعدها رحتُ في قيلولة، لم أتمكنُ بواسطتها من إصلاح ما بي؛ لقد استيقظتُ على حاقَّة السرير، وقد التَفَّ حول جسدي الإزارُ والغطاء، وأحسستُ بثُلْمَة في القلب، وجفاف في الفم. لقد شاهدتُ في نومي حُلماً مُزعجاً، لا أتذكرُ منه إلَّا مشاهدته الأخيرة. كارلوس سيبوليدا - الذي كنتُ لا أزال أدعوه بابا - يقول لي: "لا تتسبَّب قطُّ في بكاء امرأة، لأنَّ الرب يَعُدُّ كم دَمعة ذَرَفَتْ" فيما كنتُ أنا أَتَعَقَّبُ أولبيدو عبر سلالم قوقعية لامتناهية لمنزل بالمدينة القديمة وهي تتلَقَّع بمناديل سوداء، دون أن أَفْلَحَ في اللحاق بها.

نهضتُ وشربتُ ماءً مباشرة من حنفية المطبخ، لأنِّي كنتُ قد نسيْتُ اقتناء زجاجات ماء مَعْدِنِي. وحين كنتُ أَنْظِّفُ فمي بمنديل، رنَّ الهاتف. إنها مكالمة من شكري.

- أينك، يا رجل؟

- أين سأكون؟ طبعاً في البيت. هناك أمطار طوفانية بالخارج. تركتُ
المنديل على سطح الطاولة، وقلتُ:

- وأنتَ، أين مُستقرُّكَ؟ في ريتز أو في نيغريسكو؟

- لا، أنا أيضاً بالبيت. فلستُ كلباً ضالاً. انتبه، أنا أها تفك، لأن هذه
الليلة لدينا عمل. لقد أتى باتريك لرؤيتي. وبما إن المصعد لا زال معطلاً،
فقد قاسى كثيراً حتّى صعدَ إلى سُقّتي. قال إنه تمكّن في الليلة الفائتة
من الحديث مع ميمي، وأنه قد أقنعه لكي يُجري معنا لقاء.

- أنا لم أقتله، أقسم على ذلك بسلامة أمي. لقد كان ميتاً حين وصلتُ إلى بيته. قال ميمي مجهشاً بالبكاء.

التقتُ نظراتنا أنا وشكري؛ قرأتُ فيها معنى الشكِّ نفسه الذي لا بدَّ أنه ارتسم في نظراتي.

الجميع يدَّعي البراءة، ولا أحد يريد الاعتراف بمسؤوليته عن أيِّ شيء. شدَّ باتريك Patrick ميمي من ساعديه، وضغط عليهما في محاولة لتشجيعه. كان يبدو عليه أنه يُصدِّقه.

كنّا بمكتب صاحب ملهى الآتيو. كان المكتب يضمُّ جناحاً من فنِّ الآرت ديكو، أُعيد تأهيله وتنجيده باللون البرتقالي. وكان يقتعد أرائكه كُلُّ من ميمي وباتريك، بينما شكري وأنا جلسنا فوق الكراسي. كان هناك أيضاً مكتب من الزجاج والفلواز، فوقه حاسوب محمول من نوع آبل، Apple وخلفه ينتصب كرسيُّ مكتبٍ يبدو ثميناً ومريحاً. كانت الجدران مصبوعة بأبيض أنيق، تتدلَّى من إحداها لوحة زيتية بهيجة، يطبعها أسلوب ماتيس، Matisse وتمثِّل ثلاثة شبَّان عُراة، يلعبون كرة القدم على الشاطئ.

كان ماتيس في طنْجَة مع بدايات القرن العشرين. وكان يقيم بفندق فيلَّا دو فرانس Villa de France المغلق حالياً. وكان الكثيرون في المدينة يحاولون تقليده، دون أن يكونوا مُوقَّفين في ذلك.

أمَّا بالنسبة إلى هذه اللوحة، فلم يكن الأمر بالصورة نفسها. وصلنا أنا

وشكري للأتيو في الساعة المتَّفَق عليها؛ أي منتصف الليل. لم يسعنا الوقت حتَّى لطلب مشروبات. فلقد ظهر باتريك بمُجَرَّد أن أَسَنَدْنَا كُوعَيْنَا على المنصَّة.

- ميمي مُحطَّم ومرعوب - قال لنا باتريك بعد أن تصافحنا - كلَّفني الأمر مشقَّة كبيرة لإقناعه بالمجيء اليوم للحديث معكما. قلتُ له بأن الأمر يتعلَّق بأصدقاء حقيقيَّين لبابلو، وأنهما جديران بكلِّ ثقة. وهو ينتظركما الآن في مكنتي.

- هل ثمة أخبار عن الشرطة؟

- لحدود اللحظة، لا، *Pas pour le moment*. المُفوَّض بوعلي، أتى هنا في ليلة أخرى، قليلاً بعد انصرافكما، ولكنني توقَّفتُ في حديثي معه، عند حدود القول بأن بابلو كان ينزل للأتيو من حين لآخر، وبأنني كنتُ أراه خارج هذا المكان في بعض المناسبات.

أضفتُ أنه لم يكن صديقاً حميماً بالنسبة إليّ، وبأنني كنتُ أجهل إن كانت لديه علاقة مُستقرَّة مع أحد الأشخاص أم لا. ولم أنبس طبعاً، ولو بكلمة واحدة حول ميمي.

- هل بدا عليه الاقتناع؟

- ولماذا لا يقتنع؟ علاقتي جيِّدة مع السلطات المغربية. أُودِّي ما يتعيَّن عليّ تأديته. أُطبِّق القوانين التي يمكن تطبيقها وأتعاون مع الشرطة في نطاق ما هو منطقي. كان ميمي ينتظرنا بالمكتب. لا شكَّ أن عُمره كان يزيد عن الثلاثين قليلاً، كان طويلاً ونحيفاً وذا بشرة في لون الشوكولاتة، كما كان قصير الشَّعر، وفوق ذقنه - كما ذكر المُرَاكُشِيُّ في جلستنا الليلية الخميسية - لحيه جَدِّي صغيرة.

كان وجهه اللطيف شبيهاً بوجه فرعون، وبياض عينه يُغطِّيهِ لون قِرْمِزِيّ.

قال لنا، إنه بالرغم من حداثة تعارفهما هو وبابلو، فقد كانا مُغرَمَيْنِ كثيراً ببعضهما؛ حُبٌّ من أَوَّلِ نظرة، *Coup de foudre*، قال باتريك مُدَقِّقاً.

اتَّفقا ليلة الأربعاء على اللقاء بشُقَّة بابلو في شارع رابلي Rabelais، ليتناولوا السوشي في وجبة العشاء، ويناوما معاً. كانت المرَّة الأولى التي يقومان فيها بذلك. حتَّى حدود تلك اللحظة كانا يلتقيان فقط في الأماكن العامة. وكان ميمي يمرُّ من هنا، حال انتهائه من تدبير أوراق قضية طلاق.

وصل ميمي حوالي العاشرة والنصف إلى إقامة بابلو. كانت بَوَابَةُ البناية مفتوحة، وهو ما كان أمراً غريباً في المغرب. صَعِدَ بالمِصْعَدِ إلى الطابق الثالث، فوجد باب الشُقَّة موارباً، وخلفها في الرِّدْهَة، كانت جُثَّة الأُستاذ الغارقة في الدماء.

- وخرجتَ أنتَ مُسرِعاً، أليس كذلك؟ قال شكري.

- وماذا كنتُ سأفعل؟ هل كان عليَّ أن أخبر الجيران أو أبلغ الشرطة؟ أنتَ تعرف، هذا البلد، يا سيِّد شكري؛ كنتُ سأقضي تلك الليلة خلف القضبان. مغربيٌّ يقيم علاقة مع أجنبي، ذاك هو كبش الفداء النموذجي. أنا مُحامٍ وأعرفَ عَمَّا أتكلم. وحتَّى لو ثبتت براءتي، سأظل مَوْسُوماً إلى الأبد؛ عائلتي ومساري المهني وحياتي، هذا كُلُّه ستقبره الفضيحة. عاود باتريك مواساته بضغطة أخرى على ساعديه.

- هل حدَّثكَ بابلو - في مرَّةٍ ما - عن وجود أعداء لديه، أو عن تلقَّيه تهديدات مُعيَّنة، أو عن تورُّطه في مشكلةٍ ما؟ سألتُ.

نفى بابلو بحركة من رأسه. كان وجهه منخلعاً، وشبههاً بفرعونٍ نُهب قبره. قلتُ مُستخلصاً:

- إذن، لا فكرة لديك، عَمَّنْ يمكن أن يكون وراء جريمة قتلِه؟ ولماذا تمَّ هذا القتل؟ عاد يُحرِّك رأسه نافياً.

مضى ميمي مُتحدِّثاً - وسط نوبات مُتقطَّعة من البكاء - لأكثر من ربع ساعة، يُؤازره باتريك مُقدِّماً له مناديل ورقية وكؤوس ماء.

- أعتقد أنه من الأفضل، أن ندع ميمي يعود إلى منزله، ويحاول أن يرتاح - قال مالك الأتيو - هذه المحادثة، طبعاً، يجب أن تبقى منحصرة بيننا نحن الثلاثة، يكفي أن ميمي يعاني الآن ممَّا لا يمكن وصفه، فكيف سيكون حاله إذا كان عليه أن يُقدِّم تفسيرات للشرطة؟

- هذا وعدٌ شرفٍ مِنِّي، ومن سيبولبيدا، قال شكري بعد معاينة موافقتي. كانت السماء تُمطر في الوقت الذي قمنا فيه بمغادرة الملهى.

في الوقت ذاته، غادرتُ أيضاً فتاة فارعة الطول، مرتدية قُفْطَاناً أخضر في لون التفَّاح. قبل أن تفتح مَطَرِيَّتَها، تمكَّنتُ من استراق النظر إليها. كانت ضفيرة شَعْرِها ملساء، وذات لون ماهوجني لَمَّاع، كانت جريئة، وتضع على وجهها الكثير من المساحيق. بدا لي أنها الفتاة نفسها التي سبق لي مشاهدتها مُرتدية تُنُورَة جِدَّ قصيرة، مع صدرية تشدُّها حمَّالات تعصر صدرها السخي.

لم يكن الأمر غريباً؛ فالكثير من الطُنَجِيَّات كُنَّ يَلْبَسْنَ الجِلْبَاب أو القُفْطَان عند الخروج للشارع، ومن تحت ذلك، كُنَّ يرتدين أطقم الملابس الجسورة، يستعرضنها في المراقص الليلية. كُنَّ يُغَيِّرْنَ ملابسهنَّ في دورة المياه، ويحتفظنَ بلباسهنَّ التقليدي مُوقَّتاً في حقائبهنَّ اليدوية.

فاجأني شكري أنه لم يقترح عليَّ كأساً في حانة أخرى، ولا اقترح البحث عن بائع حلزون *aglal* جوال؛ المُغلَّى الأكثر شهرة في طُنْجَة، والذي يصلح لتسكين معدة عشَّاق السهر. تخيلتُ أنه يخاف الإصابة بنزلة برد.

كانت هناك بعض التاكسيات الصغيرة، أمام المنتزه البحري، تنتظر خروج زبائن الملهى. هَرولنا نحو التاكسي الأوَّل في الطابور، وركبناه دون تحفُّظ، مُسَلِّمينَ للسائق عناويننا، عنوان شكري أولاً، ثمَّ عنواني.

حين أقلعت سيّارة بوجو 205، مُصدّرة ما يشبه صوت سعالٍ لشخص مصابٍ بضيق التنفّس، سألتُ شكري عن رأيه في القصة التي سمعناها تَوّاً. ارتدّ بوجهه نحوي، سحب علبة سجائر، وقَدّمها لي. اعتذرتُ، بينما قام هو بإشعال واحدة من سجائر أولمبيك.

- شخصياً، أُصدّقُه. فليس هناك مُذنب يُكلّف نفسه مشقّة الحديث إلى اثنين، لن يتسبّباً له في متاعب مُعيّنة. بدت لي الحُجّة قوية، فأضفتُ أخرى.

- إذا كان ميمي مُذنباً، فالراجح أنه كان سوف يقوم بحلق "لحية الجدّي" التي تميّزه بوضوح عن الآخرين. أصيب شكري - لدى سماعه ذلك - بنوبة ضحك، سقطت السيجارة من فمه على إثرها.

كانت ليلي تنظر إليّ بحنان، وهي تجلس مُسندة ظُهرها على مخدّة السرير. بينما كنتُ أنا في تلك الأثناء أبحث عن وضعية أداري بها الخجل الذي اجتاحني. لقد انتهى لقاءنا الجسدي بفشل ذريع. رغبتى العارمة للذوبان فيها لم ترقَ إلى أن تتحوّل إلى انتصاب دائم. لم تكن المرّة الأولى التي يحدث لي فيها ذلك، لكن، كانت المرّة الأولى التي يحدث لي فيها ذلك مع ليلي. مثل هذه الأشياء تكون مُقلقة، حين يكون المرء على درب الخمسين، ويكون محظوظاً بأن تلتفت إليه امرأة أصغر منه سنّاً بكثير.

يعلم المرء جيّداً، أنه في هذه المراحل يكون الجنس مُهمّاً بالنسبة إليهنّ. بدت ليلي فاتنة جدّاً. فقد عادت لتلفّ نصفها الأسفل بإزار، فيما النصف الذي تبقي، كان يعلوه نهدان صغيران صلبان، من النوع الذي كان يحلو للشعراء العرب تشبيههما بالحمامتين. أمّا الحلمات وهالتاهما، فقد كانتا كبيرتين وداكنتين، ولا زالتا على انتصابهما.

نظرتُ إلى وجهها، إلى خديّها المتوردين، وعينيّها اللّوزيتين اللتين كان الليل يتلأأ فيهما. لا زالت في حالة استثارة، لكنني كنتُ عاجزاً عن إرضائها. لا، ليس الآن، وليس بالطريقة التي حاولتُ بها فعل ذلك.

حوّلتُ نظرتي باتّجاه الوشم الموجود على كتفها اليسرى؛ كان الوشم راحة يدٍ بأصابع مفتوحة؛ يدُ فاطمة التي يقرنها العربُ بحسن الطالع. قلتُ لها في الأخير ودون اقتناع:

- معذرة، أميرتي، لا بدّ أني جدُّ مُتوتّر.

- لا عليك، يا سيبوليدا، هذه الأسابيع كانت بالنسبة إليك خارجة عن المألوف. هيا، تعال! وفتحت ذراعَها لتأويني في حضنها. استجبتُ، فضمّنتني بعذوبة. شممتُ عطرها المألوف؛ رائحة ليمون ونكهات طبيعية، كانت تقتنيها من متجر المديني Madini. كان العطر ممزوجاً برائحة الجنس.

أحسستُ كما لو أن الرغبة عادت إليّ من جديد، لكنني عزفتُ عن تكرار المحاولة، هامساً لنفسِي: دَعْ عَنْكَ هذا الآن، يا سيبوليدا. كان اليوم يومَ أحد، المساء في مُستهلّهُ، والسماء ما تزال غائمة مع أمطار مُتقطّعة. كنّا في شُقَّتِي، لم يتسنَّ لليلي المجيء عندي إلّا وقتَ العَداء، وذلك بسبب التزامات عائلية شغلّتها طيلة الصباح.

تأخّرها في المجيء، أعطاني الوقت للتفكير في أحداث الأيام الأخيرة. كانت تداعيات البراءة المحتملة لميمي مشوّومة. فإمّا أن بابلو مورينو كان يرتبط بعلاقة أخرى، وهذه العلاقة كانت ذات قوّة بركانية، وهو ما بدا لي غير قابل للتصديق، أو أن أسباب موته لا علاقة لها بالحُبّ والجنس. وفي هذه الحالة بدأت تَطُنُّ في ذهني مُجدّداً فكرة أن قاتله قد أخطأ الضحية، مع احتمال أن تكون تلك الضحية هي أنا.

- هل براءة ميمي مُبرهن عليها؟ في أعين الشرطة، طبعاً لا. إذا وقع بين أيديهم سوف يعاني الأمرين. الأفكار المُسبّقة ستكون ضده، لكن باتريك يضمن حسن سلوكه، وباتريك يبدو شخصاً صادقاً، مقارنة مع عموم سادة عالم الليل. ثمّ ماذا سيستفيد باتريك من خلال تسهيل لقائنا به؟ لا شيء. فالفرنسي يبدو أنه مُتحمّس بصِدْق، ليقدّم معروفاً لشكري ككاتب يحظى بإعجابه، ولم يكن هناك مُبرر للتفكير في شيء آخر.

شكري أيضاً صدّق المحامي الشاب. لقد كانت لديه حاسّة شمّ

سليمة بالنسبة إلى هذه الأمور. فهو ترعرع داخل غابة، واستطاع العيش وسطها.

ميمي إذن، كان البراءة المُجسّدة أو المُمثّل الخارق. ولم يبقَ أمامي، لتبديد شكوكي، سوى أن أحاول استخلاص معلومةٍ ما من المُفَوّض بو علي. فَكَّرْتُ بسرعة أنه عليّ أن أتدبّر أمري لأراه في اليوم التالي، دون اللجوء إلى القنصلية. لقد خَلَفَ لقاء الجُمُعة في فمي طعماً غير مُحبَّب؛ لقد انطوى على كثير من المجاملات، وكثير من الكلام الغامض، وكثير ممّا يجب فَهْمه من السياق. تَكُونُ لديّ انطباع بوجود تواطؤٍ سرّيٍّ - لم أكن جزءاً منه - ما بين الثلاثة الذين كانوا يتقاسمون معي مائدة الطعام.

وصلتُ ليلى في الوقت الذي بدأت فيه تأمّلاتي تنزلق - بالرغم منّي - نحو أرض لاذعة وغير مُثمرة؛ كارلوس سيبوليدا لم يكن أبي، مَنْ كان أبي إذن؟ ما الذي وقع في طُنْجَة أواخر 1956، تسعة أشهر قبل مَوْلِدِي؟ لماذا استمرّت أسرة سيبوليدا رغم كلّ شيء، في الظهور بمظهر الحياة العائلية العادية؟ كانت تنقصني الخيوط اللّازمة، لكي يُقدّم العقلُ محاولة إجابة. كانت ليلى تحمل في إحدى يديها المَطْرِيَّة والحقيبة اليدوية، وفي اليد الأخرى وعاء بلاستيكيّاً دائريّاً. قَبَلْنَا بعضنا من الشفّتين.

- ما هذا؟ سألتُ وأنا أُشير إلى الوعاء.

- إنه طاجين الدجاج، يا سيبوليدا. فليس لديك - بالتأكيد - شيء ساخن للأكل. اعترفتُ - وأنا أرسم ابتسامة حزينة على وجهي - بأن الأمر فعلاً كذلك.

- لا تقولي لي بأنك تركتني حزيناً، ووحيداً كلّ هذا الصباح، فقط من أجل أن تُعدّي هذا الطبخ؟
- لا، الطاجين أعدّته أمّي.

- من أجلنا؟ غرقت في الضحك وهي ذاهبة باتجاه المطبخ.

- كان بودي أن تكون قد أعدته من أجلنا.

تركت الوعاء فوق منصّة المطبخ. وضعت المطرّة إلى جانب المكنسة والممسحة والسطل. خلعت عنها معطفها المطريّ، وعلّقته على مسند الكرسي.

كانت تلبس بدلة سوداء ذات كمّ طويل، مع تنورة تقف عند حدود ركبتيها. كانت البدلة مشدودة وتسمح ب بروز النهدين الصغيرين المنتصبين، وخصرها الضيق وردّفيها المكتنزتين وعجيرتها الصغيرة الناتئة. لم تكن تُغطّي ساقيها النحيفتين بجوارب نسائية، وكانت تنتعل حذاء كعب عالٍ أحمر اللون.

- أمي أعدت الطاجين من أجل العائلة كلّها، سيتناول الطعام في بيتنا اليوم دزينة من الناس.

- وهذا ما أثار استغرابي - قلت - وكيف تدبّرت الأمر حتّى جلبت لنا هذا القسط الضخم من الوليمة؟

- قلت لها الحقيقة؛ قلت لها إني سوف أتغدى معك، وأن لا وجود لشيء بمنزلك، بالتأكيد غير علب التونة.

- وماذا قالت؟

- كعادتها؛ بدأت تغمغم مُستفسرة الله عمّا اقترفته حتّى تكون لديها ابنة على هذه الشاكلة؛ تترك زوجها، ثمّ ترتبط بنصرانيّ. ولكن الأهمّ في هذا كلّهُ، هو أنها ملأت لنا هذا الوعاء البلاستيكي بأحسن ما في الطاجين. فأُمي على أيّة حال ليست غولاً.

- أنتِ ابنتها الوحيدة، ولا شكّ أنها تُحبّكِ كثيراً. وماذا عن أهلك؟ كيف برّرت له بأنك لن تبقي لتأكلي مع العشيرة؟

رمقثني بنظرة غضب كاذب، وقالت: - لا تُبالغ، هم أناس طيبون. أمّا أبي، فهو لا يخرج عن طوعي، بخلاف أمي.

كان والد ليلى موظفاً بالجمارك، وعلى شاكلة الكثير من أفراد الطبقة الوسطى التقليدية بالمدينة، كان إسباني الثقافة. نشأ في المراكز التربوية الإسبانية، وذهب عدّة مرّات للاستحمام في حمّامات المياه المعدّية للانخارون Lanjarón. حينما أخبرته ليلى بأنها تريد دراسة الصيدلة بعزّناطة، وافق على ذلك دون تحفّظات، ظناً منه أنها يمكن أن تجد عملاً في صيدلية خالها؛ هذا الخال الكثير التدنّ، انتهى رافضاً تشغيلها بعد طلاقها من التّطوّاني. أب ليلى لم يماحك في دعم ابنته، سواء في زواجها أو في طلاقها اللاحق.

- أخبرته، هو بدوره، بأني سوف آتي لتناول وجبة الغداء معك. فقط تتمم ببضع لعنات، لتكون أمي شاهدة على ذلك.

تناولنا الطعام فوق مائدة الصالون الدائرية، ونحن نتابع نزول المطر بالخارج. مكتبة سرّ من قرأ

كان الطاجين لذيذاً، قمنا بسقيّه بإحدى زجاجات نبيذ القصر التي كنتُ اشتريتها في اليوم السابق من عند البقال. لم يكن النبيذ من النوع الجيّد، لكن، كان مقبولاً.

ليلى شربت كأسين بينما شربتُ أنا الباقي. حملنا الصحون والكؤوس وأدوات الأكل المتّسخة إلى المطبخ. وبينما انصرفْتُ لغسلها، راحت ليلى تُفتّش في الأدراج وفي الخزانات.

- عمّ تُفتّشين؟ سألتها.

- عن ماذا سأفتّش؟ عن الشاي الأخضر والسكر والنّعناع. لا تقل لي بأنه لا يتوفّر لديك ما تُعِدُّ به حتّى كأس شاي!

- هذا هو الشيء الوحيد الذي أتوفر عليه. قلتُ ذلك مشيراً إلى الإبريق القصديري الذي تركه لي مالك الشُّقَّة، باعتباره العنصر الذي لا غنى عنه في أيِّ منزل مغربي. بالمناسبة، فهو لم يترك لي ولو فتَّاحة قناني واحدة بالنسبة إلى النبيذ.

- أنتَ كارثة، يا سيبوليدا! اقتربتُ منِّي، وخطفتُ الخرقة التي كنتُ أُجفِّفُ بها الكأس، وأحاطت بيديها خصري، حتَّى أصبح وجهها على مسافة شبر من وجهي. شممتُ في نفسِها عبق التوابل.

- هل فكَّرتَ في تحلية ما بعد الأكل؟ قالتُ.

قبَّلْتُها في شفتَيْها، وأحسستُ كيف أن جوابي عن سؤالها قد راقها. لم يتأخَّر لسانها في الالتفاف وسط فمي كأفعى. رددتُ على هجومها بوضع يدي فوق أردافها، ضممتُها إلى صدري، رغباتنا ذابت في كتلة واحدة مُتوهَّجة. سحبتُ الشفتَيْن من الشفتَيْن، وعدتُ للوراء نصف خطوة، نقلتُ يدي إلى نهدَيْها وداعبتُهما بنعومة. أصدرتُ أنيناً، وفتحتُ عينيها، ونظرتُ إليَّ محمومةً، ثمَّ عادت لتلتصق بي وتمسُد أردافي. تركتُ يداي نهدَيْها، وعادتا لأردافها. كانت الأرداف صغيرة وضيقة كبطيخ مُراكشيٍّ. لا مجال ولو لريشة بين جسدَيْنا الملتصقيْن. عضضتُ عنقها برفق، فأجابت بشهقة أخرى، شعرتُ معها أنني أتلاشى. كانت القُبْل والمداعبات تتهادى ما بيننا كأمواج المحيط. نصف ساعة بعد ذلك، وبعد محاولات فاشلة للولوج إلى كهف كنزها، انفصلتُ بجسدي عنها، واضطجعتُ على جانب من السرير ناظراً إلى السقف في صمت.

أحسستُ برغبة جامحة في تدخين سيجارة، لكنني عدلتُ عن الفكرة، معتقداً أن ذلك سيجعلني في وضع مَعيِب ومثيرٍ للشفقة.

انسحبتُ ليلي من السرير. قالت إنها ذاهبة للاستحمام، وأسرعت

عارية نحو باب غرفة النوم. لم أبعد عنها نظراتي حتّى اختفت. منظرها من الخلف كان رائعاً، ويكشف عن جسد امرأة ناضجة.

صدقتُ علبُ التبغ حين حدّرت من انعكاس المنتج الذي بداخلها على القدرة الجنسية. فلقد دخنتُ كثيراً في السنوات الأخيرة. ولم أنزل عن علبة في اليوم منذ يوم اكتشافي لخيانة كلارا. كما أن قدرتي هذه سوف تتأثر- دون شك - بكثرة من خلال انشغال دماغي بأمر من قبيل مشكلات ألبيرتو، وموت أحمد السبّتيّ، وبابلو مورينو، ولغز ولادتي.

عادت ليلي وهي تلتف بمنشفة كبيرة. مشهد كَتَفَيْها وفخذَيْها العاريّتين، أشعل شهوتي من جديد، شيء ما تحرّك في أسفلي، لكنّ، على غرار المرّات السابقة، كان انتصاباً عابراً. وافقتُ على طلبها بأن تفتح دولا ب ملابسي؛ فلم أكن أخفي فيه لا راقصةً بطن ولا جثةً أو خنجرأ أو مُسدّساً. فقط علبة ورقٍ مُقوّى، تضمُّ بعضاً من حطام أصولي، لم تُثر انتباهها.

فتحت بعض الأدراج، ثمّ عادتُ نحوي تُريني بعض السراويل القصيرة الداخلية وقميصاً داخلياً ذا حمّالات.

- هل يمكنني أن ألبس هذا؟ سأكون مرتاحة أكثر؟

- طبعاً، كلّ ما أملكه هو ملكك. طيّب، ليس كلّ شيء - فكّرتُ - باستثناء هذا الذي يبدو في الأسفل معطوباً. خامرها الخجل، فاستدارت لتُزيل عنها المنشفة، وترتدي الملابس التي قامت باستعارتها.

بعد ذلك استدارت فاتحة ذراعَيْها بطريقة مسرحية، كما لو كانت مقدّمة لعبة سيرك.

- ما رأيك؟

- ذروة في الإغراء، يا أميرة! جلستُ إلى جانبي فوق السرير، ومسدّتُ شَعْرِي.

خرجنا من بيتي ذلك الأحد، في حدود الساعة الثامنة مساءً، بعد سماع آذان الصلاة، وبدء نزول الظلام. توقفت الأمطار، وحملت الريح الغيوم إلى أحد البحرَين اللذَين يحيطان المدينة. كان القمر يكاد يكمل استدارته يسطع في السماء، ويشي بأنه سيكون بدرًا تمامًا في الليلة المقبلة.

مررنا من شارع إنكلترا، ثم شارع المكسيك، نحو ساحة فرنسا، ومن هناك صوب السوق الكبير. كان الهواء باردًا، فراق لنا، وشعرنا بالحاجة لأن نمشي مُتعانقين لولا خشية كلام الناس. علاقتنا وصلت إلى الحد الأقصى الذي يمكن أن تسمح به المدينة الأكثر انفتاحاً في المغرب. حتى طلاق ليلى من زوجها التُّطوَّاني، لم يكن طلاقاً قانونياً. كان بالأحرى طلاقاً فعلياً. هي ببساطة غادرت بيت الزوجية لترتبط بنصراني.

إسبانيا نفسها لم تكن تُيسر الأمور. فإذا شئتُ في هذه الليلة أن أركب مركبة لتعبر بي المضيق رُفقة ليلى، فما كان بمستطاعي فعل ذلك. فهي مغربية، وتحتاج إلى تأشيرة، لكي تطأ التراب الإسباني. وهذا الأمر لا يمكن إتمامه لدى بائع تبغ، بل يتطلب تدابير مُرهقة، وانتظارات طويلة ومعونة إلهية.

الأربعة عشر كيلومتراً التي تفصل طنجة عن السواحل القاديشية، كانت تُشكل حاجزاً لا يقلُّ قسوة عن الستار الحديدي البائد. يبقى أن هذا الحاجز الذي تقوم إسبانيا فيه بدور الحارس الأمين قام ببنائه المنتصرون

في الحرب الباردة، وكان - بصراحة تامّة - عنصرياً. لم يكن أمام الأوروبي أدنى مشكلة إدارية لكي ينزل عند المغربي متى شاء، في حين أن المغربي والأسود لم يكن مسموحاً لهما بالعبور إلى الجهة المقابلة دون إذن مُسبق.

كنتُ أتفهّم استياء العرب من ازدواجية المعايير، لكنني كنتُ مقتنعاً أيضاً، بأن ردّ الفعل الذي يُبشّر به ابن لادن، ويمارسه كان عنيفاً جداً، وذا آثار عكسية تماماً، فقد كان يقوم برّي تربة التمثّلات الغربية المُسبّقة حول العرب، ويُقدّم في الوقت ذاته مُبرراً للحملات الإمبريالية كتلك التي يقوم بها بوش.

عشرات الملايين من البشر الذين ماتوا خلال القرن العشرين بسبب هؤلاء الرعاع الذين يستخدمون الوطن أو الدّين من أجل إيذاء الآخرين. وهذه النوعية ما تزال تحمل في يدها عصا رئيس الجوقة الموسيقية، في الزمن القليل، ممّا عشناه من القرن الواحد والعشرين.

قامت ليلي بإمساكي من ذراعي عند وصولنا إلى السوق الكبير.

- يا للغرابة! - قالت - ما لك صامتٌ هكذا؟! ابتسمتُ دون فرح، وقلتُ:

- كنتُ أفكّر في أن الحواجز التي يرفعها البشر، هي أكثر قدرة على تعقيد حيواتنا من الحواجز الموجودة في الطبيعة. فعبور المضيق لا يطرح صعوبات مادّية، لكنه شبه مستحيل بالنسبة إليكم، إذا أردتم القيام بذلك بطريقة شرعية.

توقّفتُ ودندنتُ في أذني شيئاً من الفلامينكو. تبيّنتُ بوضوح الجمل التالية: "هَبْنِي حُرِّيَّةَ مَاءِ الْبَحَار، هَبْنِي حُرِّيَّةَ الْهَوَاءِ، هَبْنِي حُرِّيَّةَ عَصَافِيرِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ".

- هل تعرف ما هذا؟ سألتني.

- لا أدري، قلتُ.

- نعم، إنها أغنيّة جميلة للبيرخانو Lebrijano مع الأوركسترا الأندلسية لطنجة. سمعتها لأول مرّة في إحدى حانات حيّ البيازين Albaicín حين كنتُ أدرس بعزناطة.

- أشياء كثيرة تعلّمتها في عزناطة!

- نعم، تعلّمتُ بعض الأشياء، لكنّ أهمّ ما تعلّمتُهُ، هو أن الحرّية ليست مرضاً، بل هي دائماً الدواء.

كنّا بباب المدينة القديمة، تحت قوس باب الفحص الشبيه بحدوة فرس. حان وقت تفرّقنا، فدسستُ أصابعي في شعْرها، مُحاولاً العبث به دونما جدوى. شعرتُ وأنا ألمس تجعيدات شعْرها المتماسكة بلذّة غريبة في أطراف أصابعي، أمّا هي، فقد تركتني أفعل دون ممانعة.

- هل يُعجبك أن أقوم بتنعيم شعْري؟

- لا تُفكّري إطلاقاً في هذا. تُعجبيني، كما أنتِ، ويُعجبني فيكِ هذا السواد الذي تركه في شعْركِ وشفَتَيْكِ أحد أسلافكِ الأفاقة.

- حدّقتُ في عينيّ بتركيز، ثمّ قالتُ:

- أراك حزناً، يا سيبولبيدا. لقد لاحظتُ حزنك منذ دخولي شقَّتكَ - نطقتِ الجملة الأخيرة بتباطؤ مقصود، ولعلّها فعلتُ ذلك لتفهمني، بأنها لا تربط حالتني النفسية بفشلي الجنسي - هل حدث شيء جديد ليس لي به علم؟

- لا - قلتُ كاذباً - فقط موضوع ألبيرتو الذي لم يُسوَّ بعدُ، ثمّ أتت بعد ذلك الضربة المؤلمة لمقتل زميلي. هذا الألم كلّهُ مُحتملٌ جدّاً أنه قد نجح في هرْمي في يوم الأحد هذا. لا بدّ أن يكون هذا هو السبب. لم أكن

أريد أن أوجع ليلي. لم يكن ذلك عدلاً؛ يكفيها أنها تُقاوم من أجل حرّيتها في وسط مُعاد. يوماً مّا، سأحكي لها عن حكاية والدَيّ، لكنّ هذا سيأتي لاحقاً، حين تتبدّد عواصف هذا الربيع الثاني من الألفية. ربّما حين تتمكّن من أن نكون معاً، مُتعانقين في إحدى أكشاك تاريفة Tarifa مُتأملين منظر الغروب من الضفّة الأخرى للمضيق، مُتمتّعين بكامل حرّتنا.

قبّلناها على خديّها قبلة وداع محتشمة، مُتمنّين لبعضنا ليلة طيّبة، وبداية أسبوع سعيدة.

عدتُ لشقّتي، وعند وصولي إلى شارع إنكلترا، التقيتُ مُصادفة بموكب بهيج من الغناء والرقص على إيقاع آلات "الغيطة" والطبول. كان يرافق الموكب هودجٌ مُغطّى بأثواب بيضاء، ومحمولاً من أربعة شبّان مُجلّبين. كانت بداخل الهودج عروسٌ، في رحلتها ما بين بيت أبيها وبيت زوجها. من خلال هذا العبور الذي يُسمّيه مغاربة الشّمال بالعمّاريّة أو البوّجة، تتأكّد انطلاقة موسم الأعراس.

تعشّيتُ كأس حليب مع موزة. ومضيتُ أتصل بالهاتف مع أليسيا. أجبني الصوت النسائيّ المُسجّل الدّاعي لترك رسالة بالعربية أو بالفرنسية. وكذلك فعلتُ، قلتُ لها بأن تُخصّص بعض الدقائق من وقتها للاتّصال بي. ردّت أليسيا على اتّصالي بعد نصف ساعة، في الوقت الذي كنتُ فيه أبتلع قرصاً مُنوّماً، وأستعدُّ للذهاب للفراش صُحبة كتاب.

- كيف حالك؟ هل تمكّنت من الاستراحة قليلاً؟ سألتها.

- اليوم، نعم استرحتُ قليلاً، وأنتَ؟

- وأنا كذلك، ولكنني لم أكن محتاجاً إلى الراحة مثلما أنتَ محتاجة إليها. فلستُ أنا الذي قضيتُ السبت في إجراءات تسفير الجثة.

- لا تُذكرني بذلك!

- أجل، لن أفعل ذلك. لقد اتّصلتُ بكِ من أجل شيءٍ محدّد. لقد خطر ببالي أنه غداً صباحاً، وقبل الذهاب إلى القِسم، يمكن أن أذهب للقاء بالمفوض بوعلي، لأذكره بأننا رهن إشارته في كلّ ما يحتاج إليه.

- لا أظنّ، يا سيولبيدا، أن الشرطة ستكون محتاجة لدعوة حتّى تحشر أنفها حيث تريد.

- طبعاً، أعرف هذا، هو من باب اللياقة فقط. مع هؤلاء الناس، من المهمّ الحفاظ على علاقات جيّدة. أشعرني الصمتُ الذي ران على الجهة الأخرى من الخطّ، بانطباع مفاده أن اليسيا لا تبدو جدّ مُقتنعة.

- ثمّ إني - قلتُ متابعاً - أعترفُ لكِ بأنّي أُحبُّ أن أكون مفيداً. فأنتِ وحدكِ من تنوئين بهذا الثقل كلّه.

- إذا كنتِ مُصرّاً - أردفتُ - فليكن، ولكن، لتكن زيارةً مجاملةً محضة، كما قلتِ أنتِ. قدّمُ له احتراماتنا، وقُلْ له بأننا ما نزال رهن إشارته، ولا مجال من جانبك لأن تتظاهر بالذكاء معه.

- لا، وقبل أن أبدأ درسي، سأمرُّ لرؤيتكِ في مكتبكِ.

- واخا، يا سيولبيدا. على فكرة، هل أخذتِ اللعبة؟

- نعم، رئيستي. لم تكن تحتوي على شيءٍ ذي بال، قلتُ وأنا أعود للكذب مجدّداً. من خلال الشُرّة تابعتُ انفجارات الشُّهب الاصطناعية في مكان ما قريبٍ من سُقّتي. لا شكّ أنه عرس العروس المُحبّبة التي التقيتها من قبل. لكن ذلك لم يمنعني من النوم.

كان صباح الاثنين مُشمساً. فتحتُ باب الشُّرفة للاحتفاء بذلك اليوم،
وحين امتلأت رئتاي هواء بارداً، تأكَّدْتُ بأنه يومٌ عطريٌّ من تلك الأيام التي
تعبق فيها طُنْجَة، بأجمل ما فيها من نبات وزهر وبحر. وعلى الشُّرفات
وفوق الأسطح عادت ترفرف ثياب الغسيل المُعلَّقة. ثلاثة نوارس حطَّت
فوق لاقط تلفزيوني صَدِيٍّ. تستولي عليَّ الدهشة وأنا أرى هذه الطيور
البحرية، تتوغَّل بعمق في المجال الحضري. يقال إنها لا تجد ما يكفيها من
أسماك بالساحل، فتأتي لتستكمل نظامها الغذائي بفضلات البشر. كيفما
كان الحال، فحضورها يزكي طابع المدينة، كباخرة عابرة للمحيطات.

في الوقت الذي كنتُ فيه أغتسل وأحلق ذقني، دخل بعض الذباب
إلى الشُّقَّة؛ كان الأوَّل من نوعه في الأشهر ذات الطقس الحارَّ. رفعتُ صوتي
شامتماً. لم تكن معنوياتي على ما يرام. تراكمتُ لديَّ أوجاعٌ مُتعدِّدةٌ: وجعُ
الحبوب المُنوَّمة ووجعُ إخفاقي الجنسي ووجع الأحداث التي أَلقت عليَّ
بظلالها القاتمة منذ شهرين. تمشَّيتُ حتَّى وصلتُ إلى سقيفة صالون
الشاي لآيسكينا La Esquina وهناك استقرَّ بي المقام، لأتناول وجبة
فطوري. اقترب مِنِّي حميد، وسألني عن حالي.

- كيف أنتَ، يا سنيور؟ Kif enta ya, señor

- أنا في حال جيِّدة، يا خايمي Jaime وأنتَ؟ كيف حالك؟ لا باس La-

?bas

- لا باس، الحمد لله، La-bas, al hamdulilá هل تلمّع لي حذائي؟

- أجل، تفضّل. فأمطار نهاية الأسبوع جعلت الحذاء تبتلاً.

- الملك قادمٌ، قال حميد بنبرة صارمة، وهو يفتersh مقعده، ويفتح صندوق الخرق والدهانات. لم أفهم قصده، فقلت: - من القادم؟

- الملك، الملك، malik ياسنيور، سيأتي إلى طنجة قريباً.

- آه، لهذا هم الآن بصدد صباغة ممرّات الراجلين، وحواف الأرصفة بالأحمر والأبيض؟ عند دخولي البولفار لاحظتُ بعض العمال منشغلين بهذه الأعمال، لكنني لم أعر لهم كثير انتباه.

- أجل، سوف ينصبون بالشوارع أعلاماً وأضواء، وسيجعلون كلّ شيء جميلاً.

- يا للروعة! - قلتُ، مُحاولاً مداراة عدم اقتناعي - يقولون، إن هذا الملك تُعجبه طنجة كثيراً، هل هذا صحيح؟

- نعم، تُعجبه كثيراً، لم تكن تُعجبُ أباه، أمّا هو، فتُعجبه منذ حضوره لحفل عيد ميلاد المستر فوريس Forbes.

كنتُ قرأتُ بعض الأشياء عن هذا الحفل في بعض كُتب المذكرات. في شهر أغسطس، من العام 1989، حين مرّ زمان طويل على الحقبّة الدولية، ودخلتِ المدينة في حالة من التدهور، أقام الملياردير الأمريكي مالكولم فوريس Malcolm Forbes عيد ميلاده السبعين، وهو ما سيُعدُّ آخر أكبر سهرات طنجة الباذخة في القرن العشرين.

كان فوريس، هو مالك المجلّة النيويوركية التي تحمل اسمه العائلي، وتختصُّ بثروات كبار الأثرياء. ولكن، ما كان معروفاً عنه أكثر، هو نزواته الطفولية؛ فقد كان يهوى السفر في بالونات الهواء الساخن، وكان له بضع منها في قصره الخاصّ بفرنسا. كما عُرِفَ عنه هواية جمع قطع صغيرة

لجنود مصنوعين من الرصاص، وحفظها في إقامته الطنجية بقصر المندوب Mendub بحَيِّ مَرَّشَان، البناية التي صُوِّرت فيها العديد من مشاهد أحد أفلام جيمس بوند James Bond. احتفالاً بعيد ميلاده، استدعى فورييس لقصر المندوب ثمانمئة من أثرياء ومشاهير جهتي المحيط الأطلسي. بعضهم أتى على متن طائرته الخاصة، واستقبل بأسفل سلالم القصر بصخب الموسيقيين والراقصات ولاعبي الحركات البهلوانية، وآخرون أتوا على متن يُخوتهم ومركباتهم الشراعية، وألقوا بمراسيهم بكل فخامة في خليج طُنْجَة، كما فعل قيصر ألمانيا، غيـرمو الثاني Guillermo II في العام 1905 كانت ترافق المضيف إليزابيث تايلور Elizabeth Taylor، شريكته الرسمية آنذاك. ولم تُعرف مِثْلِيَّة الرجل إلا بعد موته، حيث اتَّضح أن مرافقته للممثلة لم تكن إلا ذرّاً للرماد في العيون.

استرجعتُ هذه القصص حول هذا الحفل لأسباب مهنية؛ كان هذا الحفل أيضاً، آخر حفل حضره بول بولز. كانت جين قد رحلت عن هذا العالم بسنوات، وأصبح بول عجوزاً استعاد جاذبيته بفضل الإيطالي برتولوتشي Bertolucci الذي صوّر في طُنْجَة للتو فيلم "السماء الواقية" El cielo protector المُقْتَبَس من رواية بولز الأكثر شهرة.

تقول التقارير التاريخية، إن بولز أتى إلى قصر المندوب على متن سيارّة فورد موستانغ Ford Mustang ذهبية، يسوقها سائق. فرغم أن بولز كان يعيش في شُقّة متواضعة من شُقق عمارة إيتسا Itesa القريبة من القنصلية الإسبانية، إلا أنه كان يحافظ على أخلاق النبلاء. تمكّنتُ من طلب قهوة مضاعفة، وعدتُ للتركيز مع حميد، الذي كان يُلمّع فردتي اليمنى.

- طبعاً، حفل فورييس. ولكنّ ما لا أتذكّره هو حضور محمّد السادس في هذا الحفل.

- لقد كان حاضراً، يا سنيور. الحسن الثاني لم يرغب في المجيء. لم

تكن تُعجبه طُنْجَة، لكنه أرسل من الرِّبَاط ابْنَيْه؛ الأمير الوريث وأخاه مولاي رشيد. كما أرسل الكثير من فِرَقِ الخِيَالَة.

- الخِيَالَة؟

- نعم، الكثير من الخِيَالَة - قال حامد مبتسماً - لإقامة حفل فانتازيا، بنادي الكولف الملكي. لهذا فقد تمَّ استعمال البارود أيضاً في حفل التوديع ذاك لمليونير ولمدينة ولمرحلة. وقد أرسل الحسن الثاني فرسانه الأكثر حُنْكَةً وتجربة، لكي يُمَثِّلُوا أمام فوريس وضيفه هذا الاستعراض الترفيهي المغربي الذي يُسمَّى الفانتازيا أو التبوريدة، استعراض يشمل قيام فرقة بإطلاق خيولها في حلبة الركض، وإصدار طلقة واحدة من بنادقها التقليدية في كامل الانسجام. كانت في الحقيقة هدية لاثقة.

- وأنتَ تعتقد، يا خايمي، أن الأمير محمَّد، أي الملك الحالي، قضى أوقاتاً ممتعة في ذلك الحفل. ومن ثمَّ أصبح مُغرماً بهذه المدينة؟
- هذا ما أظنُّه، يا سنيور.

كانت مُفَوَّضِيَّة شرطة طُنْجَة تحتلُّ جانباً من الساحة الواسعة المُشْجَّرة التي كانت تتميز بواجهتها الرئيسة المتمثِّلة في الكنيسة الفرنسية، سيِّدتنا العذراء Notre-Dame de l'Assomption والقديسة جين دارك Sainte Jeanne D'Arc.. يعود تاريخ هذا المعبد إلى أزمنة طُنْجَة الدولية. ورغم اسمه الباروكي، فقد كان معبداً بسيطاً وحادَّ الشكل، كما لو كان معبداً كالفينيّاً. من جهته كانت البناية البوليسية مكتنزة وذات أربعة طوابق وجدران مَطْلِيَّة بالبحص. وبدل النوافذ كانت تتوفَّر على مُتَنَفِّسات تحجبها شبابيك. كانت "مُفَوَّضِيَّة شرطة طُنْجَة" Prefecture de Police de Tanger مكتوبة فوق لوحة رخامية ذات لون رمادي بأحرف مَعْدِنِيَّة. وحول البناية كانت تقف سيَّارات عربات الأمن الوطني.

كنتُ هناك، بعد أن قُمتُ بواسطة هاتف نوكيا، وأنا في صالون لإسكينا،

بانتزاع موعد لي مع المفوض بوعلي. لم يُخَفِ هذا الأخير انزعاجه من اللقاء الذي اقترحتُهُ، لكنه، في النهاية، قال لي، إنه إذا ما أُتيتُ في الحال، سوف يُخصَّص لي خمس دقائق. صَعِدْتُ سلالم المدخل، وولجتُ الرَّدْهَة. لم يكونوا قاموا بعدُ بنصب كاميرات مراقبة ولا القوس الكاشف للقطع المعدنية، ولكنني افترضتُ أنهم لن يتأخروا في فعل ذلك. اتَّجَهْتُ نحو الشُّبَّاك الصغير لطلب المعلومات، وهناك واجهتُ أشكال الممانعة كُلَّها التي تستقبلُ بها الشرطة، عادة في كُلِّ بقاع العالم، مَنْ لجأ بمحض إرادته لقلاعها: مَنْ أكون؟ وهل يمكن أن أقدم وثائق هويتي؟ أمسك الشرطيُّ ذو الرِّيِّ الرسمي الذي كان يرعى طلبي بجوازي، كما لو كان مُوظَّف بنك جشعاً، يُدبِّر مَّدْخَرات سيِّدة عجوز. تصفَّحَ الجواز، وقام بتسجيل بعض الأمور في سِجَلٍّ. ما هو عملك في المغرب؟ أين تسكن؟ وعاد للتدوين مرَّةً ثانية، ثمَّ لماذا تريد رؤية المفوض بوعلي؟ هل لسبب شخصي؟ هل لديك موعد؟ ثمَّ عاد ليُدوِّن للمرَّة الثالثة. لم يصغ جملته الأخيرة في صيغة سؤال، بل في صيغة أمر: عليَّ الجلوس والانتظار حتَّى يقوموا هم بإخطاري. وأشار إلى المقعد الخشبي الطويل الذي كان يحتلُّه مجموعة من الناس.

اندسستُ ما بين امرأة بدينة تلبَّسَ جِلْبَاباً ومنديلاً، وملاحها تثير الشفقة، وفتى وسيم يرتدي سروال جينز وسترة بلاستيكية، ويعتمر قُبْعَة بايسبول beisbol. حيثُ الجميع بصيغة: السلام عليكم Salam Aleikum وردُّوا عليها كما تقتضي الأصول. كانت الرَّدْهَة تعبق برائحة المُطَهَّر. أحد التُّدُلِ اخترقها، قادماً من الشارع ويده صينية نحاسية مليئة بكؤوس القهوة بالحليب، ثمَّ اختفى في أحد الممرَّات.

فكَّرتُ - باستياء - كيف لم تُطلَب منه أوراؤه؟ بعد ذلك، ظهر مُوظَّف برزِّي مَدَنِيٍّ، اقترب من مَقْعَدنا، وصرخ في وجه الفتى الوسيم، بأربع جمل بالدارجة، ثمَّ استدار واختفى من حيث أتى.

شعرتُ بالارتياح لأنني لم أكن المقصود بذلك التوبيخ. بعد ربع ساعة،

وجدتُ نفسي بمكتب المُفَوَّض بوعلي. ورحتُ أَشْغَلُ ما خطر بذهني من سفسطة، في محاولة مني، لاستخلاص ما يمكن أن يُلقَى بعض الضوء على موضوع براءة ميمي أو ضلوعه في جريمة قتل بابلو مورينو.

- قيل لي، أيُّها السيّد المُفَوَّض *monsieur le commissaire*، بأنكم تتقدّمون بسرعة في التحقيق. ويبدو أنكم قد توصّلتُم إلى أحد المشتبه بهم، قلتُ بعد أن أُلقيتُ عليه التحية. كانت هذه هي المعلومة التي أدلى بها أرسينيو نوغيرا في أثناء وجبة الغداء في إقامة القنصل. راحت عينا المُفَوَّض المُتعبَتان خلف نظّارة قَصَرَ النّظر، تستطلعانني بارتياح، وقد تباطأت شفتاه الغليظتان البنفسجيتان في الإفصاح عن إجابة ما:

- وَمَنْ قال لك هذا؟

- يمكن لك أن تتصوّر ذلك، سيّدي المُفَوَّض، ولكن، اطمئن، سرُّك في بئر.

هذا ما يقوله الكلُّ، يا موسيو سيبوليدا، ولكن، إذا كان هذا الأمر صحيحاً، فلستُ أدري بماذا ستملأ الجرائد صفحاتها.

ابتسمتُ من التعليق الحكيم للمُفَوَّض.

- من جانبي، يمكنك أن تكون مُطمئناً لسرّيتي، بقدر اطمئنان أولئك الذين أفضوا لي بالمعلومة. قَرَصَ بوعلي شاربه الصغير الأشيب. كانت تنتصب خُلف ظهره صورة الملك محمّد السادس. في الحقيقة، كان بالإمكان رؤية وجه الملك في كلِّ مكان، مثلما كان ذلك ممكناً خلال الأربعين سنة التي خَلَّتْ تقريباً، مع صور الحسن الثاني. يمكن مشاهدته بجلباب الصلاة الأبيض، أو هو يشرب الشاي بالنّعناع، أو يرتدي بدلة عسكرية مُموّهة، أو يلبس سترة وربطة عنق، أو هو يشمُّ تَفَاحة في أحد الأسواق، أو هو يقرأ القرآن. كان من الممكن مشاهدته بمئات الطُّرُق. كانت صورته تصدر المتاجر والمقاهي والمطاعم. أمّا في مُفَوَّضِيّة الشرطة، فقد كانت أعدادها كثيرة.

- مَنْ حَدَّثَكَ عَنْ هَذَا لَهُ مَقاييسه، وَأَنَا لِي مَقاييسي، أَجَابَ الْمُفَوَّضُ
بوعلي بانغلاق شبيه بانغلاق محَّار شاطئ الوليدية - ومقاييسي تقول، إنه
يَحْرُمُ عَلَيَّ التعليق على التحقيقات الجارية، عدا مع رؤسائي.

- حَسناً تَفْعَلُ، سَيِّدِي الكوميسير. أَنَا أَحْرِصُ فِي عَمَلِي عَلَى فَعْلِ الشَّيْءِ
نَفْسِهِ. لَكِنْ، لَا تَفْهَمُنِي خَطَأً، أَنَا لَا أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَكْشِفَ لِي عَنْ شَيْءٍ
مُعَيَّنٍ - قُلْتُ ذَلِكَ وَأَنَا أَحَاوِلُ أَنْ أَكُونَ مُسْتَرْخِياً وَكَأَنِّي فِي جَلْسَةِ أَصْدِقَاءٍ،
وَأَنْ أَجْعَلَ لُغَةَ جَسَدِي تُرْسِلُ الْخَطَابَ نَفْسَهُ الَّذِي تُرْسِلُهُ كَلِمَاتِي - أَنَا أَعْلَمُ،
أَنْكُمْ تَحَدَّثْتُمْ مَعَ جَارَةٍ، اصْطَدَمْتُ فِي الْبَوَابَةِ مَعَ قَاتِلِ الْأُسْتَاذِ بَابِلُو مَورِينو.
وَهَذَا بِصِرَاحَةٍ خَبَرَ مُفْرِحٍ، وَمَعْهَدُ ثِيرِيَانْتِيسِ يَتِمَنَّى أَنْ تَتَحَقَّقَ الْعَدَالَةُ فِي
أَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ.

- سَوْفَ تَتَحَقَّقُ، لَا تَقْلَقُوا. الشَّرْطَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ لَدَيْهَا مُعَدَّلَاتٌ عَالِيَةٌ جَدًّا
فِي حِسْمِ جَرَائِمِ الْقَتْلِ. هُنَا مِنَ النَّادِرِ جَدًّا أَنْ تَظَلَّ هَذِهِ الْجَرَائِمُ دُونَ عِقَابٍ.
- نَعْرِفُ ذَلِكَ، كُومِيسِيرٍ، نَعْرِفُ ذَلِكَ. نَحْنُ مُتَيَقِّنُونَ بِأَنْكُمْ لَنْ تَتَأَخَّرُوا
فِي إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَى هَذَا الْمَشْتَبِهِ بِهِ - عَلَّمْتُنِي الْحَيَاةَ إِلَّا أَسْتَهِينُ بِسُلْطَةِ
الامْتِدَاحِ، لِذَلِكَ لَاحِظْتُ أَنَّ الْمُفَوَّضَ بَدَأَ يَتَخَلَّى عَنْ حَذَرِهِ - أَمْسَ، قَلْتُهَا
لِمَدِيرَتِي؛ لَا بَدَأْنَا فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ، سَوْفَ تَكُونُ لَدَيْنَا أَنْبَاءٌ طَيِّبَةٌ عَنْ
هَذَا الْمَوْضُوعِ. فَحَسَبَ مَا قِيلَ لِي مِنْ مَصَادِرِي، فَإِنْ لِلْمَشْتَبِهِ بِهِ لَحِيَّةٌ
مُمَيَّزَةٌ جَدًّا. هَذَا قَدْ يَسَاعِدُكُمْ.

- أَيِّ لَحِيَّةٍ؟ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ لَحِيَّةٌ. قَالَ وَعَيْنَاهُ تَنْطِقَانِ دَهْشَةً.

- مَعْذَرَةٌ، لَا شَكَّ أَنِّي وَقَعْتُ فِي لُخْبَةِ - قُلْتُ، وَأَنَا أَحَاوِلُ إِخْفَاءَ سِرِّي
مُظْهِراً تَجَهُماً طَارِئاً - عَلَى آيَةٍ هَالِكَةٍ، فَلَنْ أَشْغَلَكَ أَكْثَرَ، سَيِّدِي الْمُفَوَّضُ، مِنْ
الْوَاضِحِ أَنَّ لَدَيْكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْإِنْشِغَالَاتِ.

كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ، هُوَ أَنَّنِي - كَمَا سَبَقَ وَقُلْتُ لَكَ عَبْرَ الْهَاتِفِ - أَتَيْتُ
لِنَقْلِ لَكَ تَحِيَّاتِ مَدِيرَتِي، وَأُكَبِّرُ لَكَ، بِأَنَّ أَبْوَابَ مَعْهَدِنَا مَفْتُوحَةٌ أَمَامَكَ

في أي أمر تحتاجه. أنا في انتظار الأخبار الطيبة، وأشكرك لكونك خصّصت لي هذه الدقائق.

تنقّستُ بعمق وأنا أظأ من جديد ساحة الكنيسة الفرنسية. بعد ذلك أشعلتُ سيجارة، وشرعتُ في ترتيب افتراضاتي. تطلُّ رواية ميمي مدعومة بتصريح الجارة للمفوّض بوعلي؛ رجلٌ ثانٍ، لكن، هذه المرّة حليق، خرج فارّاً من المبنى الذي كان يقطنه بابلو مورينو ليلة وقوع الجريمة. ومن المُحتمل أن يكون هذا الأخير قد كان ميتاً فعلاً، في الوقت الذي وصل فيه المحامي ذو اللحية الفرعونية إلى شقّته.

ألقيتُ بعقب السيجارة على الأرض، ورحتُ أتسلّى مُتأملاً وسط الساحة. كانت هناك حديقة ألعاب صغيرة، بها أراجيح وألعاب ترحلُ، حيث كان يصخب أطفالٌ صغارٌ وطفلاتٌ تحت أنظار أمهاتهم.

إذا كان من شيء مّا، في المغرب واسع الانتشار، فهو - بالإضافة إلى صور الملك - الأطفال والمراهقون والشباب. فثلثا أعمار السكّان يقلّان عن الخمس والعشرين سنة. ركّزتُ نظري باتّجاه الوسط، عند مخرج الساحة، وتوقّفتُ أمام بائع عصير برتقال مُتجوّل. كان بإزائه صفٌّ من الرجال الذين يحملون وثائق؛ هذه المنطقة من المدينة هي منطقة أوراق وإجراءات رسمية. لا بأس من الانتظار.

كان البائع يقطع البرتقال بسكّين، ويستخرج عصيره يدوياً بواسطة عصارة بلاستيكية. كانت طراوة العصير أمراً مضموناً. أدّيتُ للبائع خمسة دراهم، وهي أقلُّ من يورو، وتنحّيتُ بعض الأمتار لأشرب العصير متأملاً شجرة رائعة من صنف أشجار البونسيانية الملكية flamboyán. من بين أوراقها الخضراء اللامعة، كانت تبرز أزهار ذات لون أحمر برتقالي. اقترب شخص من الشجرة، وبدأ يتبوّل على جذعها.

عُدْتُ من المنطقة الإدارية إلى المنطقة الإسبانية. كان عليّ تقديم حصصي الصباحية، فدافعُ الضريبة - حسب ما قد تقوله لي أليسيا - لا يدفع راتبي مقابل القيام بمهمّة مُحَقِّقٍ هاوٍ.

وصلتُ إلى الزاوية من شارع محمّد الخامس، وأنا أفكّر في التالي: إذا كان ميمي يقول الحقيقة - وهو ما صرّحتُ أكثر ميلاً إلى تصديقه، انطلاقاً من حديثي القصير مع المفوّض بوعلي - فإن شخصاً آخر - قد يكون ذلك الحليق الذي التقتُ به الجارة - هو مَنْ قام بذبح بابلو مورينو، قبل مجيء ميمي.

قد يكون بابلو مورينو قام - دون مبالاة - بفتح الباب، ظناً منه أنها الزيارة الرومانسية المنتظرة. وفي هذه الحالة، مَنْ كان هذا الشخص؟ ولماذا فعل ما فعل؟ فرضيةُ تعقّب الضحية، ثمّ القيام بتصفيته انطلاقاً من سوء فهم، بدأتُ تستعيد من جديد مصداقيّتها. لكنني لم أكن قادراً على طرحها أمام المفوّض بوعلي، ولا أمام أيّ كان باستثناء شكري، دون الإفصاح عن شكوكي حول كوني كنتُ المُستهدف الأصلي بالجريمة، ودون الكشف عن مشاركتي غير المباشرة في موت الجهادي أحمد السبّئيّ.

عادت فكرةُ أن الأمر الأوّل كان له ارتباط بالأمر الثاني لتسيطر على تفكيري بقوة.

مررتُ أمام المتجر الذي فتحه الإسباني أدولفو دي بيلاسكو Adolfo

de Velasco بشارع محمد الخامس. كان دي بيلاسكو خبير آثار، ومُصمّم ديكورات، وخبّاط ألْبسة نسوية. كان وسيماً جداً وكثير الإبداع، وكان أوّل مَنْ صمّم قفاطين خاصّة بالنساء الأوروبيات. الآن أصبح مُسنّاً، لكنّ، في أيّامه الزاهية، كان عشيقاً للإنكليزي دافيد إيدج David Edge الذي كانت تقام ببيته بالقُصبة، حفلاتُ كان فتية مغاربة ذوو أجساد منحوتة، يرتدون خلالها أزياء أميرات الماهراجا الهندية.

بلغتُ النقطة التي يتحوّل فيها شارع محمد الخامس إلى بولفار باستور. تركتُ على يميني فندق رامبرانت Rembrandt، حيث أقام تينيسي وليام مع نهاية الأربعينيات. صادفتُ في طريقي امرأة مُتشحة بلباس حدّاد من قمّة رأسها إلى أخمص قدميّها، نظير مثيلاتها في بلدان الخليج العربية. كانت كذلك، تُغطّي يديّها بقفّاز، ولم تنجُ من زبّها السجنيّ الأسود سوى عيناها. استنتجتُ من خلال هيئتها المتصلّبة وطريقة مشيها الثابتة، أنها كانت شابّة، وأنها كانت إمّا خطيبة، أو زوجة لأحد أولئك الإسلاميين ذوي اللّحي الكيلوميتريّة. هذه العيّنة التي كانت تستورد للمغرب إسلاماً سعودياً غريباً عن حيوية المغاربة وطبعهم المرح. عند وصولي أمام متجر العطور المدنيّ Madini، تذكّرتُ ريبالدو الذي لم أراه منذ يوم الخميس، حين كلّفته بأن يحاول التحرّي، ما وسعه الأمرُ في متجر المدينة القديمة، عن مُشتري بطاقة الدّفْع المُسبق الذي أرسل إليّ الرسالة النّصيّة القصيرة. كانت المراكز التربوية الإسبانية قد أغلقت أبوابها إعلاناً للحدّاد بعد مقتل بابلو مورينو، وطوال نهاية الأسبوع لم يصلني أدنى خبر عن بائع الحُمص المُغلّي. شعرتُ بالارتياح وأنا ألمحُ خلف عربته الصغيرة، قُبالة مدخل ثيبيرو أوشووا. لم تهتدِ الشرطة إلى ربط صلة بينه وبين جريمة بني مكادّة. أو لعلّها - فكّرتُ - قد لا تكون مهتمة ببذل الكثير من الجهد من أجل حلّ لغز مقتل جانح تحوّل إلى جهادي، وعلى أيّة حال، فالأمر كان في صالحنا.

كان ريبالدو وحيداً؛ فلم يكن الوقتُ وقتَ استراحةٍ ولا وقت دخول وخروج بالنسبة إلى التلاميذ. ما زال لم يعد لارتداء قميص لاعبه المفضّل. لمّا رأيَني بدت الفرحة على وجهه.

- سيولبيدا! لا باس؟

- على أحسن ما يرام، خاي. أنا أفضل بكثير من البارصا. وأنت؟

- الحمد لله. لديّ بعض الأخبار من أجلك.

- يا للروعة! ولكن، لماذا لم تُوافني بها خلال نهاية الأسبوع؟

- أنت الذي قلتَ بأنه يتعيّن علينا أن نكون حذرين. لهذا السبب لم أتصل بك هاتفياً، ولم أزلُك في بيتك. فالشرطة لديها الكثير من العيون والآذان.

- معك حقّ. نظرتُ حولي، رأيتُ أن هناك أيضاً عمالٌ يُلْمعون حوافّ الأرصفة وممرّات الراجلين. بعضهم كان يغرس سوارٍ في الأرصفة، افترضتُ أنه سوف يتمّ كساؤها بالأعلام الحمراء ذات الطابع الأخضر للخاتم السلیماني. علّقتُ على هذا التدافع قائلاً:

- يبدو أن الملك محمّد السادس سوف يقوم بزيارتنا.

- أجل، سوف يأتي. هناك شرطيّ قال لي بأنه عليّ أن أزيل العربة حين يصل غداً أو بعد غدٍ. هم لا يريدون الإفصاح عن الموعد ب... كيف يقال ذلك بالإسبانية؟

- بـ "دِقَّة" - أكملتُ - ولعلّهم بذلك يفعلون خيراً. تصوّر أن تكون أنت مثلاً، انتحارياً من تنظيم القاعدة، وتُخطّط لتحويل عريتك إلى قبلة. مَنْ يدري؟ في هذه الأوقات، كلُّ شيء أصبح ممكناً. ضحك ريبالدو، فاسترعى انتباهي - لأول مرة - فراغُ الناب الذي كان ينقصه في فكّه الأعلى.

- لا، يا سيبوليدا. هم يفعلون ذلك، لأن الذين يُسيِّرون شؤون المدينة لا يريدون للملك أن يتعرَّف على الطريقة التي يحصل الشعب بها على قُوت يومه.

- معكَ حقُّ. لا بدَّ أن يكون ما تقوله صحيحاً. لكن، قل لي، ما هي هذه الأخبار؟

- ذهبتُ إلى محلِّ الاتصالات الهاتفية بالمدينة القديمة، قُرب الجامع الكبير Yemaá Kebira. كان الازدحام شديداً. الكلُّ أصبح مَهووساً بالهواتف، إنها الموضة الآن في المغرب.

- في المغرب وفي كلِّ مكان، آخاي. لا بدَّ أن تشتري لك واحداً. لمعتُ عينا ريبالدو رغبةً، ففكرتُ في أن أقوم بإهدائه واحداً.
- ثمَّ ماذا؟

- انتظرتُ، حتَّى شرع مالك المحلِّ في إغلاق محلِّه، وبقي وحيداً. بدا مُزعجاً حين سألتُه، ولكن، حين أظهرتُ له الخمسمئة درهم...
- انطلق لسانه؟

- تماماً، انطلق لسانه، وأخرج دفترأ كبيراً، يُدوّن فيه البطاقات التي يقوم ببيعها. يفعل ذلك تحسُّباً للشرطة التي قد تأتي إلى المحلِّ، لتسأله عن إحداها.
- ثمَّ ماذا؟

- هذه البطاقة، يا سيبوليدا، اشتراها نصرانيُّ يتحدَّث العربية، ولكن، بلُكنة إسبانية. صاحب المحلِّ سجَّل ذلك في دفتره، ولقد اشترى منه الإسباني عشر بطاقات.

سحبتُ علبة التبغ، وأشعلتُ سيجارة مارلبورو. كنتُ أعطي لدماعي

فسحة زمنية لاستيعاب معلومة ريبالدو. كان هو يتأملني في صمت، ثم عَلت وجهه علامةُ أسف حين رفع يده نحو الأذن التي يحتفظ فيها دائماً بسيجارة. انتبهتُ حينئذ، أنني نسيْتُ مدَّه بإحدى سجائري. أعطيتُها واحدة، فأمسكها وقام بإشعالها بولاعة، وسحب منها سحبةً أولى نهمةً.

- هل يتذكَّر صاحبُ محلِّ الهاتف تفصيلاً من التفاصيل الأخرى حول هذا المشتري الذي يُفترض أن يكون إسبانياً؟

- نعم، يا سيبوليدا، حين مراجعته لِمَا دوَّنه في الدفتر تذكَّر الرجل. كان رجلاً مُسنّاً، لون شَعْرهُ أبيض ومَقْصُوص على الطريقة التي يقصُّ بها الجنود شعورهم. شَعْرهُ أبيضٌ ومَقْصُوصٌ على طريقة الجنود، أليس هذا شَعْر أرسينيو نوغيرا؟

طُنْجَة، خريف 1956

منتصف النهار هو موعد تناول وجبة خفيفة بمقرّ الجريدة. سيكون الجميع هناك. بعد ذلك، ستذهب جماعة صغيرة لتناول العَدَاء في لوكلاريدج Le Claridge ببولفار باستور، حيث تمّ حجز طاولة طعام، ذكّر كارلوس أولبيدو بهذا، عند انتهائهما من وجبة الفطور، وهو في طريقه للحمّام ليغتسل ويحلق ذقنه.

تركت أولبيدو الجريدة فوق طاولة الأكل، ثمّ ذهبت لغرفة النوم، فتحت دولاب ملابسها، وراحت تفكّر أيّ لباس ترتدي. كانت المناسبة تقتضي أن تلبس بأناقة، لكنّ، بدون شكليات مبالغ فيها. كان الأمر يتعلّق باجتماع أخوي، قال كارلوس مُدَقِّقاً. صحفيو جريدة إسبانيا نظّموا حفل وداع على شرف توماس بوغيلا Tomas Bugella، زميلهم الذي بادلوه طَوَالَ العشر سنوات السابقة، الكثير من المحبّة. سوف يعود قريباً إلى الضفّة الأخرى من المضيق.

كانت أولبيدو مُعجّبة ببوغيلا. كان مُثَقِّفاً ولطيفاً وصاحب أفكار عصرية، أضف إلى هذا أنه كان مُرشِداً لكارلوس الذي كانت تربطه به قرابة عائلية بعيدة. فهو الذي اقترح على الشابّ المَدْرِيْدِيّ بدء مساره المهنيّ في طُنْجَة، وما إن التحق بالعمل في صحيفة إسبانيا، حتّى كان خير مُرشِد له في خطواته الأولى في مهنة الصحافة.

كان كارلوس يُقدِّره تقديرًا كبيراً. وكان يُعجبه أن يقول إن بوغيلًا "كان كُتِّبَ مُرشدٍ لِمَا كان الأمريكيون يُسمُّونه الرجل العصامي self made man الذي صنع نفسه بنفسه".

في منتصف العشرينيات، رحل بوغيلًا من مَدْرِيْد، مَسَقَطُ رأسه إلى مانشستر، حاملاً شهادة جامعية مرموقة في الفلسفة والأدب. ودون أن يتكلَّم ولو كلمة واحدة باللغة الإنكليزية، تعلَّم هذه اللغة هناك، وهو يغسل الصحون بمطعم عمَّالي في الضواحي. لقد ارتبط بعلاقات جيِّدة مع مناضلين من حزب العمَّال، وانتهى منخرطاً في هيئة جريدة الغارديان The Guardian.

ولم تبدأ مشكلاته إلَّا فيما بعد، أي عند إعلان الجمهورية الثانية، وعودته إلى مَدْرِيْد ومساندته لها بحماسٍ مَنْ كان يعتقد بأنها كانت تُشكِّل فرصة عظيمة أمام إسبانيا، لكي تتدارك القرون الضائعة في علاقتها بفرنسا والمملكة المتَّحدة ودول أوروبية أخرى. التحق بـيومية "الشمس" El Sol. كتب المقال الإخباري ومقالات الرأي المتعلِّقة بالقضايا الدولية، من زاوية معادية للفاشية، وأصبح صديقاً ومُسامِراً لفيديريكو غارسيا لوركا، وانتهى مُؤدِّياً ثمن ذلك بسنوات عديدة، قضاها وهو يصارع المجاعة والبرد والقُمَّل في سجون الزعيم Caudillo المنتصر.

على عكس والدها، لم تكن أوليبدو تُحسُّ بأدنى تعاطف مع فرانكو. كان يبدو لها بِشَعاً وباليًا ومُمِلًّا، ودموياً كما كان يقال عنه. وكانت إسبانيا فرانكو، بالنسبة إليها، أكثر انغلاقاً وحُرْماً وبُؤساً، بالطبع، من طُنْجَة الدولية. أغلقتُ عليها باب الغرفة حتَّى لا تُشاهدَ وهي تلبَّس. سواء من قِبَل الفتاة التي كانت تتحرَّك في المطبخ، أو من قِبَل كارلوس الذي لا زال لم يخرج بعدُ من الحمَّام. لبستُ زوجاً من جوارب النيلون، وزياً ذا لون لوزيٍّ مُحَمَّصٍ بفتحة صدرٍ على شكل قلب، وقلادة قصيرة، بها قِطْع سميكة

من المَرْجَانِ الأحمر. فيما انتعلتُ حذاء ذا جِلْد كَسْتَنَائِيٍّ وكعبٍ عالٍ. الجميل في طول قامة كارلوس، أنها تسمح لها باستعمال كعوبٍ، دون أن تصل إلى مستوى قامته.

قرع كارلوس باب غرفة النوم بأطراف أصابعه، طالباً الإذن بالدخول. أَذِنْتُ له أولبيدو، فظهر يلتحف بُرُئْساً. أتى عليه الدَّور لكي يَلْبَسَ ملابسه، فَاتَّجَهْتُ أولبيدو جهة الحَمَّام، وهي تتمنى لو كان لديهم منزل كبير مثل منزل عائلة ماركيئا، حيث يمكن أن يكون للجميع غرفة ملابسه الخاصة.

بعد أن وضعت أولبيدو على وجهها المساحيق، بَلَّلْتُ عُنُقَهَا والجهة الخلفية لشحمتي أُذُنَيْهَا بقطراتٍ من ميس ديور Miss Dior. كان ذلك هو عطرها المفضَّل، كان من الممكن الحصول عليه بسعر جيّد في متاجر هنود طُنْجَة القادمين من جبل طارق. كان بودّها لو استعملتُ عطر فلوريسيمو Fleurissimo الذي صمّمه الأمير رينييرو Rainiero من أجل غريس كيلي Grace Kelly ولكنه لم ينزل الأسواق بعدُ.

ابتسمت أولبيدو حين تذكّرتُ قول مارلين مونرو، بأنها كانت تنام عارية بعد رَشِّ نفسها ببعض قطرات تشانيل Chanel n°5 5.. أغمضتُ عَيْنَيْهَا لتلتقط أريج ميس ديور. كانت النوتة الأولى من ياسمينٍ ووردٍ وبرتقالٍ مرٍّ، وكانت الثانية من نبتةٍ باتشولي وجِلْدٍ وطُحْلُبٍ سَنَدِيَّانٍ. كان عطراً أُثْوِيّاً وشَبَقِيّاً قليلاً. قال كريستيان ديور Christian Dior - في مقابلةٍ معه لا تتذكّر أين قرأتها - بأن عطره صُمِّمَ أساساً لنساءٍ يعتبرن أن أفضل ميزة لدى الرجل هي مزاجه المَرِح.

حزنتُ أولبيدو وهي تفكّر كيف أن كارلوس اللطيف، الذي عرفته في مَدْرِيْد مع بدايات خريف 1952، بدأ في التلاشي يوماً بعد يوم. كانت سيارَة تشيفي بيل إير Chevy Bel Air مركونة بمكانها المعتاد بمَرَأَب ماركيس Marqués القريب من المنزل.

بعد أن أعطى كارلوس بَسِيْطَة peseta كإكرامية للمغربي الذي كان يحرس المكان، ساق سيارته نحو مقر صحيفة إسبانيا الذي لم يكن بعيداً. كان يحتل زاوية شارع ثيربانتيس، في المنطقة الإدارية التي يشرف عليها ناقوس الكنيسة الفرنسية.

ركنَ كارلوس سيارته دون مشكلات، ونزل ليفتح الباب لزوجته، ثم مضى يداً في يد في طريقهما نحو مقرّ الجريدة. كانت السماء مُلبّدة بشكل كامل، وكانت رياح الشرقي تهبُّ باردةً، وهو ما جعل أوليدو ترتدي فوق ملابسها معطفاً مطرياً إنكليزياً، وتحمل مَطْرِيَّة في يدها.

كان مبنى صحيفة إسبانيا مبنى مِعْناجاً؛ يتكوّن من طابقين وبوابة نيوكلاسيكية، وواجهة تميل للون الأحمر مع خطوط هندسية متشابكة، تُذكر بقرص عسل. أحبّ مؤسسو اليومية أن يكون لها مقرّ أُنِيق في مستوى طموحها المتمثل في أن تكون ناطقة رسمية باسم نظام فرانكو في الواجهة الطنجية؛ المدينة المتميّزة بعدد هائل من المستوطنين الجمهوريين والمدينة الأكثر عالمية في شمال إفريقيا.

تمّ تأسيس صحيفة إسبانيا اليومية سنة 1938، من طرف الكولونيل خوان بيغدير Juan Beigbeder، المقيم العامّ القوي بمنطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب. تمويلها كان - حسب الشائعات - قادماً من ألمانيا النازية، لكن بيغدير، عهد بتسييرها التجاري والإداري لصديقه الناقد في مجال فنّ مصارعة الثيران، غريغوريو كوروشانو Gregorio Corrochano. وهذا الأخير - عند انتهاء الحرب العالمية الثانية، بهزيمة هتلر وتسيّد الولايات المتّحدة لأوروبا الغربية - بدأ يسير بها نحو مواقف أكثر اعتدالاً. وظّف كوروشانو بعض كتّاب الصحافة الجمهورية المطّاردين، وساهم في خلق جوّ من الانفتاح والتعددية، له صلةً بطنجة، أكثر من صلته بأيّ تحيزٍ لمعسكرٍ ما. أحد هؤلاء الكتّاب، كان هو بوغिला الذي - بمجرد

خروجه من السجن - اقترح عليه كوروشانو طريقاً للفرار بجلده من مَدرِند
الفرانكاوية، وهي المجيء للعمل بصحيفة إسبانيا شريطة عدم توقيع
مقالاته باسمه الحقيقي.

رأى بوغيلا كارلوس وأولبيدو يدخلان قسم التحرير. كان واقفاً إلى
جانب مكتبه، حيث كانت تستقرُّ آله الكاتبة المحمولة، من طراز أندروود
Underwood التي ظلَّ يجرُّها معه منذ أزمنا الغارديان *Guardian*
The. ترك الحديث الذي كان مستغرقاً فيه مع بعض الزملاء، واقترب
-بابتسامة تتورَّد على فمه - من القادمين تَوّاً.

- مضبوط في مواعيدك، يا كارلوس، دائماً! قال بوغيلا وهو يصفح
يد تلميذه بقوة - شكراً على المجيء، يا أولبيدو! أضاف وهو يُقبلُها على
خَدِّها. وحين ابتعد عنها ببضع سنتيمترات، قال لها وهو يحاكي إيماءة
مَنْ يتشَمَّم شيئاً طيباً:

- لا يفوتني أن أُسجِّل أنكِ تضعين عطراً فاتناً!

- إنه ميس ديور، قالت أولبيدو ممتنَّة. تُعجبني تلك النكهات الطبيعية
للياسمين، وسنبُل الطيب وزهر البرتقال، التي تُباع بالمدينة القديمة. لكن،
بهذه المناسبة أحببتُ أن أضع شيئاً خفيفاً.

- يكفيك أُنكِ حاضرة معنا، قال بوغيلا، ثمَّ اتَّجه نحو كارلوس قائلاً:

- يا رجل، لا تقف كالدمية. انزع عنك القبَّعة، واحملها إلى رَفِّ
المعاطف، هي ومِعْطَف ومَطْرِيَّة زوجتك. خلع كارلوس بشهامة مِعْطَف
أولبيدو، وقَبَّلَ حمل تلك الأشياء، بعث لها ابتسامة، أشعرَتْها بالسرور.
كانت اللحظة من تلك اللحظات التي كان فيها زوجها يشعر بالفخر لأنها
بجانبه. بوغيلا الذي تجاوز نصف قرن من حياته، كان رجلاً مُتوسِّط الطول،
قوي البنية، يرتدي بذلة مزدوجة الصدر من الصوف الرمادي الفاتح على

الطريقة اللندنية. كان شَعْرُهُ قوياً وغازيراً وأَشِيبَ، يرسله إلى الخلف دون سائل مُثَبَّت، أَمَّا فَمُهُ ذو الشَفَتَيْنِ الدَقِيقَتَيْنِ، فكان يَتَوَسَّطُ أنْفاً وذُقْناً بارزَيْنِ، وكان يعاني في عَيْنِهِ من حَوْلٍ خَفِيفٍ، ويضفي مسحة من الدعابة على تعابير وجهه الصارمة، وَيُلَطِّفُهَا.

- أَلَمْ تَأْتِ لورديس Lourdes؟ سَأَلَتْهُ أولبيدو.

- طبعاً، هي هنا، تعالِيْ نبحث عنها. ومضيا ينعرجان إلى أن وصلا حتَّى نهاية غرفة التحرير، التي كانت مزدحمة برجال كانوا يتحدَّثون واقفين، أو جالسين بمكاتبهم. كان الكثير منهم يُدخِّن سِجائر إنكليزية أو أمريكية. حَيَّتْ أولبيدو بعضهم بحركة من رأسها، أَلبرتو إسبانيا Alberto España وصمويل كوهين Samuel Cohen، اللذَيْنِ كانت تعرفهما من خلال زوجها. كانت هناك أيضاً بعضُ النساء؛ فالوجة الخفيفة كانت مفتوحة أيضاً، في وجه زوجات المحرِّرين كما تَمَّ الإعلان عن ذلك.

عثروا على لورديس بجانب واحدة من الطاولات المختلفة، التي استُبدلت أوراقها وحافظاتها بِقَنِينَات شامبانيا كافا كودورنيو Cava Codornio، وصحون الفخار المحتوية على عِجَّة البيض والبطاطس. كانت زوجة بوغيلا تتحدَّث إلى فرناندو غارسيا بيلـا Fernando García-Vela، صحفيٍّ آخر من صحيفة إسبانيا تعرفه أولبيدو، وكان تلميذاً لأورتيغا إي غاسيت Ortega y Gasset ومديراً جمهورياً لصحيفة إيل سول El Sol.

- انظروا مَنْ أَتَى! قال بوغيلا. مال غارسيا بيلـا برأسه بشكل مُهذَّب، وطبعت لورديس قُبْلَةً على خَدِّ أولبيدو، وهي تقول:

- كم أنا سعيدة، بكونكِ استطعتِ مُرافقتنا!

كانت لورديس امرأة صغيرة الحجم، وحركية، وذات عَيْنَيْنِ بُنَيَّتَيْنِ

شديدتَي التعبير. كانت تسريحة شَعْرها تتموَّج بألوان خشب الماهوغوني، ونَبْرَتها كطلانية.

- أعدك أنا سوف نشرب شامبانيا فرنسية في الكلاريدج، لكن، دعيني الآن، أقدم لك هذا الشراب الرَّغويَّ القادم من مَسْقَط رأسي. لم يهدأ لي بال حتَّى جمعتُ منه كلَّ ما يوجد في عنابر شَمال افريقيا. قبلتُ أولبيدو الكافا التي قدَّمتها لها لورديس في كأس مستطيلة من الزجاج الخفيف، وبلَّلت منها شفَتَيْها من باب المجاملة. لم يكن يروقها أن تشرب كحولاً في وقت مُبكر.

- إنه لذيذ للغاية. قالت بلطفٍ. ثم تركت الكأس على الطاولة، وأضافت:

- هل لديكم تاريخ محدّد للرحيل؟ أنتم تعرفون أنه - بالنسبة إلينا - كلما تأخَّرتُم في الرحيل، سيكون ذلك جيِّداً، لأننا سنفتقدكم.

- سنرحل في غضون أسابيع. محتمل جدّاً في حفل الملوك، أجابت لورديس. وثائق توماس ليست بعدُ في وضعية قانونية؛ ففي المحاكمة التي أُقيمت له بعد دخول فرانكو إلى مَدْرِيْد، حُوكم بعشرين سنة سجنًا، لم يقضِ منها إلَّا سبعة. علينا أن نرى كيف يمكن حلُّ هذا الموضوع. نظرت أولبيدو في استغراب إلى بوغيلا قائلة:

- كيف يسعُهم - وأنت ذو السوابق - أن يُقدِّموا لك عملاً بإسبانيا؟
- السؤال نفسه أطرَّحُه على نفسي.

- أجاب الصحفي - إنه أمرٌ غريبٌ، وشبيه باليوم الذي اقترح عليَّ فيه كوروشانو، أن آتي للعمل هنا، مع علَّمه تماماً بأن النظام قد أدانني باعتباري جمهورياً. هذه المرَّة أتااني العرض من إيميليو روميرو Emilio Romero، مدير جريدة بويلو Pueblo الذي يبدو أنه لم يكن فاشياً بالقدر الذي

يمكن تصوُّره. يقول إنه يريد أن يُعزَّز الأخبار الدولية لصحيفته، وإنني قد أكون مفيداً في ذلك لمعرفةتي بالإنكليزية. لكنني سوف أشتغل من جديد - كما فهمتُ - بهويَّة مجهولة. سأكون في وضع حرِّيَّة، لكن، تحت المراقبة.

- أعترف لكم - قالت أولبيدو - بأنني لا أفهم شيئاً ممَّا تقولونه، إضافة إلى أنني لا أفهم كثيراً في تعقيدات السياسة، لكن، على أيَّة حال ما يُدهِشني أكثر، هو أنكم تُفضِّلون العيش في ظلِّ هذا الارتياب، على أن تستمتعوا بمباهج طَنجَة.

- نعم، لقد كنَّا سعداء جدًّا هنا، ولكن، في الواقع أيضاً، لقد اشتقنا كثيراً لإسبانيا - أشارت لورديس - الكثير من أَسْرنا ما زالت تعيش هناك، وقد أمضينا سنوات عديدة، دون أن نراهم. انضمَّ غارسيا بيلا إلى الحديث، قائلاً:

- تماماً، كنتُ بصدد القول للورديس بأن الوقت أصبح مواتياً لمغادرة هذه المدينة. الفترة الدولية انتهت، وسنرى ما مآل وعود السلطان، القضية بأن يتمَّ الاستمرار هنا في إقرار نظام مختلفٍ عن باقي المُدُن المغربية. شخصياً، لا أُصدِّق هذه الوعود، ولن يهدأ للوطنيين بالٍ حتَّى يحصلوا على المَعْرِية الكاملة لطَنجَة. سوف ترون!

- هذا هو الاحتمال الأقوى، قال بوغيلا مُؤيِّداً.

- هل تعتقد بأن سماحهم لك بالعودة إلى إسبانيا سببه أن فرانكو نفسه قد فتح يديَّه ترحيباً؟ سألتُه أولبيدو.

- لا أعرف، بصِدْق، لا أعرف. فأفكار الجليقي غير قابلة للفهم. فرناندو لديه نظريَّته الخاصَّة.

- أنا أيضاً كثير الشكوك في هذا - قال غارسيا بيلا - فأنا لا أتصوَّر عودة الديمقراطية إلى إسبانيا، وفرانكو حيٌّ يُرزَق. غالب الظنُّ أن الأمر سيطول.

مع مُستهلّ شهر ديسمبر سيُكمل فرانكو الرابعة والستين من عُمره، ويبدو أن عائلته، من خلال جيناتها، تُعمر طويلاً. أنا من هؤلاء الذين يعتقدون، بأنه لن يترك قصر البارود El Pardo عن طيب خاطر. إذن ف...

- ماذا إذن؟ وكيف تُفسّر موضوع طوماس؟

- فرانكو ليس بالأبلّة. خاصّة وأن بعض أولئك الذين يحيطون به شديداً الذكاء. فلماً رأوا أن هتّار يمكن أن يخسر الحرب، بدؤوا في قلب معاطفهم. فعلاً الكولونيل بيغدير ذاته. وانبعثت موجات تعاطف كبيرة مع الإنجليز، والآن يريدون علاقات طيبة مع إيزنهاور Eisenhower. يقولون إن إسبانيا في ظلّ فرانكو هي معقل من المعازل المعادية للشيوعية، وإنها مفتوحة لاستقبال القواعد العسكرية والاستثمارات الأمريكية. وإذا طُلب منهم البرهنة على أنهم لم يعودوا مُنعين في فاشيتهم، فقد يصلون إلى حدّ القبول بإدماج بعض المعارضين. انضمّ كارلوس إلى المجموعة. أتى مُجرّداً من قُبّعه ذات اللون الأزرق البحري التي تتلاءم مع بدلته الرسمية، لكنه كان يحمل في يد سيجارة دونهيل Dunhill مشتعلة، وفي اليد الأخرى طبق طعام به عجة بيض وبطاطس.

- يا له من حشد، يا طوماس! حتّى هيربرت سوثنورث Herbert Southworth لبّى الدعوة. نظر كارلوس إلى زوجته، وبدأ يشرح لها: سوثنورث صحفي أمريكي يدير راديو طُنجة الدولي. لقد كلّمته، وهو يتحدّث الإسبانية بشكل جيّد، ويعرف عن إسبانيا الكثير، ويكنّ الكثير من الحقد لفرانكو.

- هيربرت صديق جيّد - قال بوغيل - للأسف، فهو لن يستطيع المجيء للعداء في الكلاريدج، لأن لديه التزامات أخرى. نظر إلى ساعته اليدوية؛ كانت مستديرة وذات حزام جلديّ، ماركة دوغما Dogma السويسرية، ثمّ قال:

- على فكرة، يبدو أنه يتعيّن عليّ قول بعض الكلمات. وبعد جولات عدّة من التصفيق والصياح، لجلب انتباه المجتمعين، قال باقتضاب، إنه لن ينسى أبداً الزهات الشاطئية عبر شارع إسبانيا، والحوارات الساخنة للسوق الداخل، والذهاب أيّام الآحاد للغابة الديلوماسية *Forêt Diplomatique* وسهرات مسرح ثيرباتيس، ولن ينسى أيضاً الصداقة التي أقامها مع العديد من المسلمين واليهود والمسيحيّين، ولن ينسى، بشكل خاصّ، أنه هنا أمكّنهُ العودة لممارسة الصحافة مع رُفقة جدّ طيّبة. تكهّنت أولبيدو- قبل جزء من الثانية - بطبيعة ردّ فعل الحاضرين، وهو الانخراط - بقليل من السخرية وكثير من الإحساس - في غناء أغنيّة المهاجر *El emigrante* لخوانيتو فالديراما Juanito Valderrama.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اقترب السيّد لاكاز Lacaze، كبير الطباخين ومالك حان لوكلاريدج من الطاولة التي استقرّ حولها الإِسبان الستّة.

- هل يريد السادة كأس شامبان؟

- لا، شكرًا. كان رُوّاد الحان قد تناولوا بعض المُقبّلات.

- في هذه الحالة - مضى لاكاز يقول - سوف أبدأ على الفور *tout de suite* في تقديم قائمة الطعام الذي طلبها السيّد بوغيلا على الهاتف من أجلكم (نطق الاسم هكذا: بوجيلا *Buyelá*). بالنسبة إلى الطبق الأوّل: حساء الخريف بفطريات البوليطس، *potage d'automne aux cèpes*، ثمّ طبخ خفيف مع فطريات الموسم بمذاق الكسْتَنَاء. بالنسبة إلى الطبق الثّاني: هناك شريحة سمك موسى على الطريقة النورماندية *filet de sole à la normande* وسمك مُقلّح بصلصة القشدة مع جمبري وفطريات وقطرات من شراب عصير التفّاح. أمّا فيما يتعلّق بوجبة التحلية، فهناك، كعكة منفوشة بشراب غران مانيه *soufflé au Gran Marnier*.

- ممتاز، قال الحاضرون، مظهرين موافقتهم على قائمة الطعام. أمّا بخصوص النبيذ، فقد أشار عليكم السيّد بوغيلا بشودسولي *Chaud Soleil*، وهو نبيذ أحمر مغربي معتق.

- يمكنه أن يقترح عليكما، نبذاً أبيض؟ قال الجلساء الذكور، وهم ينظرون للمرأتين. لكن الأخيرتين وافقتا على تناول وجبة الغداء بالنبذ الأحمر الذي اختاره المكرم.

كان بوغيلا مُحاطاً بزوجه لورديس وأولبيدو، وفي الجهة التي تقابله، كان زملاؤه كارلوس سيبوليدا وفرناندو غارسيا فيلا وألبيرتو إسبانيا السبعيني المتحدر من مدينة رُونْدَة. وباعتباره أتى إلى طَنْجَة في 1910، فهو يُعدُّ قَيْدُوم الطاولَة. كانت المجموعة تجلس على كراسٍ مُنجّدة من الجلد، تحت مصباح عنكبوتي الشكل، يتدلّى وسط فضاء المطعم. كان المصباح مُعلّقاً إلى زخرفٍ أزهارٍ مثيرٍ، ذي لونٍ أخضرٍ فسّقيٍّ وورديٍّ باهتٍ.

- كم هي لعينة هذه الحياة! أكيد أننا، ونحن في مَدْرِيْد، سنفتقد هذا كلّهُ، يا لورديس. أليس كذلك؟ قال بوغيلا مُتنهّداً.

- أكيد، يا توماس - قالت لورديس وهي تنظر إليه بحنان - لا أعتقد، أنه ستكون لنا في أفضل مسارح مَدْرِيْد بلكونة كالتي لدينا هنا في مسرح ثيريانتيس.

- هذه البلكونة هي أكثر ما يُعجِب لورديس في طَنْجَة. تُعجبها أوبريت لا ثارثويلا zarzuela - والتفت بوغيلا نحو أولبيدو قائلاً:

- يبدو لي أنه لا يُعجبك كثيراً هذا اللونُ الفنّي المُغرِق كثيراً في إسبانيته.

- لا، لا يُعجبني - اعترف بذلك - وأنا أكثر ميلاً إلى الروك آند رول rock and roll. وما إن هدأت أصدااء القهقهة التي أحدثتها نكتة أولبيدو، حتّى نطق كارلوس قائلاً:

- أولبيدو تتابع بشغف مقالاتنا حول قضية الشابّ توني موينيهان

Tony Moynihan. وتريدني مرافقتها إلى أوّل قاعة روك آند رول يتم افتتاحها هنا.

- حسناً تفعلين، يا أولبيدو - قالت لورديس باقتناع - أنا تُعجبني لا ثارثويلا، لأنني أمضي نحو الشيخوخة، أمّا أنتِ، فعليك أن تعيشي زمانك.
- أعترف لكم أيضاً، أنه ليس لديّ أدنى فكرة عن هذا الرقص - قالت ذلك وهي تعبث بقلادتها المَرَجَائِيَّة - عدا ما قرأته في جريدتكم وفي مَجَلَّات أجنبية. أنتم تُقدّمون الأمر، كما لو كان فعلاً شيطانياً، لكن الشباب مفتونون به، ولا شك أن لهم مُبرراتهم، فيما أرى.

- مُبرراتهم في ذلك، هي أن هذا الرقص يسمح لهم بالتهريج - قال غارسيا فيلا - مثل رقص الفوكستروت foxtrot في سنوات العشرينيات. بعد الحرب العالمية، لم يكن أمام الشباب من خيار إلا أن ينطلقوا على سجيّتهم.

- وحسناً يفعلون، يا فرناندو - قالت لورديس - فنطحات الحياة كثيرة وكثيرة. ظهر النادل حاملاً زجاجة شودسولي. فتح سدّادتها، وقَدّم لبوغيلا كأساً به قليل من النبيذ ليتذوّقه.

- ليس بسيئاً! - أعلن الصحفي - لا حاجة بي لأقول لكم إنني أكره الاستعمار، لكن، يجب أن أعترف بأن الحماية الفرنسية بالمغرب، قد قامت بصنيع جيّد، وهي أنها نجحت في أن يكون المغرب مُنتجاً لأنبذة جدّ مقبولة.

- اخفض صوتك قليلاً، يا توماس - همس ألبيرطو إسبانيا، وهو يميل برأسه إلى وسط الطاولة - في الطاولة التي بجانبنا، هناك وفد من الاستقلاليين الجزائريين. كبتت أولبيدو رغبتها في أن تستدير، لتشاهد

أولئك العرب الذين مرَّغوا في التراب أنف الفرنسيين في الجزائر، والذين كانت تُسمِّيهم المَجَلَّات القادمة من باريس، بالإرهابيين.

- هل تظنون - سأل هذه المرَّة بصوت خفيض - أنه باعتقال ابن بلَّة، ستعرف ورطة الجزائر طريقها للحلِّ؟

- لا نظنُّ ذلك - أجاب كارلوس، بينما أكَّد الصحافيون الآخرون على ذلك بتعبيرات صامتة - في الجريدة تحدَّثنا كثيراً عن هذا الموضوع، وتوصَّلنا إلى خلاصة مفادها، أن فرنسا تعاني كثيراً في الجزائر، فأغلبية السكَّان المسلمين تتعاطف مع الثوَّار.

- التحرُّر من الاستعمار هو علامة من علامات العصر، ولا مجال لمعاكسة ذلك - أشار غارسيا فيلا - وهو شديد الشبه بموضوعك عن الروك أند رول. بحثت أولبيدو بنظرة جانبية، عن ثلَّة المتأمِّرين الجزائريين المنعكسة صورهم في بعض المرايا المشطوفة التي تصطفُّ على جدران المطعم وأعمدته، وبدا لها أنها عثرت عليهم؛ ثلاثة رجال في العشرين وثيَّف من أعمارهم، شعورهم مجعَّدة وقصيرة، وبدلَّتهم وربَّطات أعناقهم ذات ألوان فاتحة وصيفية.

- لا يبدو مظهرهم مخيفاً، قالت أولبيدو مُعلِّقة. الجُلساء الآخرون كانوا يتابعون نظرتها، وعلموا ما تلمَّح إليه.

- في هذه المدينة، جميعنا مظهره جدُّ محترم - أجابها ألبرتو إسبانيا - لكن هؤلاء الجزائريين، بالتأكيد أتوا لشراء بنادق قديمة من نوع موزير Máuser، وبنادق رشَّاش من طراز تومبسون Thompson ومُسدَّسات بلجيكية من طراز هرتزال Herstal وقنابل يدوية من الحرب الأخيرة، وأيَّ شيء يمكن أن يعثروا عليه في السوق. جواسيس المكتب الثاني الفرنسي Deuxième Bureau الذين يراقبونهم، لن يكونوا بعيدين عن هذا

المكان. الإشارة إلى الجواسيس الفرنسيين، ذُكرت أوليدو بقصةٍ قرأت عنها في بعض المقالات، وحدثت في العام 1949، قبل مجيئهما هي وكارلوس.

- هل يوجد من بينكم مَنْ يعرف تلك المُسمَّاة ماتا هاري، Mata Hari الباسكية التي اختفت هنا؟ ماذا كانت تُسمَّى؟

- داندُورائِن، الكونتيسة مارغا داندُورائِن Marga D'Andurain - قال ألبيرتو إسبانيا - ولكنها لم تكن، لا كونتيسة ولا هم يحزنون. كانت مُغامرةً من بايونة Bayona، تعمل جاسوسة لفائدة البريطانيين بمصر، وكانت تتاجر بالأفيون في باريس المُحتلَّة من طرف النازيين. لم يتسنَّ لي معرفتها. فهي لم تقضِ وقتاً طويلاً هنا. وقد اختفت بمجرد وصولها إلى يختها. يقال إنها جاءت لتشتري ذهباً.

- في إسبانيا، تَابَعْنَا قِصَّتِهَا عن قُرْبٍ، ولكنها ظَلَّتْ بالنسبة إلينا محاطة بالغموض -أُضَافُ بوغيلا وعيناه تزدادان حَوْلًا، تعبيراً عن خيبة أمل - قِصَّتِهَا كانت لغزاً كبيراً؛ قتلوها على مَتْنٍ يَخْتِهَا، ورموا بالجثَّة إلى مياه المرفأ. الشرطة الدولية أَلْقَت القبض على ألماني كان عميلاً في الغيستاو Gestapo. وقد اعترف برميهِ الجثَّة في البحر، ولكنه أقسم بأن موتها كان بسبب حادث؛ ذلك أنهما وهما يتجادلان حول صفقةٍ مَّا، وقعتْ على ظَهْرِهَا، فانكسرت رقبَتُهَا.

- وَتَوَقَّفَتِ المسألة عند هذا الحَدِّ؟ تساءلت أوليدو.

- عملياً، هذا ما حصل - قال بوغيلا - حَكَمَتِ المحكمةُ المختلطة على الألماني بعشرين سنة سجنًا، وهي عدد السنوات نفسه التي حوكمْتُ بها مع فرانكو. جثَّة الكونتيسة المُرَيِّفة لم يظهر لها أثرٌ، ولم تتوصَّل قطُّ لمعرفة ما حدث في اليخت، ولماذا حدث. هل تَعَلَّقُ الامرُ بتصفية حسابات

كانت عالقة لدى النازيين؟ أم هي صفقة آلت إلى مسار سيئ؟ أم أن الأمر كان مرتبط بغيره عاطفية؟ لقد ظل الأمر غامضاً.

وصلت صحنُ الفطريات. ولم يتأخر الجلساء في توجيه النقاش نحو قضايا الوطن الذي كان على مسافة أربعة عشر كيلومتراً من الناحية المادية، وعلى بُعد سنوات من الناحية الحياتية.

كفّت أولبيدو عن تركيز انتباهها؛ لقد شعرت بالملل على إثر سماعها التكهنات حول الحالة الصحية للكاوديو، ومدى قوة أو ضعف ما يستند عليه من دعائم، ولماذا لا تثور الساكنة ضد ديكتاتوريته؟

رَكَزَت الانتباه على الفطريات التي كانت لذيذة جداً. لقد كان إيميليو ثانس دي سوتو على حق، حين كان يقول إن الكلاريدج كان من أحسن مطاعم المدينة، إن لم يكن أحسنها على الإطلاق. كان طعام الموسيو لاكاز مختلفاً تماماً عن أطباق خلطات السمك المُشْبَعَة زيتاً، والتي يتم تقديمها - غير بعيد عن هنا - في دار إسبانيا Casa de España. عادت أولبيدو للاهتمام بالمناقشة، حين سمعت الإشارة إلى الأمير خوان كارلوس Juan Carlos. كان ألبرتو إسبانيا يحكي بأن الأمير وأباه -المُحِبِّينِ للمتعة كما هم جميعُ أفراد أسرة البوربون los Borbones - اعتادا المجيء إلى طَنْجَة للقيام بجولات في اليخت، أو اللعب في كازينو القمار أو القيام بما بدا لهما. في البرتغال، حيث كان يعيش وَرَثَة ألفونسو الثالث عشر Alfonso XIII كان يصيهم المَلَل. كانت أولبيدو تعلم بأن خوان كارلوس، كان قد أُصيب بنوبة التهاب الرائدة الدودية في إحدى هذه الأسفار، وأنه قد اضطرَّ للخضوع لعملية بالمستشفى الإسباني. تذكَّرت صورة الأمير: كان طويلاً ونحيفاً وأشقر، وحسن الهندام، كما كان لطيفاً وخجولاً ولا صِلَة له - لا من بعيد ولا من قريب - بالإسباني النموذجي. فكَّرت في أنه

كان سيُشكّل زوجاً مثالياً لغريس كيلى بدل اقترانها برينييرو أمير موناكو القصير القامة والممتلىء الجسم، لكنها سرعان ما استبعدت الفكرة، لأن خوان كارلوس كان أصغر منها بعشر سنوات. ما إن قام النادل بسحب أوّل طبق، حتّى بادرت أولبيدو بتذوّق النبيذ. نبىذ من إنتاج محليّ كان أقلّ خشونة من الأنبذة الإسبانية العادية. تقاطعت نظرُها مع نظرة كارلوس الذي ما زال فرحاً. استدارت نحو يمينها، وضغطت ضغطة خفيفة على ذراع بوغىلا قائلة بانسراح:

- يا لكم من أشرار، أيّها الصحفيون

- فعلاً، نحن كذلك - قال بوغىلا، مُتقبلاً الأمر، بالتّبرّة نفسها - ولكن، لماذا تُذكريننا بهذا الأمر الآن تحديداً؟

- لانه يُعجبكم أن تنتقدوا الجميع. بدأتم بفرانكو، الذي يستحقّ ذلك، والآن تستمرّون مع خوان كارلوس، المسكين الذي لم يفعل شيئاً.

- هذه هي مهنتنا، يا أولبيدو - قال بوغىلا - ولكن، ما دُمت قد أشرتِ إلى الأمر، فسوف أكشف لك عن سبقي صحافيّ: خوان كارلوس فعلاً مُتورّط في عمل شنيع يتعلّق بأخيه الأصغر. لقد أجهز عليه بطلق نارى، خلال أسبوع عيد الفصح الماضي في إسطوريل Estoril.

- ماذا تقول؟ قالت أولبيدو، مُندهشة.

- ما تسمعيه. قالوا إن الأمر حادثة؛ طلق نارى أفلت من يد خوان كارلوس، حين كان الشقيقان يعبثان ببعض الأسلحة.

- يا للرعب! ولكنّ هذا لم يردّ في جريدتكم؟

- لا، يا أولبيدو. تذكرى من هم أسيادنا. خبر كهذا، لن يُنشر قطّ في صحيفة إسبانيا إلّا إذا كان يحظى باهتمام فرانكو. وبخصوص هذه القضية،

فقد أصدر أوامره لكي يُسدّل ستارٌ كثيف حولها. إن فرانكو يحتفظ لنفسه بإمكانية استعادة المَلَكِيَّة كمخرج مُحتَمَل بالنسبة إلى نظامه، ولا يريد تشويه سُمعة آل البوريون. فتح بوغيلا ذراعَيْه - كالوطنيّ ذي القميص الأبيض - في لوحة غويا Goya حول "إعدامات الثالث من ماي"، واختتم قائلاً:

- أمّا بخصوص القضايا الأخرى، فأنتِ تعلمين أننا لا نُقصر في بذل مجهودنا.

- بل تفعلون ذلك على نحو ممتاز - قالت أولبيدو - فلا زلتُ أتذكّر اليوم الذي نال فيه خوان رامون خيمينيث جائزة نوبل، وقمّتم بوضع الخبر في الصفحة الأولى، مُتقدّماً على خبر إحدى الاستقبالات الخاصّة بفرانكو.

- هل رأيْتِ ذلك بعَيْنَيْكِ؟ قال كارلوس مُتسائلاً.

- طبعاً، يا عزيزي، أعرف قراءة ما بين السطور. ابتسم كارلوس بإعجاب وهو يسمع جوابها.

كانت تصعد بولفار باستور، بتصميم، باتجاه مفترق شارع بينياس. لم تتوقَّف حتَّى عند واجهة بوتيك الأزياء الراقية للسيدة سيمون Simonne. كانت - وهي ترتدي معطفها المطريّ الإنجليزي، وتحمل مطرنتها في يدٍ وحقيبتها اليدوية في يد أخرى - تُقاوم إغراء الاستمتاع المُسبق بالقبولة التي تنتظرها بالبيت.

تجاوزت استوديو جاك كونتي Jacques Conty للتصوير الفوتوغرافي، والذي يقال عنه إنه أفضل رسَّام بورتريه بالمدينة. وفجأة خطر ببالها أن تقدِّم لكارلوس هدية.

لقد كان رائعاً في حفل وداع بوغيلا، وكان عليها أن تُظهر له، أنها لاحظت منه ذلك، وأنها تُقدِّره. لكن، ما هي، يا تُرى، هذه الهدية؟ تحفة مغربية قديمة، كتلك التي اشترت أوخينيا لزوجها لويس من متجر كونرادو؟ لا، لويس لا تُعجبه التحف القديمة كثيراً. ربطة عُنق حريرية إيطالية؟ هذا أقلُّ شأنًا، فربطة العُنق هي أكثر ما يمكن اللجوء إليه كهدية. عطرٌ فرنسي؟ أمرٌ مبتذل أيضاً. ها، وجدتها! قلم حبر باركر Parker! لم يكن لدى كارلوس أيّ واحد من هذه الماركة، وسيكون بالتأكيد سعيداً، وهو يكتب بما هو أمريكيٌّ جداً. "أداة ناعمة وعملية في آن"، كما يقول الإعلان الذي نشره بصحيفة إسبانيا، متجر شارع إيطاليا، الذي كان يبيع الموديلات الأخيرة القادمة من الولايات المتحدة الأمريكية. كان يفصلها عن شارع إيطاليا، مسار عشر دقائق.

نظرتُ نحو السماء. لم تعد كما كانت في الصباح مُلبَّدة. كانت السُّحُبُ أقلَّ قتامة، وتخلَّلها انفراجات. كان احتمال سقوط المطر ضعيفاً، وهذا ما جعلها تجدُّ السير باتِّجاه شارع الإيستاتوتو بحثاً عن السوق الكبير. كان السوق الكبير بطَّحاء كبيرة عند مدخل المدينة القديمة، حيث كان قرويو قبائل جبَّالة، يأتون لبيعوا للطَّنَجِيِّينَ بيضَهُم وفاكهتهم وخضارَهُم وأجبانهم وورودهم ودواجنهم. وحيث كان ينضمُّ إليهم موكب المُتسَوِّلِينَ وذوي العاهات والمُوسِيقِيِّينَ والمُهرِّجينَ والحكَّائينَ والمُتفرِّجينَ والمُحتالينَ من كلِّ صنف. إن استحداث المدينة الأوروبية الجديدة، حوَّل السوق الكبير المتنافر الألوان إلى نقطة التقاء مع الحَيِّ الإسلامي.

وصلتُ أولبيدو إلى هناك، وقت مرور قافلة صغيرة من سكَّان المداشر. رجل طويل ونحيف في جلباب ذي لون ترابي، كان يعتلي حصاناً لامعاً، يذكرُّ بأحد فرسان بني سراج. تتبعه حميرٌ تكاد تختفي تحت ثِقَلِ الأغطية والأكياس. ثلاثُ نساء كُنَّ يمشينَ على الأقدام، وَيَنُؤْنَ برُزْمٍ ثَقِيلَةٍ. جمْعُ من الأطفالِ الحُفَاةِ كانوا يحقُّون الموكبَ.

شرعتِ المجموعةُ في العودة لمدشرها، بعد أن تخلَّصت من بضائعها في سوق الخميس ذاك. زوجٌ من الشرطة الدولية - بسُلطة خوذتيَّهما البيضاوين، وبدلتيَّهما الزرقاوين، وعصيّهما ومُسَدَّسَيَّهما المُتدَلِّيَّينَ من الحزام - قام بإيقاف القافلة لتعبر أولبيدو. ابتسمتُ لهما، تعبيراً عن امتنانها. كانت أولبيدو مُعجبة بهذه الشرطة؛ فأفرادها مُتعدِّدو الجنسيات، كانوا يتميَّزون بالشهامة والقدرة على حفظ النظام في بابل تلك، المُسمَّاة طَنْجَة، والتي كانت سَدُومَ وعمُورَة. كانت هذه الشرطة تحت إمرة عسكريٍّ بلجيكيٍّ غاب اسمه عن ذهنها الآن. لم يكن مريحاً المشي بالكعب العالي فوق الأرضية المُبلَّطة غير المُتَّسِقة للسوق الكبير، وخاصَّة إذا كان عليك أن تسير في مسالك مُتعرِّجة، تفادياً للازدحام.

تعوّدت أولبيدو أن تأتيَ إلى هذه المنطقة بأحذيةٍ مريحةٍ أكثر، لكن زيارتها هذا المساء لم تكن مُتوقّعة. تملّصت من ساحر أفاعٍ، مُتَحاشيةً النظر إليه؛ كانت تشعر بالاشمئزاز لهذا العرض الترفيهي.

توقّفت أمام قروية تبيع كُحْلاً لتكبير العيون وتجميلها، وحنّاءً لصبغ الأيادي بالزخرفات في المناسبات الاحتفالية. لم تستعمل قطُّ هذه المستحضرات التجميلية المغربية، ولكنها كانت دائماً تقول بأن عليها ذات يوم أن تقوم بتجريبها. ولمَ لا؟

لمحتُ بطرف عيناها مجموعة راقصاتٍ، كُنَّ يقمّنَ بتحريك أهداب عمائمهنَّ على إيقاع ما كُنَّ يعتبرنّه حركاتٍ صوفيةً، تُقَرِّبُهُنَّ من المعبود. هل يكون روك أند رول شبيهاً بهذا؟ تخيلتُ طوني موينهان وأصدقائه اللندنيين، يرقصون روك أند رول في السوق الكبير، فلم تتمالك نفسها من الضحك داخلياً. لم تُلقِ بالاً، لأولئك الذين كانوا يقترحون عليها مُقَبَّلَاتِ قواقع أو خضارٍ.

توقّفت وفَتَّشتُ في حقيبتها، ومنحتُ صدَقةً بسَّيْطَتَيْنِ لِمُتَسَوِّلةٍ عمياء. كانت الكثير من القرويات، يبعنَ زهوراً برّيةً، كان أريجها حاراً وقوياً، وألوانها مُبهجة ووحشية. أخرياتُ، كنَّ يعرضنَ كعكاً مستديراً محلياً في العسل. كانوا يُسمّونه شباكية *chubaquí* وكان يشبه كعك بيستينيوس *pestiños*، المشهور بمَسْقَطِ رأسها مَالَقَة. أحد السُّقاة، كان يقرع ناقوساً صغيراً، ليُعلن عن نفسه، وكان يحمل الماء داخل قطعة كبيرة من جِلْدِ الماعزِ مُعلَّقة على جانبه، وسلسلة آنية نحاسية حول عنقه.

تركتُ أولبيدو المندوبية وتينتّها البنغالية المئوية، على يسارها، ومررتُ من تحت قوسٍ حُدُودِ باب الفحص، ودخلتُ شارع إيطاليا. وعند الرِّقْمِ ثلاثة وثلاثين، قبل الوصول إلى سينما ألكسار *Alcázar*، وجدتُ المتجر، الذي ظهر إعلانه في الجريدة. كان صغيراً جداً، ومُلصَقُهُ الإعلانيُّ كان يفيد

بانتمائيه للعبريِّ إلياس بن ذريهم Elías Bendrihem. وهناك اشترت طرازاً من قلم باركر، صنف 51. كانت سدّادته مغمورة بالفضّة، كما اقتنت علبةً من مداد كينك Quink.

بقيت أولبيدو مدينةً للتاجر بالحساب، ففي اليوم التالي، ستعطي الخادمة المال، لتأتي لتسديد ما بذمّتها. لم يمانع الرجل الذي كان يُغطّي قمّة رأسه بالكيبا kipá اليهودية، ويتحدّث حكيثيا jaquetía.

- إن لم يكن هذا كافياً، فخذني ما أنت في حاجة إليه، قال.

عادت أولبيدو إلى المنطقة الأوروبية، وعند وصولها إلى مقهى باريس الكبير، توقّفت، ثمّ توجّهت بنظرها نحو الداخل. ارتجّ قلبها؛ لقد كانت جيني هناك، وقد تمكّنت من رؤيتها.

أخذت جيني محفظتها اليدوية الضخمة المصنوعة من الجلد الأسود، من الكرسي التي كانت موضوعة فوقه، وبدأت تُفرغ محتوياتها فوق الطاولة الصغيرة المستديرة للمقهى. برز منديل، ثم نظارة شمسية، ثم كتاب بغلاف ذابل، ثم ريشة طائر، ومنديل آخر، وأحمر شفاه، وحفنة أوراق يابسة، ومظروف بطوابع أمريكية للبريد الجوي، ثم حذاء جلدي رياضي، ومفاتيح وكتاب آخر، وحبوب طبيّة عديدة بألوان مختلفة، وحافظة نقود... توقفت وهي تستخرج غلاف حلوى مُجعداً.

- هذا ما كنتُ أبحث عنه - قالت وهي تلوّح به بين إبهام وسبابة يدها اليمنى - ولا أدري ما أفعل به.

نظرت أولبيدو إليها نظرة ارتياح. هل كانت مزحة؟ هل تضعها تحت اختبار ما؟

- ارم بها إلى القمامة، يا جيني. أم ترى لها ارتباطٌ بذكرى خاصّة بك؟ - لا، ليس الأمر كذلك. فقط ذات يوم، اشتريت قطعة شوكولاتة، ومنذ ذلك الحين، وأنا أحتفظ بقطعة الورق هذه في المحفظة. عندما رأيتك تدخلين، كنت أتساءل ماذا سأفعل بها؟ هل تعرفين شيئاً؟ *You know somethin*؟ بات يصعب عليّ اتخاذ قرارات صغيرة *tiny decisions*. قرأت في ملامح أولبيدو أنها لم تفهم قصدها، وأضافت:

- قرارات حول أمور صغيرة. انظري، لا أدري أيضاً ما أفعل بهذه - قالت

مشيرة بعينَيها إلى الريشة التي تجثم على الطاولة، بجانب كأس خينبرا ginebra التي كانت تشرب منها - لقد وجدتها بالشارع والتقطتها، لأنني أشفق كثيراً على الطيور.

- الطيور، بالنسبة إليّ، تُشعِرني بالفرح، يا جيني، ولكني أفهم ما تريد من قوله. إنها صغيرة جداً وكثيرة الهشاشة. وتُشعِرني أيضاً بالكثير من العطف عليها. أضاء وجه جيني فرحاً، وأشرقت عيناها، وبرز طقم أسنانها الفَرَسِيَّة، وارتفع أنفها.

- إذن، أهديك الريشة.

تركت الغلاف فوق الطاولة، واستعادت الريشة، قبّلتها، ثمّ قدّمتها لأوليبدو، كما لو كانت خاتم ألماس. كانت الريشة كبيرة وقاتمة وبشعة، ولكن أوليبدو قبّلتها، كما يُقبَلُ رسمٌ قام طفلٌ بإهدائه إيّاك.

- سأحتفظ بها - قالت أوليبدو - سيكون تذكّاراً جميلاً منك.

اقتربَ النادل ليأخذ طلبية القادمة الجديدة. طلبتُ منه أوليبدو أن يأتيها بحليب وقهوة، ثمّ التقطت من الطاولة ورقة الشوكولاته، وسلّمتها له، طالبة منه رميها في القمامة. لم تناقش جيني القرار، وطلبت زجاجة أخرى من خينبرا، وشرعت من جديد في إعادة الأشياء التي أخرجتها إلى محفظتها اليدوية.

- وأنت؟ ماذا عندك هناك؟ قالت جيني مشيرة إلى اللعبة الصغيرة، التي تركتها أوليبدو فوق كرسيّ، بجانب المِعْطَفِ المَطْرِيّ والمحفظة اليدوية والفُكَّازات.

- هذه هدية من أجل زوجي. إنه قلم باركر، اشتريتهُ للتوّ من متجر عبريّ بشارع إيطاليا. كنتُ عائدة إلى البيت لأنعم بقبيلولة، حين لمحتك هنا، فدخلتُ لتحيتك. هل أنت في انتظار أحدٍ ما؟

- نعم، أنتظر بيل بوروز Bill Burroughs مطّأ أولبيدو شفتيّها بطريقة فكّهة، إشارة إلى أنها لا تعرف الشخص المذكور.

- هو كاتب أمريكي، يعيش هنا - قالت جيني - ولكنه يمكن أن يأتي، ويمكن ألا يأتي، بيل شخص يمكن أن تتوقّع منه أيّ شيء. على أيّة حال، قل لي: ما سرُّ هذه الهدية لزوجك؟ هل هي بمناسبة عيد ميلاده، أو شيء من هذا القبيل؟

- لا، ليست بمناسبة عيد ميلاده، فقط راقني أن أهديه شيئاً ما.

- أرى ذلك! هل يتصرّف معك بطريقة أفضل؟ لقد سبق أن قلت لي، في لامارشيكاً بأنه لا يهتمُّ بك.

- نعم، ما زال على تلك الحال، لكنه هذا الصباح، تصرّف معي بطريقة مغايرة، فأحببتُ أن أوجّه له الشكر على ذلك. طُفّت علامات الدهشة على وجه جيني، وقالت: لن أكفّ عن الاندهاش، من قدرة التحمّل التي تتمتّعن بها، أنتنّ النساء الإسبانيات، الأمريكية لن تتحمّل من زوجها نصف ما تتحمّلنه.

- لقد تربّينا على هذه الطريقة، يا جيني. منذ قرون ونحن نتلقّى القسَم، بأنه يتعيّن علينا أن نكون كتومات ومُسكينات. لكنّنا بدأنا نتغيّر. أتى النادل بالطلبية، وبينما هو يأخذ في وضعها على الطاولة، قامت أولبيدو بفتح محفظتها اليدوية، وخبّأت ريشة الطائر.

راحت أولبيدو تتأمّل جيني، كانت تلبّس بدلة بيضاء، تبدو أكبر من مقاسها، وكانت تتدلّى من عنقها قلادة من حبّات الزجاج الملوّنة بالقرمزيّ. كان مظهرها بائساً ومُحبّباً في آن. ابتسمت أولبيدو في وجهها سائلة:

- وأنتِ، كيف هي أحوالك؟

- لا أستطيع أن أكتب شيئاً. بول يكتب كل يوم. هو منضبط كثيراً.
لكنني أحاول، ومع ذلك لا أفلح في كتابة ولو كلمة واحدة. أنا قلقة كثيراً.
- لا تدرين إلى أيِّ حدٍّ أنا آسفة من أجلك. أكيد أنك تمرّين بأوقات
عصيبة، ما تفتأ أن تمرّ. سوف ترين.

- يا ليتها! Ojalá، نأمل ذلك، كما تقولون أنتم الإسبان، لكن، في
الحقيقة، لديّ أنا أيضاً مشكلات في البيت.

- هل، يا ثري، تعانين من إهمال بول لك أيضاً؟ لقد قلتِ للتوّ بأن
مثل هذه الأمور لا تحدث معك، أنتنّ الأمريكيات.

- لا، المشكلة ليست مع بول. نحن الاثنين علاقتنا جيّدة. المشكلة
مع شريفة، مُدبرة منزلنا. لقد أهديتها بيت القُصبة الصغير، ولا زالت غير
راضية، بل إنها تصنع لي مشاهد مُروّعة.

- لا أفهم هذا، يا جيني!

شبكت ذراعَيْها، وعادت قليلاً إلى الورا لتأكيد دهشتها

- هل تقولين بأنك أهديتِ منزلِكِ إلى مغربية؟

- نعم، كلُّ مَنْ يسمع هذا يندهش، لكن، هذا ما قمتُ به بالفعل. بول
وأنا سننتقل إلى عمارة حديثة البناء، بالقرب من القنصلية الإسبانية. هي
ستكون لها شُقَّتْها وأنا أيضاً، قالت وهي تُفرغ في جوفها كأس خينيرا.

أوليبدو التي لم تكن قد مسّت بعدُ كأس قهوتها وحليبيها، راحت تنظر
إليها بنظرات مَنْ يتوقّع أن يسمع المزيد.

- شريفة سوف تأتي للعيش معي - أضافت قائلة - لا يمكنني الاستغناء
عنها. الأمور كما ترين جدّ مُعقّدة.

- أرى ذلك! - قالت وهي تهرّ رأسها

وتفكُّ تشابُكَ ذراعَيْها، وتسندهما إلى الطاولة.

- يبدو في الحصيلة - أنكنَّ الأمريكيات - لا تبدون بالبساطة التي تدَّعونها. نحن الإسبان - بالمقارنة معكنَّ - لا يبدو أننا مُستعصيات على الفهم.

- الذين يعيشون هناك، نعم هم بسطاء جدًّا، يا أولبيدو. لكن، نحن، الذين نعيش هنا، لسنا بالدرجة نفسها من البساطة. ولعلَّ ذلك بالضبط، ما يجعلنا نعيش هنا. أتعرفين لماذا؟ لكي نَصِيعَ كلَّ يوم، ونجد أنفسنا بعد الضياع، ونكتشف بأن ذاك الذي وجدناه، قد أصبح شخصاً آخر. انحنت جيني على الطاولة، ووضعتُ يدها اليمنى على اليد اليسرى لأولبيدو، وضغطت عليها بنعومة:

- سأستمرُّ مُتشبِّهة بكلِّ لحظة، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، وأنتِ الآن، أنتِ لحظتي! صدِّقيني!

طَنْجَة، ربيع 2002

كان اليومُ يومَ ثلاثاء. تحديداً بعد حصّتي الدراسية الصباحية، وقت مناداة المؤذنين للصلاة التي تسبق وجبة الغداء.

سبقني سعيدٌ إلى شجرة التين البنغالية الموجودة بحدائق المندوبية. كانت شجرة عملاقة ترتفع على علوّ ستّة أو سبعة طوابق سكنية، وتمدُّ أغصانها لتشكّل قُبّة، يمكن لقبيلة كاملة أن تحتمي بظلّها من الشمس. كانت تنبجس من فروعها جذورٌ هوائية سميكة، تنغرس في الأرض على هيئة أعمدة. ومن كتلة أوراقها الهائلة يضيء لونٌ أخضرٌ ينضح عافية. اقتربتُ من الشجرة، فنهض سعيد الذي كان يفترش إحدى جذورها ليحييني. كان صحفيٌ ميدي 1 ينتعل حذاءً جلدياً ناعماً أسود، وجوارب سوداء، ويلبّس سروالاً أسودَ ذا ثوب خفيف، وقميصاً رياضياً أصفر بكمّين طويلين.

بخلاف نهاية الأسبوع المُمطرة، كانت السماء مُشمسة وصافية إلّا من بقع قليلة وخفيفة من السُحُب. لا بدّ أن درجة الحرارة كانت تقارب الست والعشرين درجة مئوية. وكانت تنبض مُؤذنة باقتراب فصل الصيف.

نزعْتُ نظّارتي الشمسية قبل أن أضافحه في يده، في حركة تعكس نوعاً من اللباقة. تبادلنا السؤال عن الحال والأحوال، وسألته عن رشيدة، فطمأنني على حالها، وأخبرني بأن عملها في مركز خدمة الزبائن عمل شاقّ

وشبيه تماماً - كما أعلم - بعمل ليلى. المهمُّ أنه كان عملاً وكفى. وهو ما لم يكن متاحاً بشكل وافر في المغرب.

سألني سعيد، وهو يُرسل نظرة حادة، مَشُوبَةٌ بقلق أبدي، عن المزاج العامّ للسكّان الإسبان بعد جريمة قتل زميلي في معهد ثيرباتيس. أجبتُه بأن الجميع كان مرعوباً، وغير مطمئنٍّ، وفسّر لي بأن ما حدث كان هو السبب وراء طلبه رَقْم هاتفي من ليلى، ليتّصل بي.

وصولاً إلى هذه الحدود، بدا لي أنني تحوّلتُ إلى حجر صغيرٍ وسط حذاء، لن أتأخّر في معرفة اسمه: "عملية الحُسيمَة". لم أكن عائقاً يستحيل قهره، ولا كان هذا العائق كبير الحجم، وإنما كان إزعاجٌ مُمثّلٌ ذي دَوْر ثانوي، لم يكن موجوداً أصلاً في سيناريو أولئك الذين قاموا بالتخطيط للعملية، وكانوا بصدد تنفيذها.

أوّل تدوينة لي بأسفل صفحة "عملية الحُسيمَة"، كانت يوم رفضي لحكاية أن ألبيرتو كان قادراً على الارتقاء فوق نادلة المنزلة كفاسق في ليل عريضة. كنتُ على معرفة جيّدة بمن كان صديقي منذ الطفولة، وأن هذه الحماقة لا تتناسب مع شخصيّته. وحتّى حديث ليلى مع نادلة الفندق أكّد بأن تهمة الاعتداء الجنسي لم تكن إلّا مقلباً، أريدَ به منع ألبيرتو من الخروج من المغرب، من أجل إبقائه بجنوب البوغاز، لإعطاء الوقت لحلّ قضايا أخرى. قضايا تتعلّق بـ "الأمن الوطني" كما قال المُفوّض الجديد في فيلاً بيرديكاريس.

مباشرة بعد ذلك، زحّ أحدهم بأحمد السبّتيّ في مهمّة تتبّع خطواتي. وقد كان أحمد السبّتيّ، فيما يبدو، لصّاً صغيراً وتاجرَ حشيش، تحوّل إلى جهاديّ مُتحمّس ضدّ الحكومات العربية "الكافرة والفاصلة وحُماتهم من الغريبيّن". ولكن، مَنْ ذا الذي قام بتكليفه بتعقّب آثارني؟ لن يكون إلّا ذاك الذي أرسل لي الرسالة القصيرة بعد موته. هو فقط مَنْ يقدر أن

يربط رأسي برأس الجهادي. ريبالدو قتل الجهادي في أثناء المواجهة الليلية بابن مكادة، وريبالدو تحقق للتو من أن أحد الإسبان هو من اشترى من المدينة القديمة البطاقة الهاتفية للدفع المسبق، التي من خلالها أرسلت لي الرسالة القصيرة، بعد العثور على الجثة. هذا الإسباني ممكن جداً، أن يكون هو أرسينيو نوغيرا رئيس CESID، المركز الأعلى للمعلومات والدفاع بشمال المغرب. عُمره، وقصته شغره يشيران إلى ذلك. أية علاقة يمكن أن تكون، لرئيس جهاز CESID بأحد الجهاديين؟ لماذا سينجُ به في مهمة تتبّع خطواتي؟ هل التحريات التي قمتُ بها في محاولة لتبرئة ألبيرتو من تهمة النادلة، كانت السبب في إطلاق صفارة إنذار مُعيّنة؟ كيف تسنّى لأرسينيو نوغيرا، أن يكتشف هذه التحريات؟

بتفاصيل أكثر أو أقل، كنتُ تحدّثُ للمفوض الجديد، وللقنصل عن اعتراف النادلة. لا شك أن القنصل هو من قام بإخطار أرسينيو نوغيرا. بعض أجزاء لعبة الألغاز بدأت في التلاؤم، ولكن، بصورة غير مُستقرّة، ودون أن يتّضح الرسمُ كاملاً. كان يُرعبني احتمالُ أن بابلو مورينو قد دفع حياته ثمناً لفاتورة بني مكادة! ففرضية الجريمة العاطفية التي كان يشتغل وفّقها المفوض بوعلي بدت خاطئة.

نعم، كان زميلي في ثيرباتيس مثلياً، لكن، لا شيء كان يشير بأنه كان داعراً، أو على علاقة بأشخاص عنيفين.

أمكننا أنا وشكري التحقق من أن بابلو مورينو، كان في طريقه للشروع في بناء علاقة جدّ محترمة مع ميمي، كنتك التي بيني وبين ليلى. باتريك صاحب ملهى الأتيو كان على حق؛ فالمحامي الشاب، صاحب اللحية الصغيرة، لم يكن فيما يبدو يقوى على قتل ذبابة. كما أكّد لي المفوض بوعلي - دون قصد منه - بأن شخصاً آخر - والأمر هنا يتعلّق بشخص حليق اللحية - قد اصطدم ليلة الجريمة عند بوابة المبنى الذي يقطنه

بابلو مورينو مع إحدى الجارات. هل التبتست على الشخص الحليق هُوِيَّةُ أستاذ اللغة الإسبانية؟ هل كان يحاول الانتقام من موت أحمد السَّبْتِيّ؟ وإذا ما صحَّ الأمر، فهل كان يتصرّف بمفرده، أم أن أحداً ما أوصاه بفعل ذلك؟ كان من الصعب التصديق بأنه كان يُنفَّذ أوامر الشخص ذاته الذي كان يُحرِّك أحمد السَّبْتِيّ. إذا كان هذا الأخير هو أرسينيو نوغيرا، فلا أرى أيَّ مُبرِّر يجعله راغباً في قتلي. رجلان ميطان ومدفونان. حربٌ من أجل رخصة للهاتف المحمول، ما بين شركة إسبانية وأخرى فرنسية. قضيةٌ ماسَّةٌ بـ "الأمن الوطني" المغربي. مُفوَّضان من شرطة طُنْجَة. "فرقة خاصة" قادمة من الرِّباط. عسكريٌّ كان رئيساً لجهاز التجسس الإسباني بشمال المغرب. قنصلٌ مُزوَّد على نحو جيّد بفرولة أرانخويث. خبراء في التعامل مع السكاكين، كالجهادي أحمد السَّبْتِيّ وقاتل بابلو مورينو. وصديقي ألبيرتو ماركينا، الموقوف لحدود اللحظة بالقنصلية. هذا ما كنتُ أعرفه عن عملية الحُسَيْمَة، عندما اجتمعتُ مع سعيد في حدائق ما كان يُسمَّى سابقاً بالمندوبية، في فسحة واسعة من فسحات السوق الكبير.

- شكراً لأنك حضرتَ للِقائِي - قلتُ - كما سبق وألمحتُ لك في الهاتف، فأنا أريد استشارتك في أمر كنتُ اقترحتهُ خلال عشاء الأسبوع الماضي، ولم يُفارق ذهني. ولذلك طلبتُ من ليلي هاتفك واتَّصلتُ بك.

- ليس هناك مشكلة، *Pas de problème* - كان حديثنا بالفرنسية، كما فعلنا في أثناء عشاءنا في الدورادو - الشيء الوحيد الذي آسف له، هو أنه ليس لديَّ الكثير من الوقت، لا يمكنني التأخُّر في العودة إلى الإذاعة، هي خمس دقائق أو عشر على أقصى تقدير، سوف ترى.

أشار لي بيده للجلوس، فوق جذر الشجرة الذي كان يستعمله كمَقْعَد. جلستُ وعدتُ لارتداء نظَّارتي الشمسية، كنتُ في حاجة إليها؛ ضوءُ طُنْجَة يحيل المدينة إلى مدينة ألوان حادَّة ومتناقضة. ففي أسوار المدينة

القديمة وأسوار القُصْبَة غير المصبوغة بالأبيض هناك الخردلي والوردي والأزرق النيلي. وفي مَحَلَّات بيع الفاكهة، هناك لون التفَّاح والموز والبرتقال والليمون والفراولة. أمَّا الجلايب والقفاطين، فتضجُّ بالقرمزيّ واليَقْطِينِيّ والفِيرُوزِيّ، عدا عن خُضرة أشجار النخيل والصَّنَوْبَر والسَّرو، وألوان الزهور القزحية التي تنفجر في كلِّ مكان، حتَّى في ظلال الأسواق المسقوفة. كانت الألوان تتوهَّج - كقلعة ألعاب نارية - في مَحَلَّات التوابل المغربية والمشرقية: الفُلُّ والْعَنْبَر والحِمْء والقِرْقرة والحَلَوَى والدَّقِيق المَحْمَص... ولعلَّ لون وجه صحافي ميدي1 كان شبيهاً بلون الزيتون.

- سوف ألجُ الموضوع مباشرة - قلتُ وقد أخرجتُ سيجارة، وأشعلتها وسحبتُ منها نَفَساً، وأنا أفترش وإيَّاه جذر الشجرة الضخمة، الذي كان سميكاً ودائرياً ومريحاً في آنٍ - كما قلتُ لك، هناك الكثير من القلق الذي يسود الساكنة الإسبانية، بسبب مقتل بابلو مورينو. التحقيقُ يقوده المَفْوَّض المدعوُّ بوعلي. هل تعرفه؟

- نفى سعيد برأسه - يفترض بوعلي، أن الجريمة هي تصفية حسابات بين مِثْلِيَّين، وقد يكون الأمر كذلك. بالنسبة إليّ، فإنه ليست لديّ معرفة بالموضوع - ولا يهْمُنِي في شيء أن أعرف - الآن فقط، أكتشف بأنه كان مِثْلِيّاً.

- نعم، مُحتمَل جدّاً أن تكون قضية une affaire من هذا النوع. لمَ لا؟ Pourquoi pas؟ الإخبار عن الحوادث في الإذاعة ليس من مهامّي، لكن، يبدو لي، فيما أذكر أننا قدّمنا الخبر مُتحدّثين عن أن الشرطة تباشر تحقيقاتها في هذا الاتّجاه. عدل عُنُق قميصه الرياضي، واستفسر قائلاً:

- هل في أوساط السكّان الإسبان اشتباه في شيء آخر؟

- في الحقيقة لا. مديرة ثيربانتيس والقنصل والكلُّ يُسَلِّم بأن المَفْوَّض

بوعلي يعرف ما ينوي القيام به. يبدو كُفُوًا، وفي الحصيلة، فليست هي المرة الأولى التي يقع فيها أمر مماثل.

- لا، الجرائم فيما يُسمَّى "قضايا الشرف" للأسف Hélas أمر اعتيادي جدًّا في المغرب!

- في إسبانيا كذلك، العنف الذكوري وَصمة كبرى، قد لا تُصدَّق! لا يمرُّ أسبوع دون أن يقوم زوج بقتل زوجته أو خطيبته، أو مَنْ كان على ارتباط بها، فيما مضى.

هَبَّةُ هواءٍ خفيفة حرَّكت أوراق الشجرة، أحسستُ وكأنها تُداعبني. شممتُ رائحة التراب والنبات، حديثي البَلَل.

- لكن، على أيَّة حال، يبقى احتمال الاعتداء الجهادي قائماً - تحوَّل القلقُ في عينيَّ سعيد إلى اهتمام - لمَ لا؟ فنحن نعيش في الزمن الذي نعيش فيه، وقد تحدَّثنا عن هذا، في الليلة السابقة.

- سوف أكون مُندهشاً، يا سيولبيدا، مُندهشاً حقًّا! فحسب علمي، لم تُعلن أيُّ جماعة مُعيَّنة، مسؤوليَّتها عن الجريمة - أَكَّدْتُ برأسي أنني تذكَّرتُ إلماحي إلى ذلك في عشاء إلدورادو - فلا القاعدة ولا أيُّ من فروعها في الكرة الأرضية، تحدَّثوا بخصوص هذه المسألة - صمتَ قليلاً، وكأنما يُنْقَب في ذاكرته عن معلومة حديثة - ولا مصدرَ من مصادري في الشرطة لَمَّح لي إلى جريمة قتل زميلك.

- ولكن، يا سعيد، الجهاديون يُعجبهم الذَّبْح، أليس كذلك؟
- يُفضِّلون الهجمات الجماعية بالمتفجَّرات. تلك التي تُحدث الكثير من القتلى، وتحظى بتغطية إعلامية واسعة. ومع ذلك فما تقوله صحيح؛ ففي الجزائر، والآن في أفغانستان، يقتلون الضحايا فُرَادى بقطع رقابهم.

وقد وصلوا إلى حدود تصويرهم، وإرسال شريط الفيديو إلى قناةٍ ما من القنوات التلفزيونية، أو القيام بإنزاله على الشبكة العنكبوتية.

- هذا ما بدا لي، أني أتذكره. وهل سُجِّلَتْ في المغرب حالات مماثلة؟

- لا، ليس بعدُ، لا من هذا النوع ولا من أي نوع آخر. فالعمل الجهادي لم يصل هنا بعدُ - ونظر حوله وكأنه يبحث عن جواسيس مخفيين، دون أن يُفْلِح في العثور على أحدهم - الكثير من الناس يعتقدون، أن لدينا هنا، مناعةً ما، لأن الملك هو أمير المؤمنين *Amir al Muminim*، ولأن إسلامنا الشعبي ليس هو إسلام العربية السعودية، ولكنني لست متيقناً من ذلك تماماً. كان سعيد شخصاً حَذِراً، والصحافيون كانوا، على العموم، مُكرهين أن يكونوا حَذِرِينَ.

حينما اتَّصَلْتُ به صباحاً، على رَقْم الهاتف الذي أعطته لي ليلي، قال إنه يُفَضِّل ألا نلتقي في أيِّ مقهى. وحدد الموعد في أسفل شجرة التين البنغالية بالمندوبية. فضاء شعبي مفتوح وقريب من مقرِّ ميدي 1 الموجود بإحدى شاليهات شارع المصلّى وخلف القنصلية الفرنسية. على بُعد أربع خطوات من ميدي 1، انتصبت فيلاً، كانت في عهد الحسن الثاني، مركز تعذيب تابعاً لمديرية مراقبة التراب الوطني DST ؛ جهاز المخابرات المغربية. هذه الفيلاً الآن، أصبحت مهجورة.

أكملت سيجارتي، ونظرتُ بدوري إلى ما يحيط بنا. كانت ثلاث دجاجات تنقر في العشب ذي اللون الرُّمُديّ، الذي كان ينمو تحت قُبَّة شجرة التين البنغالية. كانت الدجاجات مربوطة من سيقانها، بحبال صغيرة تنتهي رؤوسها في اليد اليمنى، لسيِّدة تضع فوق حجاب رأسها، قُبَّة بيسبول بيضاء. رَدَّت المرأة على نظرتي بابتسامة؛ ربّما كان عُمْرها سبعين عاماً، أمّا وجهها، فقد كان شديد البياض وعيناها شديدتَي الرُّزَّة كعيني امرأة موسكوفية. لم تكن تبدو عميلة مخابرات DST أو CESID

أو أيّ جهاز تجسّس. بعيداً عن المكان، كان هناك بستاني يرتدي صدرية صفراء عاكسة، وينام فوق العشب فيما لا يزال خرطوم المياه الذي كان بيده، يقذف ماء على مسافة أمتار. أربعة أفارقة من جنوب الصحراء، كانوا ينامون قيلولتهم على مسافة ستّة أمتار، من جهتنا اليمنى.

كلّ من البستاني والأفارقة يبدو أنهم غيرُ مُؤذنين. لا أدري لماذا فكّرتُ في أن هؤلاء الناس كلّهم كانوا يعرفون أشياء، كنّا نحن قد نسيناها؛ أشياء أكثر قِدَمًا وأفضل قيمةً من أسعار البورصة اليومية. كان هذا الإحساس يُراودني باستمرار، وأنا أُمعن النظر في المغاربة. نظر سعيد لساعته اليدوية المصنوعة من البلاستيك الأحمر.

- لن أشغلك أكثر - قلتُ - سأطرح عليك سؤالين مباشرين أو ثلاثة، كما يفعل صحفيٌّ مع سياسيٍّ.

- ابتسم - لكنني آمل أن تجيب مثل صحفي، لا مثل سياسي.

- اتّسعت ابتسامته أكثر - السؤال الأوّل يبدو غريباً: هل لدينا جهاديون في طَنْجَة؟ ولا أقصد أولئك الذين اكتشفوا للتوّ فضائل إسلام بدويٍّ من العصور الوسطى. أولئك أراهم بالفعل في الشوارع، يلحّاهم المناضلة، وأرى نساءهم اللواتي لا تظهر منهنّ سوى العيون. هم قَلّة، لكنّ، في تزايد. ما أقصده، هو أولئك الأشخاص القادرين على القتل والقادرين على الموت من أجل يوتوبيات ابن لادن، ومَنْ على شاكلته.

- لا تُخطئ بخصوص موضوع المُلتَحِين. المتشدّدون والأصوليون والإسلاميون، أو كما يحلو لك تسميتهم منذ سنوات، ورقعتهم بطنّجة في اتّساع. يقومون بعمليات التجنيد داخل أوساط المهاجرين من مناطق أخرى في المغرب، المُستقرّين في الأحياء والضواحي الأكثر فقراً. يُندّدون بالبؤس والفساد والظلم الاجتماعي، ويستنكرون أن يكون الخمر والجنس حاضرين

في المدينة، كما كان عليه الأمر في العهد الدولي. باختصار، أشياء من هذا النوع... - بإشارة من يدي شجّعته على الاستمرار في الكلام - لديهم حزبان سياسيان، الواحد منهما أكثر اعتدالاً، وهو حزب العدالة والتنمية PJD الذي يتودّد إليه النظام، والآخر أكثر تجذُّراً، وهو العدل والإحسان، الذي يقوده الشيخ عبد السلام ياسين وابنته نادية ياسين. لكن هذين التنظيمين يشجبان العنف.

- ومن الجماعات الأخرى، التي على شاكلة ابن لادن؟

- قد توجد فئة منهم، ربّما عشرون فرداً منهم، كافون ليُحدّثوا ألماناً كبيراً. المخابرات تراقبهم عن كثب. منذ أيّام، مات أحد المشتبه بهم، مَطْعُوناً بسكّين في بني مَكَادَة. وحسب ما علمتُ، فهذه القضية ما تزال أيضاً لم تعرف طريقها للحلّ - توقّف، وحدّق فيّ بفضل - لكن، لماذا يهْمُكَ هذا الموضوع؟ أنت لا تتابع القضايا السياسية حسب ما قالت لنا ليلي!

- صحيح - أَكَّدْتُ - لكن، هناك للإشارة، كاتب إسبانيّ في طَنْجَة اسمه آنخيل باثكيس كتب بأننا هنا، "عبارة عمّا تريده الريح". لقد تزامن مجيئي إلى المدينة، مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وقد بدأتُ في التفكير بأن أمراً كهذا له دلالةٌ ما - كان سعيد يصغي إليّ بإمعان، شابكاً ذراعَيْه - ولكن، إذا أردنا الحديث بجِدِّيَّة أكبر، فالذي دفعني للاهتمام بهذا كلّهُ، كان هو مقتل زميلي بشير باتيس، وأمرٌ آخر، لا أستطيع الإفصاح لكّ عنه الآن. هو اهتمام إنسانٍ هاوٍ amateur طبعاً. فليلى لم تكذب عليكم. ما يهْمُنِي هو الأدب.

- هل تعرف، ما أنتَ بصدد البحث عنه؟

- فكّ ذراعَيْه، وعاد للنظر في ساعته - لقد أخبرتني بأن شيئاً ممّا قتلته في عشاء الدورادو، لا زال يشغلك.

- أجل، ما قلته عن اتصالات مُحتملة بين جهاديين وأجهزة مخابرات غربية. هل كان الأمر مجرد تكهّنات، أم أنك تعرف حالة بعينها؟ نهض سعيد وتمدد، كما لو أن المدة التي قضاها جالساً قد جعلت عضلاته تنكمش. مضى يمسح بنظراته المحيط؛ السيدة ودجاتها الثلاث ما زالوا هناك، والبستاني والأفارقة الأربعة الذين كانوا ينامون القيلولة أيضاً. انضاف ضيوف آخرون لظلّ الشجرة الضخمة، أربعينية ترتدي جلباباً فاسياً، وغلّامان يلقيان سيجارة حشيش. نهضت بدوري.

- نعم، أعرف حالة بعينها، قال.

- حالة قريبة؟

- لشدة قربها، فإنها تُحرّق. هل تهْمُك؟

- يمكنها أن تهْمّني، إن كان ضمنها إسبان.

- ذلك مُحتمل. أخرج من جيب سرواله هاتف نوكيا، ونظر إلى الشاشة مُطلقاً بالعربية لعنات، لعل سببها كان مكالمة ضائعة.

- سوف أقصّ عليك أمراً، لم نُخبر به في الإذاعة، لكنني على علم به. أفعّل ذلك، لأن ليلى تقول بأنك رجل طيّب، لكن، يجب أن لا تتحدّث به مع شخص آخر، ولو تحت التعذيب، لأنك قد تقوم - دون قصد - بتجفيف منابع خبري!

- أقسم على ذلك بحياة ابنتي.

- منذ أسابيع، حلّت بطُنجة قادمة من الرِّباط فرقة خاصّة من مديرية مراقبة التراب الوطني، أرسلها رئيس DST، الجنرال العنيكري نفسه، وهي تحقّق فيما إن كانت هناك علاقات، ما بين بعض الأعضاء في المخابرات الإسبانية ومجموعة جهادية، قد تكون في طور التشكّل، بطُنجة والدار البيضاء، وربما بمدينة مغربية أخرى.

- فرع محليّ لتنظيم القاعدة؟

- ليس تماماً، ما زال الغموض يلفُّ المسألة. مصادري في مديرية مراقبة التراب الوطني تعتقد بأن هذه المجموعة قد تكون مُشكّلة من مغاربة فقط، وقد تكون مُستقلّة، ولا تُشكّل جزءاً من بنية القاعدة. هل ما يزال الأمر يهْمُكَ؟

- أكثر من أيّ وقت آخر، يا سعيد - قطعة جديدة عادت، إمّا لتشوُّش بشكل أكبر على لعبة الألغاز أو لتكون ربّما، حجر زاوية *clef de voûte* في حلّها - هل لديك فكرة عن طبيعة الدّور الذي يضطلع به الإسبان في هذه القصة؟

- نعم، لديّ فكرة، لكن، لنفعل شيئاً: اتّصل بك الليلة، ونَتَّفَق على موعد للذهاب غداً، لنرى مصدراً من مصادري الأخرى. لن تكون هذه المرّة من الشرطة أو من جهاز مراقبة التراب، بل من أوساط الإسلاميين الذين - هم إلى هذا الحدّ أو ذاك - في وضع السريّة. هل تتجرّأ؟
- بالطبع.

- أتصوّر أنك أيضاً تعرف بعض الأشياء يا سيبولبيدا - قال قبل أن يباشر طريق العودة إلى الإذاعة.

من جانبي حاولتُ أن يكون جوابي قوياً دون أن يعني أنني توقّفتُ في ذلك - غداً سأخذك لترى مصدري الإسلامي، وهو خطيب من حيّ بني مكادّة، له ارتباط بحركة الشيخ ياسين. ولكن، عليك أن تُحدّثني أنت عمّا تعرفه، وأخا؟

بعض الأخوة يسقطون في الفخ المنسوب لهم من قبل أعدائهم، ويستعملون العنف - قال الحاج فؤاد الكتّاني بنبرة حزينة تبيّنتها، وهو يتحدث بعربية فصلى، تولى سعيد أمر ترجمتها لي إلى الفرنسية - وهذا يُعدهم عن الكثير من أعضاء جماعة المؤمنين التي نتقاسم أفكارها. - أي أفكار تعني؟ سألتُ.

قَرَصَ يابهام يده اليمنى وسبّأبتها، المسمار اللحمي القبيح المنظر الذي يسطع وسط جبهته. كان سميكاً مثل حبة حُمصٍ، وقاماً كقطعة عذاب، كان عربوناً على تدين شديد، وعلى ساعات طويلة قضاها ساجداً، أمام الإله الأوحد للقرآن، مُلامساً بجبهته الأرض، ومولياً وجهه نحو الكعبة، حيث المدينة المقدّسة، التي قام فعلاً بزيارتها. كان لقب الحاج بالتحديد، ثمرة لهذا الحجّ.

- المغرب أرض إسلام، ويجب أن يُحكّم بالإسلام، أجاب في النهاية وهو يُصدر بالعربية تنغيماً حَلَقِيّاً، مَيَّزَتْ فيه انعطافاً وَعَظِيّاً بيداغوجياً. - وهو لا يُحكّم بالطريقة التي ذكرت؟

- لا، وأنتَ تعرف ذلك. نحن المسلمون هنا، لا يمكننا أن نعيش عقيدتنا بصورة كاملة. أنا لم آت - في الحقيقة - لَنُناقش هذه الأمور مع الحاج فؤاد، لكنني كنتُ قرأتُ شيئاً، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، عرفتُ من خلاله، أن مشكلة مخاطبي ومشكلة مَنْ يُفكِّرون مثله، لا تكمن في كونهم

لا يستطيعون أن يعيشوا عقيدتهم في المغرب، الذي يبدو في الظاهر أنه لا يقوم بوضع عراقيل أمامها، بل لأن لديهم نزوعاً شمولياً، لأن يكون الكلُ مثلهم من حيث التفكير والعيش.

كان هذا تأويلهم للإسلام، وكان هذا هو التأويل الوحيد الممكن. لكن الأمر لم يكن بالضرورة على هذا النحو؛ لقد كانت هناك تأويلات أخرى، أكثر تنويراً وأفضل - في توجُّهها العقلاني، لاستلهاام روح الرسالة القرآنية - من أيّ تطبيق عنيد لحرفيته الأكثر رجعية. لكن، من الواضح أن الرجل كان من عِيْنَةِ المتحجّرين.

دخل شابٌ مُلْتَحٍ كان يلبس جلباباً أبيض، وبيده صينية من نحاس منقوش بها إبريق وثلاثة كؤوس زجاجية. بَسْمَلَ بصوت جهير، وَصَبَّ المشروب في كأس، وقَدَّمه للحاجّ فؤاد الذي أمسكه بكلّ عناية، بالأصابع ذاتها التي قَرَصَ بها المسمار اللحمي في جبهته.

بعد ذلك قَدَّمَ لنا أنا وسعيد كأسيْنَا، فشكرناه معاً. رشف الحاجّ فؤاد الشاي المُنْعَنَع، ووضع الكأس فوق المائدة الصغيرة المستديرة المصنوعة من الخشب المُطْعَم، والتي وُضِعَتْ على يمين الأريكة الطويلة التي كُنَّا نجلس عليها.

كان الحاجّ يلبس عِمَامَةً صفراء، في مثل لون جلبابه، وكانت قدماه الحافيتان المَحْشُوتَان داخل نَعَالٍ رمادية ترتاحان فوق زريبة حمراء وزرقاء، تبدو ذات جودة مُتَوَسِّطَة. قال لي سعيد، إن مضيفنا سيكون في الخمسين وثيْف من عُمره، لكنه يبدو سبعينياً، حفرَتْ وجهه أخاديدٌ عميقة، وغزا عَيْنَيْهِ حزنٌ، وكست وجهه لحيه كلّها بياض. والسبب حسب ما أخبرني به سعيد هو أن الحاجّ فؤاد، كان قضى سنواتٍ عدَّة في سجون الحسن الثاني. ففي إحدى خُطبه ليوم الجُمُعَة، في المسجد الصغير لابن مَكَادَة، حيث كان يجتمع موالوه، أنكر على الملك السابق لقب أمير المؤمنين، وهي

صفة القائد الديني للمسلمين المغاربة. الحسن الثاني اعتبر ذلك قذفاً في حقِّ شخصه، وفي حقِّ سلالة العلوية التي امتدَّ حكمها منذ أواسط القرن السابع عشر، والذي كان يعتزُّ بتحدُّره من سلالة النبيِّ مُحَمَّدٍ نفسه.

- صديقنا سعيد أخبرني بأنك لستَ صحفياً، وأن اهتمامك ببلقائي، كان تحديداً من منطلق شخصي. ومن هنا - مضى الحاجُّ يقول - أفهم أن ما يدور بيننا لن يتمَّ نشره أو نقله إلى أشخاص آخرين.

- ولو كلمة واحدة - أجبتُ - اهتمامي فعلاً هو شخصيُّ بصورة قطعية، ولستُ مُطالباً بتقديم الحساب أمام أيِّ كان.

هبتَ عاصفة رحية، فتحت بعنف نافذة الصالون المتواضع الذي كنَّا نتحدَّث بداخله. لقد استفاقت طُنْجَة يوم الأربعاء ذاك، على سياط رياح الشرقي Chergui، التيّار الهوائي الشرقي الذي يكون هنا دائماً، أكثر جموحاً من التيّار الهوائي الغربي. والذي قد يستمرُّ في الهبوب لعدَّة أيَّام متتالية. سارع سعيد بإقفال النافذة إقفالاً جيّداً.

- الأستاذ سيبوليدا - قال سعيد وهو يعود إلى الأريكة - لا يمكن التصديق، أن هناك حكومات غربية تقيم، بالطُّرق كُلِّها، علاقات مع جماعات إسلامية تمارس الجهاد.

- الجهاد المُزَيَّف - قال الحاجُّ فؤاد مُدَقِّقاً - الإسلام دين سلام، ويجب أن ينتشر بالموعظة والأسوة الحسنة. أفترض أنك تعلم - أضاف وهو ينظر إليَّ - أنه، ولو في حالة حرب مُبرَّرة، فالإسلام لا يبيح أن يُقتلَ بدم بارد بشرٌ لا يحاربون.

- هذا ما قرأته فعلاً، لكنَّ ابن لادن والبعض الآخرين لا يرون هذا الرأي. ولو أنني علمتُ من خلال سعيد بأنك أدنّت هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

- أدتُّها ولا أزال أدِينها. لا أعلم مَنْ ارتكبها، لكن، مهما كانت هُويَّة الفاعل، فهذه الهجمات لا علاقة لها بتاتاً بالإسلام. الأمر الآخر، وهو أن الحقَّ في الدفاع عن النَّفس، الذي يَمْتَلِكُه المسلمون في حالة مهاجمة بيوتهم، هو تماماً، ما يفعله إخواننا الأفغان الذين يقاومون الغزاة الأمريكيَّين. أنتم الإسبان أيضاً، قاومتُم غزو نابليون لبلدكم.

قَبِلْتُ حُجَّتَه بابتسامة لَخْلُقِ جوٍّ من الثقة بيننا. أخذتُ كأس شاي، كان طَرِيَّ الرائحة ونَفَّاذاً، بل كاد يكون مُسْكِراً. رشفتُ منه قليلاً وقلتُ:

- لقد قلتُ: "مهما كانت هُويَّة الفاعل" وأنتَ تتحدَّثُ عن سقوط البرحَيْنِ التوأمَيْنِ. فهل لديك شكٌّ بأن الفاعلين كانوا من أتباع ابن لادن؟

- أنا لا أعرف مَنْ ارتكب هذه الحماقة، ولكن، لو افترضنا أن ابن لادن كان صاحبها، فأنا أذكركَ بأن هذا الرجل قد تعاون مع الأمريكيَّين في أفغانستان، زمن الغزو السوفياتي.

- الأستاذ سيبولبيدا يرى أننا، نحن العرب، ميَّالون إلى نظريات المؤامرة، قال سعيد مبتسماً. بالكاد سُمِعَت كلماته؛ فعبر النافذة كانت تصلنا زمجرة هجمات الشركي، وكأننا في فيلم رعبٍ رخيصٍ، تخرج فيه الفرَّاعة مُبَلَّلَةً. رفع صوته مُضيفاً:

- السيّد سيبولبيدا يَعْسُرُ عليه أن يتقبَّلَ أن الواقع يمكن أن يكون أكثر فظاعة وتعقيداً من الخيال الأدبي.

- المعلومة الأولى صحيحة، يا سعيد، لكن الثانية ليست كذلك - أجبْتُ مبتسماً أيضاً، حين قام الصحافي بترجمة كلامه من العربية إلى الفرنسية - لقد مرَّ عليَّ ما يكفي من الوقت فوق هذا الكوكب، لأعرف ما يستطيع الأفراد والمنظَّمات والحكومات القيام به. ولقد سمعتُ بالفعل أن ابن لادن والأمريكيَّين قد تعاونوا وقتها في أفغانستان. لكنَّ أحداث الحادي

عشر من سبتمبر، يبدو أنها من صُنْع الأوَّل، بمساعدة أكيدة للفعل غير المتقَن والغلطية والإهمال من الجانب الأمريكي. يبدو أنكم العرب تبالغون أكثر ممَّا ينبغي في تقدير الولايات المتحدة الأمريكية. القوَّة العظمى ليست معصومة من الخطأ.

- الله وحده المعصوم من الخطأ، علَّق الحاجُّ فؤاد قائلاً.

لم يكن هناك من جواب عقلاني على هذا الحُكم. لذا لزمنا الصمت نحن الثلاثة، وركَّزنا على الشاي لبضع لحظات.

وُلدَ الحاجُّ فؤاد بحَيِّ بني مَكَادَة بضواحي طَنْجَة سنة 1947، حين استقرَّ به الآلاف من سَكَّان القبائل الهارين من المجاعة التي دمَّرت الريف. تحوَّلت الأكواخ والبراريك التي أُقيمت في البداية، إلى عِمَارَات بطابقين أو ثلاثة. واجهاتٌ من الآجِر والإسمنت دون تجصيص ولا صباغة، سلالُم فاسدة وغرف ضيّقة ذات أسوار ورقية، ومنازلٌ باردة شتاءً، حارَّة صيفاً، ودائمة الازدحام، وغير مريحة.

انتقلتُ إلى هناك بعد حصَّتي الصباحية في سيَّارة أُجرة كبيرة مرسيدس ذات لون شبيه بالقهوة والحليب، تأخَّرتِ السيَّارة مدَّة عشرين دقيقة في التغلُّب على الاختناق المروري لساحة الأمم وشارع الجامعة العربية، ثمَّ عبور شارع مولاي إسماعيل والانعطاف يساراً للصعود عبر شارع مولاي سليمان والمرور أمام مركز لرجال الإطفاء، لتُودِعني في النهاية بساحة تافيلالت، حيث اتَّفقتُ أنا وسعيد على اللقاء تحديداً بمقهى "ديتونة" Daytona.

كانت رياح الشرقي ترحُّ رؤوس أشجار الصَّنَوْبَر والكاليتوس والحوَر التي كانت ترتفع خلف أسوار مستشفى الأمراض العقلية الواقع في الجهة الأخرى من ساحة تافيلالت. كان المستشفى ملجأً للمعاقين ذهنياً بطَنْجَة،

لم يأوِ طبعاً المعاقين الموجودين بالمدينة وضواحيها كلهم، الكثير منهم كانوا يتجولون بين أحياء طُنْجَة، مُطْلِقِينَ شَتَائِمَ عريضة، تحت غطاء تسامُح اجتماعي واسع، بل كان هناك من الناس مَنْ يعتبرونهم أولياء صالحين.

نزلتُ من سيارَة الأجرة، وأكّدتُ للسائق أن عليه انتظاري من أجل الرجوع، ودخلتُ إلى مقهى ديتونة. كان المقهى مكاناً قَدِراً يحوي مجموعة شباب، يبدوون من خلال هيتتهم بأنهم صالحون للقيام بدور أشرار في فيلم هوليوودي عن العرب. كانوا يشربون مشروبات غير كحولية، ويلعبون لعبة البارشيس، ويُدخّنون لفائف الحشيش. تفحصني هؤلاء الشباب بفضول، فالسيّاح الذين كانوا يزورون طُنْجَة لم يكن من عادتهم الاقتراب من هذه الأماكن.

لم يكن سعيدٌ قد وصل بعدُ. توجّهتُ إلى الداخل نحو منصّة المقهى، وطلبتُ زجاجة "فانتا برتقال". نهض أحد الزبائن، واقترب من المنصّة، وبابتسامة ذاهلة من أثر الحشيش، سألني بفرنسية ركيكة من أيّ جهة أكون. قلتُ له إنني من مَدْرِيد، ومددتُ يدي اليمنى لأصافحه، فضغط عليها بقوة، وقال - هذه المرّة بالإسبانية - إن الريال مَدْرِيد هو أفضل فريق في العالم. زبائن آخرون احتجّوا مُعلنين موالاتهم للبارصا. وبينما كنّا على هذه الحال، دخل سعيد، فتركتُ مشروبي بعد أن أدّيتُ ثمنه، ووجهنا وجهتنا نحو السوق القريب لبني مَكَادَة. كان سوقاً كبقية أسواق المدينة، فقط، كان أفقر من ذلك قليلاً. معظم زبائنه كنّ نساءً مُجَلِّباتٍ ومُحاطاتٍ بأطفال كانوا يتوقّفون أمام بائعي الألبسة والأحذية المستعملة، وبائعي الجُوز المُقشّر والبقول السودانيّ المقلّيّ وبائعي أجزاء المنتجات الإلكترونية غير المنسجمة، وبائعي الفواكه والخضروات الموسمية واللُّعب البلاستيكية ذات الصُّنْع الصينيّ، والزيتون والتوابل وعبوات الغاز المكدومة التي تبدو وكأنها تعرّضت لضرب. كان للأسواق المغربية ملامح شبيهة

بملاح أزياء ناسها وعاداتهم: كانت تشكيلة أنثروبولوجية. لا شيء في هذا البلد يختفي مرّة واحدة. الدينيّ، والقروسطيّ، والمنتمي للقرن التاسع عشر، هذه الأشياء كلّها تمكّنت من التعايش مع أشياء القرن العشرين، والواحد والعشرين.

لفتت نظري أكشاك الطلائع الأولى من البُطّيح الأحمر، والطلائع الأولى من الرُّعُرُور (المزاح بالدارجة المغربية) والطلائع الأولى من حُبّ الملوك، وهي علامة على أن الصيف قد أصبح قاب قوسين أو أدنى. كانت إحدى القرويات تحمي رأسها من الشمس، بقبّعة تبُن واسعة، وتُقسّر الفول في تُوْدَة. وكان أحد شاحذي السكاكين يستعمل دَوَّاسة عجلة الدراجة، كقوّة دافعة ليجعل سكاكين ومِقَصَّات سَكَّان الحَيّ جاهزة للاستعمال. بعض الدجاجات والديكة، كانت تركض تحت الأنظار اليقظة للقطط الكثيرة، ولم يكن ينقص السوق فئة المُتَسَوِّلِين والمُقْعَدِين والعَرَّافِين. دخلنا الحَيّ الخلفي للسوق. كانت الشوارع ضيّقة ومرتفعة. تذكّرتُ أن ريبالدو تعقّب أحمد السبّتيّ إلى هنا، وهنا أجهزّ عليه. لكني لا زلتُ لا أشعر بالأسف على موته. قليلة كانت المركبات التي تعبر دروب بني مكادّة، والتي كانت تقوم بذلك لم تعد أن تكون دراجات نارية أو عربات ذات ثلاث عجلات. أشجار طنجة الفاتنة ونباتاتها المُتسلّقة التي تميّزها، غابت هنا، لكن المنازل كانت تتقاسم مع بقية المدينة حضور الهوائيات التلفزية فوق أسطحها. كانت هناك الكثير من الأزيال على الأرض، والكثير من الملابس الموضوعة للتجفيف فوق النوافذ، ولم يكن هناك وجودٌ ولو لشرطيّ واحد.

كان سعيد يعرف الوجهة التي سنسير فيها. كان الحاجُّ فؤاد يخطبُ في مسجد صغيرٍ بالحَيّ، وقد وافق على استقبالنا بعد صلاة الظهر، بمنزله الذي كان بجوار دار العبادة. التقينا في طريقنا بشابٍّ، ربّما كان أحد تلاميذه؛ على وجهه لحية من الطراز الأفغاني، يلبس طاقية منقوشة،

وصدرية مُصَوَّر، فوق جَلَبَاب أسودَ وشباشب بلاستيكية. تقريباً كان الرجال كلُّهم هنا ينتعلون أحذية مطَّاطية خفيفة، وأحذية رياضية وصنادل، وأنواع الأحذية الصيفية الرخيصة جميعها.

تركنا خلفنا أطفالاً صغاراً يلعبون كرة القدم، وسط حَيٍّ مرصوف بالإسمنت. كان أحدهم يرتدي قميص البارصا، لكن الاسم الذي كان على ظهر القميص، لم يكن لأيِّ لاعبٍ من لاعبي هذا النادي، بل كان لشخص اسمه أُسامة، هكذا دون اسم عائلي. كنتُ قد سمعتُ مَنْ يتحدثُ عن هذه الأقمصة، وكان هذا المكان مثالياً لرؤية أوَّل نموذج منها. دائماً سجَّلتُ بني مَكَادَة النسبة العليا من الإجرام، على صعيد مدينة طَنْجَة، لكنها كانت أكثر إثارة للخوف مُؤخَّراً بسبب الصدى الإيجابي الذي وجدته الأفكار الإسلامية هنا، وربما أيضاً، حتَّى الأفكار الجهادية.

غابت الشمس عن المسجد الذي توقَّفنا عنده في النهاية. كان مسجداً متواضعاً، ذا طابق أرضي مفروش بالحصائر التي كانت تُرى من الشارع. وعلى جنباته انتصبت مئذنة على ارتفاع مُتوسِّط. أمَّا أسواره، فصُبِغت بلون رمادي وقد تخلَّلتها بعض ثُلُمَات. منزل الحاجَّ كان متاخماً: بابٌ خارجيٌّ مَعْدِنِيٌّ مصبوغ بالأخضر، كان يُفضي إلى سلالم ضيقة، تُؤدِّي إلى صالون به أريكة، حيث كان ينتظرنا. أكمل الحاجُّ فؤاد شايه ونظر إليَّ. عيناها السوداوان الحزيتان كانتا تُظللُّهما أهداب بيضاء شائكة.

- حتَّى المؤمن عليه أن يتناول الطعام - قال الخطيب، وقد وصلت من الغرفة المجاورة التي برز منها الشابُّ حاملاً أدوات الشاي، رائحة طيبخ، لعلَّه كان طاجين دجاج بالخضار - قل لي، من أجل ماذا أتيت بالضبط، يا أستاذ؟ وسوف أُحاول أن أُجيبك، إذا كان الأمر بمتناولي. استبعدتُ فكرة أن أستاذنه في التدخين، تنحنتُ ثمَّ قلتُ:

- لستُ صحفياً، ولا شرطياً، ولا شيئاً من هذا القبيل، كما قال لك

سعيد. أنا فقط أستاذ يُدرّس اللغة الإسبانية بمعهد ثيربانتيس، لكن، في الأسابيع الأخيرة بدأتُ تقع أشياء غريبة، من بينها جريمة قتل أحد زملائي في العمل، لا شك أنك سمعتَ عنها.

- مَسَدَ لحيته وعلامات الإثارة تبدو على مُحيّاه - وجدتُ نفسي محشوراً في الموضوع رغماً عني، وأظنُّ أنني اكتشفتُ أمراً يستحيل تصوُّره بالنسبة إليّ.

- ما الذي اكتشفتهُ؟

- انظر، لا يمكنني الدخول في الكثير من التفاصيل، لكنني أعتقد أنني اكتشفتُ علاقةً ما بين عضو من المخابرات الإسبانية بطُنْجَة، وبين جهادي مُحتمَل من بني مَكَادَة. تبادل الحاجُّ فؤاد مع سعيد نظرات ذات دلالة.

- وهذا يبدو لك مستحيل التصوُّر؟ قال الخطيب.

- بالطبع، ومعدرة إن بدوتُ بريئاً في نظرك!

- يجب أن يكون المرء كثير السذاجة، حتّى يجهل أن الشيطان يستعمل أنواع الألاعيب كلّها. أنتَ إنسان ناضج، ويجب عليك أن لا تستغرب حين تكتشف بأن بعض المسلمين المُتحمّسين جدّاً، يمكن التحكُّم فيهم من قِبَل عملاء سرِّيِّين أجانِب.

- تحدّثنا عن هذا من قبل. لكنَّ ما يهْمُنِي معرفتهُ، هو هل لديك أنتَ، معلومة ما محدّدة؟

- كما سبق وقلتُ لك، جماعتنا الصغيرة التي تجتمع في هذا المسجد ترفض العنف، وتسعى لنصرة الإسلام بالوسائل السِّلْمِيَّة - كان يتحدّث ببطء وحَذَر - لكننا نعرف بعض الجيران، والأصدقاء، والأقارب المنجذِبين نحو طُرُقٍ أخرى. لن أنكر أمامك أنه يوجد في بني مَكَادَة أشخاص صَفَّقوا

لَحَدَّثَ سقوط البرحَيْنِ التَّوَامَيْنِ. مُحْتَمَلٌ جَدًّا أَنْ يَكُونَ الْبَعْضُ -وَهُمْ قَلِيلٌ - قَدْ بَدَأَ يَحْلُمُ بِاتِّبَاعِ هَذَا الْمَثَلِ السَّيِّئِ.

- وما هي العلاقة التي يمكن أن تقوم ما بين هذا القليل وبين إسباني؟
- هنا أيضاً، بدأت تقع أشياء غريبة، يا أستاذ. قبل أيَّام، مات جَارُ لَنَا اسْمُهُ أَحْمَدُ السَّبْتِيُّ مَطْعُونًا، تَقَبَّلَهُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ. كَانَ مَعْرُوفًا كَثِيرًا فِي بَنِي مَكَادَةَ. كَانَ لَصًّا وَتَاجِرَ حَشِيشٍ، وَلَكِنَّهُ مُؤَخَّرًا عَادَ إِلَى حَضَنِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ ابْنَ لَادَنَ بَطْلًا.

- ثُمَّ مَاذَا؟

- أَحْمَدُ السَّبْتِيُّ كَانَتْ أَصُولُهُ سَبْتِيَّةً، وَحِينَ تَعَاطَى تِجَارَةَ الْحَشِيشِ، اشْتَغَلَ مَعَ مُهَرَّبِي مُخَدَّرَاتٍ مِنْ سَبْتَةَ. وَكَانَ الْبَعْضُ هُنَا يَشْتَبِهُهُ فِيهِ لِهَذَا السَّبَبِ. أُشِيعَ عَنْهُ أَنَّهُ مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهُوَ يَتَخَابَرُ مَعَ الْإِسْبَانِ. لَا تَسْتَغْرِبُ إِنْ قُلْتُ لَكَ إِنْ شَرِطَةً وَمَخَابِرَاتِ الْبَلَدِ لَدَيْهِمْ أَعِينَ مَدْسُوسَةً بَيْنَ مُهَرَّبِي الْمُخَدَّرَاتِ. قَامَ الْحَاجُّ فُؤَادُ، فَرَائِحَةُ الطَّبِيخِ لَمْ تَكُنْ تُقَاوَمُ، حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ فَمُهُ يَتَوَقَّفُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. تَبَادَلُ هُوَ وَسَعِيدُ جَمَلًا بِالْعَرَبِيَّةِ، لَمْ يَقَمْ هَذَا الْأَخِيرُ بِتَرْجُمَتِهَا. وَدَعْنَا مَصَافِحًا بِيَدِهِ الَّتِي وَضَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، عَلَى جِهَةِ قَلْبِهِ.

نَزَلْنَا أَنَا وَسَعِيدُ السَّلَالِمِ الضَّيِّقَةِ، وَفَتَحْنَا الْبَابَ الْمَعْدِنِي الْأَخْضَرَ، وَخَرَجْنَا إِلَى الدَّرَبِ، حَيْثُ يَنْتَصِبُ الْمَسْجِدُ الصَّغِيرُ لِلْخُطْبِ الْإِسْلَامِيِّ. فِي طَرِيقِ عَوْدَتِنَا إِلَى سَاحَةِ تَافِيلَالْتِ، وَنَحْنُ نَقَاوِمُ هُجُمَاتِ الرِّيحِ، قَالَ لِي سَعِيدُ، بَأَن مَدِيرِيَّةَ مَرَاقِبَةِ التَّرَابِ الْوَطْنِي تَشْكُ فِي أَنَّ أَفْرَادَ نَظِيرَتِهَا الْإِسْبَانِيَّةِ يَسْتَعْمِلُونَ عِلَاقَاتِهِمُ الْقَدِيمَةَ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ مُهَرَّبِي الْحَشِيشِ فِي سَبْتَةَ، لِلتَّسَلُّلِ إِلَى دَاخِلِ تَنْظِيمِ جِهَادِي، كَانَ فِي طُورِ التَّشَكُّلِ بِطَنْجَةِ وَالْدَارِ الْبِيضَاءِ. وَيَبْدُو أَنَّ أَحْمَدَ السَّبْتِيَّ كَانَ مِنَ الْوُجُوهِ الرَّئِيسَةِ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ.

لكن مديرية مراقبة التراب الوطني ظَلَّتْ حائرةً بخصوص مقتله، ولم تتوفَّقْ في وضع الجريمة ضمن سيناريوهاها المُحتمَّلة. مصادر المديرية لم تكن تعتقد - يستنتج سعيد - بأن جريمة قتل الأستاذ بابلو مورينو، لها علاقة مُعيَّنة بهذا كُلِّه. من جانبي أَكَّدْتُ له، أن ما كنتُ أعتقد أنني اكتشفتهُ هو وجود علاقة ما بين أحمد السَّبْتِيَّ ورئيس المركز الأعلى لمعلومات الدفاع الإسباني CESID. كان الاكتشاف ضرباً لعصفورَين بحجر واحد، وهو ما لم يكن السياق مناسباً لشرحه.

في انتظار التفاصيل، كان عليَّ التحقُّق من بعض الأشياء. قبل الوصول إلى الساحة، استقلَّ سعيد سيَّارة أجرة صغيرة.

ودَّعَ كُلُّ مَنْا الآخر، ونحن نتبادل القَسَمَ بالتزام السَّرِّيَّة القصوى. كانت سيَّارة المرسيديس، لون القهوة مع الحليب ذاته، تنتظرني قُبالة مقهى ديتونة. عدنا إلى وسط المدينة، ولكنْ، مع وصولنا إلى بولفار باستور لم يكن هناك من سبيل للمواصلة. فلقد كانت حركة السير راكدة، ركود مسلسل السلام بالشرق الأوسط. أدَّيْتُ ثمن الخدمة، وتابعتُ السير مشياً على القَدَمَين باتجاه معهد ثيربانتيس. كانت أعلام المملكة المغربية الحمراء المغروسة للتوُّ بأرصفة ساحة فرنسا وشارع بلجيكا، تُرفرف بفعل رياح الشرقي. كما كانت تُهدِّد بالإطاحة بأكاليل المصاييح الملوَّنة التي كانت تعبُر الأرصفة على ارتفاع مُتوسِّط.

تابعتُ السير حتَّى ساحة إيبيريا. تجمَّع حشدٌ صغير من الناس، بفعل الطُّوق المضروب من الشرطة والعساكر. سرتُ بضعة أمتار يساراً، حتَّى وصلتُ مقهى غلاسغو Glasgow. لكنني لم أستطع العبور نحو الرصيف الآخر، حيث ينتصب معهد ثيربانتيس. كانت الشرطة والعساكر يحاصرون أيضاً شارع سيدي محمَّد بن عبد الله. بقيتُ عالِقاً رُفَّة فتاتين شابَّتَيْن، تُغطَّيان رأسيهما بحجاب، وتلبَّسان كنزتي صوف وسراويل جينز ضيقة

جداً وأحذية بكعوب عالية. كان العلم الإسباني الأحمر والأصفر، يُرفرف بهياج فوق ثيربانتيس، وسط غابة من اللآفتات المغربية التي أزهرت فوق الأرصفة. ولا سيارة واحدة كانت تَعْبُرُ الشارع الذي صُبِغَتْ حوافُّ أرصفته حديثاً، وشُدِّبَتْ للتوّ أشجارُ موزه الزاهية.

سُمِعَتْ من بعيد صفاراتُ الإنذار، تُعلن وصول سربٍ من درّاجي الشرطة، انتهى بالوصول إلى المكان الذي كنتُ مُحْتَجِراً فيه، ثمَّ تبعه موكبٌ من سيارات مرسيدس سوداء لامعة. بعدها مرّت لحظة، توقّف فيها الموكب، إلى أن ظهرت سيارة مرسيدس أخرى معزولة. قامت بخفض سرعتها عند الوصول إلى دائرة مرورِ ساحة إيبيريا. من رصيف مقهى غلاسغو، شاهدته يمرُّ جالساً بمَقْعَد مساعد السائق. الرجل الذي كانت صورته تظهر في الأماكن العمومية جميعها في المغرب، كان يُلوّح بيده.

كانت نافذة السيارة مفتوحة، وتمكّنتُ من مشاهدته وهو يتسم. صَفَّقَت الشابتان اللتان كانتا بجانبني إلى حدود الاهتياج. بعدها توالى وصول سيارات المرسيدس، تتبعها عربة إسعاف، وشاحنة إطفائيين، وسربٌ آخرُ من سائقي الدراجات.

في يوم الخميس ذاك، من شهر ماي، نزلتُ حتّى بولفار باستور، لألقي نظرة على مُستجدّات مكتبة الأعمدة Librairie des Colonnes. لم تكن بعدُ قد أقفلت لأجل فترة الغدّاء. حين فتحتُ الباب، رنّ جرسٌ صغيرٌ. كان المكان يفوح برائحة لوح شجر الأرز، كان ضيقاً ومُستطيلاً كعربة ميترو. كانت هناك صور بالأبيض والأسود، لبعض كبار الكتّاب الذين مرّوا من هنا، تزيّن الجدران.

تأسّست المكتبة سنة 1949 من طرف البلجيكي روبر جيروفي Robert Gérofi، المهندس ومُصمّم الديكور الذي يعود له فضل الاشتغال على أحسن الفيلاّات ذات الطراز الاستعماري، التي كانت تُشرف على خليج طنجّة ومضيق جبل طارق. لكن الذي كان مُتفرّغاً للمكتبة بشكل يومي، هي أخته إيفون Yvonne وزوجته إيثايل Isabelle. كانوا يحكون في المدينة، أن زوجة الأخ والأخت كانت تجمعهما علاقة غرامية. عبرتُ المكتبة مُتشمّماً إيطاراتها الزجاجية. كانت هناك كُتُب بالعربية والفرنسية والإسبانية والإنكليزية، لكنني لم أشاهد عنواناً جديداً يمكن أن يُثير فضولي. كنتُ أركّز نظري على مدخل المكتبة حين رنّ الجرس، ودخلتُ امرأة كانت أليسيا قد عرّفتني عليها في أحد معارض معهد ثيربانتيس الخاصّة بالترجمة والمترجمين، من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية. وكنتُ قد التقيتُ بها ثانية فيما بعد، في مناسبات ثقافية أخرى. حيثّني ببشاشة:

- كم مرّة، سيّد سيبولبيدا، من الوقت دون أن أراك؟!

- فقط، بضعة أيّام، يا راشيل، لا تبالغي!

- بضعة أيّام؟ بالنسبة إليّ، كأنها دهرٌ. لمستُ راشيل مويال Rachel
Muyal بغنج، الشريط الذي كان يلفُ شَعْرَها الأسودَ مثل سوادِ ليلٍ
غير مُقَمَّر.

كانت مُؤَسَّسة محلّيّة، وواحدة من الأفراد القلائل لطائفة اليهود
السِّيْفَارِدِيِّين، الذين لم يغادروا عند نهاية الفترة الدولية. عائلة جيروفي،
فَوَّضَتْ لها سنة 1973، مسؤولية مكتبة الأعمدة، وظلّت هي في هذه
المسؤولية، إلى غاية تقاعدها في الفترة الأخيرة.

سألثني: - كيف تمضي مع دروسك؟

- على نحو جيّد، تلامذتي يبدون أكثر اهتماماً في دروسهم، من أولئك
الذين درّسْتهم لسنواتٍ عديدة بمعهد مَدْرِيْد.

- لا غرابة في الأمر، بالنسبة إليّ، فالشباب هنا لديهم تعطُّش للمعرفة.
كانت راشيل تتحدّث بقَشْطَالِيَّة مُتَقَنَّة، وكانت أيضاً تتكلّم الدارجة
المغربية والفرنسية والإنكليزية وحكيّتا اليهود الطَّنْجِيّين.

- هذا ما يبدو. هل أنت في زيارة لممالك القديمة؟

- نعم، أتيتُ لإلقاء نظرة. هل تعلم؟ الآن فقط، وأنا التي يتعيّن عليّ
شراء الكتب، أدركُ كم هي باهظة الثمن.

وافقْتُها على رأيها، ثمّ اقترحتُ عليّ الذهاب معها لمنزلها لتناول بيرة.
منزلي قريبٌ جدّاً، قالت.

قبلتُ الدعوة، فودّعنا المُسْتخدَمَة التي عَوَّضَتْها في المكتبة. مشينا
قليلاً، ودخلنا إلى عِمَارَة متينة تعود إلى نهايات الأربعينيات. صعدنا

المِصْعَد، ففتحت باباً نُقِشَ على لوحته البرونزية، اسم صمويل بن عطار
.Samuel Benatar

- هذه الشُّقَّة - شرحت - كانت في ملكيَّة خالي. ورثتها عنه. كان
صمويل رجلاً شديد التدين. كان مسؤولاً عن الأخوة المقدَّسة Jedrá
Kadishá، الهيئة التي تتولَّى أمر أموات طائفنا، وعمليات الخِتَان، التي
وصل عددها للألفين.

قادتني نحو صالون ذي أثاث، على طراز الآرت ديكو، كان يُطلُّ على
شُرْفَة نصف دائرية. وفيما كانت هي منشغلة بجَلْب زجاجات البيرة، قمتُ
أنا بتدخين سيجارة. أتت بصينية فضيَّة فوقها زجاجتا ستورك Stork
وكأسان من الزجاج المنقوش، ومنديلان، وصحنُ فضيٍّ أيضاً، به فاكهة
جافَّة. كانت تلبس بلُوزة ذات رسوم زهرية في اللون الأزرق والذهبي.
أقراطها وقلادتها كانت مُطعَّمة باللآلي، وكانت ترتدي سروالاً أسود، مع
صندل ذي لون بُنيٍّ فاتح.

وضعتِ المشروباتِ والمُقَبَّلَات فوق منضدة صغيرة في الوسط.

صبَّت كأس بيرة، وقَدَّمته لي. صبَّت لنفسها كأسها، وجلست على
كرسيٍّ ذي ذراعين، كان ظهره مُقابِلاً للشُّرْفَة. أخذتُ مَقْعَدي على كرسيٍّ
آخر، كان - رغم خلفية الضوء - يسمح لي برؤيتها وجهاً لوجه.

- ألا زالت مدينتنا تُعاملك بطريقة جيِّدة؟ سألت.

- بشكل رائع، ولو أنها هذه الأيام، ما بين الشركي وحضور الملك، تبدو
غريبة بعض الشيء، ألا يبدو لك ذلك؟

- الذي يبالغ الآن، هو أنت - ابتسمتُ ورشفتُ رشفةً من بيرتها - عليك
أن تتعوَّد على فكرة أن هذه الريح هي جارٌ آخر كغيره من الجيران، ويبدو
أن الكلام نفسه يمكن أن يقال عن محمَّد السادس. على أيَّة حال، سارع

بتجهيز ملابس السباحة والمنشفة، فالصيف على الأبواب.

- بالفعل، لديَّ رغبة شديدة في ذلك، ولم أصبح بعدُ في أيِّ شاطئ من الشواطئ المجاورة.

- ستفعل ذلك قريباً، لا تَقْلُقْ. قلْ لي، أين كنتَ مُؤخَّراً؟

- لا مكان هناك، على وجه التحديد. طيّب، حتّى لا أكذب عليك، ولو أنك لن تُصدّقيني: كنتُ بسجن فال فلوري Val Fleury. لقد ذهبتُ لزيارة صديق كانت لديه مشكلة مع الشرطة، لم يكن للأمر أهميّة، المسألة تمّت تسويتها الآن.

- هل الأمر يتعلّق بمُخدّرات؟

- لا، أمر آخر، مجردّ سوء تفاهم.

- أنا مسرورة، لأن كلّ شيء انتهى على خير. هل تعلم أن ذلك السجن كان مُحتَجَراً فيه - إلى غاية الصيف الماضي - سامي الجاي، الصحفي الأكثر شهرة في طُنْجَة، ولكن، ليس بسبب ما قد يذهب إليه تفكيرك، لا - عادت لتبتسم هذه المرّة، بمُكرٍ - لا علاقة للموضوع بالسياسة. حُكِمَ عليه لأنّه قام بقتل زوجته. وقضى هناك عشر أو إحدى عشرة سنة.

- ماذا تقولين؟

- ما تسمعه بالضبط. كان سامي الجاي مديراً لميدي 1 وواحداً من محميي إدريس البصري، الوزير الأقوى للحسن الثاني. لكن أحد ضبّاط الشرطة المُلتَحِقِينَ حديثاً بالمدينة، أصرَّ على التحقيق في سرِّ اختفاء زوجته الأولى. هو كان يقول بأنها رحلت قبل سنوات، وإنه لم يعد يعلم عنها شيئاً قطُّ، لكن أقارب زوجته كانوا يُصرُّون على أنه هو مَنْ قام بقتلها. كان غريباً ألاّ تعطي أدنى علامة حياة خلال هذه المدّة الطويلة. هل تريدني أن أدخل معكَ في التفاصيل؟ سألتُ وهي تعبت بلالئ قلادتها.

- بالطبع، كُلِّي انتباه، قلتُ وأنا أشرب قدحاً من البيرة.

- تسلَّحَ المفوَّض بالشجاعة، وحصل على إذن قضائي لتفتيش منزل
النافذ سامي الجاي.

انظر - ويا للرعب - ماذا وجد؟ جثة المرأة المختفية مدفونة في أصيص
كبير، كان موجوداً بالصالون. ليلة بعد أخرى، وعلى امتداد سنواتٍ، كلُّ
من أبناء الميتة أو الزوجة الثانية أو الأبناء الجدد الذين أنجبهم معها، ظلُّوا
يشاهدون التلفاز، على بُعد متر من المكان الذي كانت ترقد فيه الجثة.
ما رأيك؟

- فطيع، يا راشيل! يبدو المشهد مأخوذاً من رواية لباتريسيا ياهسميث
Patricia Highsmith. عدتُ لأحتسي بيرتي، وأنا أقول، مُتذكراً:

- حكّت لي أليسيا، بأنك وباتريسيا هيسميث، نسجتُما صداقة متينة
في الفترة التي عاشتها باتريسيا في طُنْجَة؟

- متينة جدّاً. لقد أتت باتريسيا هنا لتتعرّف على بول بولز، لكن، لسبب
مّا، لم يتفاهما كثيراً. لذلك فقد كانت تقضي معظم وقتها بمكتبة الأعمدة،
مُنتظرة أن أغلق الأبواب لنذهب معاً إلى الحانة The Pub

- كانت تشرب كثيراً؟

- مثل قوقازيٍّ، كانت تُعجِبها البيرة، بالقدر نفسه الذي تُعجِبني فيه
لعبة البريدج. كنتُ أحبُّ أن أصحبها لتزور المدينة القديمة والقُصْبة، لكن
ذلك لم يكن يهمُّها على الإطلاق. كانت عديمة الثقة، ووجِلَّة، وكلُّ شيء
كان يبعث لديها، إمّا الخوف أو الانشمزاز. كانت تُحسُّ بالارتياح فقط،
حين كانت تقرأ في المكتبة، أو تشرب في الحانة، أو تتناول عشاءها في
نادي اليخوت Yacht Club.

- ما تقولينه يبدو غريباً. ففي روايتها "ريلاي في خطر" تكتب باتريسيا

هايسميث عن كون شخصيتها كانت مُعجبة جداً بطُنْجَة، بل هي تُدَقِّق بقولها، إن المدينة شبيهة بذلك المكان الذي يلدُّ لك العيش فيه، بعد غياب طويل.

- أنت أستاذ للغة والآداب، يا سيّد سيبوليدا، وتعرف أن الشخصيات لا تعكس بالضرورة أفكار ومشاعر كتّابها.

- بالفعل، هو كذلك.

- لا أدري كيف كان حالها، في زوايا أخرى من العالم، لكن، هنا كانت دائمة التوتر. يوماً مّا، دعاني بنعيسى، وزير الثقافة للعشاء في منزله بأصيلاً. قال لي إنه سوف يرسل سيّارة، وإنه يمكنني أن أصحب معي مَنْ شئتُ. مانعتُ باتريسيا في البداية، لكنها، في النهاية، أتت معي.

استقبلنا بنعيسى في أصيلاً بقميصه الصيفي المزهر. كان العشاء رائعاً، وكان الضيوف جميعهم يودّون التعرّف على الكاتبة الأمريكية الشهيرة. بعد ذلك، وخلال عودتنا إلى طُنْجَة، سألتني بجديّة: هل أنتِ مُتأكّدة بأن هذا الشاب وزير؟ *Are you sure this young man is a Minister?* لم تُصدّق ذلك، حتّى عمدتُ في اليوم التالي إلى إطلاعها على جريدة، يظهر فيها مضيفنا.

- يا للعجب، لقد كانت بالفعل عديمة الثقة وغريبة الأطوار كغيرها من الكُتّاب الذين كانوا يأتون هنا.

- كغيرها من الكُتّاب، الذين لا يتعدّون كونهم مجرد كُتّاب، يا سيّد سيبوليدا - هذا أيضاً صحيح، يا راشيل.

- وما دمنا نتحدّث عن الكُتّاب، فما أخبار كتاب شكري؟ لقد قالت لي أليسيا، إن معهد ثيرباتيس سوف يقوم بطبعه الصيف القادم.

- يكاد يكون جاهزاً للذهاب إلى المطبعة. لقد قامت مليكة امبارك

بالترجمة، ولم يبق سوى القيام بمراجعة أخيرة. أنا مَنْ يتعيَّن عليه القيام بذلك، لكنني لحدود الساعة، لم أتفرَّغ للأمر.

- لا تتأخَّر، فنحن نرغب في قراءته - قالت مُلامِسةً من جديد كعكة شَعْرَها، ومبتسمة وكأنها نجحت في تذكُّر شيء كانت بصدد التفكير فيه - أليسيا قالت لي أيضاً بأنك طُنْجَاوِيٌّ *tanyaui*. كيف لم تُخبرني بذلك؟ - لم تُنَحِّ لي الفرصة، يا راشيل، معذرة! نعم، وُلِدْتُ هنا، لكنني انتقلتُ بعد بضع سنوات إلى مَدْرِيْد، ولم أعد بعد ذلك قطُّ. سأحكي لك عن شيء اكتشفته من مدَّة ليست بالبعيدة: يبدو أنه حصل لوالديَّ هنا شيء فظيع. لا أدري بالضبط ما هو، لكنَّ هذا يُفسِّر دون شكَّ صمتهما الدائم عن سنواتهما في طُنْجَة.

- عجباً، يا للإثارة! أنتَ الآن، مَنْ يبدو باتريسيا هيسميث. وماذا يمكن أن يكون هذا الشيء الفظيع؟ حادثٌ ما، مرضٌ ما؟ سرقةٌ أو اختلاسٌ أو ضياع مال كثير، في تجارةٍ ما؟

- لا، لا شيء من هذا. الموضوع كان ثنائياً وذا طبيعة عاطفية.

اقتُرحت عليَّ راشيل البقاء لتناول وجبة العَداء معها؛ فهناك صديق لها، أتى من باريس بأجبان فرنسية رائعة. لم أقبل الدعوة، مُصارِحاً إيَّاهَا؛ لقد كنتُ مُتَعَباً ومحتاجاً لقليل من الراحة. ثمَّ إنه كان بحوزتي ما يكفي من الوقت، لأستفيد من قيلولة جيِّدة قبل العودة ظُهراً إلى ثيربانتيس.

اختفت راشيل لبضع لحظات، ثمَّ ظهرت وبيدها علبة حلويات شوكلاتة، وقَدِّمت لي واحدة. تردَّدتُ في قبولها، لكنها قالت، ما من أحدٍ يمكنه مغادرة بيت يهودي طُنْجَوِيٍّ، دون تناول شيء حلوٍ. أكلتُ الحلوى، وقَبَلْنَا بعضنا قُبْلَتَيْنِ على الخَدِّ. ودَّعْتَنِي بتعبير قديم من تعابير طائفها: لتعيشها حُلوة! قالت.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لا يمكن التنبؤ بالتاريخ؛ فهو خلاصة عوامل موضوعية، كالجغرافيا والديموغرافيا والاقتصاد والعلم والتكنولوجيا، وأشياء من هذا القبيل، قابلة للقياس الكمي. وهو من ناحية ثانية، نتاج تدخلات ذاتية كالنزوة والجنون والطموح والبطولة والعبقرية، وكل ما يمكن أن يصدر عن الفرد. أفترض أننا إلى هذا الحد أو ذاك متفقون على هذا الكلام. حقيقة كون أن المغرب، كان أول دولة اعترفت باستقلال الولايات المتحدة، يمكن أن يُعزى إلى ذاتية السلطان محمد بن عبد الله. كان الأمر محض مُصادفة. فلم يكن هناك، من الوجهة المادية التاريخية، قانون يقضى بأن تتعاطف السلطنة الضعيفة لأقصى غرب العالم العربي والإسلامي، مع أولئك الثوريين من أبناء عصر الأنوار، مثل بينجمان فرانكلين Benjamin Franklin. وجورج واشنطن George Washington وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson.. لم يكن الأمر مُتعلّقاً أيضاً بمكتوب mektub أو قَدَر مسطر في النجوم والكتب المقدّسة. لكن الأمر جرى على هذا النحو: صادق المغرب على الاستقلال الأمريكي قبل أيّ كان، فقط لأن السلطان كان يريد إزعاج إنكلترا، التي كان له معها نزاع قضائي في أمور تتعلّق بالملاحّة البحرية.

البلد الفتى، ردّ التحية بأفضل منها، فاتحاً - في زمن قياسي - بطنجة سفارة أو مفوّضية، كما كانت تُسمّى آنذاك. المفوّضية الأمريكية القديمة، التي كنتُ مُتّجهاً نحوها مساء ذلك الخميس، كانت النّصب التذكاري الوطني الوحيد للولايات المتحدة الأمريكية، الموجود خارج حدودها.

لقد فتحت أبوابها في قصر صغير، بالمدينة القديمة، وكان هدية من السلطان. تمّ توسعة المَفْوُضية بإضافة مساكن مجاورة من طرف ماكس بلايك Max Blake وهو دبلوماسي أمريكي مُتَزَوِّج بامرأة، هي، في الوقت ذاته، إسبانية، وجبل - طارقة، وطَنْجِيَّة كان اسمها روسيتا أبرينيس Rosita Abrines. أصرَّ بلايك، على أن يحافظ المُجَمَّع على طابعه الأندلسي، ولتلك الغاية، أوصى بشراء موادّ البناء من فاس وإشبيلية. والنتيجة كانت تحفة، كان بإمكان أيّ زائر أن يزورها. لم تكن هي مقرّ السفارة الأمريكية نفسه الذي كان موجوداً بالرِّبَاط، ولكنها تحوّلت إلى متحف، استقرّ فيه جزء صغير من تشكيلات جنود الرصاص، التي كانت بحوزة مالكوم فوريس في قصره بمَرَشَان. وهناك ظهرت المحفظات الكرتونية والآلة الكاتبة Olivetti Lettera 32 لبول بولز. ولكن الأكثر روعة، كان هو الهيكل المعماري في حدّ ذاته، بحجراته المُنظَّمة بدوقٍ رفيع، وهي تحيط بأفنية مورييسكية، تتخلّلها نوافيرُ رخاميةٌ وأقواس مُفصَّصةٌ ونباتاتٌ عطرية. ومع ذلك، فزيارتي للمكان لم تكن بدافع جماليّ، وإنما من أجل متابعة تحرّياتي، حول ما لن أتأخّر في معرفة أنه كان يُسمّى بعملية الحُسيمَة.

قرأتُ صباحاً، بسبُورة الإعلانات بشيرباتيس، أن البروفيسور بيرنابي لوبيث غارسيا Bernabé López García سيُلقي هذا المساء محاضرة بالمفْوُضية الأمريكية القديمة. تصوّرت أنها قد تكون مناسبة جيّدة، لأفعل مُبرراً للقاء بالقنصل، وربما بأرسينيو نوغيرا.

أصبح اليوم طويلاً أكثر، بشكل محسوس. فبعد الانتهاء من حصّتي المسائية، ما تزال الشمس تُسخّنُ العظام، ويمكن على ضوء نورها قراءة نشرة إعلانية طبيّة صغيرة.

دخنتُ سيجارة بالسلا لم الخارجية لثيرباتيس، وأنا أنتظر ليلي. لقد تمكّنا في أثناء حصّتي من تبادل إشارة مفادها أننا سوف نلتقي فيما

بعد بالشارع. ما زالت الرايات التي حيّت مرور محمّد السادس مغروسةً بالأرصفة، وهو دليل على استمرار وجود الملك بالمدينة. كما لا زالت رياح الشرقي تهبّ، وتجعلها تتلوّى برشاقة. بالمقابل، لم يكن هناك شرطة أو عساكر؛ وهو ما يعني أنه لم يكن من المنتظر مرور الملك من المنطقة. لليوم الثاني على التوالي، تغيبُ عربةُ ريبالدو للبقوليات المسلوقة عن موعدها ببوّابة ثيبيرو أووشوا، ترى ما عساه يفعل الآن؟ خرجت ليلى مهرولة من ثيربانتييس. قبّلتها على خدّينها، وتراجعتُ خطوة للوراء، لكي أتملّى طلعتها.

- أنتِ كالربيع في مدينتك، تزدادين كلّ يوم جمالاً. قلتُ لها.

- وأنتَ تزداد إلغازاً. وربما أصابتك عدوى ممّا تُسمّيه أنتَ عندنا بمرض لفت الانتباه. قل لي، ما هي المصائب التي تربطك بسعيد؟

- لا شيء مهمّ. ما سبق وقلّته لك حين طلبتُ منك رَقْم هاتفه، قد أتحمّس لكتابة قصّة أو رواية قصيرة، أو أيّ شيء تتفكّق عنه قريحتي. أنا بصدد البحث عن قصّة مُحتمّلة، وكنتُ أريد أن أرى إن كان سعيد يعرف أحداها. لكن، لا، مواضيعه مُسيّسة كثيراً.

- يا للأسف، لكن، مع ذلك ستجد شيئاً. سأكون سعيدة بأن أقرأ شيئاً من كتابتك.

- سبق لي أن نشرتُ شيئاً مّا، حول الأدب في المجلّات والكتب الجماعية، ولكن، دون أدنى أهميّة؛ مجرد نفايات أكاديمية، كانت الغاية منها صنّع سيرة ذاتية، لا غير. السؤال الذي أطرحه على نفسي هو: ألسْتُ عجوزاً بما يكفي لكي أبدأ في كتابة الرواية.

- يا لثقل دمك، يا سيبوليدا، وأنتَ تتكلّم عن موضوع السنّ. ستنتج في إغصابي.

- لا تغضبي، يا أميرتي، يجب أن لا تغضبي منّي أبداً! انظري، لقد

حَكَّتْ لي راشيل مويال - التي كانت مسؤولة لوقت طويل عن مكتبة الأعمدة، هذه الظهيرة - عن شيءٍ يمكن أن يكون صالحاً لي. قصّة صحفي ميدي 1 الذي دفن جثّة زوجته الأولى على امتداد سنوات، في أصيص صالون البيت الذي كان يعيش فيه هو وأُسرته الجديدة.

- أعرف هذه القضية، يا سيبوليدا. اسم الصحفي سامي الجاي، وهو ذو شهرة كبيرة في المغرب. أعتقد أنه خرج من السجن.

- نعم، خرج الصيف الفائت.

- سيكون من الجيّد أن تكتب حول هذا الموضوع. بالتأكيد، سيكون النصّ الذي ستكتبه رائعاً. سعيد من جانبه يمكن أن يساعدك؛ فهو يعرف جيّداً دواخل ميدي 1. اقتربتُ منها، وطبعْتُ قُبْلَةً سريعة فوق شفَتَيْهَا. وحينما ابتعدتُ عنها، قامت هي بالاقتراب مِنِّي، وردّت لي القُبْلَة. تبادلنا نظرات مأكرة. لم يصعقنا أيُّ وميضٍ برقٍ نازلٍ من صومعة المسجد الكبير المَبْنِي بأموالٍ كويتية.

- سأذهب إلى محاضرة بالمفوضية الأمريكية، تبدو أنها جيّدة - قلتُ - إنها تتعلّق بموضوع الطريقة التي عاش بها الإنسان هنا، حرننا الأهلية، وكذا الحرب العالمية الثانية. لماذا لا ترافقيني، ثمّ نذهب فيما بعد لتعشّي بيتزا بدار إيطاليا؟ لم نلتقِ معاً طَوَالَ أَيَّامِ الأسبوع.

- لا أستطيع، لقد اتَّفَقْتُ مع صديقتي مريم الشراي أن نتعشّي بـ لا باكود La Pagode. لو كنتَ أعلمتني من قبل...

- اعتذر، للتوّ فقط خطرتُ على بالي الفكرة. ما رأيك لو تناولنا غداً معاً وجبة العشاء؟

- إن شاء الله - أجابت بسرور - لكنّ، قلّ لي، ما الجديد في قضية صديقك ألبرتو؟ هل سوّيت مشكلته أم لا؟

فطنتُ إلى أنني منذ أيام لم أتحدَّث مع ألبيرتو. منذ الغداء الذي جمعنا بإقامة القنصل. لا هو اتَّصل بي، ولا أنا اتَّصلتُ به.

- أفترض أنها في طريق التسوية. سوف أهاثفه الليلة.

- ألا يبدو لك غريباً صمتُ الجرائد الإسبانية عن موضوع ألبيرتو؟ ولا كلمة واحدة؟ وهم المعروفون بمُغالاتهم في تضخيم المشكلات مع المغرب. كيف ما كانت المشكلة، فهم يقومون بتحويلها إلى...؟ كيف تقال الكلمة باللاتينية؟

- ذريعة حرب casus belli، سبب للذهاب إلى الحرب، أُجبتُ على نحو ميكانيكي.

لقد أوشكتُ ليلى أن تشير إلى شيء، كان يَطُنُّ في رأسي. فرغم أنني لا أقرأ الجرائد، ومع ذلك، لو قام أحدهم بنشر شيء ما، عن احتجاز ألبيرتو، لكنَّتُ علمتُ به؛ سواء عن طريق أليسيا أو شكري أو ليلى نفسها، ولكن أحد ما اتَّصل بي هاتفياً أو أرسل إليَّ رسالة نصيَّة من مَدْرِيد. لكن، لا شيء من هذا حدث. هذه القضية التي تمسُّ شخصية عليا، في إدارة أكبر شركة هاتف إسبانية، وهذه الشكوى التي قد يسيل لها لُعباب الكثير من المحامين المتربِّحين، في كلا ضفَّتَي المضيق، لا تزال غير موجودة بالنسبة إلى الصحافة.

لم يكن الأمر طبيعياً، فأسرة ألبيرتو وشركته وكلُّ من حكومتَي الرِّباط ومَدْرِيد نجحوا - لحدود اللحظة - في فرض قانون الصمت. وهو أمر بالغ الصعوبة، خاصَّة بالنسبة إلى الجانب الإسباني. ولكن، لماذا؟ ما السبب في كون لا أحد يريد لهذا النزاع القضائي أن يصل إلى العموم؟ لم أرد الاستمرار أكثر في إقلاق ليلى، لذلك أوقفتُ تأملاتي هذه، وقمتُ بتغيير الموضوع:

- أنت مُحقِّقة في كون المسألة غريبة، لكن، لا أنا ولا أنت لدينا أدنى فكرة حول الطريقة التي تُدار بها شؤون الصحافة.

بدأت خطاطيف شارع سيدي محمد بن عبد الله تُودّع النهار بتحليقات طائشة وضجة كبيرة من الشقشقات. وهي بذلك كانت تستبق وقت إعلان المؤذن، آذان صلاة المغرب. تمشينا أنا ولىلى معاً، حتّى السوق الكبير، ليس عبر طريقي المفضّلة؛ شارع بلجيكا، فشارع فرنسا، ثمّ شارع الحرّية، ولكن، من الطريق الأقرب لحيّ سيدي بوعبيد. بمجرد وصولنا هناك، قمنا بتوديع بعضنا بعضاً؛ ذهبْتُ هي باتّجاه بيتها، لتُعدّ نفسها للعشاء مع صديقتها، بينما يَمُمْتُ شطر المُفَوّضية الأمريكية.

التفتُ حول المدينة القديمة، لألجّ المَعْلَمَة، عبر سلالم بَوَابَة باب ميريكان Bab Mérican. مررتُ بمحاذاة سوق السمك الواقع قُبالة مدارس ريريا القديمة، Escuelas Riera. كان السوق ساعتها قد أغلق أبوابه. وعشرات القطط كانت تحوم حول المكان: يبدأ حفل الغنيمة بالنسبة إليها، مع مغيب الشمس.

ذكَرْتُني رائحة السمك القوية بما كانت تقوله خوانيتا ناربوني، Juanita Narboni في رواية أنخيل باثكيس: "لا تُعْجِبني الأسماك الميتة، تبدو وكأنها تنظر إليك بعدوانية".

ابتسمتُ مع نفسي ابتسامة داخلية، عرفانا للكاتب وشخصيّته. كان "الملاعين" أشقياء، لكنهم أيضاً، كانوا ينطوون على الكثير من المرح.

صَعِدْتُ بَتَعَبٍ سلالم باب ميريكان، حيث كان هناك رجلٌ يلبس جلباباً بالياً، ويصرخ بالعربية كالممسوس. لم أفهمه، لكنني لم أهتمّ لأمره. غالباً ما كان هناك شخصٌ ما، يصرخ في الأحياء المغربية: حالمٌ ما، من أجل قضية متعالية، تاجرٌ يمتدح سلعته، امرأة أصابتها مأساة، أو أناس يتشاجرون دون أن يصلوا تقريباً إلى نهايات تراجيدية. سرْتُ مع منعرجات المدينة، حتّى وصلتُ إلى المُفَوّضية الأمريكية. عند سقيفة المدخل، كان المدير هناك، يُرْحَبُ بَمَنْ أتى لمتابعة المحاضرة. صافحتهُ وصَعِدْتُ

-امثالاً لتعليماته - إلى الطابق الثاني. هناك حُيِّنَتْ بحركة من رأسي جندي البحرية الذي كان في الحراسة. لم يُجِبْنِي. كان مجرد تمثال لعرض الأزياء! اجتزتُ بعض المكاتب التي ظَلَّتْ محافظة على حالتها منذ سنوات الخمسينيات، ووصلتُ القاعة التي سيحاضر بها بيرنابي لوبيس غارسيا. كانت فعلاً، قد امتلأتُ بما يقارب المئة شخص. وجدتُ صعوبات في البحث عن كرسيٍّ، إلى أن وجدتُ واحداً شاغراً، بجانب مدفأة رخامية كبيرة، من حسن حظِّي أنها كانت مُطفأة. مسحْتُ القاعة بنظراتي؛ كانت الأرضية داكنة اللون، وكانت تعلو الجدران مرايا ذات إطارات خشبية منحوتة ومُلمَّعة بماء الذهب، ولوحاتٌ لخرائط مضيق جبل طارق من حَقَب زمنية مُتنوّعة، ومن بلدان مختلفة. كانت الراية الأمريكية ذات الخطوط والأنجم، ترتفع فوق يمين منبر المُتحدِّث. كانت غريبة بعض الشيء في فضاء كان يطغى عليه - بصيغة قطعية - الأسلوبُ الفرنسيُّ للقرن التاسع عشر. شاهدتُ القنصل وأرسينيو نوغيرا جالسين معاً بالصفِّ الأوَّل. من إحدى الأبواب الجانبية، دخل مدير المَفوّضية صُحبة المُحاضر، قدَّم الأوَّل الثاني، باعتباره أحدَ المُستعربين والمُؤرِّخين المُعاصرين، الأكثر خبرةً في الشؤون الطَّنْجِيَّة والمغربية. وضع المُحاضر حاسوباً مَحْمُولاً فوق المنصّة. شغَّله، ولامس قليلاً لوحة المفاتيح، ثمَّ بدأ مداخلته بلغة موليير أيضاً.

قبل الثامن عشر من يوليو 1936 - قال - كانت المشاعر الجمهورية غالبية على المُستوطنين الإسبان، الأكثر عدداً من بين بقية المُستوطنين الأجانب في طَنْجَة الدولية. لم يكن عبثاً أن يتكوَّن الجزء الأكبر من المُستوطنين، من مُهاجرين أندلسيّين وشرقيّين متواضعين، ورغم ذلك فقد كانت هنالك أقلّيّة محافظة قوية، مضت تزدهر وسطها الأفكارُ الانقلابية والكتائبية. لكن المناخ الليبرالي السائد داخل المدينة جعل الاختلافات السياسية تقف عند حدود معقولة ما بين الجيران الإسبان؛ "المناخ الليبرالي - قال الأستاذ مُدقّقاً - بالمعنى الحقيقي القديم لكلمة ليبرالي". التمرّد العسكري قلب

كُلَّ شيء، على نحو تراجيدي. فعلى بُعد كيلومترات من طُنْجَة، في منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب، تمَّ إنشاء معقل للانقلابيين، سرعان ما قام هِتْلَر ومُوسُولِينِي بتقديم الدعم له. كان الكولونيل خوان لويس بيغيدر Juan Luis Beigbeder، العسكريُّ، وزيرُ النساء، هو مَنْ تولَّى مسؤولية المندوب السامي، وأصبح الذراع اليُمْنَى لفرانكو في تَطَوُّان، عاصمة منطقة الحماية. توقَّف بيرنابي لوبيس غارسيا لحظةً، نقر على الحاسوب المحمول، واستدار نحو الشاشة المُتحرِّكة الواقعة يسار المنصَّة. لا بدَّ أن الرجل كان في الخمسين ونيف من عُمره. كان يرتدي بدلة داكنة، مع قميص أبيض وربطة عُنقٍ حمراء. كان أصلع الشَّعر من الوسط، وكانت خُصلاته الرمادية الغزيرة من جهة الصُّدْعَيْن، تجعله شبيهاً بقائد أوركسترا إيطالي. كان يتحدث واقفاً، وكانت حركاته تُؤكِّد هذا الانطباع؛ كان يرفع ذراعَيْه إلى السماء حين كان يريد التشديد على فكرة أو معلومة مُعيَّنة.

ظهرت على الشاشة صورة لصفحة جريدة مُصفَّرة. وكبقية الحاضرين، رحَّتْ أحوال فكِّ رموزها. وتحت عنوان يعلن: "السوق الداخل لطنْجَة، لم يعد شيوعياً" كانت تظهر صورة بالأبيض والأسود، تبدو فيها عشرات الأذرع الممدَّدة على الطريقة الفاشية، تملأ الفضاء الكائن ما بين المقهى المركزي وفندق فوينتيس.

كان مستحيلاً قراءة ما يوجد في أسفل الصورة، لكن الأستاذ قام بذلك لأجلنا: "سوق طُنْجَة الصغير، المعقل المعادي لكلِّ ما هو إسباني، وبؤرة المكائد ومختبرُ الدسائس الماركسية، أخيراً يتمُّ تكريمه وتجديده تحت ظلال الراية الإسبانية الحقيقية". أضحكني هذا الكلام؛ فالسوق الصغير الذي كنتُ أعرفه، ولو في صيغة ظلِّ شاحب من الماضي، كان بعكس الادِّعاءات الفرانكوية أكثر شيوعية وتخنُّثاً، وإغراقاً في المُخدَّرات من أيِّ مكان آخر. أمَّا عملية التطهير الوطنية الكاثوليكية، فلم تستغرق إلَّا وقتاً قصيراً.

شرح المحاضر الأمر قائلاً: هذه الصورة تمّ نشرها بجريدة إسبانيا، في الثالث من شهر مارس 1939. يوماً واحداً قبل ذلك، وحين كانت قوات فرانكو العسكرية على وشك دخول مَدْرِيد الجمهورية، احتفل الطَّنْجِيُون المناصرون للتمرّد، متباهين في الشوارع، بالأقمصة الزرقاء والتحيات الفاشية. وقد قاموا بوقفه خاصّة وذات دلالة، بالسوق الصغير، حيث المقاهي التي كانت تشهد نقاشات أبناء البلد الواحد، من ليبراليّين وماسونيّين وجمهوريّين واشتراكيّين وفوضويّين. كانت طُنْجَة فرنكوية، أو على الأقلّ، بالنسبة إلى مُكوّنْها الإسبانيّ.

عاد المُحاضر لملامسة الحاسوب، فظهرت على الشاشة صورة جديدة لسيّد مُتقدّم في السنّ، يرتدي زِيّاً مدنياً أنيقاً. كان شَعْرُه مصفوّفاً إلى الوراء بسائل مُتَبَت، مع نظّارة دائريّة لحسيري النّظر، وشاربٍ خفيف ومستطيل. كان رأسه المائل والمنتصب قليلاً، رأسٌ منتصر. كان الأمر يتعلّق - قال بيرنابي لوبيس غارسيا - بالكولونيل بيغبيدير، الذي خصّته الطبعة نفسها من صحيفة إسبانيا للثالث من مارس للعام 1939، بالتكريم الذي يستحقّه. كان الأمر طبيعياً، ما دام بيغبيدير هو الذي أنشأ هذه اليومية، كرمح فرانكويّ في أحضان المدينة الكوسموبوليتية. كانت تلك، هي الأزمنة التي كانت الفرانكوية، تنفض فيها الغبار عن وصية إيزابيل الكاثوليكية، وتجارّ صياحاً، بأن مراعي إفريقيا الشّمالية الغربية كلّها كانت تُشكّل الرسالة المقدّسة لإسبانيا الإمبريالية الناهضة. خلال التقسيم الكولونيالي للمغرب، أفلتت منها طُنْجَة الفاسقة. لكنّ، حان الوقت لإصلاح تلك المعاملة الظالمة. في يونيو 1940، وفي الوقت الذي كان فيه الفرنسيون والإنجليز في أشدّ لحظات ضعفهم، في وقت كان فيه هِتْلَر يتجول في باريس منتصراً، قامت إسبانيا الكاوديو باحتلال طُنْجَة الدولية عسكرياً، وإحاقها بمنطقة الحماية، فيما كان المئات من المواطنين الجمهوريّين يتعرّضون للمطاردة والاعتقال والتعذيب والنفي إلى تَطَوّان أو شبه الجزيرة.

صورة كبيرة لفرانكو، مع النّير والأسهم الكتابية وُضعت قُبالة فندق المنرّة، تخبر بأن المدينة أصبح لها أخيراً سيّدٌ ومالكٌ. واستمرّ الأمر على هذا الحال، إلى غاية 1945، تاريخ انهزام هِتْلَر، حيث اضطرّ فرانكو للانسحاب جازاً ذبول الخيبة، نحو ممتلكاته بمنطقة الحماية. عادت عاصمة البوغاز بعد ذلك إلى وضعها الدولي، وفي السوق الصغير عادت تنهمر المناشير المزخرفة بالعلم الجمهوري الثلاثي الألوان. انتهت المحاضرة بوابل من التصفیقات، انضمَّ إليها القنصل بغير حماس، فيما ظلَّ أرسينيو نوغيرا ساكناً. نصف دُرّنة من الناس تكدّسوا حول المُحاضر، بينما اندفع بقية الحاضرين نحو الشارع هرباً من الحرارة. وهو ما فعلته بالضبط، لكنني مكثتُ بجوار الباب الخارجي أدخّن سيجارة.

لم يتأخّر أرسينيو نوغيرا في الظهور. أتى وحده، فلا شك أن القنصل بقي هناك، لكي يُسلم على المُحاضر. كاد رئيس المركز الأعلى لإعلام الدفاع CESID أن يتعثّر بي، كان الطريق إلى المدينة القديمة مزدحماً. - لا شك أن اللقاء قد أعجبك. قال بصيغة جافّة.

- نعم، أعجبني، ولكنني رأيتُ أنه لم ينل إعجابك. لاحظتُ أنك لم تُصقّق.

- بدا لي منحازاً كثيراً، الشيوعيون بالنسبة إليه هم الطيّبون وأتباع فرانكو هم الأشرار، - سحب من جيبه منديل كتّان أبيض، ومسح وجهه، كان بوذيّ لو فعلتُ مثله، لكنّ، لم يكن لديّ منديل ولو ورقّيّ - هذا النوع من المحاضرات دائماً، تنسى بأن المعسكر الوطني كانت لديه مُبرراته القوية.

- كانت لديه مُبررات ومصالح ليفعل ما فعل - ما في ذلك شكّ - لكنّ، لا أعتقد أن المحاضرة ذهبت في اتّجاه البحث عن دوافع هؤلاء أو أولئك. برأيي أن الأستاذ عرض وقائع لا وجهات نظر.

- الحيلة الكلاسيكية، يا سيولبيدا! تقديم وقائع ليست، في النهاية، إلّا ادّعاءً بتفوّق أخلاقي. نعرف جيّداً هذا الأسلوب.

خرج القنصل في هذه اللحظة، مدّ لي يده مُصافِحاً فصافحتُها.

- محاضرة مُهمّة، أليس كذلك؟ قال.

- هذا ما كنتُ بصدد الحديث عنه مع أرسينيو. حرّك أرسينيو نوغيرا جسمه، إشارة منه إلى أنه أنهى المناقشة. سحبتُ نَفَساً من سيجارتي، وتحوّلتُ قليلاً إلى اليمين، لأفسح المجال لمرور مُمثلي الدولة الإسبانية، وقلتُ بعفوية، وكأنني نسيْتُ الحوار الذي دار بينه وبين المُفَوَّض بوغلي، ببِوَابَةِ منزل بابلو مورينو:

- لاحظتُ أيضاً، يا أرسينيو، أنك لم تستعمل سمّات الترجمة الفورية. أرى أنك تفهم الفرنسية جيّداً رغم هوسك بالصفادع الفرنسيين.

- طبعاً، الضرورة المِهْنِيَّة تقتضي ذلك، قال ذلك وقد بدا وكأن الصقيع غطّى عينيه الرماديتين.

- أرسينيو مشهور بإتقانه للُّغات - قال القنصل مُرتباً على كَتِفِي، وكأنه يستعدُّ للذهاب - يتحدث البربرية والعربية، لقد تعلّمهما خلال سنواته بسبّنة.

- اللهجة المغربية؟ سألتُ بإعجاب.

- أجل، الدارجة، أجاب القنصل بنوع من الرضى. كان الليل قد حلّ، وكانت رياح الشرقي تهاجم بهيستيريا.

مساء الجُمُعَة، بعد حصّتي الدراسية بثيرباتيس، مررتُ على شُقّتي. كنتُ أحبُّ أن أذهب للقاء ليلي في دار إيطاليا، مُستحمّاً ومُرتدياً لباساً جديداً.

اتفقنا على اللقاء هناك لنتعشّى بعض المعكرونة والبيتزا. ورغم أن الأمر لم يكن واضحاً بيّناً، فقد كنتُ أتصوّر أنه فيما بعد، يمكننا قضاء الليلة معاً. دنوتُ من الشُرْفة. لقد اختفى الشرقي، والغريب في الأمر، أن أيّ ريح أخرى لم تعد تهبُّ. كان اليوم مُشمساً وحارّاً بصراحة، حيث أخبرتني باكيثا توريس Paquita Torres سكرتيرة إدارة ثيرباتيس، بأن درجة الحرارة بمراكش عند الزوال وصلت إلى حدود الأربعين درجة.

ورغم أننا في طَنْجَة لم نكن نعاني من الحرارة الشديدة غير أن بحراً من الأغطية والزَّرَابِيّ والسجّاد، قد وُضع بغاية التجفيف فوق أسطح وشُرُفات الحَيّ الذي أقطنه، وهو ما كان تعبيراً سارّاً عن وداع جماعي، لأشهر السنة الأكثر برودة. فوق ذاك كلّه، كانت تُحلّق العشرات من النوارس وهي تُصدر نعيقاً كريهاً، يعيد إلى الذاكرة أبطال فيلم الطيور لألفريد هيتشكوك.

عدتُ إلى الداخل. فوجدتُ بالثلّاجة عبوة بيرة فلاك وحيدة، أفرغتها في جوفي بالمطبخ، وأنا أُحلّل ما دار بيني وبين ألبيرتو خلال المكالمات الهاتفية التي أجريتها معه ساعة العَدَاء. أكّد لي صديقي بأن نهاية حبسه أصبحت وشيكة. وبأن "سوء الفهم" - هكذا سمّاه - أوشك أن يتبدّد، وأنه

مع نهاية هذا الأسبوع تحديداً، أو يوم الاثنين أو الثلاثاء على أبعد تقدير،
سيمكنه استرجاع جواز سفره والخروج من القنصلية والعودة إلى مَدْرِيْد
متى شاء. لن يعود إلى مَدْرِيْد بالطبع قبل أن نلتقي للاحتفال بالمناسبة.

عاد الأبيرتو للتعبير بنوع من الغموض، عن طبيعة "سوء الفهم" مع
السلطات المغربية التي لا زالت تحتجزه في طَنْجَة. لكن نَبْرْتَه بدت جدّ
مُقْنَعَة بخصوص إطلاق سراحه الموعد. لم يبدُ أنه يتحدث عن مجرد أُمْنِيَّة
أو خدعة أو عزاء. حكيتُ لليلي عن الموضوع، بمجرد أن طلبنا عشاءنا في
دار إيطاليا؛ اختارت هي اسباغيتي espaguetis بالمحار، فيما اخترتُ
أنا، اسباغيتي مع الثوم والزيت.

- أنا بدوري لديّ أخبار، لكن ليست جيّدة - قالت، فنظرتُ إلى عينيها
بترقّب، مُتنبّهاً للحزن الذي يُغلّفهما - زوجي السابق عاد للظهور من جديد.

- التّطوّاني؟

- نعم، هشام التّطوّاني. لقد اتّصل هاتفياً هذا الصباح بوالدي، وهو
في حالة من الغضب. لقد وصله خبر أنّي على علاقة مع إسباني. أمرُ
طبيعيّ، فهذه الأشياء في المغرب لا يمكن إخفاؤها. والأغرب، أنه علم
بذلك مُتأخراً جدّاً. هشام قال لأبي، بأنه كان كريماً عندما سمح لي بمغادرة
بيت الزوجية في تطوان والعودة إلى بيتي في طَنْجَة، دون أن نكون مُطلّقيْن
بصفة قانونية. ولكنّ، ما لا يستطيع أن يتقبّله، بأيّ حال من الأحوال، هو
أن أخونه مع نصرانيّ.

أمسكتُ بيدي كأس "غري دو بولعوان" Gris de Boulaouane ورشفتُ منه رشفةً. نظرتُ من حولي، فأبصرتُ لوحات ديكور بحريّ، وصورَ
مناظرَ عابرة لجمال الألب. كان مطعم دار إيطاليا، من أفضل مطاعم الطبخ
الأوروبي التي بقيت بالمدينة. كان بالطابق الأرضي لمُجمّع قصور فخم،

تمّ بناؤه مع بداية القرن العشرين من قِبَل السلطان، سيّ الطالع، مولاي حفيظ، والذي قامت حكومة مُوسُولِينِي باقتنائه سنة 1927. ويُسمّى الآن بقصر المؤسسات الإيطالية. كان مَبْنِيّاً على الطراز الغرناطي، ويحتوي على باحات وحدائق بها نوافير ماء ذاتُ خرير، ومجموعاتُ أشجارٍ برتقالٍ وصَنْوَبَرٍ وأروقةٌ لا نهائيةٌ مُجَصَّصةٌ، تُفضي إلى قاعات ذات أسقفٍ مصنوعة من الخشب العربيّ المطعّم، وجدرانٍ مَطْلِيّةٍ بالجِبس المُلَوّن.

كان المكان "ما بين فخم ورديء" كتب يقول، دانييل روندو Daniel Rondeau في كتابٍ له، دَوّن فيه انطباعاته حول طَنْجَة. تقاطعتُ نظرتي مع نظرة راشيل مويال، التي كانت تتناول عشاءها، على بُعد طاولتين منّا، كان بصُحبتِها اثنان، افترضتُ - من خلال لباسهما الرياضي الجديد والأنيق - أنهما فرنسيان. تبادلنا الابتسامات، وكأننا نحتفل بلقائنا الثاني على بُعد أيّام قليلة.

- هل وجّه التّطوّانيّ أيّ تهديد مُحدّدٍ؟ قلتُ مُستفسراً ليلي.

- لقد أطلق بعض التهديدات؛ بأنه سوف يتشاور مع محامٍ، وأنه سوف يرفع عليّ دعوى خيانة زوجية، وبأنه سوف يُرغمّني على العودة إلى تطوّان، وأنه سيتمكّن من جعلهم يطردونك من المغرب.

- وأبوك، كيف كان تصرّفُ أبيك؟

- كان تصرّفه شجاعاً. قال له، إننا لم نعد في العصور الوسطى، وإن النساء لسنّ بعيديّ، لا لأبائهنّ، ولا لأزواجهنّ. وطلب منه عدم رفع صوته بالصراخ، وحين استمرّ هشام في صراخه، قام أبي بإنهاء المكالمة.

- برافو!

- أبي رائع، يا سيبولبيدا. لقد قلتُها لك. لكن مشكلته الآن هي كيف يُخبر أمّي بما وقع. أمّي ليست بالعصرنة التي يمكن تصوّرها. شبكنا أيدينا

فوق الطاولة، وتبادلنا نظراتٍ مشحونةً بالطاقة. بصمنا على العهد بأن لا نخاف من أي شيء. لا من الظهور الغاضب للتطواني، ولا من أي شيء آخر ممكن الحدوث. لا شيء يمكن أن يُفَرِّق بيننا ضدًا على إرادتنا. وصلت أكله أسبغيتي؛ كانت في حدودها المثالية، من جانب الطبخ والمذاق. وبينما كنّا نتذوّقها، قالت ليلي بأن لديها آمالاً قوية، بخصوص إصلاح قانون الأسرة - أو المدونة Mudawana كما يُسمّيها المغاربة - وأن الملك يريد الدفع بهذا الإصلاح. يتعلّق الأمر بملاءمة تشريع بلده، مع المعايير المعاصرة للمساواة وحقوق النساء.

- كما يمكن لك أن تتصوّر - قالت ليلي - فهناك المحافظون والتقليديون والإسلاميون والذكوريون، وأنواع أخرى من الديناميكيات، التي تعترض على هذا الموضوع، حتّى الموت. على أيّة حال، سنرى كيف ستتطوّر الأمور.

- وفي ماذا يمكن أن يمسك هذا الإصلاح شخصياً؟ قلتُ.

- يقال بأن هذا القانون الجديد سيسمح لنا نحن النساء بالمبادرة لطلب الطلاق دون حاجة للإدلاء بمبررات شبه مستحيلة. وهو ما أنوي القيام به حين يتسنى لي ذلك. وإلى ذلك الحين، ما عليّ، إلّا المقاومة. - إلى المقاومة! قلتُ رافعاً كأسّي.

- إلى المقاومة! ردّت رافعة كأسها.

ثمّ شربنا نخب تلك اللحظة. وصلنا بواسطة سيّارة أُجرة صغيرة، نصف ساعة بعد ذلك، إلى حيّ ضيق ومظلم، ينحدر بشكل حادّ نحو خليج طنجة. ينطلق ممّا كان يُدعى سابقاً رامبرانت، حيث يرتفع فندق المنيرية.

كانت حانة "خَمَارَة طنجة" Tanger Inn موجودة بالطابق السفلي للفندق. هناك اتّفقنا على احتساء بضع كؤوس قبل الذهاب إلى منزلي. قرّرت ليلي الردّ على تهديدات زوجها السابق، بإهدائنا ليلة حبّ. كان

مكاناً رائعاً للاحتفال بأيّ طقس فيه انتهاك للأعراف المناقفة. في الخمسينيات، وتحت تأثير عمى المخدرات وإلهامها، كتب وليام بوروز William Burroughs بفندق المنيرية "العذاء العاري"، إحدى الكتب الرئيسية بالنسبة إلى جيل البيت *generación beat* والحركات الثقافية المتمردة التي ستتبعه.

كان بوروز يُسمّى طُنْجَة منطقة دولية، ويقول أن "لا أحد فيها يظهر على حقيقته" وهو ما كان يصدّق عليه هو تماماً. لقد استقرّ بالمدينة سنة 1953، بعد أن قام بتفجير دماغ زوجته، في كوخ مكسيكي. أقسم بأنه هو وزوجته، كانا يلعبان لعبة غييرمو تيل Guillermo Tell وأن الرصاصة - بفعل تموقعه الخطير - أصابت بدل التفاحة، رأس الزوجة. أكّد بوروز أيضاً أن قراءته لأحد كُتب بولز، جعلته يختار هذا المكان فراراً من العدالة المكسيكية، لكن معاصريه ظلّوا مُصرّين، على أن بقاءه هنا، كان من أجل الغلمان والمخدرات. أخبرني شكري بأن لقاءات الكاتب الجنسية مع عشيقه الإسباني كيكى Kiki، كانت تستغرق أحياناً ستّ عشرة ساعة متواصلة. كما قال لي إن الكاتب الأمريكي لم يكن يخرج إلى الشارع دون سكين أو مُسدّس، وكأنه زائر غريب لبلدة هامشية في الغرب الأمريكي المتوحّش.

على يمين خَمَّارة طُنْجَة، كانت تتدلى من الجدار المصبوغ بالأبيض زهورُ البوغانفيليا الرائعة، التي يلمع لونها الأرجواني تحت ضوء قمر متضائل، لكنه مكتمل الاستدارة إلى حدّ كبير. ضمنتُ ليلي من كَتِفَيْهَا، وأشرتُ لها بأن القمر يلتمع في الخليج. في أسفل الدرب بادرت بمعانفتي. كانت خَمَّارة طُنْجَة تتألّف من ثلاث غرفٍ، جدرانها مصبوعة بالأزرق والكستنائيّ. الغرفة التي كانت في الأسفل كانت بها منصّة الحانة، الأخرى كانت مُزوّدة بآلة بيانو، والثالثة التي كانت في الوسط، كانت مقاعدُها المسنودة على الجدران، مُنْجَدة بالمُخَمَل القُرْمِزِيّ. ومن سقفها كانت تتدلى أقمشة

تحاكي أجواء خيمة *jaima* صحراوية. وفي الوسط، كانت هناك إضاءة خافتة لفانوس مغربي من القصدير، مَكْسُوٌّ بزجاج مُتَعَدِّد الألوان.

كان المكان مزدحماً بالفتيان والفتيات، لكننا نجحنا في العثور على فجوة بأحد المقاعد. كانت الفجوة تحت تجويف، تدور بداخله مروحة كهربائية، تحرك أدخنة السجائر والحشيش. جلست ليلي وقد رسمت على وجهها تكشيرة انزعاج من كثرة الدخان. أجبْتُها - وأنا واقف - بإيماءة أسفٍ، ثُمَّ نظرتُ إليها بشهوانية، وهي تثني ركبتيها لترتفع، تُثَوِّرة زِيَّها الأزرق البحري للأعلى، بما يكفي لإبراز مُقَدِّماتِ فخذَيْها الممشوقي القوام. كانت تتعل حذاء أحمر ذا كعب عالٍ يجعلها أشدَّ إغراء. انحنيتُ وقَبَّلْتُ فمها بحرارة، وسألتها عما تريد شربه. طلبتُ ماء معدنياً، بينما استأذنتُها في طلب نادي هافانا Havana Club ممزوجاً بقطع ثلج. اتَّجَهِتُ نحو المنصَّة. كان عليَّ أن أشقَّ لنفسِي طريقاً بين ثلاث فتيات واقفات، كنَّ يتجادلن بصخب. كنَّ وسيماً ومُتَزَيَّناتٍ بالكثير من المساحيق. شفاهُنَّ كان يكسوها لونٌ قَرْمِزِيٌّ. أمَّا شعورهنَّ السوداء الرطبة، فقد كانت تشبه أجنحة غرابٍ، وتكاد تصل إلى صدورهنَّ. روائح عطور قوية كانت تزوِّج من أجسادهنَّ، وتكفي لتعطِّر صندوق قمامة. كنَّ يرتدين القفاطين، ولا شكَّ أنهنَّ جئنَّ من حفلة عرسٍ. إلى جانب الفتيات، كان هناك شابَّان ذوا لحيَتَيْن مُشَدَّبَتَيْن، يلعبان لعبة رمي السهام.

وجَّهتُ نظرتي ناحية الصورة المُعلَّقة على يسار مركز التصوير. كانت صورة بالأبيض والأسود لجاك كيرواك Jack Kerouac، أحد تلاميذ بوروز في جيل البيت، الذي تبعه حتَّى محلَّ إقامته بفندق المنيرية. علا صوت موسيقى الصالة *lounge* ذات الإحياءات الاسترجاعية الجمائية. تموضعتُ في الصف الثاني الذي يقف لصيقاً بالمنصَّة، أملاً في الحصول على فرصة لفت انتباه الساقِي.

كان شخصاً طويل القامة، مكرش البطن، يرتدي قُبَّعة بيسبول سوداء،
وتي شيرت أبيض، طبعت عليه صورة ذلك الملاك الأمريكي، ذي الأصول
الأفريقية، المُسمَّى كاسيوس كلاي Cassius Clay أو محمَّد علي.

على الجدار المركزي للمنصَّة، برزت صورةٌ للراحل الحسن الثاني، لباساً
بأناقة، وكأنه ذاهبٌ إلى حفل كرنفال، مُتنكِّراً في قناع إمبراطور الحبشة. في
الجدار الموجود على الجانب الأيسر، كانت هناك صورة لمؤسِّس خَمَّارَة
طُنْجَة، جون س. ساتكليف John C. Sutcliffe، مرتدياً لباساً شبيهاً
لباس فارس دِرْع من القرن التاسع عشر. كان ضابطاً في الهند لسلح
الفرسان البريطاني، التابع لصاحبة الجلالة خلال الحرب العالمية الثانية،
ثمَّ استقرَّ فيما بعدُ بعاصمة البوغاز ليعيش الحياة المجنونة. وقد افتتح
فندق خَمَّارَة طُنْجَة في الطابق الأرضي من المنيرة كنوع من التكريم لبوروز.
استجاب الساقى لطلبي حين راق له ذلك، وهو ما كان أمراً مألوفاً في مثل
هذه المهنة. طلبتُ منه المشروبات، وأدَّيتُ ثمنها في الحين، وعدتُ بها
نحو المقعَّد، حيث تنتظرني ليلي. أعطيتها كأس مائها المَعْدني وجلستُ
لأشرب قدحاً من الروم الكوبي القليل البرودة. سألتها عمَّا تفكَّر فيه.

- كنتُ أدندن مع نفسي. قالت.

- ماذا كنتِ تُعَنِّين، يا أميرة؟

- الأُغْنِيَّة نفسها التي تذكَّرتُها يوم كنَّا بباب المدينة القديمة، أُغْنِيَّة
ليبريخانو Lebrijano والأوركسترا الأندلسية، حول الحُرِّيَّة. لكن، الآن
يحضرني منها مقطع شِعْري يقول: "البعض يصلِّي للربِّ، والبعض الآخر
يصلِّي لله، وهناك مَنْ يظلُّ صامتاً، فهي طريقته في الصلاة". لم أجد
كلماتٍ أُجيب بها على الحكمة الأزلية لهذه العبارة.

تركْتُ قدح شرابي داخل فجوة الجدار، ومِلْتُ نحو ليلي. عانقتها

بذراعي اليُمْنَى، وَقَبَّلْتُهَا فِي فَمِهَا، بِكُلِّ مَا وَسَعَنِي مِنْ حَنَانٍ وَشَهْوَةٍ. أَحْسَسْتُ أَنَّهَا تَسْتَجِيبُ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا. أَسْنَدْتُ يَدِي الْيَسْرَى، عِنْدَ مَفْتَرَقِ رِجْلَيْهَا وَشَرَعْتُ فِي مَدَاعِبَةِ فَخْذِهَا الْيُمْنَى. كَانَ الْفَخْذُ حَرِيرِيًّا وَصَلْبًا فِي آنٍ، كَانَ مِلَازِي الْأَمْثَلِ فِي زَمَنِ، عَمَّتُهُ الزَّوَابِعُ وَالْكُوَارِثُ.

أَبْعَدْتُ لَيْلَى شَفَتَيْهَا عَنْ شَفَتَيَّ، وَهَمَسْتُ بِشَيْءٍ شَبِيهِ بِكَلِمَةِ كُنْجِيكَ Kanhebbek. لَمْ أَكُنْ بِحَاجَةٍ لِمَعْرِفَةِ الدَّارِجَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ لِأَفْهَمُ أَنَّهَا قَالَتْ لِي، بِأَنَّهَا تَحْبُنِي. كَانَ بُوْرُوزٌ عَلَى يَسَارِنَا، يَتَأَمَّلُنَا انْطِلَاقًا مِنْ صُورَةٍ مِنْ دَاخِلِ أَرْزَمَتِهِ الطَّنْجِيَّةِ. كَانَ عُمُرُهُ نَحْوَ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَجْهُ زَاهِدٌ، وَنَظْرَةٌ صَارِمَةٌ، تَحْتَ نَظَارَةِ بِلَاسْتِيكِيَّةٍ سَوْدَاءَ، وَشَفَتَانِ رَقِيقَتَانِ، وَأَنْفٌ بَارِزٌ، وَذَقْنٌ مُفَعَّمٌ حَيَوِيَّةٌ.

كَانَ يَرْتَدِي قَبْعَةً لِبَادٍ رَمَادِيَّةً صَغِيرَةً، وَقَمِيصًا شَدِيدَ الْبَيَاضِ، مَعَ رِبْطَةٍ عُنُقٍ ضَيِّقَةٍ. لَمْ يَخَامِرْنِي شَيْءٌ فِي أَنَّهُ كَانَ رَاضٍ عَنَّا، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ بِأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةُ حُبٍّ حَقِيقِيٍّ دُونَ مَخَاطِرِ. خَرَجْنَا مِنْ خَمَّارَةِ طَنْجَةٍ مُشْتَبِكَيْنِ مِنَ الْخَصْرِ، وَهَكَذَا بَدَأْنَا فِي صُعُودِ الشَّارِعِ الْمُنْحَدِرِ الْمُؤَدِّيِّ إِلَى شَارِعِ رَامْبِرَانْتِ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا هُنَاكَ، اسْتَمَرَرْنَا فِي الصُّعُودِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا، حَتَّى نَقْطَةِ التَّقَاطُعِ مَعَ الْبُولْفَارِ، حَيْثُ يُمْكِنُنَا الْعُثُورُ عَلَى سَيَّارَةِ أُجْرَةٍ تُقْلُنَا إِلَى بَيْتِي. كَانَ قَلْبِي يَتَرَنَّمُ بِرَقْصَةِ بُولِيرو قَدِيمٍ، تَقُولُ: "أَيَّتْهَا السَّاعَةُ، لَا تَعُدِّي الْوَقْتَ. أَيَّتْهَا السَّاعَةُ، تَوَقَّفِي عَنِ السَّيْرِ".

كَانَ شَارِعُ رَامْبِرَانْتِ مُقْفَرًا، وَكُنَّا نَتَمَشَّى بِيْطَاءَ وَلَا مَبَالَاةَ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ. وَحِينَ أَوْشَكْنَا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْبُولْفَارِ، كَادَتْ تَصْدَمُنَا مِنَ الْخَلْفِ سَيَّارَةُ أُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ كَانَتْ تَصْعَدُ الْمُنْحَدِرَ مُسْرِعَةً وَسَائِرَةً إِلَى الْخَلْفِ، فِي بَحْثِ يَأْسٍ عَنْ زَبَائِنٍ مُحْتَمِلِينَ. قَمْنَا بِرُكُوبِ السَّيَّارَةِ، طَبْعًا.

طُنْجَة، خريف 1956

حلَّ المساء، وبدأ الضوء المُتسرَّب من نافذتي الصالون يصطبغ باللون القرمِزيّ، ولن يتأخَّر في التحوُّل إلى البنفسجي مع حلول الظلام.

نهضت أولبيدو من الأريكة، اقتربت من النافذة، وقامت بسحب الستائر. كانت تُفضِّل الاستمرار في القراءة اعتماداً على ضوء النهار حتَّى آخر لحظة ممكنة. وقبل أن تعود إلى الأريكة انزلقت نظرتها نحو واجهة سينما مورتانيا. كان يُعجبها شكلها الشبيه بقصر مسرح أوبريت عربي، كذاك الذي كان يظهر في أفلام قصص ألف ليلة وليلة، والتي كان يقوم بأدوارها، كل ماريا مونتيس María Montez وسابو Sabu. عادت للجلوس مُمسكة بالجرس الفضيّ الذي كان موضوعاً فوق طاولة جانبية، حرَّكته للمناداة على المُساعدة. كان يحلو لأولبيدو أن تتناول - خلال وجبتها المسائية الخفيفة - شايًا مغريباً مع كعك "كعب غزال". اشترت الكعك بنفسها هذا الصباح، من محلّ حلويات لإيسبانيولا La Española.

ما إن انسحبت المُساعدة لتُعِدَّ المشروب المنقوع، حتَّى استلَّت أولبيدو من ركام المنشورات المطروحة أرضاً مَجَلَّة. كان عدداً من أعداد أسبوعية باري ماتش Paris Match لشهر نونبر المنصرم. تفحَّصت غلافها بنوع من الحيرة. كان يُظهر صورة نصفية لشخص بالغ، كان يرتدي سُرّة بُنيَّةً بضفائر عند الكتفين، كان يشبك ذراعينه، وتبدو على وجهه

علامات الرضى. كان وجهه شبيهاً بزيتونة، وكانت بالكاد، تظهر شعيرات من رأسه، وهو ما جعل الأذنين المُدْبَبَتَيْنِ بارزَتَيْنِ، مع ابتسامة أرنبية كانت ترتسم على فمه. لكن الأشدَّ إثارة فيه، كان رقعة القرصان السوداء التي كانت تُغطِّي عينه اليسرى. عنوان الغلاف "الحرب عند ناصر" «La guerre chez Nasser»، لم يكن يعطي صورة واضحة عن هُويَّة تلك الشخصية العسكرية، لذلك قامت أولبيدو بتصفُّح الأسبوعية، بحثاً عن معلومات أوفى. فاكتشفت أخيراً أن الشخص الذي يضع الرقعة على عينه، كان اسمه، موشي دايان Moshé Dayán، الجنرال الذي قاد القوَّات الإسرائيلية في الحرب الأخيرة ضدَّ المصري ناصر. قرأتُ بأنه قدَّ عينه في حرب أخرى، جرت منذ خمسة عشر عاماً.

كانت أولبيدو قليلة الاكتراث بالبطولات الحربية، بما في ذلك بطولات مارشالات الحرب العالمية، التي كانت تحظى بإعجاب مجايلها من الذكور؛ بطولات باطون Patton ورومل Rommel ومونتغمري Montgomery ودوغول De Gaulle وجوكوف Zhukov وإيزنهاور Eisenhower وبقية المجموعة.

تركت أولبيدو باري ماتش، فوق الكؤمَّة المطروحة أرضاً، واستلَّت منها عدد ذلك اليوم من الجريدة التي كان يشغل بها زوجها. لاحظت بأسى بأن العدد الذي بين يديها، كان من الأعداد الأخيرة التي احتوت على مساهمة توماس بوغيلا، قبل رحيله إلى مَدْرِيد. كان كارلوس قد أكَّد لها بأن وثائق العودة إلى إسبانيا، الخاصَّة بمُرشدِه قد تمَّ إعدادها، وأنه من المُتَظَر أن يقوم توماس ولورديس، بعبور مضيق جبل طارق في منتصف يناير.

بدأ نشر إعلانات أعياد الميلاد على نحو مُبَكِّر. بدأ القلق يساور أولبيدو، وهي ترى أولى إعلانات الموسم بالواجهة الأمامية لصحيفة إسبانيا منذ

انطلاق شهر ديسمبر. رأت أنه بات يتعيَّن عليها الآن، التفكير في البدلات والهدايا والعشاءات والوجبات والحفلات. لا شك أن أوخينيا ماركينا، لبُعد نظرها، قد قامت بالتخطيط لكل شيء وشراء ما يتعيَّن شراؤه.

كان الاحتفال بأعياد الميلاد في طَنْجَة - وعلى النحو الذي اتَّبَعْتُهُ، هي وكارلوس في السنوات الأخيرة - مطبوعاً بنوع من الغرابة. لم يكن، لا قبيحاً ولا حزيناً ولا شيئاً من هذا القبيل، بل كان فقط، غريباً وشاذاً وصادماً. فمن ناحية، كانت هذه الاحتفالات تبدو في غير محلِّها؛ مساجد ومعابد يهودية أكثر، وكنائس أقل. مُؤذِّنون مُستمرُّون في النداء للصلاة خمس مرَّات في اليوم، وحاخامات بقبَّعات سود ولحى مُجعَّدة يمشون بالشوارع حاملين كُتَّيبات، غافلين منذ ألفي عام عن العقيدة المسيحية لولادة المسيح.

من ناحية أخرى، كان يبدو لأوليبدو، بأن شخصيات الميلاد؛ أولئك الرعاة بحميرهم وأغنامهم، وأولئك النسوة المحتشمات المُحجَّبات، والملوك السَّحرة بمعاطفهم وعمائمهم المبهجة، ذلك كله كان في شوارع طَنْجَة، أكثر أصالة من مشاهد المهد، مع تماثيل الطين الصغيرة الموجودة في المنازل والمتاجر والمُؤسَّسات التابعة للإسبان.

والحقيقة أن الكثير من المغاربة واليهود كانوا ينضمُّون بابتهاج إلى الحفلات المسيحية لبداية فصل الشتاء، بل إن الكثير منهم لم يكونوا يشمُّون من النبيذ واليانسون والشامبان، ولم يكونوا يرفضون صحناً من لحم الخنزير، الذي كانوا يطلقون عليه "حلو فو"، ولا كانوا يحاولون التحقق من كون كعكة الشاي كانت تُصنَّع بشحم الخنزير. أكشاك الآلات الموسيقية كآلة الزامبومبا وآلة الرِّقِّ التي كانت تظهر في السوق الصغير نفسه، كانت تبدو لأوليبدو أفضل علامة على عيد ميلاد المسيح بطَنْجَة.

نظرتُ إلى ساعة الصالون الحائطية: ساعتان تفصلها على موعد مرور

إيميليو سانس دي سوتو لكي يأخذها معه. وقت أكثر من كافٍ، لتستحم وتزّين وتلبّس استعداداً لسهرة بمكان إقامة باربارا هوتون Barbara Hutton بالقُصبة.

كانت تحسّ وكأنها طفلة تبدأ أولى دروسها في رقصة الباليه. عُقدة مُستمرّة ظلّت تحسّها في معدتها قبل ثلاثة أيّام حين أخبرتها المليارديرة الأمريكية عن طريق إيميليو، أنه سوف يكون من دواعي سرورها، أن تكون عائلة سيبوليدا جزءاً من مجموعة الأصدقاء الذين سوف تحتفل وإيّاهم في طنجة - ولو بعد بأسبوعين - بعيد ميلادها الرابع والأربعين. أنكر إيميليو أمام أولبيدو، أن يكون لجين بولز، يدٌ ما في هذه الدعوة، عازياً لنفسه أمر اقتراح الزوجين الإِسبانيّين أمام باربارا هوتون. لكنه قال ذلك بطريقة ينقصها الإقناع، فهو لم يكن يعرف الكذب. فكرة أن تكون جيني، هي مضيفتها الحقيقية لتلك الليلة أضافت عُقداً أخرى للعقدة التي تحسّها في معدتها، عُقدة كونها مُحْتَجَرَة، وعقدة إحساسها بالذنب؛ خاصّة وأن كارلوس لن يرافقها؛ فلقد اضطرّ الليلة السابقة، للسفر - على وجه السرعة - إلى مَدْرِيْد، حيث نُقِل والده إلى المستشفى بسبب التهاب رئوي.

برزت المُسَاعِدَة في صمتٍ، حاملة صينية عليها إبريق وكأس وصحن "كعب غزال". طلبت منها أولبيدو أن تضعها فوق طاولة غرفة الطعام، وأن تعود إلى بيتها إن كانت قد أنهت أشغالها كلّها. نهضت أولبيدو من الأريكة والجريدة في يدها، واتّجهت نحو الطاولة. جلست تاركة الجريدة بجانب الصينية، وصبّت لنفسها كأس شاي. وقبل أن تتذوّق المشروب الذي لا شك أنه كان ساخناً جدّاً، قضمت طرفَ كعكة كعب غزال. كانت تُعجبها كثيراً هذه الحلوى المغربية المصنوعة من الدقيق والبيض واللوز وماء الرّهر. في "الإِسبانيولا" كانوا يُعدّونها بشكل جيّد، كما تُعدّ كعكة الهَلَالِيّة عند مادام بورط madame Porte. استنشقتُ باستمتاع الرائحة

المنعشة للنُّعْنَاع، وفتحت صحيفة إسبانيا، وبالمصادفة وقعت عينُها على مقال، يُمجِّد شخصية القاضي مانويل دياس ميري Díaz-Merry Manuel، القاضي الدائم بالمحكمة المختلطة للولاية القضائية الدولية. كان دياس ميري قد مات قبل خمسة أيَّام، وكان كارلوس شديد الإلحاح على أولبيدو في "أن يكونا حاضرين في أثناء التشييع، فالمُعَمَّرُونَ الإسبان كلُّهم سوف يكونون هناك".

حضرت أسرة سيبوليدا مراسيم دفنه بكنيسة قلب يسوع الأقدس، بشارع رامبرانت. لبست أولبيدو السواد الصارم، وقبَّعة الشاش الصغيرة، وبدلة التُّورَة الطويلة الأنثوية، والقُفَّازَيْن اللَّذَيْن يصلان لحدود المرفقين، والحذاء ذا الكعب المنخفض. لحدود اللحظة، كانت تلك آخر مناسبة التقت فيها أولبيدو بتوماس ولورديس بوغيلّا، لكنها فقط، استطاعت أن تُسلِّم عليهما من بعيد. بالمقابل تيسَّر لها الحديث لوقت يسير، مع إيميليو سانس دي سوتو عند الخروج من الكنيسة. تغرَّل إيميليو فيها قائلاً، بأنها من حيثُ الأناقة، كانت تشبه أودري هيبورن Audrey Hepburn في فيلم سابرينا Sabrina. من جانبها، رفضت الأمر خجلةً، مجيبة إيَّاه، بأن لا أحد يمكنه الوصول إلى نعومة وأناقة أودري هيبورن، التي تتولَّى شركة جيفانشي Givenchy أمر ملابسها. مباشرة بعد ذلك، أخبرها إيميليو بدعوة باربارا هوتون. وحين استفسرته عن رأيه، فيما إذا كان لجيني دُخْل في الموضوع، ردَّ بقوله دون أن يكون مُقنعاً لها: "ليس الأمر كذلك، في حدود علمي، فأنا لي أيضاً وسائل في التأثير".

لم تقرأ أولبيدو النعي الجديد للقاضي، ومضت تتصفَّح الجريدة دون أن تُعيِّره كبير اهتمام، إلى أن تعرَّفت بسرعة، في العمود الأيسر لصفحة مفردة، على الشخص الذي نُشرت صورته؛ يتعلَّق الأمر بأنطونيتو Antõito، ابن ماريكِتا مولينا، صانعة القُبَّعات بحيِّ الصيَّاعين. بدا أنطونيتو - بجبينه

الواضح، المؤسّر على صَـلَعٍ زاحفٍ، وبنظّارته السوداء البلاستيكية، وشنبه الشبيه بالمَدَّةِ المعقوفة، وسترته وقميصه وربطة عنقه الرسمية - أكبر سنّاً في صورة الجريدة، من العشرين سنة ونيّف التي ينبغي ألاّ يتعدّهاها. لم تكن تبدو عليه صورة الكاتب البوهيمي، بل بالأحرى، صورة مُوظَّف أمين في مكتب مُوثَّق مُحلَّف. يقول العنوان الأوّل للعمود الصحفي. "رواية طُنْجَوِيّ، قريباً في الواجهات"، أمّا الثاني، فيقول: "حديث مع آنخيل باثكيس، المُتأهّل لجائزة سمس Sésamo". الحوار الصحفي وُقِّعَ بالاسم المستعار "المضيف". فَكَّرْتُ أوليبدو أن تسأل كارلوس، عَمَّنْ يختبئ وراء هذا الاسم. لن يكون زوجها، وإلاّ لكان أخبرها. شربت قليلاً من الشاي، ومضت تقرأ المقال الذي يبدأ بهذه الطريقة: الصحافة الإسبانية في الأيام الأخيرة، كلّها صارت منشغلة بمنح جائزة أدبية مُهمّة في مَدْرِيد: جائزة سمس للرواية القصيرة. هذه الجائزة التي تُمنح للمرّة الأولى، تمّ تأسيسها للمرّة الأولى، من طرف توماس كروز Tomás Cruz وتمّ التصويت عليها من قِبَل لجنة تحكيم مُكوّنة من إغناثيو أليكوو Ignacio Aldecoa ممثلاً للرواية الشابّة، ومن النُّقاد والكتّاب رافاييل باثكيس ثامورا Rafael Vázquez Zamora، عضو جائزة نادال Nadal وأليخاندر نونيوث ألونسو Alejandro Núñez Alonso عضو جائزة بلانيتا Planeta. جرت أطوار الحفل بمغارات سمس المعروفة، بشارع الأمير بمَدْرِيد. ويمضي المقال على هذا المنحى، قائلاً:

لكن الأهمّ بالنسبة إلينا، هو أن إحدى الروايات الثلاث التي تمّ اختيارها، هي لطنجويّ. لا هم ولا نحن، كان لدينا أدنى فكرة، عَمَّنْ يكون هذا المدعوّ آنخيل باثكيس. بحثنا في الأمر، فإذا بصديق يقرّر أن يُقدّمه لنا، مُنبّهاً إيّانا إلى أنه خجول وكتوم للغاية، وعدوّ لكلّ إشهار. بالفعل، لقد كان الكاتب الطُنْجِيّ المُتَوَجِّ، تماماً كما تمّ إخبارنا بذلك:

- هل أنت فعلاً من طُنْجَة؟

- نعم، هنا وُلدتُ في صيف 1929، ولم أُغادر في حياتي هذه المدينة، لكن، عليَّ أن أبَّهكم بأن اسمي الحقيقي هو أنطونيو باثكيس مولينا Antonio Vázquez Molina، لكنني فضَّلْتُ عليه اسم أنخيل باثكيس، لأن اسمي كان أقرب إلى أسماء مصارعِي الثيران.

- ماذا عن دراستك؟

- كنتُ طالباً سيئاً بالباكالوريا، أتذكَّر تلك السنوات التي كانت بالنسبة إليَّ كابوساً حقيقياً.

- قلْ لنا شيئاً عن الجائزة.

- بعثتُ بروايتي وأنا مقتنعٌ بأنها لن تحصل أبداً على جائزة مَّا. بعد ذلك، ها أنتَ ترى. لقد اختاروني إلى جانب بيثينطي كاريدانو Vicente Carredano، الذي فاز بالجائزة عن روايته "لا أريد البقاء وحيداً" ولوثيانو كاستانيون Luciano Castañón الذي تأهَّل مثلي للنهائيات، ونظهر معاً في كتاب نشرته دار بلانيتا Planeta للنشر.

- ما عنوان روايتك؟

- غرفة الأطفال.

- ما هي علاقاتك الأدبية؟

- لم تكن لديَّ علاقات أدبية على الإطلاق، ما عدا صداقتي مع الإخوة ثانس Sanz، الذين شجَّعوني وأرشدوني في كلِّ لحظة.

- إذا طلبنا منك أن تختار، أيَّ المؤلفين والروايات التي كانت لها بصمتها في كتابتك؟

- أظنُّ، هنري جيمس، بشكل رئيس في روايته "دورة اللولب" The

turn of the screw، أيضاً دينو بوزاتي Dino Buzzatti في "سر الغابة القديمة"، وإسحاق دينيسن Isak Dinesen في "سبع حكايات قوطية" وسانت إكزوبيري Saint-Exupéry في كتابه "الأمير الصغير" Le Petit Prince، وكاترين مانسفيلد Katherine Mansfield في أعمالها الرائعة كلها.

- ومن بين الإسبان؟

- ثيلا، بلا منازع. ولكن ثيلا، في كتابه "السيدة كالدويل تتحدث مع ابنها" على وجه الخصوص. دلييس Delibes كذلك. وهناك رواية لم يتحدث عنها أحد، وتركت لديّ انطباعاً رائعاً: "العواطف المصطنعة" لكارلوس مارتينس باربيطو Carlos Martínez-Barbeito..

- هل لديك شيء آخر مكتوب؟

- نعم، في المسرح، الفن الذي يفتنني أكثر. أنخيل باثكيس - الذي سوف نُسَمِّيه من الآن فصاعداً، باسمه الأدبي - راح يكتسب الثقة ويفقد الخجل. وقد اعترف لنا بأنه منذ شبابه المبكر، وهو يحسُّ بموهبة أدبية سرّية: ربّما، منذ اليوم الذي قرأتُ فيه، وأنا ما أزال طفلاً صغيراً "الطفل على الدرايزين" L'enfant à la balustrade لروني دو بويليسف René de Boylesve. يصرّح قائلاً. منذ ذلك الحين، وهذا الكاتب الطَّنْجِيُّ الشابُّ يشتغل بكلِّ سرّية. وبظهور روايته، لم يعد الأمر سرّاً على أحد. انتهت أوليبدو من القراءة، وهي فرحة من أجل ماريكيتا، ومن أجل إيميليو ثانس دي سوتو الذي طالما ناصر صديقه أنطونيتو، وكذا من أجل كارلوس، الذي سبق ونشر في يومئته، بعض المقالات عن الشخصية البارزة الجديدة المحليّة. لكن هذا لم يمنعها من الإحساس بوخزة عقدة نقص؛ فباستثناء سانت إكزوبيري صاحب كتاب الأمير الصغير، فهي لم تتعرّف

ولو على كاتب واحد من الكُتّاب الذين أشار لهم ابن صانعة القَبَّعات.
دخلتِ المُساعدة الصالون ملتحفة الحايك jaique الأبيض الذي تخرج
به إلى الشارع، لتُسَلِّم على أولبيدو.

- هل تريدان شيئاً آخر، سيّدتى؟ *siñora*

- لا، شكراً، يا عَيْشَة، كلُّ شيء على ما يرام، كلشي مزيان، *Kulshi*
.misian

- لم أحضّر شيئاً للعشاء، لأنك، سيّدتى، قلتِ إنك سوف تخرجين.

- وهو كذلك، لا تشغلي بالك.

- هل تريد منّي السيّدة أن أشغّل المصباح؟ لقد حلّ الظلام.

- حقّاً، سوف أشغّله بنفسى. هيّا، اذهبي أنتِ إلى منزلِك. شكراً لكِ
مجدّداً.

- مسا الخير، سيّدتى! *Massa eljir, siñora*

- مساء الخير، عَيْشَة.

قامت أولبيدو لتشغّل المصباح، حين سمعتُ صوت باب المنزل
ينصفق بعد خروج المُساعدة.

نظرت نحو الساعة الحائطية، ففكّرت بأن الوقت قد حان لتبدأ
استعداداتها للذهاب للسهرة. لم يخبرها إيمليو بالدعوة إلّا قبل ثلاثة
أيّام، وهو ما لم يعطها الوقت الكافي لتوصي بشراء ملابس يمكن أن
تستعرضها هذا المساء. وجدت نفسها مُضطرة للاختيار من بين ما هو
موجود في خزانة ثيابها. وما كان موجوداً بالخزانة، كان بعيداً كلّ البعد
عمّا تلبّسه غريس كيلى أو أودري هيبورن. لم يكن يسمح راتب الصحفي

كارلوس بالكثير من الترف، أمّا حوالة الألف بَسِيْطَة، التي كانت تبعث بها أمُّها، من حين لآخر من مَالَقًا، فهي الأخرى لم تكن تسمح لها بتحقيق أكثر من واحدة من تَخَيُّلاتها. لكن، كان أمامها شيء يمكنها استخدامه؛ فإيمليو قد أضاء لها الطريق، حين قال لها بأن صيغة الاحتفال بعيد الميلاد ستكون "عشاء بوفيه"، سيتولَّى فيه الضيوف إطعام أنفسهم بأنفسهم، فوق منصَّات وُضعت لهذا الغرض، وسيختارون الجلوس أين ومع مَنْ شاءوا، دون أماكن ثابتة مُسَبَّقًا. كما يمكنهم التنقُّل حسب مزاجهم، ما بين وسط القصر والشُرُفات والحدائق، إذا كان الطقس مناسباً. وسوف يُنشِط الحفل party فرقة جاز، وأوركسترا أندلسية مُصَغَّرة من الكمان والدربوكة darbuka والعود.

قرَّرت أولبيدو، أن الأمر المثاليّ، كان فستان كوكتيل غير رسمي، وتحديدًا ذاك الذي خاطته في الشتاء الماضي، والذي استوحته من الموديل القِرْمِزِيّ Écarlate لكريستيان ديور. لقد لبسته مرّة واحدة فقط، ثمَّ إنها كانت تعشق صورة الظلّ الأثوية التي تقترحها ديور؛ وهي تحديث للعصر الفيكتوري؛ خصر ضيّق وحزام زنبور وتُورَة على شكل جناح فراشة، هي أشبه ما تكون بحرف Y مقلوبة. الموديل الأصلي القِرْمِزِيّ، كان يتميَّز بفتحة صدرٍ على شكل V، وثنيات صدر واسعة، وأكمام تصل إلى منتصف الساعد، مع صدرٍ مُزَرَّرٍ وشريط كبير في الحزام، وتُورَة واسعة الأطراف تصل إلى ما تحت الركبة قليلاً. أولبيدو كانت كلَّفت الخياطة التي أوصتها بها المدام سيمون، بأن تقوم بإدخال بعض التحسينات، وذلك بتقليص حجم الشريط، وإزالة الثَّيَّات من التُّورَة واستعمال زهرة جريئة في لون الشوينغوم، أو علكة المَضْغ، عوض القِرْمِزِيّ الأصلي. وهذا بالفعل ما أبقى على الحرير كنسيج أساسي.

حشد من القطط كان يتصارع داخل رأسها. قطط مُتوحّشة، كلُّ مُواء من مُواءاتها وكلُّ خدش من خدوشها وكلُّ عضة من عضّاتها، كان ينغرس في دماغها كقطعناات خنجر.

رفعت يديها إلى صُدغيها، وبدأت تُدلكهما بأطراف أصابعها. لم يكن ذلك مُجدياً، فالقطط الوحشية لا زالت تتعارك بثبات. اتكأت بيديها على الفراش مُحاولَة الجلوس، لكن ذلك لم يزد إلّا في مفاقمة العراك القططيّ. تنفّست عميقاً، وحاولت الجلوس مستندة إلى وسادة السرير، لتستوعب ما حدث لها بالضبط. كانت بيتها بشارع بينياس Viñas، وحيدة في سرير الزوجية. آه، نعم، تذكّرت! لقد كان كارلوس بمَدْرِيْد، في زيارة لأبيه الذي تمّ إدخاله المستشفى بسبب التهاب رئوي. هذه الملاحظة طمأنتها، لكنها ما لبثت أن شعرت بالقلق حين لاحظت أنها لا ترتدي منامتها، وإنما الملابس الداخلية فقط، بما في ذلك الجوارب النسائية بأحزماتها الرابطة porte-jarretelles وقلادة اللؤلؤ الخاصة بها. أووف! لم تكن لديها أدنى فكرة، عن متى وكيف نامت، ولكن، لا بدّ أن ذلك تمّ في حالة من نصف الوعي. فهي في العادة، لا تذهب أبداً إلى النوم، دون أن تستكمل طقوس خلع جواربها ومجوهراتها وارتداء منامتها. هل قامت بإزالة مساحيق وجهها وتنظيف أسنانها؟ لم تتذكّر شيئاً من هذا، لكنها أحسّت بوجهها مُتسخاً وبفمها مُملّحاً ولزجاً.

كانت غرفة النوم مظلمة، وكانت الستائر السميكة تحجب النافذة. كم

كانت الساعة، لحظتها؟ أرهفتِ السمعَ حَتَّى خِيلَ إليها، أنها تسمع حركات عَيْشَةَ عبر الممرِّ. كان الوقتُ نهاراً، لكنْ، هل كان ذاك صباحاً أم مساءً؟ أرسلتُ إليها معدتها إشارة إحساس بالجوع. أزاحت الملاءة وغطاء السرير بِنِيَّةِ مُبَارَحَةِ الفراش، وارتداء البُرُنس، وتكليف المُسَاعِدَةِ بتحضير الفطور. هذه الحركة أحدثت تفاعلاً آخر في معدتها؛ حالة غثيان هَبَّت لتواجه بعنف المعركة القبطية التي كان رأسها ساحة لها. خرجت مُتَعَثِّرَةً نحو الحَمَّام المجاور، فتحت غطاء دورة المياه، وأفرغت ما في جوفها. كان هذا إذن صِداً الكحول، ويا له من صِداً! حين كانت تُنظِّف أسنانها، أرسلتُ لها المرأةُ صورةً ما كانت تُسمِّيه دائماً بالـ "عاهرة": وجهٌ مُنتَفَخٌ، وجِلْدٌ مُتَهَالِكٌ، وعَيْنان مُحتَقنتان دماً، ومُزَيْنُ رموشٍ مُتَدَقِّقٌ، وفمٌ مُتَحَوِّلٌ إلى لُطْخَةٍ أَرْجَوَانِيَّةٍ. أَحَسَّتْ بالغثيان مُجَدِّداً، وعادت لتُفَرِّغَ جوفها، لكنْ، هذه المرَّة، في حوض الحَمَّام. عادت إلى غرفة النوم، مُسْتَحَمَّةً ولاِبِسَةَ البُرُنس، فتحت الستائر جرئياً، فدخل ضوءٌ ضاربٌ للرماديّ، لم يعطها إشارة واضحة عن أيِّ ساعة كانت من اليوم، ولو أنه أعلمها بأن اليوم كان غائماً.

كانت البدلة التي خاطتها انطلاقةً من موديل ديور، مطروحة في وهن عند ساق السرير، بدت لها كتلةٌ زهر مقيّنة، أو عِلْكَاً سحقهُ حذاءٌ أحد المارِّين فوق الرصيف. بجانب ذلك كلِّه، كان هناك حذاءؤها، حذاء الصالون الأسود التي تُركَ كيفما اتَّفَقَ.

بدأ يأتيها وميض التذكُّر، فم جيني يضغط على فمها، مثل جهازٍ مَصَّاصٍ دافئ ورطب، يداها وهما ترفعان ثُورَةَ الفستان الوردية، وتداعبان الفخذَيْن، أوَّلًا عبر جواربِ النيلون، ثُمَّ بعد ذلك صعوداً، حَتَّى الوصول إلى البشرة العارية، أبعد قليلاً من حَمَالِ الجوارب. ثُمَّ رَعِشَةُ اللَّذَّةِ التي أَحَسَّتْهَا، وهي تدعك نَهْدَيْهَا من خلال حريرِ الفستان ومِشَدِّ الصَدْرِ.. أين كان يَحْدُثُ هذا؟ تَذَكَّرْتُ على نحو غائم، فِرَاشاً ذا قُبَّةٍ باروكية، عَتَمَةٌ غرفة

مضاءة ببعض الشموع، ورنيماً بعيداً لموسيقى مُنومة. لقد ضاجعتُ جيني. وكان يقينها بأنها قد قامت بذلك فعلاً، بمثابة صفة شبيهة بالصفة التي تلقَّتها ريتا هايوورث Rita Hayworth في فيلم خيلدا Gilda. وقد انضاف إلى عراك القطط المتوحَّشة في دماغها موجة حرٍّ مُوجعة على خَدَّيْها. جلست على حافة السرير، وراحت تجهش بالبكاء. أحد ما كان يطرق بأطراف أصابعه على باب غرفة النوم.

- هل السيِّدة بخير؟ خيِّل إليها أنها تسمع.

- نعم، عيشة - أجابت أولبيدو مُستجمعةً أعلى ما في صوتها وأكثره وثوقاً - فقط يُوجعني رأسي قليلاً. كلشي مزيان.

- هل تُحبُّ السيِّدة أن أُعدَّ لها الفطور؟

- نعم، مع عصير برتقال جيّد، من فضلك.

- واخا، سيِّدتي.

نهضت مُتَّجهة نحو خزانة الملابس المُدمَّجة في الجدار، فتحتُها باحثة عن ملابس داخلية نظيفة. خلعت عنها البرُّنس، وتركته يسقط أرضاً. لقد أصبحت عارية.

اجتاحتها ومضاتُ تَذَكُّرٍ أخرى، كانت مستلقيةً تحت قُبَّة فراش غرفة نوم باربارا هوتون، بعينين مُغمضتين، وجسد عارٍ إلّا من الجوارب وحزام الرِّباط. وكانت تجلس بجانبها جيني، التي لم تخلع بعدُ تنُّورتها وسترتها المُبتدلتين اللتين أتت بهما للسهرة. كانت تضغط على حَلَمَتَيْها على إيقاع دندنة أوركسترا مغربية. بينما كانت أولبيدو تُناشدها كي لا تستمرَّ وتتوسَّل إليها أن تتركها. كانت جيني تُسكِتها بقُبلة في فمها، فتُجيب هي فاتحة فمها، وتاركة لسان جيني يلجُّها كأفعى كوبرا مفترسة، وعَصِيَّة على المقاومة. لم يكن أحدٌ يراهما. كان باب غرفة النوم مُحكَّم الإغلاق،

كانت مُتأكّدة من ذلك. لقد أغلقت جيني مزلاج الباب قبل أن تنقضَّ على فريستها. بالمقابل ظلَّت النوافذ المُقوَّسة الثلاث - على هيئة حدوة حصان، والمُطلَّة على الشُّرفة الرئيسة - مفتوحة، تدخل منها النسمات الخفيفة المنعشة لنهاية الخريف الشِّمال أفريقي، وكذا النغمات العتيقة لثلاثيِّ الموسيقى الأندلسية، وأصداء نقاشات بالإنكليزية، وبين الحين والآخر، وميضُ قهقهاتٍ. أحسَّت أوليدو بنفسها وكأنها في فيلم تقوم داخله بدور فتاة عذراء تتعرَّض لمحنة. لم ترتكب ذنباً، حتَّى تصل إلى ذلك المكان. لكنها كانت هناك. وكأن الكلَّ تأمر عليها، ليعرَّض فضيلتها لخطر لا مجال لتحاسيه. دائماً كانت مجرَّدة من أسلحة الدفاع، دائماً لم تتوقَّع على أدنى درعٍ تحمي به نفسها. ولكن، ألم تضع نفسها بنفسها في مصيدة الفئران؟ لقد ذهبت أوليدو إلى حفل باربارا هوتون بدون زوجها، يراودها إحساس غائم بوجود خطر ما كان عليها الاعتراف به، لكن، في الوقت ذاته كانت تُحسُّ بدغدغةٍ مُحبِّبة. لقد رافقها إيميليو انطلاقاً من شارع بينياس Viñas في سيَّارة فورد Ford برونزية اللون، قام بكِرائها مع سائقها.

صعدتِ السيَّارة ما بين أحياء ضيّقة ومنحدرة وملتوية، حتَّى وصلت إلى ساحة القُصبة، حيث توقَّفت. سوف ينتظر ما يلزم انتظاره من الوقت للعودة إلى المدينة الأوروبية، قال السائق الإسباني بلُكنةٍ إشبيلية. كان يقف بالساحة حشد طويل من السيَّارات الأمريكية الضخمة، كان سائقوها في مجموعات صغيرة، يتحدثون ويُدخِّنون سجائر لافي سترايك Lucky Strike التي كان يهديها لهم أرباب عملهم. نزل إيميليو وأوليدو سيرا على الأقدام لمُدَّة ثلاث دقائق، حتَّى وصلا إلى قصر سيدي حُسني، حيث وجدا مغرباً قويَّ البنية، فسح لهما الباب للدخول. كان المغربيُّ ذو اللون التَّبغيِّ القاتم، يرتدي سراويل بيضاء نقية وصدريّة دون كُمين، لكن الكثير من الحليِّ كانت تُزيِّن صدره العاري، الخالي من الشَّعر وذي

العضلات المفتولة. كان الطربوش الأحمر الفاسيُّ يُلطَّف من هيئته المخيفة. لم يستفسر البَوَّابُ عن شيء مُعيَّن، تعرَّف على إيمليو، ورحَّب مُبتسماً بالقادِمِينَ ترحيباً مزودج اللغة، *You're welcome. Ahlan wa sahlan*. قَادَهُم مغربيٌّ آخرٌ أَقْلُ ضخامةً، لكنه مُتَأَنِّقٌ على الطراز نفسه، مُتَعَرِّجِينَ عبر ممرَّاتٍ وقاعاتٍ وأفنيةٍ. ولم يفارقهما إلَّا عند الوصول إلى شُرْفَةٍ كبيرة محاطة بأشجار الليمون والبرتقال والرمان، كانت تُطلُّ على سماء مُرَصَّعة بالنجوم، وسلاالم مُكعَّبة لمنازل صغيرة مصبوعة بالأبيض، كانت تنحدر جهة الخليج. كان هناك بالزاوية، رباعيٌّ لموسيقى الجاز، يعزف قطعة أغنية "عيد حبِّي المضحك" *My fanny Valentine*، التي أصبحت ذائعة الصيت على يد عازف البوق شيت باكر Chet Baker. نحو ثلاثين رَجُلًا وامرأة في غاية الأناقة، كانوا يتجاذبون أطراف الحديث في الهواء الطلق. كان الرجال يرتدون بدلات سهرةٍ أو بدلات رسميةٍ بربطات أعناق، فيما كانت النساء تلبَّسنَ فساتين السهرة، أو فساتين مُتنوِّعة. كان أغلب الحاضرين واقفين، يحملون كأساً بيدٍ وسيجارة بيدٍ أخرى. لم تتأخَّر جيني في الظهور. قَبِلَتِ القادِمِينَ الجديدين على خَدَّيهما، وسألت أولبيدو عن زوجها، وحين أخبرتها بأنه اضطرَّ للذهاب إلى مَدْرِيْد، لأن أباه كان مريضاً جداً، ارتسمت على وجهها إيماءةُ انزعاج. كان لدى أولبيدو انطباع بأن إيمليو، قد أخبرها مُسَبِّقاً بأنها ستكون وحيدة، وبالتالي فإيماءة جيني كانت بروتوكولية بالدرجة الأولى. بعد ذلك، وبمنظرة جسورة، تفحَّصَت السيِّدة بولز أولبيدو من قِمَّة رأسها لأخمص قدميها، مُعَبِّرة عن إعجابها بجمالها.

- هل أعجبكِ هذا اللون الوردي؟ سألت أولبيدو، مشيرة بنظرتها إلى زِيَّها.

- أحببتهُ *I love it*، أجابت جيني وهي تُضَيِّقُ عَيْنَيْها. إطرأ جيني لها

جعلها تُحسُّ بوخزة فرح، ما لبثت أن تحوّلت إلى وخزة خجلٍ. من أجل مَنْ تزيّنت بذلك الرّبيّ في تلك الليلة، إن لم يكن من أجل جيني؟ طيّب، من أجل جيني، ومن أجل باربارا هوتون، إمبراطورة طنّجة الدولية، التي كانت تتعجّل أيّامها الأخيرة، قالت وكأنها تحاول إراحة ضميرها. تطوّع إيمليو ليحصل لهما على مشروبات. جيني طلبت "جين أون ذ الروك" gin on the rocks وأولبيدو "وردة البرتقال" orange blossom مع قليل من الجين، وكلّ عصير البرتقال الممكن، مع قليل من السُّكَّر على شكل مسحوق، قالت مُدقّقة. نظرت جيني إليها بإعجاب، قائلة "اختيار جميل" Nice choice. ذهب إيمليو لاصطياد أحد النُّذل، لتكليفه بموضوع المشروبات. أشارت جيني بعينها إلى ثلاثة رجال كانوا يتحدثون على بُعد بضعة أمتار، قائلة: "هناك يوجد بول Paul".

التقت نظرة أولبيدو مع نظرة الكاتب الأمريكي، فتبادل الطرفان نظرات الاعتراف والتحية.. سألت جيني: هل تعرفين الاثنتين الآخرين؟ أجابت أولبيدو بالنفي، فأخبرتها جيني بأن الرجل الناضج، صاحب الشَّعر الأشقر، هو دافيد هاربرت David Herbert، والشابّ الأسمر الوسيم هو أحمد اليعقوبي "رَّسام رائع، يعشقه بول كثيراً" A wonderful painter; Paul is very much in love with him، أضافت. أجابتها أولبيدو مشيرة إلى محفظتها اليدوية الصغيرة: "خمنّي ماذا أحمل هنا؟ رفعت جيني كَتِفَئِها تعبيراً عن عجزها، فقالت أولبيدو: "الريشة التي أهديتها في مقهى باريس الكبير". رَغِبْتُ جيني في أن تعطيها قُبلةً على فمها، لكن أولبيدو آثرت أن تكون القُبلة على خَدِّها.

منذ الوقت الذي أنهت فيه كأس "وردة البرتقال" تلك التي أتى بها إيمليو، أضحت ذكرياتها أكثر ضبابية وتشظيًّا. اقترحت جيني الذهاب لإلقاء التحية على بربارا قبل افتتاح البوفيه، لكن إيمليو تذرّع بأنه قد قام

بذلك فعلاً، عند ذهابه للبحث عن المشروبات. ثم عاد ليتركهما وحدهما. مضت المرأتان وسط تجمُّعات الشُّرفة باحثتين عن سيِّدة سيدي حسني، دون أن تجداها. أحسَّت أولبيدو بنفسها كغنيمة، راحت جيني تستعرضها أمام أصدقائها. راقها هذا الإحساسُ. حين كانت أولبيدو تلبس ملابسها الداخلية في غرفتها بشارع بينياس، هرَّتْها حقيقة أخرى: لقد استمتعت، وهي تقوم بدور "الفتاة العذراء في محنة". لقد عاشت السهرة *la soirée*، كبطلة فيلم كان السيناريو فيه مُسوَّدة كان بوسعها تأكيدها أو رفضها في أيَّة لحظة. لكنها مضت تُؤكِّدها خطوة خطوة، في مزيج من الخوف والرغبة، جعلها تحسُّ بأنها مليئة بالحياة، بشكل غير مسبوق.

أخيراً، ووسط ذلك القصر المتاهة، عثرت المرأتان على باربارا هوتون، في فناء انتصب في مركزه قفص كبير من الحديد المسبوك، تنام فيه مجموعة ببغاوات خضراوات وزرقاوات وصفراوات، رؤوسها تحت أجنحتها. كانت إمبراطورة طنجة، تماماً كما شاهدتها أولبيدو في المجلَّات: تاج فيه الكثير من أحجار الألماس يُرصَّع شَعْرُها الأشقر، وقلادة من نوع الأحجار نفسه تُطوَّق عنقها، وفستان سهرة أسود يُغطِّي جسدها النحيل.

قطعت باربارا حديثها مع شخص كان يشبه رودولفو بلينتينو Rodolfo Valentino، وكانت تجلس معه على الكراسي المَعْدِنِية للحديقة، لتركِّز كامل اهتمامها على القادمتين الجديدتين.

قامت جيني بمجموعة تقديمات سريعة بالإنكليزية، بينما تجرَّأت أولبيدو، وتوجَّهت إلى باربارا هوتون، بعبارة عيد ميلاد سعيد *Happy Birthday*، التي تدرِّبت عليها لمدَّة ثلاثة أيَّام. نظرت باربارا إليها خلال ثوانٍ نظرات فضولية مُتفحِّصة، مرَّت عليها مرور الدھر. ختمت باربارا هوتون قائلة: "شكراً لك، عزيزتي، تبدين رائعة" مباشرة بعد ذلك، اختفى أيُّ مُؤشِّر اهتمام من وجهها، ليتحوَّل الوجه إلى قناع من جصّ.

أَحَسَّتْ أولبيدو كيف أن جيني أَمَسَكْتُهَا من يدها، وقادَتْهَا في الاتِّجَاهَ المعاكس الذي أَفْضَى بهما إلى ذلك الْفَنَاءِ. انتهت مراسيم المجاملة، فهل نجحت في الامتحان؟ عَلِمْتُ أولبيدو بنجاحها حين ضَغَطْتُ جيني بِقُوَّةٍ على يدها، وهما تعبران الممرَّات التي تعود بهما إلى الشُّرْفَةِ الرَّئِيسَةِ، أَكَّدَتْ لَهَا ذلك، بقولها وهي تهمس في أُذُنِهَا: "كنتِ رائعة". ومنذ تلك اللحظة وأولبيدو تطير فرحاً. ذهبنا معاً لاختيار أطباق الأكل التي سوف تتقاسمانِهَا في وجبة العشاء: صَحُونٌ صغيرة بالسَّلَطَةِ المغربية، قليلٌ من الكافيار الفارسي - جيني قالت إنها أَكْمَلْتُ "مرحلتها النباتية" - بَضْعُ أَفْخَاذٍ صغيرة لطائر التَّدْرُجِ مَطْهِيَّةٌ بِالْعِنَبِ. جلسنا إلى طاولةٍ مُعَدَّةٍ في الغُرفِ الداخليَّةِ، ولم تَلْقِيا بالآ إِلَى مَنْ جَلَبَهُ الحِطُّ من شركائهما الآخرين في الطعام. بل على العكس، صارتا - كطفلتَيْنِ صغيرَتَيْنِ في مدرسة للراهبات - تسلخانهم بما تتها مسان به في أُذُنَيْهِمَا من تعليقاتٍ؛ تلك بدينة لدرجة أن ثيابها كانت على وشك الانفجار في آيَّةِ لحظة، وذاك بِخُصْلَةٍ شَعْرِهِ المستعار، وبدلته الْقِرْمِزِيَّةِ، شَبِيهُ بَيْعَاءٍ، وتلك التي هنالك يبدو من وجهها، وكأنها تعاني منذ قرنٍ من حالة إِمْسَاكِ، أَمَّا النادل القصير، فلا يُضَيِّعُ أدنى فرصة للتَلَصُّصِ على صدور المدْعَوَاتِ.

بعد ذلك - ومن جديد، في الشُّرْفَةِ الْمُطَّلَةِ على الحديقة - تناولت المرأتان بعض الحلوى التي قام إيميليو بجلبها لهما في صينية صغيرة من الكارتون. "إنه المعجون" قال قبل المُضِيِّ في طريقه إلى المجموعة الْمُتَحَلِّقَةِ حول بول بولز.

قامت جيني وأولبيدو بِرَشِّ المعجون بالشاي الْمُنْعَنَعِ، الذي كان العديد من التُّدُلِّ يقومون بتوزيعه. بدءاً من تلك اللحظة، صار كُلُّ شيء كالحُلْمِ. توالى سلسلة من الأحداث العاصفة، التي كان مستحيلًا السيطرة عليها. تحوَّل العالم إلى فرجةٍ سِيْرِكٍ، كان الكلُّ فيه لُطْفَاءً، مَرِحِينَ. رباعيُّ

الجاز الذي كان يعزف في الشُرْفة والذي بدا لأولبيدو مُملّاً حَدَّ الموت، هو وموسيقاه، عَوْضُهُ ثلاثيٌ للموسيقى الأندلسية، بجلالِبَ بيضاء وطرابيش فاسية حمراء وشباشب صُفْر، أَحَسَّتْ بموسيقاه رفيعةً، بل أمكنها أن تحسَّ بها، وكأنها تنبع من داخلها، وكأن قلبها هو الذي يُفصح عن تلك التأوهات العاطفية، التي تتلَوَّى إلى ما لا نهاية.

بأعجوبة، لم تنجح برودة الليل في جعلها ترتعش، بل كانت تُحسُّ بنفسها، كَنَسْرٍ يطوي الريحَ بحُرِّيَّةٍ، أو بالأحرى، كَنَحْلَةٍ تغوص حتَّى تصل إلى لقاح الزهرة. استسلمتِ "العذراءُ في محنة" بلا شروط. جيني التي كانت عيناها تومضان بوهج الليل، قادتها من يدها للبحث من جديد عن المُضيّفة، وجدتها في غرفة صغيرة داخلية، جالسةً على أريكة بجانب شبيه رودولفو بالينتينو ويدهما كأسا شامبان وهما يتحدثان. تأملتُهُما باربارا هوتون، دون أن تُخفي انزعاجاً خفيفاً، وسألتهما بصوت خالٍ من الإيحاء:

- أمّا تزانان تقضيان وقتاً ممتعاً؟

- بالتأكيد، عزيزتي - أجابت جيني - كلُّ شيء على ما يرام.

انحنت جيني على المضيّفة، وهمست لها بشيء في أذنها. نظرت باربارا هوتون إلى أولبيدو خلال بضع ثوانٍ. هزَّت رأسها موافقة، ولتحسم الأمر، حوّلت وجهها نحو الأسمر المهندم ذي الشَّعر الأملس والعَيْنَيْن المائلَتَيْن والشفَتَيْن الشهوانيّتين.

سحبت جيني أولبيدو عبر سلالم ضيّقة، تنتهي في غرفة نوم مالكة وسيّدة سيدي حسني.

طَنْجَة، ربيع 2002

- بماذا يوحى لك اسم الحُسيمة؟

حوّلتُ رأسي باتجاه اليسار، وتأمّلت في صمت عبد اللطيف الجديد. كان المفوّض يقود، عبر الكورنيش، سيّارة سيات إيبيثا Seat Ibiza ذات لون أزرق شديد اللّمعان، وعلى ارتفاع شِلاه بيتش Chellah Beach، باتجاه رأس مالاباطا. كنتُ أجلس بجانبه.

كان هناك ازدحام وفوضى في حركة السير، وكان الجديد يحمي عينيه بنظّارة شمسية، ولا يُبعدهما عن الطريق. يحاول تفادي الاصطدام بأيّة سيّارة يمكن أن تقوم بحركة مُفاجئة وغير مُتوقّعة، أو تدهس قاطع طريق مُتهوّر، لم يتسنّ له الانتباه إلى الدهشة التي ارتسمت على مُحيّاي.

- هذا الاسم - قلتُ مجيباً - يوحى لي بما يوحى به للكثير من الإسبان. الحُسيمة هي جزيرة تقع في خليج مغربي، يحمل الاسم نفسه. إسبانيا تحتلّها منذ ثلاثة أو أربعة قرون، والمغاربة يزعمون أنها ملكهم.

- هذا كلّ ما في الأمر؟

- طيّب، أتذكّر على نحو مُرتجّل، أنه بخليج الحُسيمة نزلت قوّات بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera، سان خورخو Sanjurjo وفرانكو Franco، لتصفية الحسابات مع ريفيّ عبد الكريم، الذين أدلّوهم في

أنوال. كان ذلك في زمن ألفونسو الثالث عشر Alfonso XIII، ولا أستطيع أن أقول لك بالتدقيق متى حدث ذلك.

- في شهر سبتمبر من العام 1925 - قال الجديدى مُدَقِّقاً بصوت يغلب عليه الحياد - باعتبار أن إسبانيا لم تقدر على مواجهة عبد الكريم وجهاً لوجه، فقد نظَّمت ذلك الإنزال الجَوِّيّ - البحريّ في البَوَّابة الخلفية للمقاومة الريفية، لتقوم بطعننها في الظهر، إن جاز هذا التعبير.

لا شك أن المَفْوَّض كان خارج وقت عمله. فقد كان يرتدي قميصاً أسود بكمّين قصيرين وسروال جينز بساق الفيل الفظيعة، تلك التي عادت لتصبح موضة. لم يكن قد حلق ذقنه، وكانت شعيرات لحيته بارزة. بعد نجاحه في تجنّب عربة ثلاثية العجلات، كانت قد أفعّت وسط الطريق، زاد من السرعة وهو يسلك أسهل طريق، مضيفاً وهو يتّجه نحو:

- إحكِ لي، ما قلتَ - عبر الهاتف - أنك تعرفه.

- إذا كنتَ تقصد، يا سيّدي المَفْوَّض، المعرفة بمعناها الدقيق، فأنا لا أعرف شيئاً على وجه اليقين. لكن، لديّ بعض الافتراضات المؤسّسة - أحسستُ بالحاجة لتدخين سيجارة، لكنني تذكّرتُ أن الجديدى يُرْعِجه ذلك. فقرّرتُ المواصلة دون الاستناد على عكازٍ ما.

- لديّ شكٌّ في أن المشكلة التي يتخبّط فيها صديقي ألبرتو ماركينا - التي قلتَ لي عنها بأنها قضية أمن وطني لما كُنّا في فيلاً بيرديكارس - يمكن أن يكون على علاقة بصلة تربط أجهزة الاستخبارات أجهزة الاستخبارات الإسبانية بمجموعة جهادية هي في طور التشكّل في المغرب.

- حسناً، أرى أنك استفدتَ جيّداً من زيارتك للحاجّ فؤاد - قال الجديدى وهو يعود لتركيز نظراته على الطريق، وكأن صمتي أتاح له الفرصة ليُجيب بفصاحة:

- لا تستغرب، سيّد سيبوليدا، من كوني أعرف ذلك. فالمديرية العامّة لمراقبة التراب الوطني رصدت جولتك إلى بني مَكَادَة بِمَعِيَّة صحافي ميدي1، لقد حكى لي ذلك صديقي في الوحدة الخاصّة القادمة من الرّباط.

- واضح أن محاولتي القيام بدور جيمس بوند James Bond كانت كارثية، قلتُ وأنا أرفع يديّ بالطريقة الاستسلامية المعروفة كونيا. فاتّجه نحوي من جديد مبتسماً.

- المديرية العامّة لمراقبة التراب الوطني بالمناسبة، لا تعتقد بأنك محترف. هي تعتبرك مجرد هاوٍ، يحشر أنفه فيما لا يعنيه.

- احرص، سيّدي المفضّض، على أن يظّلوا على هذا الاعتقاد، فهو عين الحقيقة.

هزّ الجديدي رأسه، لا أدري إن كان متأملاً تعليقي أم موافقاً عليه.

- قبل أن تواصل - قال - اسمح لي أن أسألك، عن مصلحتك في هذا كلّهُ، وحاوِل من فضلك أن تكون صادقاً، ما وسعك الأمر.

- أريد أن أعرف مَنْ يكون صديقي ألبيرتو - تفاجأت أنا نفسي من ردّي السريع، فلحدود تلك اللحظة لم أكن قد استجمعتُ بعدُ، وبشكل صريح، الأسباب التي تُحرّكني - كنتُ سأقول بأنّي فقط أكتفي بهذا، لكنني أدركتُ بأن هذا كثير فعلاً. لم أقتنع بتهمة كون ألبيرتو اعتدى على نادلة المِنْرَة.

أنت وأنا تعارفنا آنذاك، في مكتبك بالمطار، حين قمتَ للتوّ باعتقاله وهو يلج بوابَة الطائرة التي ستقلّه إلى مَدْرِيد. حدث هذا تقريباً منذ ثلاثة أسابيع، وقلتُ لك حينها بأنّي لا أتصوّر بأن يكون ألبيرتو قد قام بهذا، ولا زلتُ مُستمرّاً في هذا الاعتقاد، لكنك، فيما بعدُ، في فيلّا بيرديكاريس، أوحيتَ لي بوجود أمرٍ آخر. وإني لأعترفُ لك أن بعض الأشياء التي حدثتُ منذ ذلك الوقت، ساقطني إلى الاقتناع فعلاً بوجود أمرٍ آخر.

- وهذا الأمر الآخر، أنتَ لستَ مُتأكِّداً منه تماماً، أليس كذلك؟

- بصراحة، لستَ مُتأكِّداً. كنَّا في طريقنا للصعود نحو فندق وكازينو موفانبك Movenpick، لكن، دون عوائق تُذكر في الطريق. كانت سيَّارة سيات إيبِثا تفوح برائحة مُعطر التِّفَّاح. وعلى مرآتها الخلفية المركزية علَّقَ علَمٌ، حملَ الشعار الأبيض والأحمر الخاصَّ بفريق أتلتيكِ تطوَّان.

ساعات قبل هذا الوقت، في منتصف النهار، كنتُ ودَّعتُ ليلي بمنزلي بِقُبْلَةٍ على فمها. ودون حتَّى أن تتناول فطورها، هرعَتْ بسرعة كبيرة إلى بيت أُسرتها لِتُغيِّرَ ملابسها؛ لقد كان لديها حراسة بمركز الاتِّصال، خلال ظهيريَّين، نهاية ذلك الأسبوع.

بالنسبة إليَّ، لم أتأخَّر كثيراً في النزول إلى غاية البولفار، والجلوس بِشُرْفَةٍ المقهى في الزاوية. أهديتُ حميدَ سيجارة مارلبورو، وتبادلتُ معه الحديث حول بعض توافه الأمور مثل حالة الطقس، كلَّفتُ النادل بأن يجلب لي قهوة مع الحليب، قهوة مضاعفة مع الحليب الفاتر - قلتُ - أقرب إلى البرودة منها إلى الحرارة. رغبتُ أيضاً في هِلَالِيَّة. هيَّاء، هِلَالِيَّة أيضاً من فضلك! قلتُ للنادل. خلال سيجارتي الثانية، يوم السبت ذاك، براوية المقهى. قرَّرتُ تبني منهج المخاطرة الذي نجح فيه ضابط الكوتتيننتال في رواية المحصول الأحمر لداشييل هامِت Dashiell Hammett.

سحبتُ نوکیا من جيب السترة الداخلي، وبحثتُ في قائمتها عن الرِّقْم الذي كلَّمَنِي منه المُفَوِّض الجديد للاتِّفاق معي على اللقاء في فيلاً بيرديكاريس، أقصد، رَقْم محموله الشخصي.

بدا لي الجديد - قياساً لوداعه الأخير لي منذ أسبوعين طویلین - أكثر انفتاحاً ممَّا كنتُ أتوقَّع، حين نَبَّهني بأن لا أعود لإزعاجه. أخبرتهُ أني أعتقد أنه بحوزتي أشياء أودُّ تقاسمها معه. وبدل أن يكيل لي اللعنات، أعطاني

موعداً على الساعة الثانية ظهراً، قُربَ قطعة أرضية، كانت تُستعمل مرأب
سيّاراتٍ بجانب أنقاض مسرح ثيرفانطيس الكبير.

- كُنْ دقيقاً في الموعد - قال - سوف أُمُرُّ لآخذكَ معي في سيّارتي
الشخصية. وإذا لم أجِدكَ في الساعة المتَّفَق عليها، سأُكَمِّلُ طريقي.

- وهو كذلك، سيّدي المُفَوَّض، أُجِبْتُ.

- ستأتي من بيتك؟

- نعم، أظنُّ ذلك.

- إذن، ليكنْ ذلك مشياً على القَدَمَين، واحرصْ ألاَّ يتبعَكَ أحدٌ. إذا
خامركَ شكٌّ في شيء ما أو أحدٌ ما، اتَّصل بي على هذا المحمول، وسننظر
حينها ماذا يمكن فعله.

- مفهوم، إلى الملتقى.

للمرّة الثانية في الساعات الأخيرة، تعاظم إحساسي بالاعتزاز بذاتي.
حصل معي ذلك في الليلة الماضية، حين استجابت رجولتي لمفاتيح
ليلي، وها هو يحصل معي الآن، وأنا أُتَوَقَّعُ في مكالمتي مع الجديد.
لم يكن بإمكانني تفادي استدعاء شاهدٍ أدبيٍّ من "أمثال الجحيم" لوليام
بلايك William Blake يقول فيه: "الحذر امرأةٌ عانسٌ قبيحة وغنية،
لا يُتَوَدَّدُ إليها إلّا من باب العجز" لكن، أحياناً، جزمْتُ مع نفسي، أنه من
الأوّلَى أن يكون المرءُ حَذِراً.

كان شارع إشبيرانثا أوريانا Esperanza Orellana يمتدُّ - على شكل
منحدرٍ مُلتَفٍّ - على الجانبِ الخلفيّ لفندق المنرّة، في السفح الواقع
أسفل شُرْفَةِ سور المِعْكَازَين، حيث ينتهي متّصلاً بالمنحدر المُفْضِي
إلى الشاطئ، وحيث الحَيُّ القريب من الميناء الذي كان خلال العهد

الدولي إسبانياً جداً، بل كان منطقة شعبية ذات لُكْنَة أندلسية، لها فنادقها، الرخيصة ومَحَلَّاتُها لبيع "الشورو" وحانات المُقَبَّلَات، وبيوتات الفلامينكو، ودُورُ الدعارة، ودكاكين الخردوات، ومصانع الثلج، وباعة التبغ، وألعاب الرهان واليانصيب، وباعة الفول السوداني والرقائق المُتَجَوِّلُون، كما كان لها مكاتبها، وصالونات حلاقتها المُعْتَمَة. وكان يُسَمَعُ صوتُ البي بي سي في عهد فرانكو في منازلها الجمهورية الكثيرة.

في الطريق الجانبي للجزء الأسفل لشارع إثبيراثا أورِيانا، انتصبت مومياء مسرح ثيرباتيس الكبير.

وصلتُ قبل الموعد المُحدَّد من طرف المُفَوَّض بدقيقتَيْن. توقَّفتُ أمام بَوَّابته الحديدية الخارجية ذات اللون الأحمر الداكن، سحبتُ سيجارة وقمتُ بإشعالها. كانت حركة سير الراجلين والسيَّارات ضعيفة.

بنى ثيرباتيس زوجان إسبانيان طَنْجِيَّان، وتمَّ افتتاحه في 11 ديسمبر 1913. فترة، تحوَّل فيها المغرب إلى أرض ميعاد بالنسبة إلى الاستعمار الإسباني، الذي لحقه العار عام 1898 في كوبا، وبويرتو ريكو، والفلبين. حضر احتفالات ولادته الرهبانُ الفرنسيِّسكان ذوو اللحي الطويلة البيضاء، والنسوة المبتهجات ذوات القَبَّعات الشمسية، والرجال الصارمون ذوو قَبَّعات القَشِّ، وأبرز وجوه المستوطنين الإسبان. حاولتُ، عبثاً، الإصغاء لصدى أصوات إينريكو كاروسو Enrico Caruso وماريا غيرو Maria Guerrero ومارغاريتا سيرغو Margarita Xirgú وإيميريو أرختينا Imperio Argentina وكوتتشا بيكير Concha Piquer وأنطونيو ماتشين Antonio Machín ولولا فلوريس Lola Flores. قمتُ بجهدٍ إضافيٍّ: أرهفتُ السَّمْعَ بحثاً عن آثار تصفيقاتٍ أو عواصفٍ هتافاتٍ قام هؤلاء الفنَّانون أو غيرُهم بحصدها هنا بالذات، فأجابني الصمتُ. كان هذا أكبر مسارح أفريقيا، يحوي ألفاً وأربعمئة مَقْعَدٍ مريح، لكن الدولة

الإسبانية التي حصلت على ملكيته سنة 1928، واستمرت مالكة له، تركته منذ سنوات عديدة مغلقاً ومُهْمَلاً. بُني من الخرسانة المسلّحة، ولا يزال قائماً مُتَصِيباً، بواجهته العصرية التي بقيت في حالة جيّدة، ولكن داخله الذي قمتُ بزيارته ذات مرّة كان شبيهاً ببطن حيوان عملاق لعصور ما قبل التاريخ. "دخان وبقايا حصاد، كما في مانديرلاي" Manderley، هكذا وصفتُ خوانيتا ناربوني Juanita Narboni حالة مسرح ثيربانتيس في رواية آنخيل باثكيس. إلّا أن الوضع الآن أصبح أسوأ.

رمىْتُ بالسيجارة أرضاً، نظرتُ إلى الساعة، واتَّجَهِتُ نحو القطعة الأرضية التي رُكِنَتْ فيها بعض السيَّارات. وقبل أن أصل سمعتُ بوق سيَّارة يَطُرُ مَرَّتَيْنِ. عدتُ برأسي نحو الخلف، لأجد سائق سيَّارة سياط إبيثا ذات اللون الأزرق اللّامع يشير لي بيده للصعود بسرعة إلى السيَّارة.

- يبدو أن الخرائب تُعْجِبُكَ، قلتُ له وأنا أشدُّ نفسي بحزام السلامة.
- ولماذا تقول هذا؟ سأل وهو يتفحَّصني والفضول يُطلُّ من عينيه الشبيهَتَيْنِ بعَيْنِي بومة.

- انظر، سيّدي المفوَّض: في المرّة الأولى التي أعطيتني فيها موعداً خارج مكتبك، كان ذلك في خرائب فيلاً بيرديكاريس، والآن في خرائب ثيربانتيس.

شعَلُ المُحرِّك، بعد أن ألقى نظرة على مرايا الرؤية الخلفية للسيَّارة.
- لم أفكّر في ذلك - قال مُتَقَبِّلاً الملاحظة - قد يكون ما تقوله صحيحاً، ربّما لأن الخرائب تُذكّرني، إلى أيِّ حدٍّ كانت فيه هذه المدينة فتيّة ومرتاحة البال، وكيف أنها هرمت بسرعة. قال ذلك وهو يصل إلى المنحدر الشاطئيّ ذي اتّجاه السير الوحيد، شارعاً في الصعود نحو منطقة المَنْرَة.

- أنتَ فيلسوف، يا سيّدي المِفْوُض، لم أكن أعلم بوجود فلاسفة داخل مهنتكم.

- يكون ذلك فقط في أوقات فراغي، يا سيّد سيبوليدا، ففي عملي، أنا خادم مخلصٌ للمملكة المغربية، لا تنسَ ذلك.

خَلَدْنَا إلى الصمت، وبعد جملة انعطافات حلزونية، فرضها نظام اتّجاهات السير، وصلنا إلى بولفار باستور، لنَتَّخِذ الشاطئ وجهتنا. حينئذ سحب الجديدي من جيب قميصه الخارجي نظّارة شمسية، لِيَسْهَأ مُستعمِلاً يده اليسرى وقال:

- سوف نقوم بجولة إلى غاية مالاباطا، ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ما رأيك؟ عشرون دقيقة بعد ذلك، وبعد أن اجتاز مُجَمَّع موفانبيك الفاخر، قام بإيقاف سيّارته بجانب حافّة الرصيف الضئيل، شَغَل أضواء الطوارئ دون أن يقوم بإيقاف المُحرِّك. قرع بأنامله فوق لوحة القيادة، واستدار نحوي دون أن يكون قد فكَّ بعدُ حزام السلامة.

- إذن، فأنتَ لم يسبقُ لك أن سمعتَ الحديث عن عملية الحُسَيْمَة؟

- إذا لم تكن تقصد بكلامك، الإنزال الجوّي - البحريّ الذي أشرنا إليه سابقاً، فأنا لم يسبق لي أن سمعتُ بها.

- ولكنك تعرف القائد نوغيرا، أليس كذلك؟

- أعرفه منذ فترة قصيرة، هو رئيس الأمن بالقنصلية الإسبانية. تعرّفتُ عليه الأسبوع الماضي، بعد جريمة قتل زميل لي في ثيرباتيس، والتي بدا أنها قد تكون جريمة عاطفية.

- هذا كلُّ ما تعرفه عنه؟

- وصلتني كذلك شائعة أنه قد يكون رئيساً للمركز الأعلى للإعلام

والدفاع CESID في شَمَال المغرب، لكن، يتعيَّن عليكم أن تعلموا هذا على وجه اليقين. لقد قرأتُ بأن أجهزة الاستخبارات تُخبر بعضها، حول مَنْ يكون رئيسها الرسمي في كلِّ منطقة من المناطق.

- أنا لا أعمل في جهاز مديرية مراقبة التراب الوطني DST، صدَّقني، ولكنني أتصوَّر أن الأمر هو كما تقول. بالمناسبة، هل تعلم؟ المخابرات الإسبانية لم تعد تُسمَّى CESID، بل أصبحت مع بداية هذا الشهر تُسمَّى CNI المركز الوطني للمخابرات، وقد نُشر هذا في الصحافة الإسبانية كلَّها. ما سمعته، هو أن أعضاءها ما يزالون يُطلقون عليها اسم المركز أو المؤسسة.

- لم أكن أعلم، فأنا لا أقرأ الصحف. لكن، قل لي، هل ما قلته بصدد أرسينيو نوغيرا صحيح؟

- نعم، طبعاً، هذا معروف جداً في طَنْجَة، على الأقلِّ في أوساطنا نحن الذين نشتغل في الشؤون الأمنية. الأمر الجديد الذي رصده رجالنا، منذ أكثر من ثلاثة أسابيع هو أن القائد نوغيرا بدأ يلعب دور تلميذ السَّاحر.

- مع جهاديين؟ أليس كذلك؟

- نعم مع جهاديين مُحتمَلين.

- نحن نتحدَّث عن مجموعة تجَّار حشيش في سَبْتَة، تعرَّف عليهم نوغيرا، وأفترض أنه تلاعب بعقولهم خلال السنوات التي كان فيها مُعيَّناً للخدمة هناك. أليس هذا صحيحاً؟

- نعم، نتحدَّث عنهم: عن عصابة محمَّد الطيِّب المُلقَّب بالنيّني، ملك الاتِّجار بالحشيش في البوغاز خلال العشرية المنصرمة، ومخترع نظام القوارب السريعة، وأفضل قائد مراكب في الضفَّتَيْن معاً. في كلِّ عشر لِقَافَة حشيش تشتعل في إسبانيا، واحدة منها تكون عصابة النيّني مصدرها. هذه العصابة أضحت الآن في طور التحلُّل.

- لكن، هناك احتمال - في ظلّ أزمة حرب الحضارات هذه - أن يكون بعض أفرادها قد تحوّلوا إلى إسلاميين مُتحمّسين، إلى مُعجِبين بآبن لادن، ويريدون الاقتداء به في هذه المملكة المغربية التي ضاع فيها الاحترام للإسلام. هل أنا بهذا أبتعد كثيراً عن الصواب؟

- لا، أنتَ في طريق الصواب. هل كان الحاجُّ فؤاد مَن حكى لك عن هذا كلّهُ؟

- لا، الحاجُّ فؤاد كان معي شحيحاً جدّاً في معلوماته، لكنَّ ربَّ إبراهيم، أو أيّاً كان، أعطى القدرة للكائن البشري لأن يُعَمِلَ فكره. لا أفعل أكثر من القيام بعملية: اثنان زائد اثنان. مثلاً، أنا أظنُّ كذلك بأنك أعسر، رغم أنك تحاول إخفاء ذلك، لقد وضعت النظارة الشمسية بيدك اليسرى.

- أنا فعلاً كذلك - أكّد الجديدي مُفَهِّهاً - أنتَ قويُّ الملاحظة، وتفكّرُ بشكل منطقي، لكنك تستعمل الكثير من الخُدْع. ثمَّ إنك لم تقل لي بعدُ أهمُّ ما يمكن أن يهَمُّ صديقي، الذي يشتغل في مديرية مراقبة التراب الوطني: ما الذي وضعك في هذا الطريق؟ لماذا هكذا، وبشكل مفاجئ، يبدأ أستاذ اللُّغة والأدب بالاهتمام بالعلاقات بين ما يُسمّى حالياً بـ CNI وميلاد جماعة جهادية؟

فككتُ حزام السلامة، خرجتُ من السيّارة، عابثاً بالإسورة الجلدية التي أهدتني إيّاها ليلي، وأشعلتُ سيجارة مارلبورو.

أحببتُ المَفوّض الجديدي، لكنني لم أكن أستطيع أن أُحدّثه عن أحمد السَّبّتيّ. ما كان ممكناً وَضَعُ حبل المِشْنَقَة حول رقبة ريبالدو، وحول رقبتني. باستثناء أرسينيو نوغيرا، الرجل الذي كلّف أحمد السَّبّتيّ بمراقبتني - وهو ما كنتُ مُقْتِنِعاً به تمام الاقتناع - فلا شيء، أو لا أحد أقام علاقة بيني وبين طعنة بني مَكادَة القاتلة. ولعلّ الذي انتقم لموته

خطأً في شخص بابلو مورينو، كان من أفراد عائلة الجهادي أو صديقاً له أو متواطئاً معه.

أسكت الجديد مُحَرِّك السيَّارة. فَكَّ حزام السلامة، وابتعد عن السيَّارة ليقف بجانبه. كانت سيَّارة إيبيثا، هي ما يفصلنا عن حركة المرور الخفيفة التي كانت تعرفها مالا باطا، في وقت انصرف فيه الناس إلى غَدَائِهِم المُتَأَخَّر، أو شرعوا في قيلولة سَبَتٍ جيِّدة.

- هل لديك ما تلوم عليه نفسك؟ سأل وهو يقترب مِنِّي كثيراً.

- لا، يا سيِّدي المُفَوَّض، لم أفعل شيئاً يمكن أن يُعَدَّ جناية، لا في المغرب ولا في أيِّ مكان آخر. انتبهتُ على الفور، أن إخفاء معلومات عن جريمة قتل، يمكن أن يُعَدَّ جناية في كلِّ مكان. ما حدث هو أنني لا أستطيع أن أفصح له عن الشيء الذي يجعلني قَلِقاً. لا أستطيع فعل ذلك دون أن أخون شخصاً ثالثاً، اتَّضح أيضاً أنه صديق جيِّد.

راح يتأمَّل جوابي. أحسستُ بأن رأسه بات معتركاً لأفكار وأحاسيس متضاربة، فانتهى مُبرِّئاً ذمَّتِي.

- واخا - قال جازماً - سوف أقول لصديقي في مديرية مراقبة التراب الوطني، إن ما أعطاك هذا الخيط، هو أمر أنت ترفض الإفصاح عنه، ولن يكون ذا صِلَة بالتحقيق. وسأطلب منه أن يكونوا متسامحين معك. فلست أكثر من مجرَّد لاعب كرة هاوٍ. ولكن، مع ذلك لا يمكنني أن أضمن لك أنهم سيأخذون كلامي مأخذ جدِّ.

- أشكرك كثيراً، سيِّدي المُفَوَّض، وأقسم لك بأنك وأنت تتصرَّف على هذا النحو، لا تخون مصالح بلدك. لا أنا ولا ذلك الثالث الذي أشرتُ إليه في كلامي، نُشكِّل أدنى خطر على الأمن الوطني.

ابتسم بسخرية، وعاد إلى مَقْعَد السائق. بينما قمتُ بإلقاء السيجارة

أرضاً وسَخَقِهَا بكعبِ حذائي الأيمن عائداً للجلوس إلى جانبه. استدار
الجديدي بالسيارة في الموضع ذاته، واستأنف السير سالكاً الطريق التي
تعيدنا إلى وسط المدينة.

- لم تقل لي لحدود الساعة، ماذا تعني عملية الحُسَيْمَة؟ قلتُ له
مُذَكِّراً.

- وأنتَ، لم تقل لي شيئاً على الإطلاق، يا سيّد سيبولبيدا.

- لا تكن ظالماً، سيّدي المَفُوضُ، بالفعل لقد قلتُ لك بعض الأشياء،
وأكدتُ لك أنه حتّى مجرد لاعب كرة هاوٍ، يمكنه أن يكتشف الخيط الرابط
ما بين رئيس CESID أو CNI وتكوين جماعة جهادية.

- أنتَ حقّاً حادّ الذكاء، يا سيّد سيبولبيدا.

- وأنتَ كذلك، سيّدي المَفُوضُ. كسر الجديدي حاجز الصمت، حين
أوشكنا أن نصل إلى شيلاه بيتش Chellah Beach.

- مديرية مراقبة التراب الوطني اكتشفتُ أن المركز الوطني للمخابرات
يُطلق على عملية تسلُّله للجماعة الجهادية - التي هي في طور الإنشاء
بالمغرب - اسم عملية الحُسَيْمَة. ولعلّ في ذلك احتفاءً بالإنزال الجوّيّ -
البحريّ الغادر لـ 1925.

- يمكن أن يكون الأمر كذلك، لطالما كان الجيش الإسباني فخوراً جداً
بذلك الإنزال. ولكن، ما هي المصلحة التي قد تكون لإسبانيا في هذا
الأمر؟ هذا ما لا أقدر على فهمه.

- أمر جوهري - يا سيّد سيبولبيدا - أن تكون لديك أداة لِرُزْع البلبلة
من الداخل المغربي. علاقاتنا لا تمرُّ بأحسن فتراتِها، أنتَ تعرف ذلك،
والجميع يعرف ذلك. شخصٌ ما في مَدْرِيْد، لا بدّ أنه فكّر أنه من المفيد
جداً أن تَمْتَلِك حصان طروادة في الجانب الآخر من المضيق.

وهل هناك أفضل - في أيّامنا هذه - من حَفَنَةِ جهاديين يسهل التلاعب بهم، بعضُ حمقى مُستعدين لارتكاب مجزرة في أيّ سوق تجاري، من شأنه أن يُرهب بلداً، ويعمل على إضعافه. مُحلّلو مديرية مراقبة التراب الوطني يعتقدون أن هذا الشخص لا بدّ أنه رجّح بأن امتلاك معلومات حول أشخاص من هذا القبيل، قد يكون مفيداً جداً لحظة أيّ تفاوض ممكن معنا.

- تقول "شخص في مدرّيد". هل توحى بأن أرسينيو نوغيرا، ليس هو مُدبّر عملية الحُسينمة؟

- وأنتِ تُؤكّد بأن اثنتين زائد اثنتين يساويان أربعة. أليس ذلك صحيحاً؟ لن تقول لي بأنك، لحدود اللحظة، لا تشكّ في الدّور الذي يمثّله صديقك ألبرتو ماركينا في هذا الموضوع المشتبك كلّهُ؟

توقّفتُ سيارّة إبيثا قُبالة شيلاه بيتش، فتحتُ الباب الذي إلى جانبي دون أن أنطق بكلمة واحدة. خلّتني مُطوّقاً بأفاعٍ، ولا يمكنني أن أُعيد إغلاق الباب خلفها، لأن المفتاح الزجاجي لقفصها قد تفتّت إلى آلاف القطع.

- دَع الموضوع - قال الجديد بنبرة غاضبة ومُستعجلة - حقيقةً، دَع الموضوع الآن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رَنَّ الجرس، فعرفتُ أن الرنين لم يكن جزءاً من أحلامي. عاد ليرنَّ من جديد، فعرفتُ أنه لم يكن رنين نوكيا. رَنَّ للمرة الثالثة، فعرفتُ بأنه كان جرس باب شُقَّتِي. خرجتُ من السرير زاحفاً. كانت الغرفة مظلمة، ولكنني كنتُ لابساً بالكامل، بما في ذلك الحذاء.

رَنَّ الجرس للمرة الرابعة، فتوجَّهتُ لمدخل الشُّقَّة وأنا أُشْعَلُ الأضواء في طريق مروري. ومن خلال الباب المُغْلَق سألتُ:

- مَنْ تكون؟

- أرسينيو نوغيرا، هل تفتح لي الباب؟

فتحتُ الباب، وتركته يدخل. دخل بخطوات نشطة، لابساً بدلة رياضية كَسْتَنَائِيَّة، وحذاء رياضياً أبيض. بدا مُوظِّفاً آخرَ خارج أوقات عمله. خُيِّلَ إليَّ أنني شممتُ رائحة كحول تدليك، لكنني أرجعتُ الأمر لفساد عقلي المُتسرع الحُكم.

- كم الساعة؟ سألتُ.

- العاشرة والنصف ليلاً، طبعاً.

- كنتُ نائماً، لكن، لا عليك، سأذهب لأنعش نفسي قليلاً، ثم أعود لتحكي لي عما جاء بك. في الانتظار، حاول الجلوس في المكان الذي تراه مناسباً.

حين عدتُ إلى الصالون بعد دقائق، وجدتُ أرسينيو نوغيرا مُمسِكاً السُّبْسِي sebsi الذي كنتُ أدخُن فيه الكيف بعد جولتي مع المُفَوِّض الجديد.

- تستعمل هذا الهُراء كمنووم؟ قال مُتسائلاً.

- من حين لآخر، ولو أنه لا يعطي النتيجة دائماً. أحياناً يعطي عكس الأثر الذي أبتغيه، ويتسبَّب لي في الأرق. لكن، اليوم لم يكن الأمر كذلك، لقد أتاح لي قيلولة جيّدة.

جلستُ قُبائِلته، وكُنّا معاً جالسين على كرسيين خشبيين مُتَحَلِّقَيْن حول طاولة الطعام الصغيرة المستديرة. أيقظني الماء البارد في الرقبة بشكل كامل.

- وأنتَ - قلتُ - ماذا تفعل لتنام في هدوء؟

- أنا لا أحتاج شيئاً، يا سيبولبيدا. أنام بشكل جيّد، ساعات قليلة، لكن، دفعة واحدة، وبضمير مرتاح.

- أستطيع تخيّل ذلك؛ الاطمئنان الذي يجلبه الإحساس بالقيام بالواجب لخدمة الوطن.

- سَمِهَ إن شئتَ كذلك، ولكن، يمكنكَ التخلّي عن استعمال مثل هذه النغمة اللعينة، فهي ليست مُسليّة على الإطلاق. ترك السُّبْسِي فوق الطاولة بثاقُل مُتعمّد، كما لو كان يضع سلاح جريمة أمام أعضاء هيئة مُحلِّقين.

- لقد أتيتُ لِللقاء بك، لأن ألبيرتو ماركينا أخبرني أنه كان يتحدث معكَ بالهاتف، وأخبركَ بأن كلَّ شيء سيجد طريقه إلى الحلّ في وقت قريب جداً.

- صحيح، ولكنه أيضاً، قال لي الكلام نفسه، حين قمتُ بزيارته في السجن منذ أكثر من أسبوعين. لا شك أنك اكتشفت أنه مُتفائلٌ عنيد.
- هو كما تقول، وأفضل الأشخاص الذين هم على شاكلته على مَنْ هم عديمو الإيمان.

- المتفائل، يا أرسينيو، ليس عكسه عديم الإيمان. أنا مثلاً، لستُ عديم الإيمان، فهناك أشياء أؤمن بها.

- حسناً، انظر، يا سيبوليدا، أنتَ تجعل الأمر سهلاً للغاية بالنسبة إليّ، وسيكون من الأفضل لك أن تُصدّق ما أتيتُ لأقوله لك: هذا الأمر سوف يتمّ تسويته في غضون يوم أو يومين، وأفضل ما يمكنك أن تقوم به هو الكفُّ عن الإزعاج.

أمسكتُ بمُدخّن غليون الكيف، وقمتُ بإفراغ طبقه الخزفيّ داخل منقّضة. قمتُ لأبحث عن الغلاف الجليدي الذي تعودتُ أن أحفظ فيه الغليون، فوجدته مطروحاً أرضاً إلى جانب الأريكة الوحيدة الموجودة في المسكن.

أحسستُ بنظرات العسكري، مُسلّطة على ظهري، وخمّنتُ أنه يستهجن أسلوبِي في الحياة.

وضعتُ الغليون في غلافه، ووضعتُه في دُرَج طاولة عملي. ثمّ عدتُ للجلوس.

تفحّصتُ عينيّ أرسينيو نوغيرا، وقلتُ له، وأنا أبتسم ابتسامة طلعتُ من أعماق روحي:

- الآن بدأنا نتفاهم. هل أحرّك أنا قطعة اللّعب الأولى، أم تفعلُ ذلك أنت؟ يبدو لي أن الدّور عليك أنت، لأنك أنتَ الذي أتيتُ إلى منزلي دون سابق إشعار.

أعلنَ موافقته بحركة جافّة من رأسه، وكأنه يتلقّى أمراً. كان ينقص أن تمتدّ يدهُ إلى صُدْغِي.

- مهمّتي هي أمن إسبانيا في هذه المدينة، وأنا حريص على القيام بعملِي بشكل جيّد - قالها وعيناه الرماديتان تُشِعَّان شَرّاً - لذلك لم أغفل عن حماقاتك التي تقوم بها هنا وهناك.

- ولهذا السبب أسندت مهمّة مراقبتي لذلك الشخص ذي اللحية الأفغانية، أليس كذلك؟ لكي تظلّ على علم بحماقاتي؟ تجمّدت عيناه بصورة مُفاجئة.

- هل يمكنك الإتيان بهاتفك؟ سألني.

- نعم، يمكنني البحث عنه والعثور عليه والإتيان به إذا كان الأمر ضرورياً.

- سيُتيح لنا ذلك أن نكون مُرتاحين أكثر. قمتُ للمرّة الثانية، فوجدتُ هاتفِي الخلوي على الأريكة. لاحظتُ أنه كان لديّ مكالمة ضائعة من ليلي، وأخرى من أليسيا.

- ها هو ذا، قلتُ وأنا أضع نوكيا فوق الطاولة. قام أرسينيو بسحب بطارية الهاتف وشريحته، كما لو كان يقوم بتفكيك سلاح مّا، ثمّ وضع القطع الثلاثة فوق الطاولة. ثمّ بعد ذلك مباشرة، أخرجَ هاتفه من جيب سترته الرياضية، وقام بتشريحه بالطريقة نفسها.

- ماذا يعني هذا؟ قلتُ.

- هذا، تحسّباً لأيّ شخص، راودتُه فكرةُ التنصّت على أحاديثنا. الهواتف - ولو كانت غير مُشعّلة - يمكن أن يكون لها آذان.

- لم أكن أعرف هذا، لكنّ، يسرّني أن تتحدّث بصراحة، كما لو كنّا نتعرّى من مؤرّرنا. لقد آن الأوان لذلك.

- أنا لا أنوي - بالطبع - إزالة مِئزري أمامك، لكن التقدير الذي يُكِنُّه لكَ ألبيرتو ماركينا هو الوحيد الذي يمنعني من صفعكَ بضَعَّ صفعات.

- فيما يخصُّني، سوف أقوم بإزالته، يا أرسينيو. انظر، من عادتي تأسيس قناعاتي على العقل، أنا سليل قرن الأنوار، هذا الذي تُكِنُّ له كرهاً شديداً، لأنه ابتكر في إنكلترا وفرنسا؛ الأعداء الأبديين للوطن. والعقل هو الذي قادني للاعتقاد بأنك أنتَ مَنْ أصدر الأمرَ لذلك الأفغاني بأن يتعقَّبني، حين علمتَ بأنني كنتُ أُحاول مساعدة ألبيرتو، وذلك بالاستفسار هنا وهناك كما تقول أنتَ. كانت نيتُكَ حسنة بحسب افتراضي، كنتَ فقط تريد معرفة ما هي أعشاش الدبابير التي أتى لتحريكها أحمقُ ثيربانتييس هذا، الصديق الأقرب لألبيرتو ماركينا. أعتقد أيضاً، أنه حين تعرَّضَ ذلك الشخص لحادث مؤسف، أرسلتَ لي رسالة قصيرة من أحد الهواتف الخلوية ذات البطاقة المُسَبَّقة الدَّفْع، قمتَ بشرائها من المدينة القديمة. أتصوِّر أن امتلاك كميَّة كبيرة من هذه الخردوات جزء لا يُجتزأ من مهنتك. وأعود للافتراض بأنك كنتَ تفعل ذلك لصالحِي حتَّى لا أتورَّط في المزيد من المشكلات.

- لا أعلم ما تُحدِّثني به، يا سيبوليدا!

- كلُّنا نرتكب أخطاء، يا أرسينيو. كونك بعثتَ لي برسالة قصيرة، فهذا كان خطأ، لا تغضب ولا تنزعج!

- لا تشغل بالك، أنا لا أغضب أبداً. ولكن، إذا كان لي أن أُسلمَ بتكهّناتك، فأنا أتصوِّر أنك إن حصل، وعلمتَ بحادث مؤسف كهذا، سوف تبادر لإخبار السلطات المحليَّة. أنتَ تتباهى دائماً بكونك تسلك الطُّرق القانونية، أليس ذلك صحيحاً؟

- بخصوص هذه النقطة، سوف أستعمل حقّي القانوني في التزام الصمت. في الواقع أنت تقوم بذلك أيضاً. حسناً، سأستمرّ إذن، إذا سمحتَ في خلعِ مِثْرَري. وافق صامتاً. بعد ذلك أتت جريمة ذلك الأستاذ المسكين. وفي رأي المتواضع، فالأمر لم يكن يتعلّق بجريمة عاطفية، بل بشيء آخر. وهذا ممّا يتعيّن عليك معرفته بشكل أفضل، فأنت الخبير في الشؤون الأمنية.

- وإذا لم يكن الأمر متعلّقاً بلِواطِيّين، فماذا يمكن أن يكون؟

- لست متأكّداً كثيراً، ولكن، يصعب عليّ أن أتصوّر أن يكون الذي قام بإرسال الرسالة القصيرة لي، يريد محوي من على وجه البسيطة بطريقة - لنقل - عاجلة. بعد كلّ شيء، فأنا لا زلتُ صديقاً لأصدقائي، وأراني أكثر ميلاً للاعتقاد بأن الأمر كان خطأ، وأن زميلاً ما للأفغاني أراد - على مسؤوليّته الخاصّة - الانتقامَ له، فذهب إلى الأستاذ الخطأ. كلُّنا نتشابه كثيراً، مجموعة مُثَقِّفين تافهين، يعيشون فرادى، ويحملون كُتُباً ومِلَقَّات، ويُدخّنون كثيراً. صقيع شبيه بصقيع ليلة باب المُفَوَّضية الأمريكية، كان يغمّر عينيّ أرسينيو نوغير.

- تجربتي في هذه الأراضي، قادّني للاستنتاج بأن الكثير من سكّانها بدائيون. يفقدون صوابهم بسهولة. أيّ واحد منهم، يمكن أن يرغب في الانتقام لأخيه مُرتكباً إحدى الحماقات. لا تقف أبداً في طريقهم، يا سيبوليدا!

- أرى ذلك فعلاً، وحتّى تُنَجَرَ ذلك، عليك أن تكون احترافياً، وأن تعرف كيف تُوجّه هذه البدائية في الاتّجاه المناسب، أليس كذلك؟
قمتُ لأبحث عن علبة السجائر، ولكن، قبل أن أبتعد، سألتُه واقفاً:

- هل تريد كأس ماء؟ أخشى ألا يكون لدي أي شيء آخر تشربه.

- الماء يكفي - أجاوبي - ولكن، ماذا كنت تعني بقولك "توجه بدائيته"؟ هل تظن أن شخصاً ما يمكن أن يخطر بباله أمر كهذا؟

- شخصياً يصعب عليّ التصديق بوجود أشخاص على هذه الدرجة الكبيرة من العُهر، لكن، مهما كان ذلك نادر الحدوث، فهناك مَنْ يعتقد فعلاً، بوجود أشخاص يمكن أن يخطر ببالهم أمر مماثل. أنا أعرف مغربياً مُقتنعاً بهذا الأمر - استرحْتُ قليلاً ثم أضفْتُ - لكنك تعرف العرب أفضل مني بكثير، وتعلم أنهم مُصابون كثيراً بجنون الاضطهاد.

انتظرتُ الجواب دون جدوى. صمت أرسينيو نوغيرا، لكنه استمرَّ جالساً دون أن يبدو عليه أنه أنهى المناقشة.

ابتعدتُ قليلاً، فوجدتُ السجائر فوق طاولتي. ملأتُ كأسِي ماء من مياه حنفية المطبخ، وعدتُ حيث كان ينتظرني. تركتُ الكأسين فوق الطاولة، قلتُ وأنا أجلس:

- لقد تذكَّرتُ وأنا بالمطبخ شيئاً كتبه أورتيجا يي غاسيت Ortega y Gasset في سلسلة من المقالات قام بنشرها في صحيفة الإمبراسيال *El Imparcial* مع بداية القرن الماضي. كان شيئاً شبيهاً بما يلي: "المثالي في إسبانيا هو أن يتمَّ الحديث عن المغرب في الوزارات جميعها ما عدا في وزارة الحرية".

- جملة رثانة كثيراً، لا أجادلك في هذا، ولكني لا أدرك علاقتها بما نتحدث فيه.

شرب أرسينيو نوغيرا جرعة كبيرة من الماء.

- أمور خاصّة بي. يبدو لي أن هناك الكثير من المنطق الحربي في

موقف العديد من الإسبان اتّجاه المغرب. لا يتخلّون أبداً عن النظر إلى هذا البلد على أنه عدوّ. ولن أستغرب حتّى من وجود مَنْ يُفكّرون في زرع حصان طروادة ببابه الخلفي، ولن أستبعد كذلك، أن تكون هذه الفكرة قد خطرت على بال أحد الأذكىاء فيما يُسمّونه - على ما يبدو - بالمركز أو المؤسّسة.

وضعتُ، بهذا، أوراقى كلّها فوق الطاولة.

- ما زلتُ لا أعرف عمّا تتحدّث، يا سيبوليدا - ردّ أرسينيو نوغيرا بصوت لا يقلُّ جليديّة عن عينيّه - هذا الهراء الذي كنت تُدخّنه، يجعلك تتفوّه بكثير من الترهّات، لكنّ، إذا كنت تُحبُّ أن تعرف رأيي، فسأعطيك إيّاه: المغرب خطر دائم على إسبانيا. لا يُعرف، على وجه التحديد، متى يطلقون مسيرة خضراء جديدة نحو سبّنة ومليلية. قد يذهبون إلى حدّ المطالبة بمنطقة الأندلس كلّها. كلّما كان هذا البلد ضعيفاً، كان ذلك أفضل بالنسبة إلينا.

أشعلتُ سيجارة مارلبورو. فاحتجّ أرسينيو بإيماءة اشمئزاز، لكنني لم أعره أدنى اهتمام، لأنّه كان بيّتي.

بدأتُ أغتاط من كثرة تكرار عبارة "العقل السليم في الجسم السليم" *Mens sana in corpore sano*. لم يكن بوسعي مجادلة حكمة المقولة اللاتينية، ولكنني كنتُ أتساءل لماذا لا يُوجّه النصّح في الاتّجاه المعاكس. قال ساراماغو Saramago ذات مرّة، إنه يبدو له من الجيّد أن يُوصى رجالُ الأدب بالحركات الجسمانية، لكنه يستغرب كيف لا يتمّ، بالطريقة نفسها، توجيه النصيحة للرياضيّين بقراءة كتاب من حين لآخر. عبادة الجسد كانت مع بداية القرن الواحد والعشرين الأمر الأكثر شعبية بعد عبادة المال. لقد انخرط السياسيون في كلّ النشاطين بحماس.

فأثَار Aznar لم يكن يتوقَّف عن الحديث عن المتعة التي يستشعرها وهو يمارس تمارين الضغط.

أدرتُ رأسي حتَّى لا أنفث دخان سَخْبتي الأولى في وجه زائري. لم يكن الأمر يتعلَّق بكوني كنتُ سأكون وقحاً.

- لا أتفق، يا أرسينيو، مع نظرتك، يمكنك تخيل ذلك. لكن، ولو كنتُ متَّفَقاً معها، فأنا من أولئك الذين لا يعتقدون بأن كلَّ شيء مباح، وبأن الغاية تُبرِّر أيَّة وسيلة. ويعتقدون كذلك، أن الوسائل التي تستعملها تُوضِّح مَنْ أنت، وتُقدِّم مؤشِّرات على نوعية مالك. هذه إحدى قناعاتي الراسخة.

- كنتُ أتصوِّر ذلك، يا سيولبيدا. أنت لا تُفاجئني. أنتَ لستَ سوى أحد أولئك المُثَقِّفين الذين يتغوَّطون في سعادة، دون أن يتساءلوا، مَنْ يتولَّى تنظيف المجاري.

- أنتَ مخطئ، يا أرسينيو. أنا أريد للَّذين يُنظِّفون المجاري، أن يكون دَخلهم كافياً لكي يعيشوا بكرامة. أحبُّ أن يُعترفَ لهم بأنهم يقومون بعمل ضروري. ما لا أحبُّه هو أن الوسائل التي يستعملونها قد تجعلهم يفقدون إنسانيَّتهم. ما يُرعبني هو أن تلك الوسائل تجعل التمييز بينهم وبين الفئران أمراً مستحيلاً.

- خُرْعِلات! - قال وهو يهرُّ كَتِفَيْهِ مُستهجناً، ويُنهِي ما تبَقَّى في كأسه من ماء - ما يجبُ أن يشغلَكَ هو أن البركة *baraka* ليست غير قابلة للانقطاع. لقد كنتُ محظوظاً جداً لحدود اللحظة، ولا ريب أن حظَّكَ هذا في طريقه إلى النفاذ الآن. فكِّر جيِّداً، هذا واحدٌ من أمرين جئتُ عندكَ هذه الليلة، لأُفضيَ لك به. لم يكن هذا التنبيه، هو الأوَّل من نوعه في هذا الاتِّجاه؛ يوم السبت ذاك: لوَّح لي المُفوَّض الجديدي بشيء مماثل، ويبدو أن الاثنين كانا على صواب.

- حقيقة، أشكركَ على نصيحتك، يا أرسينيو. ما هو الأمر الثاني الذي أتيتَ لتقوله لي؟

أمسك أرسينيو بطّارية هاتفه الخلوي وشريحته مجدّداً، وقبل أن يقوم بإعادتهما إلى أمكنتهما الوظيفية، قال:

- الأمر الآخر هو أنك إذا واصلتَ تحقيقاتك الهاوية، فقد تنتهي مُلحقاً الضررَ بصديقك ألبيرتو ماركينا. فموضوعه في طريقه إلى الحلّ، ولا يحتاج لأحد مثلك ليزيده تعقيداً. فرغ من إعادة تركيب هاتفه، ونهض مُتّجهاً نحو الباب، في الهيئة الوقحة لمنْ لن تطالهم أيدي العدالة، مهما فعلوا.

طُنْجَة، خريف 1956

حملت أولبيدو يدها الملفوفة في قُفَّاز إلى رأس قَبَّعتها: لقد هبَّ للتو هواء مُبَاغِتٌ، كان على وشك أن يُطِيرَ قَبَّعتها.

- عَجِبْتُ فعلاً كيف لم تنفخ أدنى هبَّة ريح - قال إيمليو ثانس دي سوتو - هل تعرفون لماذا لا وجود للكثير من البعوض في هذه المدينة؟

وأمام عدم معرفة جيني وأولبيدو بالجواب، عَرَّا إيمليو الأمر للرياح تحديداً. مُوجَّهاً لهما النصيحة التالية: إذا كان لديكما - يوماً مَّا - هذه الحشرات المزعجة بالمنزل، فعليكما بأُصْص الحَبَق كوسيلة مُثْلَى لمحاربتها. - الح -...؟

ما هذا؟ سألت جيني.

- الحَبَق، يا عزيزتي، الحَبَق.

- آه، الحَبَق، طبعاً! هي أيضاً نبتة رائعة حين تُضاف للسلطات وتُرفَقُ بالمعكرونة الإيطالية.

- هو كذلك، يا جيني. فلا قيمة لصلصة دون حَبَق. كانت قَبَّعة أولبيدو بيضاء، خاطئها لها ماريكيثا مولينا. كانت تلبسها مع بدلة قميص ذي تُورَة على هيئة جرس في لون الخُرَّامَى. وفوقها ارتدت صدرية في لون القشدة. أمَّا جورباها، فقد كانا الأكثر سُمكاً في قائمة دالامال وأولاده Dalamal

Sons &. ورغم أن اليوم كان مُشمساً والحرارة معتدلة، فلم يكن يفصلهم عن عيد الميلاد إلا أسبوع واحد.

ظهر النادل ويده طقم الشاي المغربي الذي طلبوه. أولبيدو التي لا زالت تمسك بيدها القبعة، استغلّت فترة التوقّف تلك، لتتفحص منارة رأس اسبارطيل cabo Espartel، ذات البناء الأرضي المربع والطابع الموريسكي المتراوح ما بين المئذنة والبرج الدفاعي، والمحاط بنبات الصّبار والنخيل.

لقد بُنيت المنارة من طرف الأوروبيين، في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، بإذن من السلطان المغربي. كان الهدف من بنائها هو تفادي الجنوح المزمّن للسفن في أقصى نقطة من شمال غرب أفريقيا. أولبيدو كان يُعجبها ذلك الموقع. منارة رأس سبارطيل كانت تتحدّى بأناقة، المحيط الشاسع الطاغى الرّزقة، الذي توجد في طرفه الغربي.

بعيداً، بعيداً جداً كانت هنالك الأمريكيتان. كان هذا يجعلها تحلم. شاطئ من الرمال البيضاء، كان يمتدّ من هنا خلال العشرات من الكيلومترات نحو الجنوب، باتّجاه أصيلاً. كلُّ شيء كان منفتحاً وودوداً وشاسعاً، في تلك الزاوية من العالم.

ارتجفت أولبيدو. وهي تحسّ في لحمها، بإحساسها نفسه وجيني تُقبلها وتُداعبها في قصر باربارا هوتون. أحسّت أن طنّجة في الحقيقة كانت شُرْفة فوق مُفترّق قارّات وبِحَار: أوروبا وأفريقيا، الأبيض المُتوسّط والمحيط الأطلسي.

- قرشٌ لأفكارك، قالت جيني وهي تضع كلتا يديها فوق اليد التي تركتها أولبيدو على الطاولة.

استدارت الأخيرة نحوها، نظرت إليها بعدوبة، وقالت:

- لا أفهم ما تقولين، تعرفين أنني لا أتحدث الإنكليزية.

- جيني كانت تريد معرفة ما تُفكرين فيه. قال إيمليو مترجماً.

أرخت أولبيدو القُبَّعة من يدها، لكن الهواء لم يأخذها، لقد خمدت قوّته اللحظة. وضعت يدها اليمنى فوق يديّ جيني، وقالت وهي تنظر بتركيز نحو عينيها:

- كنتُ أفكر، في أنني بدأتُ أحسُّ، وكأنني مثل هذه المدينة: لا أعرف مَنْ أنا؟

- وهذا يجعلك تُحسِّين بأنك لستِ سعيدة؟ سألتُ جيني ونَبْرَةُ قلقٍ تغمر صوتها.

- لا، على الإطلاق. بدأتُ أحسُّ أنه يمكنني أن أكون عدّة شخصيات في الآن نفسه، أو أنا نفسي، يمكنني أن أحيّا في عوالمٍ مُتعدّدة في الآن نفسه. وهذا لا يجعلني أشعر بالاستياء، فقط يخيفني بعض الشيء، أعترف بذلك، ولكن، أيضاً، يـ... كيف أُعبّر عن ذلك؟ حسناً، يُعجِبني أيضاً.

- الحقيقة، يا عزيزتي - قال إيمليو - أنتِ لستِ في حُلُم واحد، بل في عدّة أحلام. وهذه واحدة من الجمل الرائعة الموجودة في ألف ليلة وليلة. - قرأتُ ألف ليلة وليلة حينما كنتُ صغيرة، ففُتِنْتُ بها.

- لا بدّ أنها كانت نسخة خاضعة لرقابة شديدة. النسخة الكاملة حافلة بالمشاهد الساخنة. أظنُّ أنني أتوقّف بالبيت على النسخة الإسبانية لبيلاثكو إيبانييس Blasco Ibañez. سأعيرها لك.

سحبتُ أولبيدو يديها من الطاولة، لثُمسك بكأس الشاي. يدا جيني اللتان ظلّتا يَتِمَّتَيْنِ، اتّجهتا للإمساك بكأس أخرى.

- ألف ليلة وليلة - قالت جيني - عمل رائع حول عطش لا يرتوي،

يستشعره الكائن البشري في القصص، وهي أيضاً برهنة لامعة على قدرة لا تتفد لديه للقيام بإنتاجها. من عادة بول القول بأن أنجع حلّ أمام الكاتب، حين يشعر بالضعف، ويُفكر في لا جدوى ما يكتب، هو أن يقوم بتذكّر ألف ليلة وليلة.

- هذا جميل، يا جيني - قالت أولبيدو - أنا لا أتعب أبداً من سماع القصص، تلك التي يحكونها لي، وتلك التي أقرأها بالجرائد أو المجلات أو الكتب أو أراها في السينما. هل سبب هذا، أنني بقيتُ سجيناً الطفولة؟
- وما العيب في هذا؟ هل تعرفين لماذا يتحوّل البعض منّا إلى كُتّاب؟
- لا، قل لي أنتِ.

- بالضبط، لكيلا تتحوّل أبداً إلى أشخاص بالغيث.

انطلقت رحلتهم، على متن سيّارة بول بولز، جاكوار المكشوفة، من المدينة حتّى رأس سبارتيل، يقودها إيمليو على الجانب الأيمن، فيما تكدّست المرأتان على الجانب الأيسر.

كانت يدا أولبيدو مشغولتين طوال الوقت؛ اليد اليسرى تمسك القبعة بينما اليد اليمنى تُطوّق خصر جيني. كانت المرّة الأولى التي يلتقيان فيها بعد حفل باربارا هوتون. ورغم أن أولبيدو كانت قد عاهدت نفسها أن تُعبّر للكاتبة عن أقصى تباعد ممكن، فإنها قد وجدت نفسها مُتورّطة في هذه الحركة منذ اللحظة نفسها التي بدأت فيها سيّارة الجاكوار تتسلّق الطريق الرئيس للجبل القديم Monte Viejo. لقد اقترح عليها إيمليو، في اتّصال هاتفي هذا الصباح نفسه، فكرة تناول الشاي في شُرْفة مقهى رأس سبارتيل، مضيفاً أن جيني بدورها ستأتي، وأن بإمكانهم الذهاب في سيّارة بول.

- هذا يوم رائع من أيّام ديسمبر، من الأجدر الاستمتاع به خارج المدينة.

أليس كذلك؟ - قال إيمليو - بعد شرب الشاي، يمكننا النزول لأصيلاً لتتغذى السمك المشويّ. أعرف محلاً صغيراً يقدمون فيه سمكاً طرياً جداً. وافقت أولبيدو بعد لحظات تردّد على الاقتراح. قد تكون فرصة جيّدة لتوضّح الأمور بشكل جيّد مع جيني: ما حدث، حدث، ولكنه لن يتكرّر؛ الأمر كان يتعلّق برّلة وليس بنمط حياة، لكن قلبها مع ذلك كان يخفق مثل قلب فتاة، وهي تفكّر في النزهة. نعم، سوف تذهب مع إيمليو وجيني، وسوف تهاتف أوخينيا، وتقول لها إنه يتعذّر عليها الذهاب للسوق الخيري للمبيعات الذي كان سيُفتتح في اليوم نفسه بدار إسبانيا Casa de España. سوف تتذرّع بالآلام رأسها، وبكونها لم تكن في يومها. سوف تغضب أوخينيا، لكنّ هذا لن يهمّ في شيء.

أنهت جيني كأس شايبها، ثمّ سألتها:

- هل عاد زوجك من مدرّيد؟

- نعم، منذ أسبوع. لقد بدأ (والده) يتعافى من التهابه الرئوي، ولو أن الأطباء لا يستبعدون حدوث انتكاسة. قرأت في عينيّ صديقتها أنها تنتظر منها أن تضيف شيئاً، لكنها لم تفعل. لقد ربّأها أبواها على فكرة "أنك إذا أفرغت على الآخرين مشكلاتك، فتلك ذروة سوء التربية". لم تكن أولبيدو ترغب في أن تحكي لجيني وإيمليو، كيف عاد كارلوس بمزاج سيّئ، وأن ملاحظاته الساخرة منها باتت أكثر قسوة، وأنه لم يتفرّغ لها ولو ليلة واحدة، وأنه يبدو ممسوساً بحُمى الشراب، ومباريات البوكر في نهاية يوم عمله في صحيفة إسبانيا اليومية. بدا وكأن رحلته إلى مدرّيد، قد فاقمت أسوأ ما في طبعه من صفات، رغم أن أولبيدو كانت تحاول إرجاع ذلك إلى محنته مع حالة أبيه الصحيّة.

- وهل تعرفون فعلاً، كيف ستقضون الاحتفالات؟

أخرجها سؤال إيمليو من استغراقها.

- إلى حدٍّ ما - أجابت أولبيدو - عشاء ليلة عيد الميلاد، سوف نقيمه بمنزل عائلة بوغيلا. وهي آخر ليلة لهما هنا، إذ سيعودان لمَدْرِيْد في شهر يناير. بالنسبة إلى يوم عيد الميلاد، تُنظَّم صحيفة إسبانيا وليمة أخوية في فندق كوتتينطال.

فهمتُ أولبيدو من خلال النظرة الساخرة لجيني، أن هذه الأخيرة لم تجد في خُطَّتْها إثارةً ما. وبينما كانت تستعدُّ للاهتمام بما لديهما من خطط، تقدَّم إيمليو لها بسؤال آخر:

- وماذا أنتم فاعلون ليلة رأس السنة؟

- لقد اتَّفَق كارلوس مع لويس ماركينا، بأن الأسرَتَيْنِ معاً سوف تتعشَّيان وتتناولان العنْب في الكازينو.

طَنَجَة، ربيع 2002

- صباح الخير، يا سيبولبيدا. أكلُّ شيءٍ على ما يرام؟

- ليس كثيراً، رأسي يؤلمني، يا رئيسي، كما لو كنتُ مسيحاً مُتَوَجَّهاً بالأشواك.

- ما الذي حصل بالأمس؟ هل عشتَ حفلة سُكرٍ صاخبة؟ هاتفتُك ولم تُجب.

- نعم، لقد لمحتُ المكالمة الضائعة، لكن الوقت كان مُتأخراً، ولم أحبَّ إزعاجك. أمّا عن آلام رأسي، فأقسم بحقِّ ابنتي أن سببها لم يكن الشراب، أمس كان شرابي قليلاً، كما لو كنتُ حاجاً في مكّة. فقط أمور مُتعلّقة بي، مشكلات بدأت تتراكم حولي.

- هل بإمكانني مساعدتك في شيء؟ تأتي إلى منزلي إذا رغبتَ وتحدّثُ. يمكنكُ البقاء لوجبة العَداء، فلديّ أسماكُ قاروس رائعة.

- لا ضرورة لذلك، يا أليسيا، أشكرك كثيراً، هي أمور سوف تُحلُّ من تلقاء نفسها.

- كما تريد، لكن، يؤسفني أنني أكلّمك لأذكّرك بأمور العمل.

- هيا، أطلقني النار!

- هل تتذكّر أن أَجَلَ دَفْعِكَ لنصوص شكري ينتهي غداً، نقيّةً من أيّ غبارٍ أو قشٍّ؟

اللعنة! قصص شكري. عدتُ لأنسى ثانية أنه كان عليّ القيامُ بتنقيح نصف دزينة من قصص صديقي غير المنشورة، والتي كان معهد ثيرباتيس في طريقه إلى نشرها.

- حسناً فعلتِ، وأنتِ تُذكّريني بهذا الأمر، فقد نسيتُ ذلك تماماً. سأنكبُ اليوم على هذا العمل، وسيكون الأمر- في الحقيقة - مُلائماً بالنسبة إليّ، لأنه سيصرفُني عمّا أنا فيه.

- واخًا، سيولبيدا، وكما قلتُ لك، يمكنكِ إن أحببتِ المجيء للبيت للعداء معي. سيظلُّ أمامك المساء كلّهُ لكي تُنجز عمل شكري. عدتُ لأعلنَ عن امتناعي، مع تقديم الشُّكر لها على دعوتها. كنتُ أعرفُ أن أليسيا تُوجّه لي الدعوة برغبة صادقة، لكنّ، لم يكن بإمكانني أن أحكيَ لها شيئاً، ولو قليلاً، ممّا كان يُكدرني. كما لم يكن بوسعها هي الأخرى مساعدتي إطلاقاً. ودّعنا بعضنا بقبُلاتٍ عبر الهاتف.

فاجأتني مكالمة أليسيا، وقد استيقظتُ للتوّ من النوم. أخذتُ حمّاماً، حلقتُ ذقني، وارتديتُ ملابسِي، وخرجتُ للبولفار بحثاً عن فطور. استويتُ في جلستي بشُرْفَةِ مقهى باريس الكبير. كانت الحياة هنا مُستمرةً كعادتها، في غفلة عمّا يعتمل بداخلي من عواصف، بالطريقة نفسها التي كان المغاربة مُستمرون فيها بلعب - ما كان يُسمّيه بول بولز - دَوْرهم المُفضّل، ألا وهو التعاطف الكبير الذي يُحسّونه اتّجاه أنفسهم دائماً.

أنهيتُ قهوتي بالحليب مع الهَلَالِيّة، دَخَنْتُ سيجارتي الأولى، وهاتفْتُ ليلي التي لم تعلم عني شيئاً في الليلة الماضية. كانت ليلي بيت أبويها، تستعدُّ لنوبة الحراسة الثانية لنهاية الأسبوع بمركز الاتّصال. حكّت لي أن

المساء السابق كان فظيعةً، بسبب احتجاج العشرات من الزبائن المتصلين حول أمور، لا هي قادرة على حلّها، ولا هي مُخوّلة لفعل ذلك، ومع ذلك، فقد كان عليها أن تُظهر أمامهم أقصى درجات الاهتمام

واللطف والنجاعة. بصدق، كذبتُ عليها وأنا أقول لها بأن مسائي على العكس مرّ هادئاً جداً، وأني خصّصته للقراءة.

- ماذا كنتَ تقرأ؟

كان صوتها يشي بالاهتمام، وكان عليّ أن أرتجل جواباً مّا. تذكرتُ كتاباً كنتُ قد أكملتُ قراءته قبل أسابيع.

- كتابُ رحلاتٍ عبر شَمال المغرب. عنوانه "من الريف إلى جبالَة" لكاثب يُسمّى لورينثو سيلبا Lorenzo Silva. يتحدّث عن حقائق بديهية، ويقول - وهو يتأمّل مثلاً قواربَ بقرية ساحلية مغربية.

- "نحن الإسبان تحوّلنا إلى شرطة أوروبا، وأصبحنا مُكلّفين بالآ يعبر شيءٌ مّا، أو أحدٌ ما الشبكات الحدودية". مضيفاً، إنكم - أنتم الأبناء المغاريون - لا زلتم تحاولون عبورها كما يعبرها الريحُ".

- "كما يعبرها الريح" .. يُعجِبني هذا الكلام الجميل! ثمّ عن ماذا يتحدّث هذا الكتاب أيضاً؟

- هناك أمرٌ وجدتهُ مُسلّياً: يذكر سيلبا بأنه بدءاً بالغرفة alcoba التي وُلدنا فيها، وصولاً إلى التابوت ataúd الذي سنخلد فيه للراحة، تحتشد اللغة الإسبانية بكلمات تُذكر بهويّتنا المغربية المقموعة. سمعناها تضحك، وحين التقطتُ أنفاسها قالت:

- اللهجة المغربية لهذه المنطقة هي الأخرى حافلة بكلمات ذات أصولٍ إسبانية. كرة bola ثلاجة nevera مصباح bumbilla مطبخ cosina

دمية *muñica* مَفُوضِيَّة *comisaría* راية *bandira* بيرة *serbisa* سِيَّارة *tomóvil* ... نحن أندلسيون مَنفِيُّون، رغم أن الإسبان يتجاهلون ذلك.

- في حالتكِ، يا أميرة، أندلسيون امتزجوا مع أسود وسيم، أو مع سوداء فاتنة.

- ها نحن، عدنا ثانية للمغازلات.

- وأنتِ، يُعجبكِ ذلك كثيراً؟

- أجل.

بدأ السرور الذي أَحَسَّته من خلال الحديث مع ليلي يتلاشى، وأنا في طريق عودتي إلى شُقَّتِي. لقد أَكملتُ جَمْعَ قِطْعِ اللغز؛ ألبيرتو كان هو العقل المُدبِّر لعملية الحُسَيْمَةِ، ولذلك احتجزه المغاربة في طَنْجَة. عمله كمدير تنفيذيٍّ لشركة الهاتف المحمول ما كان يجب أن يتناقض مع منصبه في أعلى هَرَمٍ لجهاز المخابرات الإسبانية. وما حصل هو أن الأمر كان معكوساً تماماً. فأرسينيو نوغيرا والقنصل كانا مَرُؤوسِيهِ، وكان شخصٌ معتوه مثل أحمد السَّبْتِيٍّ أَحَدَ دُمَاهِ الْمُتَحَرِّكَةِ.

أُكيد أن ألبيرتو وأرسينيو والقنصل، كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خُدَّامُ أوفياء للوطن، مثل العديد من الألمان في الحرب العالمية الثانية الذين كانوا ينقلون اليهود إلى مراكز الاحتجاز، أو كما ينظر العديد من الأمريكيَّين إلى أنفسهم الآن، وهم يختطفون ويُعذِّبون ويعتقلون إرهابيَّين مُفترَضِينَ. لقد برهنتُ حتَّى آرندت *Hannah Arendt* على تفاهة الشرِّ قائلة: "الوحش كذلك، يُمسَّد بحنان رؤوس الأطفال، ويعابث راضياً كلبه الصغير".

وصلتُ لَشُقَّتِي وأنا مسرور بامتلاك شيء سيشغل بالي يوم ذاك الأحد. كانت الشُّقَّة في وضع غير لائق؛ السريرُ غيرُ مُرتَّبٍ والمَنَافِضُ لا

تزال مليئة، وكؤوس الماء التي تقاسمتها مع أرسينيو نوغيرا ما تزال على طاولة الطعام.

خصّصتُ وقتاً لتنظيم ذلك كله، ثمّ قمتُ للبحث عن قصص شكري المترجمة من طرف مليكة امبارك. جلستُ إلى مكتبي، وتهيأتُ لقراءتها، وببيدي قلم ماركر أحمر. فكّرتُ أن مجرد معرفتي بشكري كانت حريّة بجعلي أتقدّم لمباراة التنافس على منصب بمعهد ثيربانتيس. ذلك الرفيُّ الفقير، الأميُّ الذي جعل الفردَ يقتحم الأدب المكتوب بلغة القرآن. لم يكن يستعمل النحن المُعبّرة عن الجماعة العربية المسلمة، وإنما كان يستعمل الأنا الوقحة، الفضائحية، لقد كان رجلاً شجاعاً. أهدتني طُنجة صداقته، وأضافت لذلك حُبّ ليلي الذي لا يُقدّر بثمن. بالمقابل تركتني طُنجة بدون أب، ونزعت مني صديقاً، فهل كان عليّ أن أبصق في وجه السماء؟

بدا صعباً عليّ التركيزُ في تنقيح النصوص، واكتفيتُ بتصحيح بعض الأخطاء المطبعية هنا وهناك، دون الالتفات حقّاً إلى إمكانية تصويبها. كنتُ أشتغلُ شاردَ الذهن، لدرجةٍ أفلت مني معها، في أثناء قراءتي الأولى، معنى القصّة الثالثة. كتبتُ بالماركر الأحمر في الركن الأعلى على يمين الصفحة الأولى، عبارة: نعم، OK، وفجأة، في زاوية من زوايا مُخيّ، لمعتُ إشارة تحذير؛ توقّف، يا سيبوليدا! عدّ لقراءة القصّة بتركيز، بتركيز شديد. كانت القصّة هي هذه:

اللّاعِبُ الإسبانيُّ

لهفة الجنس والسُّكر رذائل سريعة الزوال، ما إن يتمّ إشباعها حتّى يغدو الرجلُ مُتخماً شبعان، ويبقى ولو لساعات، زاهداً في لذة الجسد أو لذة الشراب التي أغوته. كلُّ مَنْ يدير عالم الليل، سواء كان مالك حانٍ، أو سيّدة بيت دعارة، يعرف أنه في لحظةٍ ما في أثناء الليل، يمرُّ الزبون نظرتَه عبر المحلّ الذي كان سعيداً فيه قبل دقائق، وتستولي عليه

رغبة مُفاجئة للعودة إلى بيته. الكحول يُحرِّك الأمعاء، والعاشرات يَشخِن، مع انسلال خيوط الشمس عبر الستائر. لكن، هناك حماقةٌ تخلط بين الليل وجوِّ براءته، وشجار قفازٍ أبيض، ومشاحنة رجال. رجالٌ مُتبجِّحون بالفضيلة - في غفلة من خطرٍ عنفهم المُمَوِّه، المُحرِّض على السخرية والحقْد والانتقام - قدَّموا خبز عائلتهم هديةً، وباعوا بناتهم فوق طاولة اللَّعِب. اللَّعِبُ اللَّفْظِيُّ الطفوليُّ ليس ناعماً كمومِس قذرة، ولا تفوح منه رائحة المرارة ككحول مُقَطَّر.

هذا اللَّعِب يبدأ في فندقٍ رفيع به نادٍ للقمار، في ليلة، هي الأخيرة في السنة، والأولى في السنة الأخرى، بعد تناول العشاء والتَّهام حَبَّات العنب، في سهرةٍ تصل الدُّرُوة، حيث يتواعد السادة فيها على أن يكون سلوكهم مثالياً، وأن لا يطيلوا أمدَّها كثيراً، في منتصف المسافة، كانت الزوجات، بعضهنَّ مُتعجرفات والأخريات غاضبات، والأخريات مُستاءات، يُراقبن التسلية - التافهة كما يَصِفُنها - لأزواجهنَّ، بينما يمنح الحظُّ لكلِّ محارب خمس بطاقات يستعين بها في معركته. شيئاً فشيئاً، تبدأ لعبة البوكر في خداعك. بعد توليفة ألوان ظننتها ربحاً مضموناً، يأتي تعليق ساخرٌ ممَّن كنتَ قبل لحظاتٍ تعتبره صديقاً، وبحورته أوراق رابحة، ليضرم نار الحنق والكره في أحشائك. لكنك تُحسُّ بإحساس جيّد: قرصه الحنق والكره تُعش الدَّورة الدموية، وتُمَدِّد الشرايين، وتُعيد للقلب نشاطه. إن لحظتك قادمة!

ما بين الثَّأب ونظرات العتاب راحت النِّسوة يُغادرن المكان، وراح السائقون يحملنهنَّ إلى بيوتهنَّ. زوجتك لا سائق لديها، فليس لها من حلٍّ غير انتظارك. أصبحت - في ظلِّ عنادك - تشكُّ بوجود فخاخ، فيما لا يعدو أن يكون مجرد حظٍّ أو مهارة يتمتَّع بها صديقك الذي تحوَّل إلى خصمك الرئيس، ولن يتأخَّر في التحوُّل إلى خصمك الوحيد. الآخرون يغادرون، إنها

اليَدُ باليد، مصارعةُ الثيران، ولا وجود لشيءٍ غير المبارزة بينكما. وحين تتحوَّل إهانتُكَ إلى جنون، تأتي فجأة، تلك اليد التي تحلم بها، يد بوكر الملوك، عُربون النصر الذي لا يُخطئ. وإزاء الابتسامة الساخرة للرجل - الدودة، الذي تناول عشاءه لمرات عديدة في بيتك، تبدأ المراهنة تنمو. وحين تُقدِّم الشيء الوحيد الذي تعلم - علم اليقين - أنه يحسُّدك عليه؛ هو ينام لياليه يومياً بمحاذاة إسبانيا الكاثوليكية، القبيحة والعاطفية، التي كان باي إنكلان Valle-Inclán يسخر منها، تحسُّ أنك وصلت إلى القمة الحقيقية، التي لا تستطيع منحك إيَّاهَا الليلة الأكثر فجوراً، ولو في أكثر بيوت الدعارة عتمةً، وأكثرها سُقياً بمئات زجاجات الشامبان.

في صباح اليوم التالي، وفي هذه المدينة الخِلاسيَّة المتسامحة، التي ارتفعت في سمائها شمس جديدة وعام جديد، تستيقظ وحيداً، دون أن تكون بجانبك امرأة مجهولة، تتهمها بتأثيرات سحرية مُسببة للدُّوار. في تلك اللحظة، حيث كان عذابُ الضمير وحده الشاهد الوحيد، تذكَّرت على نحو غائم تلك السَّكرة، وتلك اللحظة التي بدا لك فيها - بيقينٍ جنونيٍّ - أن كلَّ ما هو موجود بالعالم يستحقُّ أن تتمَّ المراهنة عليه، وعلى نحوٍ أكثر قتامة، في لحظة الهزيمة، حين قلبَ ابن العاهرة - دون أن تفارقه ابتسامته - أوراقه، واستعرض سلسلةً لونيةً؛ خمسَ ورقاتٍ من النوع نفسه، مع أرقامها ذات الصِّلة. اللحظة التي صرتَ فيها على وعيٍ بما فعلتَ، حين قمتَ بكلِّ بلادة بإهداء زوجتك على طاولة لعبٍ، وقدَّمتَ لخصمك المفاتن، التي كنتَ وحدك مُستمِعاً بها. أنتَ الذي كنتَ محظوظاً كونك تزوجتَ المرأة التي لم يكن لها في طُنْجَة قطُّ مثيلٍ في الحُسن والجمال.

وجدتُ الأسدَ العجوزَ بفندقِ ريثز.

- لديّ الكثير ممّا أحكيه لك، يا أخي - قلتُ وأنا أجلس معه على الطاولة - لكنني لم آت من أجل هذا. لقد أتيتُ لأنه بدا لي للتوّ، أنكَ حكيتَ عن شيءٍ مُهمٍّ جدًّا.

- عن طريق التخابر؟

- تقريباً، هو شيءٌ موجود بإحدى القصص التي أعطيتني إيّاها من أجل كتاب ثيرياتيس. أنا بصدد تنقيحها اليوم، يتعلّق الأمر بقصة وقعت لإسباني بملهى القمار، حيث راهن في ليلة من ليالي رأس السنة بزوجته في لعبة البوكر.

نظر إليّ نظراتٍ حادّة، مُبرزاً تقويسة حاجبيه ولمعان عينيه الصغيرتين المُشَقَّقَتَيْنِ والمليئَتَيْنِ حزناً كما هي حاله في مرّات عديدة.

- أتذكّر القصة، يا رجل، هي واحدة من تلك القصص التي وجدتها بمنزلي. لا بدّ أنني كتبتها في بداياتي الأولى. كيف وجدتها؟ هل هي رديئة جدًّا؟

- لا أبداً، فقط تساءلتُ كيف خطرت على ذهنك هذه القصة؟

قدّمتُ له علبة مارلبورو. سحب واحدة، وأعادها لي، ثمّ أشعل بقداحة بلاستيكية سيجارته، والسيجارة التي وضعتها للتوّ في شفتي.

- لا أتذكّر أنني عشتُ القصّة، ففي تلك الفترة لم يكونوا يسمحون لي حتّى بالدخول للكاзино. لا شكّ أنها كانت شائعة سمعُها بالسوق الداخل - رفع شكري رأسه باحثاً عن النادل وسألني - هل أكلت؟

- لا، أنا عملياً صائمٌ منذ ليلة الجُمعة. هل نطلب شيئاً؟

صاح بالعربية، فلم يتأخّر النادل في الظهور، طلبنا منه طاجين من لحم خروفٍ وزجاجة ميدايون. كانت الخلفية الموسيقية لفندق ريتز، أغاني الحال، لمجموعة ناس الغيوان المغربية. استأنف الحديث سائلاً عن مُستجدّات " قضية ألبيرتو " فأخبرته بأن حلّ الموضوع وشيكٌ.

- يبدو لي الأمر صراعاً ما بين أجهزة المخابرات المغربية والإسبانية أكثر منه صراعاً بين شركتَيْن للمهاطف المحمول، الواحدة إسبانية والأخرى فرنسية. أوهناك احتمالٌ وجود الأمرين معاً بشكلٍ مُوازٍ، غير أن الأوّل يُخلّق فوق الثاني، والموضوع في الأحوال كلّها مُنطوٍ على الكثير من التّثانة.

- يا للعة، هو تَتَبٌ جدّاً! وما دَوْرُ صديقك في هذا كلّهُ؟

نظرتُ من حولي. لم يكن هناك أحد، ومع ذلك قلتُ بصوتٍ خفيض:

- دَوْرُ البطولة، يا أخي؛ هو زعيم المعسكر الإسباني.

- كان طبيعياً أن يكون الأمر على هذا النحو، ما داموا قد جَسَّموا أنفسهم عناء احتجاجه في طُنْجَة. الشرطة ومديرية مراقبة التراب الوطني حريصون على عدم إهدار طاقتهم.

- انظر، هنا لا أحد يهدر طاقته - أطفأ سيجارته في مِنْفَضَة خزفية تشبه بَصَلَةً، وأردف سائلاً:

- وماذا عن موضوع الأستاذ؟ هل فيه جديد؟

- لا جديد في الموضوع، لا بدَّ أن المَفْوُضُ بوعلي ماضٍ في البحث عن مثلي حليقي. أخاف أن تكون قائمة مُتَّهَمِيهِ طويلة جداً.

- ولو كان الأمر كذلك، أتمنى أن يكون ميمي قد حَلَقَ تلك اللحية الصغيرة. كان يبدو، حين رأيناه، شبيهاً بقناع توت عنخ آمون، لكنه كان قناع جِصٍّ لا قناع ذَهَبٍ.

سحقتُ سيجارتي في المِنْفَضَةِ، وقلتُ:

- وقصَّتْكَ، عَمَّنْ كانت تتحدَّثُ قصَّتْكَ؟

- عَمَّنْ سوف تتحدَّثُ؟ طبعاً عن الذين يظهرون فيها، عن شخصياتها.

- وشخصياتك - كما فهمتُ - مُستوحاة من شائعة كانت تُتداول بالسوق الداخل، لكن، أليست مُصادفة غريبة، أن تُسمِّي شخصية المرأة التي انتهى زوجها مُراهناً بها في مباراة بوكر، في قصَّتْكَ كما سمَّيتُ أمِّي دائماً: أجمل امرأة عاشت في طُنْجَة على الإطلاق؟

- لعلَّ تلك كانت فُلْتَة لسان، يا سيبولبيدا، أو تصريحاً أدبياً.

- دَعْ عنكَ المزاح، لقد كانت هي. أولبيدو.

- انظر، كلُّ واحد يقرأ ما يبدو له.

- أَسْمَعَتَ الْحَدِيثَ عَنْ عَيْشَةٍ قَنْدِيْشَةٍ؟

نَظَرَ الْبِيرْتُو إِلَيَّ بِتَرْقُبٍ سَاخِرٍ عَبْرَ عَيْنَيْهِ الْخَضِرَاوَيْنِ.

- لا، هَذَا الْاسْمُ لَا يَعْنِي لِي شَيْئاً.

- إِنَّهَا أَسْطُورَةٌ شَعْبِيَّةٌ جَدًّا، فِي طَنْجَةِ وَالْمَغْرِبِ كُلِّهِ. تَتَكَلَّمُ عَنْ امْرَأَةٍ فَاتِنَةِ الْجَمَالِ، مِنْ سُوءِ حَظِّهَا أَنْ قَدَمَيْهَا كَانَتَا قَوَائِمَ عِزَّةٍ. مَخْلُوقٌ شَيْطَانِيٌّ يَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ بِاللَّيْلِ بَحْثًا عَنْ عَاشِقَيْنِ، وَتُحَوَّلُ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ الْخَطَأَ الْحَتْمِيَّ بِالنَّظَرِ إِلَى أَقْدَامِهَا، إِلَى مَجَانِينِ.

- إِذَا لَمْ يَخْرُجْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ لَيْلًا، وَلَمْ يُحَسُّوا بِانْجِدَابٍ نَحْوِ الْفَاتِنَةِ الْمَجْهُولَةِ، وَلَمْ يَخْصُوهَا بِمَرَاجَعَةٍ بَصْرِيَّةٍ كَامِلَةٍ، فَلَنْ يَفْقِدُوا عَقُولَهُمْ. الْفُضُولُ يَمِيتُ الْقَطْ، هَذِهِ هِيَ الْعِبْرَةُ الَّتِي أَسْتَخْلَصُهَا مِنَ الْقِصَّةِ.

- هَذِهِ فَعْلًا قَدْ تَكُونُ وَاحِدَةً، صَحِيحٌ، لَكِنْ، وَلَوْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ يَقْتَرِبُوا مِنْهَا، سَوْفَ تَظَلُّ عَيْشَةُ قَنْدِيْشَةٍ مُسْتَمِرَّةً فِي الْوُجُودِ.

شَرَبْنَا الشَّايَ، وَتَطَلَّعْتُ أَنْظَارَنَا نَحْوَ الْأُفُقِ. كَانَ مَضِيقُ جَبَلٍ طَارِقٌ يَمْتَدُّ أَمَامَنَا كَنَهْرٍ وَاسِعٍ، تَعْبِرُهُ نَاقِلَاتُ النَفْطِ وَسُفُنُ الشَّحْنِ وَالْعَبَّارَاتُ وَسُفُنُ الصَّيْدِ وَالْبِضَائِعِ وَالْأَوْهَامِ. نَهْرٌ يَفْصِلُ أَفْرِيْقِيَا - الَّتِي كُنَّا فَوْقَ تَرَابِهَا - عَنْ أُوْرُوبَا الَّتِي تَلُوحُ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ. بَدَأَتِ الشَّمْسُ تَغِيبُ جِهَةَ الْغَرْبِ، وَبَدَأَ شَعَائُهَا الْمُتَضَائِلُ يَصْبِغُ بِلَمَعَانِهِ مِيَاهَهَا الْخَضِرَاءَ وَالزَّرْقَاءَ.

- سأرحل غداً في أوّل طائرة إلى مدرّيد. أنت أوّل من اتّصلت به لإخباره بإطلاق سراحي. أريد أن تعرف ذلك، أمّا روسيو Rocío ورؤسائي، فقد اتّصلت بهم فيما بعد.

- أشكرك، يا ألبيرتو. أنا بدوري أحبُّ أن تعلم، أني لم أشكّ ولو للحظة في صداقتك. أعلم أنك قمتَ بحمايتي في مواجهة طرف ثالث كان، ربّما، يريد أن يكيل لي بضْع صفعاتٍ، لكن هذا لا يعني أنك لستَ ابن عاهرة!

- لا تتجاوز حدودك، يا سيبوليدا، لقد قمتُ بما كان يجب عليّ القيام به. لا بدّ أن يتفرّغ أحدٌ ما، لموضوع ضمان أن يذهب الإسبان في أمان إلى الملاهي الليلية، مثل ابنتك خوليا، مثلاً.

- هذا ادّعاء رخيص وكثير الابتذال، أنتَ تعلم ذلك. ومن خلاله تستعملون طُرُقاً خبيثة، تزيد من تعزيز مُبررات ذلك الأحمق، الذي يريد أن يُفجّر الملهى الليلي. أنتم تخيفونني، أنتم، في الوقت ذاته، رجال إطفاء ومُشعلو حرائق.

- أعرف وأفهم وساوسك، أنتَ تعرف ذلك. ولكن الأمر يتعلّق بحربٍ، يا سيبوليدا، ويجب الانتصار فيها بأيّ ثمن.

عَبْر سلالم مقهى الحاقّة، كان ينزل نادل بقبّعة مُطرّرة، وقميص أبيض وسروال قراصنة لونه بُنيّ. كان يحمل كؤوس الشاي فوق حامل معدنيّ صُمّم لذلك الغرض. أشرتُ له بحركة من يدي كي يقترب، ففعل، ثمّ طلبتُ منه أن يأتي لنا بجولة أخرى من الشاي المنعّع.

- قبل ساعة من اتّصالك بي، أخبرني رئيسي أليسيا بالخبر الأهمّ ليوم هذا الاثنين. خبر ظلّت محطات الراديو والتلفاز تردّه لمدّة يومين أو ثلاثة؛ لقد تمّ القبض على مجموعة جهادية كانت تستعدُّ للقيام بهجوم بواسطة مُتفجّرات في مدينة الدار البيضاء. أفراد محلّيون يقودهم فاعلٌ يُسمّونه

الأمير الأحمر. كانت أليسيا مرعوبة وهي تتحدّث، فالشخص المذكور كان يَقطن قريباً من ثيربانتيس، بشارع المهاتما غاندي، ويتردّد على مقهى إنترنت بالحَيِّ، وكان يذهب للصلاة خمس مرّات في اليوم بالمسجد الكويتي. وقد سَمّوا الأمير بهذا الاسم، ليس لأنه كان يسارياً، لم يكن الأمر كذلك بتاتاً، بل لأنه كان أحمر الشَّعر.

- نعم، سمعتُ بهذا.

- قالت لي أليسيا إنه، حسب الأخبار، فأغلب مُكوّنات المجموعة، هم من سَبَنَة وَتِطَوّان وَطَنْجَة، معظمهم ذوو سوابق في تجارة الحشيش. على فكرة، هل تُحبُّ أن نُدخّن غليون كَيْفٍ، كما فعلنا منذ ثلاثة أسابيع قبل الآن؟ أنتَ تعرف أننا هنا، يمكن أن نحصل على ذلك بسهولة.

- الآن لا، يا سيولبيدا، الآن أريد أن أستمع إليك، وحواسي في يقظة كاملة، هل اتَّفَقنا؟

- كما تريد. لم تقل لي أليسيا بأن الأخبار قد أشارت إلى أن تفكيك هذه المجموعة تمّ بفضل وشاية من رُعاة هذه المجموعة نفسها، لكن، لديّ - يا ألبيرتو - شكوك حول هذا الأمر. كان من الضروري في الدقائق الأخيرة، إجهاض الإنزال البرِّي - البحريّ الجديد بالحُسيمة، وبالمقابل إطلاق سراح قائده.

- لقد حكى لي أرسينيو أنك مُولعٌ بتأليف النظريات الغربية. هو يُرجع ذلك إلى مبالغتك في تدخين التَبَّة، لكنني قلتُ له إن لذلك علاقةً، بالأحرى، بقراءتك، وبتذكركَ لِمَا وقع لدون كيخوطي.

- نعم، يجوز أني أقرأ بكثرة. الآن تحديداً وجدّتي أذكّرُ مشهداً لباتريسيا هايسميث تجري أحداثه هنا بالتحديد، في مقهى الحافّة. هل قرأت "ريلاي في خطر"؟

- أَعْتَرَفَ لَكَ أَنِّي لَمْ أَقْرَأْهُ، وَلَمْ أَقْرَأْ شَيْئاً لِهَذِهِ السَّيِّدَةِ.

- قَوَّتْ عَلَى نَفْسِكَ مَتْعَةً قَرَأْتَهَا، يَا أَلْبِيرْتُو، سَوْفَ أَقْدِمُ لَكَ مُلَخَّصاً لها. فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ، فِي السَّابِعَةِ وَالرَّبْعِ مِنْ مَسَاءِ صَيْفِيٍّ، يَنْهَالُ الْبَطْلُ طُومَ رَيْبَلَايَ عَلَى الْفُضُولِيِّ دَافِيدَ بَرِيْتَشَارَ David Pritchard بِالضَرْبِ الْمُبْرَحِ، وَيَتْرَكُهُ مُغْمَى عَلَيْهِ، وَمَطْرُوحاً فَوْقَ حَصِيرَةِ حُلْفَاءِ.

- طَيِّبٌ، وَلِمَاذَا تَتَذَكَّرُ هَذَا؟

- لِأَنَّ هَذَا بِالضَّبْطِ، مَا يَحْلُو لِي أَنْ أَفْعَلَهُ مَعَكَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ.

- يَا لِلْحِمَاقَةِ! - بَدَأَ صَوْتُهُ مَوْجِعاً - بَتُّ فِي الْأَسَابِيعِ الْأَخِيرَةِ أَكْتَشَفَ سِيُولِيدَا جَدِيداً. لَمْ أَتَصَوَّرْكَ أَبَداً رَجُلًا حَرَكِيًّا.

- لَمْ يَفْتِ الْأَوَانُ بَعْدُ لِلْبَدْءِ مِنْ جَدِيدٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَذَا مَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ الْأَمْرِيكِيُّونَ الَّذِينَ تُحَاوِلُ - أَنْتَ، وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِكَ - تَقْلِيدَهُمْ.

- شَاكِلَتِي؟! لَا ضَرُورَةَ لَكِي تَكُونُ عِدْوَانِيًّا طَوَالَ الْوَقْتِ. أَنَا أَتَيْتُ هُنَا عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ، لِأَعَانِقَكَ عَنَاقًا حَارًّا، وَأَقُولُ لَكَ، بِأَنَّكَ أَوْقَعْتَ نَفْسَكَ فِي هَذَا الْهَرَاءِ، لِأَنَّكَ صَدِيقٌ، وَأَفْضَلُ صَدِيقٍ لِي عَلَى الْإِطْلَاقِ.

أَطَبَقَ عَلَى الْمَكَانِ صَمْتٌ حَزِينٌ. بَحِثْتُ عَنِ النَّادِلِ صَاحِبِ الْقَبْعَةِ الْمُطَرَّزَةِ، وَسُرَّوَالِ الْقَرَّاصِنَةِ، لَكِي أَذْكُرَهُ بِطَلَبِيَّتِي، لَكِنِّي لَمْ أَعْثُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ. كَانَ بَاعُهُ الْفُولَ السُّودَانِيَّ وَالْكَعْكَ هُمْ أَيْضاً يَطُوفُونَ عِبرَ السُّلَّمِ الرَّئِيسِ لِتِلْكَ الشُّرُفَاتِ الْمُتَدَرِّجَةِ، مُحَاوِلِينَ لِفَتْ انْتِبَاهِ جُلَسَاءِ الْمَقْهَى. الْكَثِيرُ مِنَ الشَّبَّانِ، فَضْلاً عَنْ شَابَّةٍ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ وَيَلْعَبُونَ لَعِبَةَ الْبَارَشِيزِ، أَوْ يُدَخِّنُونَ لِفَائِفِ الْحَشِيشِشِ. نَفْخَةُ رِيحٍ خَفِيفَةٍ نَجَحَتْ فِي هَزِّ قَمَّةِ نَخْلَةٍ، لَكِنِّهَا كَانَتْ عَاجِزَةً أَمَامَ نَبَاتَاتِ الْمَسْكِ وَالصَّبَّارِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْأَرْضِ الصَّلْبَةِ. تَعْنِي الْحَاقَّةُ بِالْعَرَبِيَّةِ، مِنْحَدِراً صَخْرِيًّا. وَالْمَقْهَى الَّتِي يَحْمِلُ هَذَا الْاسْمَ افْتُتِحَ سَنَةَ 1921، وَكَانَ مُعَلَّقاً عَلَى قَمَّةِ مَمَرٍ جَبَلِيٍّ مُطَّلٍ عَلَى

المضيق. كُلُّ مَنْ كَانَ يَزُورُ هَذَا الْمَكَانَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كَانَ يَعْيِيهِ الْبَحْثُ عَنْهُ، وَيُفَكِّرُ فِي الْأَيْسَرِ بَعْدَ أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ قَدْ صَعِدَ مَرْشَانِ وَضَاعَ وَسْطَ أَرْقَةٍ، يَتَخَوَّفُ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ فِيهَا عَرَبِيٌّ يَرْتَدِي جَلْبَابًا وَسَخًا، وَيَمْسِكُ بِيَدِهِ خَنْجَرًا مِتْلَأًا. لَكِنْ الْعَرَبِيُّ لَا يَظْهَرُ أَبَدًا، وَالزَّائِرُ يَنْتَهِي دَائِمًا بِالْوَصُولِ إِلَى بَابِ حَدِيدِيٍّ مَدْهُونٍ بِالْأَزْرَقِ، يَنْفَتِحُ وَسْطَ سَوْرِ مَصْبُوعٍ بِالْجِيزِ، وَمِنْهُ يَنْطَلِقُ الْمَقْهَى مُنْدَلِقًا عَلَى الْجُرْفِ الصَّخْرِيِّ فِي شَكْلِ مُدْرَجَاتٍ. كَانَ مَكَانًا مَغْرِبِيًّا مَشْهُورًا بِشَعْبِيَّتِهِ، مَعْرُوفًا بِزِيَارَتِهِ مِنْ طَرَفِ الْكُتَّابِ وَالْبُوهِيْمِيِّينَ فِي الْفَتْرَةِ الذَّهَبِيَّةِ، وَالسِّيَّاحِ فِي الْفَتْرَةِ الْحَالِيَةِ. كَانَتِ الشُّرَفَاتُ تُغَطِّيْهَا دَوَالِي الْعِنَبِ، وَكَانَتِ الطَّوَلَاتُ مِنْ خَشَبٍ مَتَهَالِكٍ، وَكَانَتِ الْمَقَاعِدُ كِرَاسٍ مَعْدِنِيَّةٍ صَدْنَةُ أَوْ بِلَاسْتِيكِيَّةٍ مَتَهَالِكَةٍ.

كَانَ أَيْضًا مَكَانًا سَاحِرًا، فَسَوَاحِلُ قَادِيشَ كَانَتِ هُنَاكَ أَمَامَكَ، عَلَى مَسَافَةِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ كِيلُومِتْرًا وَعَلَى مَرْمَى بَصْرِكَ. كَانَ شَكْلُهَا يَبْدُو نَهَارًا، كَمَا لَوْ كَانَ رَسْمًا خَطَّهُ مَسَاحٌ مُخْتَصٌّ. كَانَتِ أَضْوَاؤُهَا جَذَابَةً لَيْلًا، كَمَا لَوْ أَنَّهَا أَضْوَاءُ كَرْنِفَالٍ صَيْفِيٍّ.

كَانَ الْأَبْيَضُ الْمُتَوَسِّطُ عَلَى الْيَمِينِ وَالْمَحِيطُ الْأَطْلَسِيُّ عَلَى الْيَسَارِ، وَكَانَ هُنَاكَ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَهُمَا مُمْكِنٌ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ أَكْثَرُ زُرْقَةً بَيْنَمَا الثَّانِي يَغْلِبُ عَلَيْهِ اللَّوْنُ الْأَخْضَرُ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، فَلَمْ أَصِلْ أَبَدًا إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا بِوُضُوحٍ.

لَمْ تَكُنِ الْحَاقَّةُ تَقَعُ فِي الْحُدُودِ مَا بَيْنَ أَفْرِيقِيَا وَأُورُوبَا، بَيْنَ الْمُتَوَسِّطِ وَالْأَطْلَسِيِّ، وَلَكِنْ، كَانَتِ تَقَعُ فِي الْحُدُودِ مَا بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالرَّغْبَةِ، وَالْفَنَاءِ وَالْخُلُودِ، وَالْيَقِظَةِ وَالْحُلْمِ. لَمْ تَكُنِ الْحَاقَّةُ مَعْرِفَةً عَصِيَّةَ الْمَنَالِ، حَسْبُكَ غُلِيُونُ كَيْفٍ.

أَتَى النَّادِلُ بِالْجَوْلَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الشَّايِ الْمُنْعَنَعِ. تَرَكَ الْكُوُّوسَ فَوْقَ الطَّوَلَةِ، وَطَالَبَ بِالثَّمَنِ. سَحَبْتُ مِنْ حَافِظَتِي وَرَقَةً نَقْدِيَّةً مِنْ فِئَةِ عَشْرِينَ

درهماً، أعطيتها إياه، فسُرَّ حين طلبتُ منه أن يحتفظ بالباقي. استدرتُ نحو ألبيرتو، فاستدار بدوره نحوي. تقاطعتُ نظرتانا، لكن نظرة عينيه الخضراوين كانت خالية من الضوء.

- اكتشاف يليه اكتشاف. سوف أعترف لك، يا ألبيرتو، بأنه لم يكن بوسعي تصوُّرك وأنت تعيش حياتين، في الآن نفسه. كنتُ أعتقد أنك بربحك المال الكثير وإغوائك للنساء الجميلات قد وصلت إلى حدِّ الاكتفاء، وربما أكثر. لم أتصوَّر أبداً أنك - إضافة إلى هذا - كنتَ تريد تشكيل العالم، ولعب دور الإله.

- جميعاً، نريد أن نُشكِّل العالم، يا سيولبيدا. الفرق بيننا، هو أن البعض ينكبُّ على العمل، فيما يكتفي البعض الآخر بإلقاء المواعظ، هكذا، بكلِّ بساطة.

- يمكن أن تكون على صواب، ولكن، انظر، لقد قلتُها لأرسينيو في المرة الأخيرة التي التقينا فيها؛ لا تُعجبني أساليبكم، وأنتم تقومون بصبِّ البنزين فوق النار. كما لا تُعجبني غاياتكم وأنتم تقومون ببناء جدار عبر المضيق. أنتم تناصرون فكرة أن تظلَّ تجارتكم تنتقل بكلِّ حرِّية في الأمكنة كلها، وكأن ذلك هو أقدس ما في الوجود منذ ألواح شريعة موسى، لكنكم ترفعون أعتى الحواجز وأكثرها مناعة حول عالمكم السعيد، لقد انكشفت نواياكم بشكل واضح.

- تعرفني، يا سيولبيدا، لستُ غيباً كما يمكن أن تتصوَّر. أشخاص مثل أرسينيو، قد لا يرون ذلك، لكنني شخصياً واع بأن لدينا تناقضاً هنا، ولو مؤقَّت، صدَّقني. نحن وأنت، لدينا هدف واحد؛ الحرِّية للجميع، لكن هذا الأمر مستحيل الآن. هذا عالم مُتوحَّش، ويجب أن ندافع عن أنفسنا ضدَّ مَنْ يريد بنا سوءاً.

- وليسقط مَنْ يسقط، أليس كذلك؟ سواءَ القِيمُ التي تَدْعون الدفاع عنها، أو حتَّى هذه الكائنات التي من لَحْمٍ وَعَظْمٍ، أو ما تُسمُّونه "أضراراً جانبيةً".

- الأصعب على التحمُّل هي الأضرار الجانبية، أقسم لك، لست الوحيد الذي يُؤلمه رؤيةُ طفل ميت، لكنني أُكرِّر، ما هو البديل؟! هل نجلس مُتفرِّجين وهم يقتلون آباءنا وإخوتنا وأبناءنا عند ذهابهم إلى السوق؟!!

- ولتجنَّب ذلك، من الأفضل التصفية الوقائية، لآباء المغاربة وإخوتهم وأبنائهم (موروس). هيّا، يا ألبيرتو، لا تُفكِّر بعقلية رجلِ نفطٍ من تكساس، وتقبَّل أنك ابنُ عاهرة.

نهض ونظر إلى ساعته من نوع بانيراي Panerai.

- أنتَ جدُّ مُتحمِّس، يا سيبوليدا، لا يمكن الحديث معكَ - قالها بصوت حزين - سوف نترك الموضوع هنا، وفي المرَّة القادمة نُسوِّي الأمرَ عندما نلتقي. ليست هذه هي المرَّة الأولى التي نتخاصم فيها ونعود للتصالح، نفعل هذا منذ كُنَّا أطفالاً.

- لا، يا ألبيرتو، هذه المرَّة ستكون الأخيرة، إنه الوداع.

وقف على رجليه، بينما بقيتُ أنا جالساً. مدَّ يده ليُصافحني، لكنني لم أُصافحه، ثمَّ استدار ومضى عبر ممرِّ الشُرْفة نحو سلاالم المقهى، وراح يصعدها دون توقُّف ودون أن أُنادي عليه.

هناك كان يمضي أفضل صديق لديّ، هناك كان يمضي ذاك الذي ربَّما كان أخي، ذاك الذي كلُّ شيء يقول لي - بعد قراءتي لقصة شكري - إن لنا أباً مشتركاً، أباً كان أفضل لاعب بوكِر، في مباراة بملهى القمار ليلة رأس السنة. ألبيرتو وأنا، لم نغادر أبداً طُنْجَة، ولكن، تغيَّبتنا عنها فقط.

نوع من الإحساس الغريزي جعلني أنظر إلى كأس الشاي. كانت هناك
نحلة تخفق بجناحيها وتدور حول نفسها.

لقد حلَّ الصيف. كانت الشمس تُعَجِّلُ بسفرها نحو أمريكا، وكان
هناك زورقٌ أزرقٌ صغير يعود إلى مرسى طُنْجَة، بعد يوم من الصيد. كان
الزورق ينزلق بمرح فوق بحر هادئ ملوّنٍ بانعكاساتٍ وردية وبنفسجية لامعة.
صيدهُ سوف يُباع غداً بسوق السمك المحيط بالمدينة القديمة. تابع الزورق
المسير بعد أن أشعل أضواءه، وفوق صوت حركة الأمواج، وأحاديث الناس
وقرقعة نَرْدِ البارشيز ونعيق النوارس علا صوت المؤذّن.

دُرْتُ برأسي يمينا، بمقدار مئة وثمانين درجة تقريباً، لأرى ألبيرتو وهو
يَعْبُرُ الجزء الأخير من السلاالم. بدا لي أنه يفعل ذلك ببطء. أحسستُ
بالرغبة في أن أُنَادِيَ عليه، وأطلبَ منه العودة.

عكَّرنينُ نوكيا الصاخب تناغم أجواءِ الحاقّة. سحبتُ الهاتف من جيب
السروال، ونظرتُ إلى شاشته، ثمَّ رفعتُهُ إلى أُذُنِي. لقد كانت ليلي على
الخطّ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

تنبيه

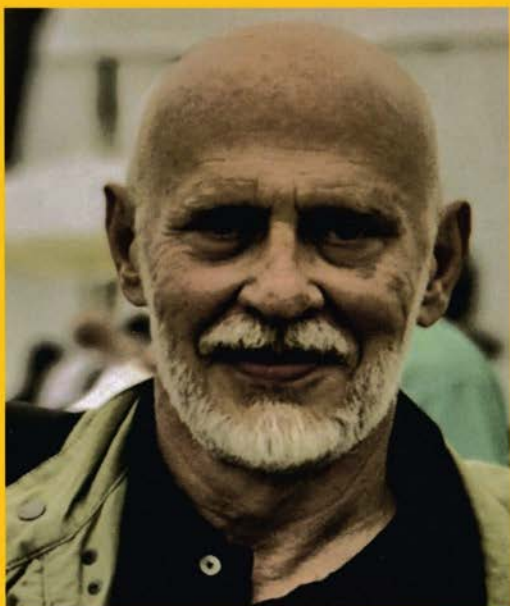
يجب عدم استعمال الأحداث المروية هنا لتعزيز بعض النظريات التآمرية التي تم نشرها في السنوات الأخيرة في أوساط أجهزة المخابرات. لا يوجد أدنى دليل، على أنه مع بداية الألفية الثالثة قامت المصالح الاستخباراتية الإسبانية برعاية مجموعة جهادية في المغرب، من أجل زعزعة استقرار هذا البلد وإضعاف سلطاته. كما لا يوجد إثبات كذلك، حول كون احتلال جزيرة المَعْدْنُوس في يوليو 2002، جاء كرد فعل من الرِّباط على عملية الحُسَيْمَة.

أخيراً، لا يمكن أن تُعرى هجمات 11 مارس 2004 بمَدْرِيد، لانتقام جهاديين مغاربة بسبب التهمة التي وُجِّهَتْ لزملائهم من طرف أجهزة المخابرات الإسبانية، وهي تقوم بإنهاء عملية الحُسَيْمَة.

باستثناء طُنْجَة، تبقى الوقائع التاريخية وبعض الشخصيات في هذا العمل محض تخيل.

مكتبة

t.me/soramnqraa



خابيير بالينثويلا: صحفي وكاتب من مواليد غرناطة سنة 1954، اشتغل لمدة ثلاثين عاماً في جريدة الباييس اليومية وكان نائباً لمديرها بمدريد، ومراسلاً لها في بيروت والرباط وباريس وواشنطن). تقلد ما بين عامي 2004 و2006 منصب المدير العام للإعلام الدولي لدى رئاسة الحكومة الاسبانية. في عام 2013 أسس المجلة الفصلية (الجُر-التنجا) tintaLibre ثم مدونة أخبار الجرائم Crónica Negra.

له أربعة عشر كتاباً ضمنها أربع روايات في جنس الرواية السوداء، تدور أحداث ثلاثة منها في مدينة طنجة وهي: طنجرينا 2015، وليمون أسود 2017، وعلى الموت أن ينتظر 2022.

«طنجة» مدينة تقع على تقاطع بحار وقارات، ولذلك فهي تقاطع أعراق وثقافات وعادات وأمزجة، غنية على نحو يجعلها منفردة لا شبيه لها بين المدن في كل الأزمان: في الزمن الاستعماري وفي الزمن الراهن.

تجري أحداث هذه الرواية في مدينة «طنجة» برواية الشخصية الرئيسة «سيبوليدا»: مُدرّس اللغة الإسبانية في معهد سرفانتس، بزمنين متباعدين: سنة 1956 وهو تاريخ استقلال المدينة، حيث تظهر حركة الإنسان الفارّين من الحكم الدكتاتوري في بلدهم إلى طنجة، وقلقهم على مصيرهم بعد الاستقلال. وسنة 2002 حيث يقوم ألبرتو ماركينا، أحد أصدقاء سيبوليدا، بزيارته في طنجة، فيتعرض لتهمة تحرش، ويودع السجن. فيقوم صديقه عبر عملية معقدة بتتبع (السر) وراء التهمة الملفقة، لنكتشف بعداً سياسياً ومخابراتياً للعملية.

تجري الأحداث في زمنين متباعدين، إنما، وبفعل حُرْفِيّة الكاتب وحيوية الشخصيات، فإن الأحداث في الزمنين تبدو وكأنها تجري معاً وفي الوقت نفسه؛ حياة الآباء وحياة الأبناء، وما يربط الزمنين معاً هو حضور الروائي المغربي «محمد شكري» صاحب رواية «الخبز الحافي» الشهيرة في الرواية، فهو صديق «سيبوليدا» وصديق والديه أيضاً!

هنا لسنا أمام رواية فحسب، من حيث هي أحداث يقوم بها أشخاص في رقعة جغرافية ما وزمن ما، بل هي، إضافة إلى ذلك، كتاب سوسيولوجي وتاريخي وسياسي وثقافي، مشوّق ومثير على نحو يثير الدهشة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ISBN 979-12-5591-052-7



9 791255 910527

المتوسط